A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الحياة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

R
956.01
Z39tbA
v.3-5

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثالث

في العلم والادب وما كان منهما عند العرب قبل الاسلام وما أحدثه
الاسلام من التغيير في القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية
من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامي في كل ذلك

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣١

المقدمة

العلم أعظم أركان الحضارة وأقوى أسبابها والبحث في علوم الامم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين وخصوصاً في الاسلام لعلاقة العلوم الاسلامية باحوال الدول وسياستها . ولذلك كانت ابحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي اهم ابحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله لان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما انتجته عقول البشر من أول عهد المدنية الى ايامهم في العقليات والنقليات فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الامم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكان هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامى يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والادب من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام فضلا عن تاريخها فيه

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتبة من الافرنج وغيرهم ان المسلمين أو العرب قلما افادوا العلم لانهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدوا فيه شيئاً من عند انفسهم . وذهب آخرون الى أن نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وافسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب وتوالى وتنوقل الى أوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقه أو نقده احد من العرب أو المسلمين

على أن المنصفين من مستشرقي الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي افضالا على العلم اشاروا اليها باختصار. وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي اذا قرأه العربي انشرح صدره فاذا اراد تحقيقه ذهب اكثر سعيه عبثاً . ووجه التحقيق ان نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء لانها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج في هذه المواضيع مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مأثرة منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكراً في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها. اذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في العصور الوسطى وأكثرها يحتاج الى تمحيص . كرحلة بنيامين التودلي اليهودي التي وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين فى القرن الثاني عشر

للميلاد فقد ضمنها من الحوادث والاخبار ما يخالف التاريخ فضلا عما فيها من المبالغات والغرائب . كتبها الرحالة المذكور في اللغة العبرانية ثم نقلت الى اللاتينية في القرن السادس عشر والى الفرنساوية في القرن الثامن عشر والى الانكليزية في القرن التاسع عشر

ومن أمثلة ما جاء فيها انه كان في الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية وفي القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسترى في كلامنا عن تاريخ المدارس انها لم تبن بمصر الا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فاننا نرى كتابنا ينقلون هذه الاخبار على علاتها فرحا بتعداد مآثر العرب ولو نقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الماضي اذ اقترح علينا ان نذيل صفحات كتابنا هذا بالمآخذ التي تنقل عنها وقد اطعناه . واصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من مغالط المؤرخين في هذا الصدد لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية أو بقرينة لا تقل قوة عنه

على اننا لا نرى بداً من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بآدابهم او تاريخهم كحكاية الساعة التي يقولون ان هارون الرشيد اهداها الى شارلمان مثلا وكقولهم ان عرب الاندلس علموهم الرقاص . وقول الباحثين في تاريخ الكيمياء مثلا ان العرب استحضروا المركب الفلاني أو اكتشفوا المادة الفلانية . وأما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والادب وهي كثيرة وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغي لنا ان ننسى فضل جماعة المستشرقين في نشر الكتب العربية التي لولاهم لضاعت أو ظلت في زوايا الاهمال ونذكر منها على الخصوص كتاباً كثير الفائدة في هذا الموضوع نعني كتاب الفهرست لابن النديم والفضل في نشره للمستشرق غوستاف فلوغل وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلداً كاملا

فجعلنا معولنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا عليها بحثنا في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمحيص والانتقاد . واستيفاء لاسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن أفاضل الافرنج وغيرهم في الانكليزية والفرنساوية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندستانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماه

« رسائل شبلي » ذكر فيه فصولا في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكاتبهم وكتبهم ذيلها بالاسناد وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وأبحاثهم في هذا الموضوع رجعنا الى المصادر العربية فتصفحناها بامعان وتدقيق فعثرنا فيها على ما أدهشنا من ضخامة ذلك التمدن وخصوصاً في العلم والادب مما ستراه مفصلا في هذا الجزء

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى علوم العرب قبل الاسلام وعلومهم بعده . فذكرنا أولا خلاصة ما كان عند العرب الجاهلية من العلوم والآداب كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة واندية الأدب والانساب والتاريخ وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثاً فلسياً . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة أقسام : أولا العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميناها العلوم الاسلامية . ثانياً العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثاً العلوم التي نقلت من اللغات الاخرى وهي العلوم الدخيلة

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزمت بعضها بعضاً (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الاقدمين وخصوصاً مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في أسباب التمدن يظلمون العرب وانه يجب أن يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم والسبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربي وتاريخه ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية وقسمناها الى العلوم الشرعية الاسلامية أي الدينية والعلوم اللسانية أو اللغوية والعلوم التاريخية . وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير

أسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصدره والفقهاء والرأي والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبينا انها مما اقتضاه الاسلام وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلا في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصيرها وأسبابها الفلسفية . ثم أتينا الى التاريخ والجغرافية فبينا الاسباب التي دعت الى وضعهما ومزيتهما في اللسان العربي عما في سائر الالسنة

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيهما وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته وأسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء وأشعارهم

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية وتمهيداً لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن ألسنتهم وأهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا أولا تاريخ آداب اللغة اليونانية منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام وتوسعنا خصوصاً في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط فافلاطون فارسطو وتاريخ مؤلفات ارسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية في عصريها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبينا نحو ذلك في آداب الهنود والسريان باسباب متسلسلة مترابطة

ثم انتقلنا الى الكلام في العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها وأول من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل النجوم والطب عن الهند والفرس والاسباب التي حملته على نقلها ثم المهدي والرشيد . وأسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلهما . واتينا بفصل خاص عن نقله العلم في العصر العباسي وملخص تراجمهم وكلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والسامري وفيهم النقلة من اليوناني أو من الفارسي

أو الهندي أو النبطي . وفصل في السوريين ونقل العلم بينا فيه أن السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة باعتبار المواضيع والمؤلفين وبازاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية فالفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لامة من الامم فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة واشتغال الخلفاء والامراء انفسهم في العلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم . فبدأنا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق وما كان من اضطهاد الخلفاء لاصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية ومن جملتها جمعية اخوان الصفا وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني أو الفارسي أو الهندي وأنه جامع بينها كلها وأحصينا الاطباء المسلمين وتاريخ المارستانات في الاسلام . ثم نظرنا فيما ادخله المسلمون من عند انفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم أو الفلك في الاسلام وتاريخ المراصد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام وما أحدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ثم تاريخ الفنون الجميلة وأن المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكاتب عندهم وعدد ما حوته من الكتب مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأي بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكروها بما هم أهله . ونخص منهم كبار المستشرقين في أوربا ممن وصل اليهم كتابنا

المذكور فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط وكتب بعضهم التقاريظ في المجلات الافرنجية . فاستحثنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة الينا ان ندون أسماءهم في صدر هذا الجزء اقراراً بفضلهم . وهذه اسماؤهم بالترتيب الهجائي :

الاستاذ دي كويه	في ليدن
« دير نبرج	« باريس
« روزن	« بطرسبرج
« غولدتزير	« بودابست
« غويدي	« رومية
« مرجليوث	« اكسفورد

وسنغتنم فرصة أخرى لنشر ما جادت به قرائحهم في هذا الشأن . ونرجو ان يقع هذا الجزء موقع القبول لديهم

وأما الجزء الرابع من هذا الكتاب فسيصدر في السنة القادمة ان شاء الله وموضوعه طبقات الناس والآداب الاجتماعية في المملكة الاسلامية والله الموفق في كل حال

علوم العرب قبل الاسلام

تمهيد في جزيرة العرب وأهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال فلم يشتغل أهلها بالزراعة لجدب الارض . والانسان صنيعة الاقليم فنشأ العرب على ماتقتضيه البلاد الجدبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل في طلب المرعى . فغلبت البداوة على الحضارة فيهم وانصرف اكثر همهم الى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها فنشأ بينهم التنازع عليها وجرهم التنازع الى الغزو واضطرهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وانعامهم من نجع الى نجع ومن صقع الى صقع ليلا ونهاراً وجوهم صاف وسماؤهم واضحة فعولوا في الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا في مطاردة اعدائهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم فاستنبطوا قيافة الاثر والجأهم ذلك أيضاً الى توقي حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها فعنوا في التنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح

ودعاهم الغزو من الجهة الاخرى الى العصبية لتأليف الاحزاب فعمدوا الى الانساب يترابطون بها . والارتحال في الغزو ونحوه يقتضي العناية بالسلاح والخيل ولو كانوا أهل حضارة لاتقنوا صنع السلاح وأما الخيل فبرعوا في تربيتها وانتقائها ومعالجة امراضها

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم فهم أهل ذكاء وتعقل لو سكنوا وادى الفرات أو وادي النيل لكان منهم ماكان من أولئك أو ماكان من جيرانهم النبابعة ولكنهم أقاموا في بادية صفاجوها واشرقت سماؤها فصفت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر يصفون به وقائعهم أو يبينون به انسابهم أو يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة فبرعوا في القاء الخطب يستنهضون بها الهمم أو يدعون الى الحرب أو السلم أو للمفاخرة أو المنافرة . ولولا مافي فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم اكثر مما ظهر من جيرانهم في العدوة الغربية من البحر الاحمر فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه منذ قرون . وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان في عصر هوميروس فلما تمدن العرب أتوا بمثل ما أتى به أولئك

على أن العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الامم العظمى من اعتقاد الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا مما ينجم عن جهل الاسباب مع رغبة الناس في تعليل الحوادث ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع أهله . وقد سميناها علوماً بالقياس على مايماثلها عند الامم الاخرى في عصر العلم والا فالعرب لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوها في الصحف ولا ألفوا فيها الكتب لانهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون وانما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الاجيال بالاقتباس والاستنباط وتنوقلت في الاعقاب وهي تنمو وتتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علماً بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات أو الادبيات أو الكهانة أو ما يتعلق بذلك ولو أردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار

واذا أمعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصاً بالعرب وقد نشأ عندهم والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الامم الاخرى ـ فالعلوم العربية الانساب والشعر والخطابة . والدخيلة النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما سترى فيما يلي :

١ — علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم وهم وضعوا أساساته ورفعوا اعمدته ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الخسوف والكسوف بآلات فلكية منذ بضعة واربعين قرناً وعنهم أخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم

*وما زال الكلدان أو البابليون أهل دولة وسلطان الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئاً في ادابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة ودينا فلما كان القرن الخامس (ق ب) سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم واستبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم فثقل ذلك عليهم وضاقت الارض بهم فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصاً بلاد العرب لانها كانت حمى المهاجرين من العراق ومصر والشام لامتناعها على الجنود بالصحاري الرمضاء ولسهولة الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكامها وأخذوا عنهم أسماءها وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس وربما كان لهم علم بشيء من أحكامها من عند أنفسهم أو مما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها . ولكن يقال بالاجمال ان العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة ـ والصابئة ان لم يكونوا الكلدان أنفسهم فهم خلفاؤهم أو تلامذتهم[1] وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ولهم مثل منزلة النصارى أو اليهود. فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته وأسمائه وان كان معظم أسماء السيارات لا يرد الى أصله الكلداني فربما كان له أسباب عارضة ضاعت أخبارها

على ان بعضها لا يزال أصله الكلداني ظاهراً فيه كالمريخ مثلا فانها تقابل «مرداخ» الكلدانية لفظاً ومعنى. ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية. فان «زحل» معناه في العربية الارتفاع والعلو وهي نفس دلالة «كاون» اسم هذا السيار في الكلدانية. واما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظا ومعنى ـ واليك أسماء الابراج عند كليهما

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماسانا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء أو التوأمين	تامي	القوس أو الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اربا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

وأما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض أسمائها كما أصاب السيارات. ولكن العبرة بالاكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً حتى لفظ «منازل القمر» و«منازل الشمس» فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل وقد أبدلته الامم الاخرى التي أخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر الا العرب واليهود

(١) مختصر الدول ٢٢٦

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة فقد رأيت انهم عرفوا السيارات والابراج وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم الاخرى[١] وفي قدم اسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها مثل بنات نعش الكبرى والصغرى والسها والظباء والربع والرابض والعوائذ والذئبين والنثرة والفرقد والقدر والراعي وكلب الراعي والاغنام والرامح والسماك وعصا الضياع وأولاد الضياع والسماك الرامح وحارس السماء والاظفار والفوارس والكف المخضب والخباء والعيوق والعنز والجديين وغيرها

أما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسما خلافاً لما كان عند الهنود فانها ٢٧ قسما عندهم . وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك اذ كان مرادهم منها معرفة أحوال الهواء فى الازمنة وحوادث الجو في فصول السنة لانهم كانوا أميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشيء يعاين فعلموا عليها بالكواكب كما سترى في الكلام على الانواء واليك أسماء منازل القمر في العربية وهي ٢٨

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الاخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين لاسباب تتعلق باقليمهم وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم وفي جملة المتعصبين ابن قتيبة فقد قال في كتابه تفضيل العرب على العجم ان العرب أعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها[١] ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة فاننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم

ولاغرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها فانها كانت دليلهم في أسفارهم واكثر

(١) القزويني على هامش الدميري ٥٠ ج ١ (٢) البيروني ٢٣٨

احوالهم فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي الى البلد الفلاني قالوا «عليك بنجم كذا وكذا» فيسير في جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك ايضا بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن امثلة ذلك أن سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي ان يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه فتوافقا وتعاهدا أن لا يتكاذبا فقال قيس بن المكشوح « خذ بين مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة فاذا انقطعت المياه فسر اربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق فانك ترد على قومى مراد وخثعم » فقال السليك «خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من افق السماء ثم منازل قومى بني سعد بن زيد مناة » واشتهر في جاهلية العرب في اتقان النجوم جماعة منهم بنو مارية بن كلب وبنو مرة بن همام الشيباني [1]

٢ - الانواء ومهاب الرياح

ويراد بالانواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتعلق بالمطر والرياح ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب أو غروبها ولذلك كان علم الانواء فرعا من علم النجوم وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها أي نهوضها وسموا تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءاً ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التي تليها ثلاثة عشر يوماً سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يوما ومن اقوالهم في ذلك :

والدهر فاعلم كله ارباع ... لكل ربع واحد اسباع
وكل سبع لطلوع كوكب ... ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع ... الى طلوع ما يليه اربع
من الليالي ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها فزعم بعضهم أن كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى طلوع التي تتلوها فهو منسوب اليها وزعم آخرون ان لطلوع كل واحدة وسقوطها مقداراً من الزمن ينسب اليها يكون فيه فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الازمنة قالوا خوى النجم أو خوت المنزلة يعنون بذلك

(١) البيروني ١ : ٣٤١

مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر أو حر أو برد أو ريح[١] ومن أمثالهم « أخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها[٢]

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت فيقولون مثلا مطرنا بنوء المجرة أو هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى . وقالوا إن النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الشرق من انجم المنازل ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءا أو نجما كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفي أشعارهم امثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو أو فصول السنة باقترانات الكواكب أو طلوعها وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم ـ من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا ثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما البدر ثم مع الثريا أتاك البرد أوله الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما قارن الدبران يوما لاربع عشرة قمر التمام
فقد حف الشتاء بكل ارض فوارس مؤذنات باحتدام
وحلق في السماء البدر حتى يقلص ظل اعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً ويصفو الجو من كدر الغمام

وقول الآخر :

اذا ما هلال الشهر أول ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم
اتتك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كور العمائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام باهله واصبحت العواء للشمس منزلا[٣]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب أو منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان[٤] على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر أيضاً بالوان الغيوم واشكالها فاقل

(١) البيرونى ٣٣٩ (٢) الميداني ٢٠٢ ج ١ (٣) البيروني ٣٣٦
(٤) Rawlinson's Ancient Monarchies III. 425

الغيوم مطراً عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ومن أقوالهم «السحابة البيضاء جفل والحمراء عارض والسوداء هطلة »(١)

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر أربعة فاصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق ويزيد عليها اصحاب القول الاول :النكباء بجانب الشمال والمحوة بجانب الجنوب واليك قول ذي الرمة في ذلك

اهاضيب انواء وهيفان جرّتا على الدار أعراف الجبال الاعافر
وثالثة تهوي من الشام حرجف لها سنن فوق الحصى بالاعاصر
ورابعة من مطلع الشمس اجفلت عليها بدقعاء المعا فقراقر
تحثها النكب السوافي فاكثرت حنين اللقاح القاريات العواشر(٢)

٣ — الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم ايضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الآلهة عندهم من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك من حوادث البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان . فالعرب ألهوا الاجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل الينا من اسماء اصنامهم وعبادة بعض رجالهم. فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى وكانوا يتناظرون في افضلية بعضها على بعض قالوا « وابو كبشة أول من عبد الشعرى وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضاً ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » (٣)

أما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب. ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا وأراد القمر ان يزوجه فابت عليه وولت عنه وقالت للقمر ماأصنع بهذا السبروت الذي لامال له فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص.

(١) الميداني ١٠٩ ج ١ (٢) البيروني ٣٤٠ (٣) الخميس ٦٥ ج ١

وان الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به تريده . وأن سهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وان الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة فسميت الشعرى العبور فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عيناها فسميت الشعرى الغميصاء [1]

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك أو القواد أو الاسلاف واعتبار البعض الاخر من نتاج الملائكة أو الجان . فعندهم مثلا أن بلقيس كانت أمها جنية وأن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية وأبوه من الملائكة [2] وأما اصل هذه الاعتقادات فاما هندي أو يوناني أو مصري أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك

٤ ـ الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على أن العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ويتقاضون اليه في خصوماتهم ويستطبونه في امراضهم ويستفتونه فيما أشكل عليهم ويستفسرون منه رؤاهم ويستنبئونه عن مستقبلهم . وبالجملة فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » أو « حزاء » وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقي الناظر أو الرائي أو البصير وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وأما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد وقد أخذ عنهم العرب كثيراً من الاداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا

وأما الكهانة فاصلها من عند الكلدان ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون أنفسهم فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم ويؤيد ذلك ان

(١) الميداني ٣١٢ ج ٢ (٢) الدميري ١٨ ج ٢

العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم [١] على ان أهل بابل ما زالوا يتواردون الى بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة. واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد احتلال الارواح في الاصنام واباحتها أسرار الطبيعة للكهان والسدنة فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (أي الارواح) وتخاطب الكهان وان الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن أقوالهم « الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب»

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب فاذا استطبه مريض من ريح أو صداع عالجه بالرقى واذا استشاره في معضلة خط له في الرمل أو نفث في العقد . واذا حكم متخاصمان رمى لهما بالقداح واذا استطلعه سرقة أخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ونحو ذلك من الحركات الوهمية واذا استفسره برؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب

قلنا ان الكهانة أتت العرب من بين النهرين فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (او صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ثم ما لبث العرب انفسهم أن أخذوا ذلك عنهم فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط وبعضهم تعبير الرؤيا أو القيافة أو القضاء

﴿الكهان﴾ واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن أقدمهم شق وسطيح وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الاول كان شق انسان (أي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون الى غير ذلك من الاوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من البلاد أو القبائل كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم

(١) السيرة الحلبية ٤٨ ج ١

ويقال نحو ذلك في العرافين واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم كعراف هذيل وعراف نجد واشهرهم عراف اليمامة شهره عروة بن حزام ببيت قاله فيه ـ وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم ـ وهو قوله :

أقول لعراف اليمامة داوني فانك ان داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فانهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي أقدمهن واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم . وزبراء بين الشحر وحضرموت وسلمى الهمدانية الحميرية وعفيراء الحميرية وفاطمة الخثعمية بمكة وزرقاء اليمامة وغيرهن وينسبن الى القبيلة او المدينة ككاهنة بني سعد يزعمون انها أقدم عهداً من شق وسطيح وانها استخلفتهما[١] وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في ابطالها وهو «لا كهانة بعد النبوة»[٢]

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصي يعرف بسجع الكهان مع تعقيد وغموض. ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الايام حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن. ومن أمثلة سجع الكهان مايروونه عن طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر فانها قالت لهم «لا تؤموا مكة حتى أقول وما علمني ما أقول الا الحكم المحكم رب جميع الامم من عرب وعجم» قالوا لها «ما شأنك يا طريفة» قالت «خذوا البعير الشذقم فخضبوه بالدم تكن لكم أرض جرهم جيران بيته المحرم»[٣]

﴿القيافة﴾ ومن قبيل الكهانة أيضاً القيافة لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان وهي قسمان قيافة الاثر وقيافة البشر . والاولى تختص بتتبع آثار الاقدام أو الحوافر أو الاخفاف والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفار من الناس أو الضال من الحيوان وقد أتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما وهي من قبيل الفراسة

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢ .
(٣) الاغاني ١١٠ ج ١٣

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر. واشهر العرب بقيافة الاثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هـذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بها حتى لقد يعرف احدهم الانسان من اثره وربما نظر الى اثر بعير فقال هذا بعير فلان وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني

والفراسة كانت شائعة في العرب وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان وأشكاله والوانه واقواله على اخلاقه ومناقبه وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا وكان معروفا عند العرب وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام على أن كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها اشهرهم أبو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل وقد اغضينا عنهما لضيق المقام

٥ ـ الطب فى الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع اساسها الكلدان كهنة بابل وهم أول من بحث في علاج الامراض فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق حتى اذا مر بهم احد اصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب وهو متشابه عند تلك الامم في مصر وفينيقية وأشور .ثم تناوله اليونان فاتقنوه ورتبوا ابوابه وعنهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ماجاءهم به الكلدان والى ما استنبطوه من عنـد انفسهم بالاختبار فتألف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب في الجاهلية ولا يزال كثير منه باقيـاً الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان الاولى طريقة الكهان والعرافين والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم أو بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيهـا أو بالتعازيم أو نحو ذلك

وكان التطبيب بالرقى شائعاً في الامم القديمة كلها وقد وجدوا في الآثار المصرية

(١) السيرة الحلبية ٢٩١ ج ١

كثيرا من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية وهم يعالجون بالاثنين جميعاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة أو الرقى الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع ولهم عبارات يقولونها عند صنع الادوية وعند مناولتها للمريض . فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من اخيه ست حينما قتل اباه أوزيريس فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبيثة بانواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس ... »(١) وكان عندهم عزائم لاخراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاخراج الجان والشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمار يزعمون ان ذلك يمنعهم من الوباء وان دماء الملوك تشفي من الخبل

واما معالجاتهم العقارية فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الامم القديمة فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل فانه كان قاعدة العلاج في أمراض البطن ـ على أن اعتمادهم في معالجة الامراض كان معظمه عائدا الى الجراحة كالحجامة والكي ومن اقوالهم « كل داء حسم بالكي آخر الامر وآخر الطب الكي » وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع أو البتر والغالب أن يكون ذلك بالنار فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا . فاذا ارادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على اثر طعنة فاحموا له شفرة وقطعوها (٢)

وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانه ويزعمون ان العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعدها اليوم خرافة ان المجروح اذا شرب الماء مات (٣) واذا حافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماء حاراً (٤)

---

(١) بغية الطالبين ٢٥٨ (٢) الاغاني ١٣٧ ج ١٣

(٣) الاغاني ١٣١ ج ١٤ (٤) الاغاني ٣٢ ج ١٠

﴿ الاطباء ﴾ وأما الاطباء فقد كانوا في أول الامر من الكهنة ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس وأخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة واكثرهم من أهل النهضة الاخيرة قبل الاسلام حوالى القرن السادس للميلاد على أن بعضهم اقدم من ذلك كثيراً وأقدم اطبائها لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم وفي أصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون به المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك اطب من ابن حذيم وفيه يقول اوس بن حجر :

فهل لكم فيها الي فانني بصير بما أعيي النطاسي حذيما

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة وهو من بني ثقيف من أهل الطائف رحل الى أرض فارس وأخذ الطب من جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة واسعة وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كان به علة ان يأتيه فيستوصفه ـ ومنهم ابن أبي رومية التميمي والنضر بن الحرث بن كلدة

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس أو الروم وبعضهم أخذه عن الكهان أو الاحبار من الاديار ونحوها . وربما أخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور. والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح واشهر جراحي الجاهلية ابن أبي رومية التميمي فقد كان جراحاً مزاولا لاعمال اليد[1]

ونظراً لعناية العرب بخيولهم وابلهم كان بعض الاطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل[2]

٦ ـ الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون وهو تعريف النظم وليس تعريف الشعر. لان النظم غير الشعر اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم وقد يكون ناظما وليس في نظمه شعرٌ ـ وان كان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعاً في النفس . فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر . واما الشعر باعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه لما ينطوي تحته من اساليب التعبير وما يؤثره في النفس مما لا يستطيع تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما اننا نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده أو نستنتجه من أعمال

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١ (٢) المعارف لابن قتيبة ١٩٤

الحياة بالقياس أو البرهان وأما الشعر فتعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لغة العقل » والشعر « لغة النفس أو القلب » وقال بعضهم « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة »

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه أمة من أمم العالم قديماً ولاحديثاً وهو مرآة آداب الناس وصحيفة اخلاقهم وديوان اخبارهم ومصحف أديانهم . لان الانسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل أن ارتقى عقله وتهذبت مداركه فتكلم بالشعر قبل أن تكلم في العلم ولذلك كان اقدم أخبار الناس من قبيل الخيال وأقدم المحفوظ من مدونات الامم كتب الشعر وقد دونوا فيها شعائرهم الدينية والادبيـة أو الحماسية أو غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فالمهابهاراتة والرامايانة عند اليهود والالياذة والاوديسية عند اليونان والانياذة عند الرومان وبعض أسفار التوراة عند اليهود والشهنامة عند الفرس انما هي شعر حفظت فيها عادات تلك الامم وأخلاقهم وأخبارهم وخصوصاً من حيث العبادة والآلهة . وذلك طبيعي لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها لا تقدم على ذلك برهاناً ولا تطلب دليلا . والدين اكثر اعمالها حاجة الى التسليم والطواف في عالم الخيال

﴿ الشعر العبراني ﴾ والشعوب الساميـة اكثر الامم اعراقاً في عالم الخيال ولذلك كانوا أميل الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بمالا يقع تحت الحواس ولهذا السبب أيضاً كانوا أقرب الناس طبعاً الى التصورات الشعرية وترى ذلك واضحاً فيما خلفوه من الآثار الشعرية . وأقدم آثار الساميين من هـذا القبيل التوراة وقد وجدوا التصورات الشعرية في أقدم اسفارها . فما كلام لامك لامرأتيه عادة وصلة في سفر التكوين (ص ٢٣٥٤) الا جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه الا مطلعه وفي أصله العبراني ما يدل على أنه شعر موزون ومقفى . فهو أقدم منظومات العبرانيين بل أقدم الشعر المقفى في العالم على الاطلاق

وفي التوراة أمثلة كثيرة من التصور الشعري كقول يشوع لموسى لما سمع جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ : ١٧) « صوت حرب في المحلة » فقال موسى « ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء أنا سامع » والمظنون أن هذه الفقرة بيت قديم تمثل به موسى في تلك الحال وقس عليه

وهناك اسفار كلها شعر كسفر ايوب ويقال ان أصله عربي وسفر اشعيا ومزامير داود وغيرها مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبراني اسمى درجاته في أيام سليمان الحكيم لاستتباب الامن وسعة الملك ورخاء العيش وهو العصر الذهبي عندالهود مثل

عصر المأمون عند العرب . وكان سليمان نفسه حكيما وشاعرا كما كان المأمون ايضاً

﴿الشعر العربي﴾ والعرب كالعبرانيين في استعدادهم الفطري لقرض الشعر والاستغراق في عالم الخيال لانهم ساميون مثلهم واللغة العربية اكثر استعداداً للتعبير الشعري من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد واساليب المعاني والبيان . واذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب أولى بالتصور الشعري من اليهود نظراً لانطلاقهم في الصحاري واستقلالهم في احكامهم وأفكارهم وسائر أحوالهم . ولذلك كان شعرهم اكثره من قبيل الحماسة والفروسية ، وأما اليهود فالذل والانكسار والتدين هي الصفات المميزة لاشعارهم

على أن الغالب فى الشعر ان يكون منظوما وان اختلفت الامم في كيفية نظمه فاكتفى بعضهم ان يكون موزونا غير مقفى والبعض الآخر مقفى غير موزون أو مقفى وموزون معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقفية والا فهو ليس من قبيل الشعر عندهم خلافا لما هو عند اخوانهم السريان والعبران . فقد كان السريانيون القدماء ينظمون بلا قافية أي بلا التزام قافية واحدة كافرام السرياني واسحق الانطاكي وغيرهما (١) والعبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك وربما اشترطوا القافية دون الوزن — ولذلك لما سمعوا آيات القرآن بما فيها من التصور الشعري الديني مع التزام القافية قالوا هذا شعر بالقياس على الشعر فى لسانهم

ولا ريب أن للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعري تأثيرا في النفس لا انها هي تجعله شعراً. فالخطابة تؤثر في النفوس وتهيج العواطف وكلامها غير موزون ولامقفى وهي من قبيل التصورات الشعرية وسيأتي الكلام عليها

﴿كيف توصلوا للنظم﴾ فالتصورات الشعرية فطرية في العرب أما النظم فحادث عندهم . وربما صاغوا الشعر أولا بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الامثال الحكمية ونحوها . والظاهر انهم قضوا اجيالا والنظم عندهم على سبيل الامثال حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل انه جعله شطرين مسجوعين في مثل واحد أو مثلين متآلفين فرأى في ذلك رنة فترنم به واخذه عنه الناس وجعلوا يتغنونه في حدوهم وانشادهم وراء ابلهم ـ والغناء لسان طبيعي ـ فاعجبتهم رنة القافية والوزن فزادوا شطراً أو شطرين أو أكثر على قافية واحدة وهو الرجز في أبسط أحواله . وظلوا دهراً طويلا يقول شاعرهم من الرجز البيتين أو الثلاثة اذا هاجت فيه قريحة الشعر

(١) شعراء السريان ١

لمفاخرة أو مشاتمة أو منافرة وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة ادخل في النظم تحسيناً . وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والاغلب العجلي (١) ولم يعينوا زمنه

اما القصيد فاشهر من اطلق سراحه امرؤ القيس امام الشعراء وجده المهلهل من أهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون انه أول من قصد القصائد وامرؤ القيس أول من اطالها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسياح والظباء (٢) ورقة النسيب وغير ذلك ، ولعله تنبه لهذا التفنن في أثناء اسفاره في بلاد الروم فسمع اشعارهم أو أشعار اليونان والنبيه تتفتق قريحته بالاختلاط فزاد اختباره فادخل في الشعر ما أدخله . وكان الشعراء الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم وانما كانوا يقفون على الحدود في البلقاء عند بني غسان أو في الحيرة عند بني لخم المناذرة الا قليلا

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لانهم ساميون اهل خيال من فطرتهم (٢) لانهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لان شؤونهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الاذهان ويستحث البداثه (٤) لان لغتهم تساعدهم على النظم . والعرب أمة قديمة ولذلك وجب ان تنظم الشعر من قديم الزمان والحال ان اقدم ما وصل الينا من أشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟ والغالب في اعتقادنا انهم نظموا كما نظم العبرانيون ولا يبعد ان يكون سفر ايوب من بقايا شعرهم القديم وقد حفظ فى العبرانية وضاع اصله العربي . ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب لجهلهم الكتابة ولانقطاعهم عن الامم التى كانت تعرفها في ذلك العهد

﴿ كثرة شعر العرب ﴾ على اننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمه العرب باعتبار ما وصل الينا من أشعارهم في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام (٣) فقد نظموا في قرن واحد أو قرنين ما لم يجتمع عند امم العالم المتمدن في عدة قرون وخصوصاً في العصر الجاهلي فالياذة هوميروس واوذيسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتهما على ٣٠٫٠٠٠ بيت وكذلك مها بهاراتة الهنود ٢٠٫٠٠٠ بيت وراماياتهم ٤٨٫٠٠٠ بيت (٤) وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من اخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف أضعاف ذلك . فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالابيات فقد ذكروا ان أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من

(١) المزهر ٢٤٣ ج ٢ (٢) الشعر والشعراء ٥٢

(٣) تاريخ التمدن الاسلامى ٢٢ ج ١ (٤) Litt. Hist. of India 213

أشعار العرب (الجاهلية) ٠٠٠ر١٤ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع [١] وكان حماد الراوية يحفظ ٠٠٠ر٢٧ قصيدة [٢] على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ٠٠٠ر١٦ ارجوزة [٣] وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو [٤] ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا ان ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام انما هو بعض أشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الاشعار ـ قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » [٥]

وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وأبدعوا فيه وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على النظم وانما اندفعوا اليه بفطرتهم. ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم كما حدث للرومانيين فان الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون .ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في أيام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم أخذ في التقهقر. ويقال نحو ذلك في دول اوربا الحالية فان الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والادب

﴿ أقسام الشعر ﴾ والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين كبيرين الاول ما يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه . والثاني ما يصف به أحوال الآخرين والاول هو الذي يسميه الافرنج Lyric أي الغنائي أو الموسيقي من Lyre العود ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام. أو ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالامثال والحكم ونحوها. والثاني يشمل سائر ضروب الشعر ويدخل فيه الشعر القصصي الذي يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعراً ، والشعر الوصفي والتمثيلي Drama . فاشعار الامم السامية أكثرها من النوع الاول وخصوصاً العبرانيون فانهم أرثى أهل الارض

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١
(٤) الشعر والشعراء ٤ (٥) المزهر ٢٣٧ ج ٢

وأبكاهم وأشكاهم . فالمزامير والمراثي ونحوها من قبيل العواطف . والامثال والجامعة من الحكم . ويقال بالاجمال ان الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الديني كالتعبد والشكوى والاستسلام

ويقال نحو ذلك في العرب غير ان الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه أحوالهم من المفاخرة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عدوا من أشعارهم بضعة عشر نوعا معظمها من قبيل الشعر الموسيقي الذي يعبر به عن العواطف كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات وبعضها من قبيل العظة كالادب والحكم.ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر أو عواطف قبيلته

— وأما الشعر الوصفي أو القصصي فلا نقول انه معدوم في العربية ولكنه قليل وخصوصاً في الجاهلية واكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الادوات أو الحيوانات أو بعض الوقائع القصيرة . وأما الشعر القصصي على نحو ما في الياذة هوميروس أو شاهنامة الفردوسي فلا وجود له عندهم.ولا يدل ذلك على انهم لم ينظموا مثلها بل يغلب على ظننا انهم نظموا كثيراً من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ونظراً لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم الا قطعاً بقيت الى زمن تدوين الشعر في الاسلام تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب والمقام لا يساعدنا على زيادة البحث

وكان الشعر فطريا في العرب يندر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين واللصوص[1] ناهيك بالنساء فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع في المجالس العمومية لسماعه أو مناشدته.وكثيراً ما كانت النساء يعقدن المجالس لمناشدة الاشعار وذكر الشعراء ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض[2] وكان أكثرهم ينظمون الشعر وهم أطفال لم ينظروا في الادب أو الشعر[3] فمن شب ولم تتفتق قريحته عدوا ذلك نقصاً فيه وعياً على أهله

﴿منزلة الشعر﴾ فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمه . لان الشعراء كانوا حماة الاعراض وحفظة الآثار ونقلة الاخبار وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل

(١) البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢ (٢) الاغاني ١٥٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢٣ ج ٢

الاخرى فهنأتها به وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة لذكرهم[١] وفي الواقع ان مابقي لنا من أخبار العرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم واخلاقهم انما هو منقول عن اشعارهم

فمن شعرهم استخرج الناس اخبار أيامهم وحروبهم . ومنه الف السجستاني كتاب المعمرين . ومنه استخرجوا أحوال الشعراء المتقدمين وألفوا الكتب كابن قتيبة وغيره. ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والاودية والوهاد. ومنه ألفوا ماألفوه في الحيوان والنبات ككتاب الحيوان للجاحظ والنبات لابي حنيفة الدينوري . ومن اشعارهم استطلعوا اديانهم في أيام جاهليتهم وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والاعراس والمآتم وغيرها

وقد ذكروا شعراء حموا أعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم كما حمى زياد الاعجم قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق وكما حمى عتبة بن ربيعة بني قصي وغيرهما كثيرون[٢]

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا إلى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي (النيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في استار الكعبة وهي المعلقات ولذلك يقال لها المذهبات أيضاً كمذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير[٣] وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة أشعار الجاهلية ٤٩ قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً تقسم الى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات . وهي مجموعة في كتاب جمهرة أشعار العرب لابي زيد الانصاري

﴿ تأثير الشعر ﴾ أما تأثير الشعر في حماية الاعراض فسببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما أقامهم البيت الواحد واقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم حتى عمر بن الخطاب فانه كان اذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره أن يتعرض للشعراء واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره[٤] وقد اشترى اعراض المسلمين من الحطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه[٥] وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظاً في الاعقاب أنهم اذا اسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق . وربما شدوا لسانه بنسعة

(١) المزهر ٢٣٦ ج ٢ (٢) بلوغ الارب ٩١ ج ٣ (٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣
(٤) البيان والتبيين ٩٧ ج ١ (٥) فوات الوفيات ٩٩ ج ١

لئلا يهجوهم كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المحاربي حين اسره بنو تيم يوم الكلاب وهو الذي يقول :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة امعشر تيم اطلقوا من لساني
وتضحك مني شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلي اسيراً يمانيا(١)

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في أن يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته واذا كانت له بنات تزوجن كما فعل الاعشى الاكبر بالمحلق اذ مدحه الاعشى بقصيدة انشدها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انفاق الحمر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار أسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا أردت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس بلبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر(٢) وسيأتي باقي الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامي

﴿ ألقاب الشعراء ﴾ وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض أشعاره . فعوف ابن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الاديم قلم

وجرير بن عبد المسيح الضبعي لقب بالمتلمس لقوله

فهذا أوان العرض حتى ذبابه زنابيره والازرق المتلمس

وزياد بن معاوية الذبياني لقب بالنابغة لقوله

وحلت في بني القين بن جسر وقد نبغت لنا منهم شؤون

ويقال نحو ذلك في سائر القابهم كالمخرق وافنون وتأبط شراً وأعصر والمستوعر والاعسر وطرفة وذي الرمة والمزرد وعويق وجران العود والعجاج وموسى الشهوات والرقيات وصريع الغواني وغبار العسكر ومقبل الريح وغيرهم(٣)

وكانت قبائل العرب تتفاوت في شاعريتها وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمر بن قميئة والحارث بن حلزة والمتلمس والاعشى

(١) البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٤٤٦ ج ١
(٣) لطائف المعارف ١٧

والمسيب ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم النابغتان وزهير بن أبي سلمى وربيعة ولبيد والحطيئة والشماخ وغيرهم . ثم استقر الشعر في تميم ومنهم اوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هـذيل وغيرها وكان في حمير جماعة من الشعراء [1] ومن الغريب ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء الا الشعر فانها كانت لا تقر لها به [2] والظاهر ان اختلاط العرب بالاعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على النظم ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق وأشعرهم من اختلط بالفرس وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم

وبالجملة فقد كان الشعر شائعاً في العرب ولم تخل قبيلة من شاعر أو غير شاعر يحمي ذمارها ويصف عواطفها وكان الشعر عندهم مستودع الاخبار وخزانة الآداب والاخلاق ولذلك قيل الشعر ديوان العرب . ومن قبيل الشعر الامثال فانها مرآة العادات والاخلاق والآداب واستخرج الناس كثيراً من آداب العرب الجاهلية من أمثالها

٧ — الخطابة فى الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعر أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم وان كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الابية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لان كليهما أهل شعر وخطابة وأهل اباء واستقلال. ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم

أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري فاصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة قد تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا ويتنافروا فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الاحزاب وان غلب في مواضيع خطبهم المفاخرة بالاحساب والآداب في المجالس والاندية العمومية

(١) بلوغ الارب ٩٣ ج ٣ (٢) الاغاني ٣٥ ج ١

والخصوصية . وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف في أيديهم المخاصر ويعتمدون على الارض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم [١] . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة ان الغالب في الشعراء أن يخطبوا والخطباء أن ينظموا فيكون الواحد شاعراً وخطيباً فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً أو الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر القبائل ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة [٢] ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احتكاك الافكار عند الاختلاط بالاعاجم ولهذا السبب كثر الخطباء أيضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب

﴿ مواضيع الخطب ﴾ وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم [٣] لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن ألسنة

أما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلائق أو للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة وخصوصاً كسرى أنو شروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه أن يريه واحداً منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين أو ثلاثة هم بالحقيقة حكماؤهم ووجهاؤهم ومنهم أكثم ابن صيفي وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم والحرث بن ظالم وقيس بن مسعود من قبيلة بكر وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم .

(١) البيان والتبيين ٢٠ ج ٢ (٢) البيان ٤٢ و ١٣٩ ج ١
(٣) البيان ٥٨ و ٩٨ ج ١

فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلا في الجزء الثالث من العقد الفريد

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل ابو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان ابن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة وفدواعليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد أن استتب له الامر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام أو للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة كوفود جبلة ابن الايهم وعمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه

﴿الخطباء﴾ وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم ان يكونوا امراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب أو غير خطيب كما كان لها شاعر أو غير شاعر . واشهر خطباء الجاهلية قس ابن ساعدة من بني اياد ادركه النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول في خطابه « ايها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت » (١)

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال «هو اخطب من سحبان وائل « وكان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير كدويد بن زيد وزهير بن خباب ومرثد الخير وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي وقيس بن زهير العبسي والربيع بن ضبيع الفزاري وذو الاصبع العدواني واكثم بن صيفي التميمي وعمرو بن كلثوم التغلبي وكثيرين غيرهم

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ الرقيقة المعاني المألوفة . وكانت خطبهم على ضربين الطوال والقصار ، والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها .

(١) البيان والتبيين ١١٩ ج ١

وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة كالعجوز اسم خطبة لآل رقية والعذراء خطبة قيس بن خارجة والشوهاء خطبة سحبان وائل (١)

٨ - مجالس الادب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والمسامرة أو البحث في بعض الشؤون العامة وكانوا يسمون تلك المجالس الاندية ومنها نادي قريش ودار الندوة كانت بجوار الكعبة . على انهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة وخصوصاً في المواسم المعبر عنها بالاسواق

﴿ الاسواق ﴾ والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد أو القرى في أوقات معينة يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولازال امثال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى أو في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث. على أن في بعض المدن الكبرى كالقاهرة مثلا اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها كسوق السبت أو السبتية وسوق الثلاثاء أو الاربعاء . فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ومنها ما لا ينعقد الا مرة في الشهر أو في السنة ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقا يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠ر٠٠٠ نفس. ويقيمون في ذلك المكان حجاً مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحاجين اليه نحو مليون نفس وهو اكبر أسواق العالم : وامثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العلية وفي جرمانيا وفرنسا وانكلترا واميركا . ففي روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢ر٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي أوربا ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع في أسواق روسيا بنحو ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل في العام وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى

وقد كان كثير من امثال هذه الاسواق في العالم القديم . لكن الاقدام لا تتزاحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينياً . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها فتقام الاسواق لهذه الغاية - كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية

(١) البيان ١٣٣ ج ١

﴿اسواق العرب﴾ كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها فكانوا ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد أول يوم من شهر ربيع الاول فيقيمون أسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهراً ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم وكانت لهم أسواق أخر في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها (١)

﴿سوق عكاظ﴾ وأشهر أسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة. فكانت العرب اذا قصدت الحج أقامت بهذه السوق من أول ذي القعدة يبيعون ويشترون الى عشرين منه ثم يتوجهون إلى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى أوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بامر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم. ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم . أو أراد أحد ان يعمل عملا تعرفه العرب أو يستشهدها فيه عمله في عكاظ (٢) أو أراد أن يفاخر أحداً على مشهد من الناس فاخره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب - ذكروا ان الخنساء لما أصيبت بصخر المشهور أعلنت انها أكبر العرب مصيبة فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد انها أكبر مصيبة منها فأمرت بهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت «اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا فلما دنت منها قالت لها الخنساء «من أنت يا أخية» قالت «أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة وقد بلغني انك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم؟» فقالت الخنساء «بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمر وبم تعاظمينهم أنت؟» قالت «بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد » قالت الخنساء «أو سواءهم عندك ؟ » ثم أنشدت تقول :

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة ... قليل اذا نام الخلي هجودها
وصنوي لا أنسى معاوية الذي ... له من سراة الحرتين وفودها

(١) نهاية الارب (خط) (٢) الاغاني ٢ ج ١٣

وصخراً ومن ذا مثل صخر اذا غدا بسلهبة الابطال قبا يقودها
فـذلك يا هنـد الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكي عميد الابطحين كليهما وحاميها من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمي عديدها [1]

فاذا كانت هـذه حالهم في المفاخرة بالمصـائب فكيف بالانساب والاحساب والشجاعة والفضل ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لا محل لذكرها هنا

وانما يهمنا في هـذا المقام ان العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من أدم وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها [2] ليحكم فيها ويقال انهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هناك أو في الكعبة ومنها المعلقات السبع

وشأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان القدماء في الجناسيوم وهي أبنية كانوا يجتمعون فيها للالعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون كما كان يفعل العرب في عكاظ . ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحداث القرائح فضلا عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها . فان قريشاً كانوا يسمعون لغات القبائل في أثناء تلك الاجتماعات فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفحفحة والوكم والوهم والعجعجة والاستطاء والشنشنة وغير ذلك من العيوب في لغات الامم الاخرى [3]

٩ — الانساب في الجاهلية

﴿ الانساب ﴾ كان للانساب في عصور الجاهلية عند الامم القديمة شأن كبير وكان للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الاعداء أو التفاخر بالآباء وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض

(١) الاغاني ٣٥ ج ٤ (٢) الشعر والشعراء ١٩٧ (٣) المزهر ١٠٩ ج ١

ثم نسبوا أنفسهم اليها فلم يكن في جاهليـة اليونان أسرة كبيرة من الاشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الاشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون . وكذلك كان الرومان في أقدم أجيالهم فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الاولين والانبياء وافتخارهم بذلك على سائر الامم. وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان أنهم يرجعون جميعاً الى أب واحد ـ وهذا أيضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الامم السامية

﴿ نسب العرب ﴾ والعرب من حيث انسابهم فرع من العبران لان العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الاولين الى اسماعيل بن ابراهيم والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر وقد زادت عناية العرب في الانساب رغبة في التناصر على الغرباء أو بعضهم على بعض . وقد رتبت انساب العرب في ست مراتب أو طبقات ، أولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة . فالشعب النسب الابعد مثل عدنان وقحطان ، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ، ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1]

وبالغ العرب في الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا باسماء المدن الى اسماء بعض أجدادهم والغالب أن ينتهي النسب باحد آباء النوراة فاذا سئل أحدهم مثلا عن الاندلس من بناها قال « بناها اندلس بن يافث بن نوح »[2] وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً فاذا عرض لهم رجل فقال أنا من بني تميم مثلا فانسبني فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والافخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ومنها الى والد السائل أو اليه هو نفسه

وكثر النسابون فى الجاهلية ولم تخل قبيلة أو عمارة أو بطن من نسابة أو غير نسابة ومن أشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان وعميرة أبو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة

(١) الماوردي ١٩٤ (٢) ابن خلكان ١٤ ج ١

ابن صوحان وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم(١) وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام واشتهر كثير من النسابين فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم

١٠ — التاريخ

لم يكن عند العرب الجاهلية تاريخ من قبيل مانفهمه من هذه اللفظة اليوم ولكنهم كانوا يتناقلون أخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن أمثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بأيام العرب وقصة سد مأرب واستيلاء ابي كرب تبان أسعد على اليمن وبعض من خلفه وملك ذي نواس وقصة اصحاب الاخدود وفتح الحبشة لليمن وقصة أصحاب الفيل وقدومهم الكعبة وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه أمر الفرس في اليمن وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى أيام قصي بن كلاب وولاية الحج وأمر عامر بن الظرب ثم ماكان من غلب قصي على أمر مكة وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير أخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من أخبار التوراة وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

﴿ الخلاصة ﴾ وجملة القول أن ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علماً فلما جاء الاسلام أهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة وبقي بعضها عند أهله ونشأ مايقوم مقامه في عصر الحضارة كالنجوم والانواء ومهاب الرياح والطب والخيل وارتقى الباقي واتسع عما كان في الجاهلية كالشعر والخطابة والبلاغة وكان الاسلام مساعداً على ارتقائها بالقرآن

---

(١) بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان ١١٨ ج ١

علوم العرب بعد الاسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من أول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ونسميها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الشعر والخطابة ونسميها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ونسميها العلوم الدخيلة أو الاجنبية

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي نمهد الكلام بمقدمات لابد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع :

مقدمات تمهيدية

١ — الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم واخبارهم وأطوارهم اذ جاءهم القرآن فبغتوا لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم . لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما . وهو منثور مقفى على مخارج الاشعار والاسجاع فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع وفيه من البلاغة واساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم فسحروا باسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار . فلما دانوا بالاسلام اصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه لانه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا فى تفسيره فعمدوا الى الاقوال المأثورة عن النبي (الاحاديث) يستوضحون بها ذلك الاشكال فاصبح همهم جمع الاحاديث ممن سمعها أو رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها

ولما قامت دولتهم اخذوا في ضرب الاموال على البلاد التي فتحوها أو غنموها وضرائبها تختلف شكلا ومقداراً باختلاف طريق الفتح بين أن يكون عنوة أو صلحاً وأماناً أو قوة فبحثوا في تحقيق اخبار الفتوح والمغازي وتدوينها. ولما فسدت الاحكام في أيام بني أمية اكثر العلماء من ذكر المواعظ وايراد اخبار السلف من الصحابة وخصوصاً الخلفاء الراشدين فاجتمع من ذلك تاريخ النبي والصحابة والتابعين

والنظر في أحكام القرآن والسنة لابد فيه من فهم العبارة وتدبرها فنشأ من ذلك علم التفسير وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لابد من استنباط هذه الاحكام من أصولها على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهو علم أصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما اشكل على غير العرب اعرابهما لان ملكة اللغة غير راسخة فيهم فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها ـ ولذلك كان اكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الاعاجم ـ وتعيين معاني الالفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن وقد رأيت أن مرجع التحقيق في ذلك الى الاشعار والامثال فاشتغلوا في الاسفار الى بادية العرب وخالطوا الاعراب ونقلوا اشعارهم واقوالهم وأمثالهم ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فرأوا مشقة في فهم معاني أشعارهم وأمثالهم الا بالاطلاع على انسابهم وآدابهم فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله وهو مايعبرون عنه بعلم الادب . واختلفوا في فهم الاشعار ووجدوا في روايتها اختلافاً وفي بلاغتها تفاوتاً فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم كالنجوم والانواء والخيل والانساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة . دونوا ايضاً كثيراً من تلك العلوم ولذلك كان اصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة وعثروا ايضاً على الفاظ وأشعار يندر ورودها فالفوا النوادر

وجملة القول ان ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الادبية واللسانية فضلا عن الدينية ولذلك سميناها العلوم الاسلامية

٢ — العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في أول أمره نهضة عربية والمسلمون هم العرب وكان اللفظان مترادفين فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس . ولاجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب وأصبح أهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب (١)

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ففى تأييده تأييد الاسلام أو العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم انه لاينبغى أن يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في أيام بنى أمية وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الامم عليهم

أما في الصدر الاول فقد كان الاعتقاد العام «ان الاسلام يهدم ما كان قبله»(٢) فرسخ في الاذهان انه لاينبغى ان ينظر في كتاب غير القرآن لانه جاء ناسخا لكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن لاتحاد الكلمة واجتماعها على الاخذ به . ومن الاحاديث المأثورة من هذا القبيل « لاتصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد » ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال « ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي » (٣) ومن الاحاديث التى شاعت في ذلك العهد « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم » (٤)

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة ـ فلا غرو اذا قيل ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية أو غيرها من خزائن العلم القديم

---

(١) الجزء الاول ٥١ (٢) النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١
(٣) ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وابجد العلوم ١٠٩
(٤) العقد الفريد ١٥٨ ج ١

٩٥ - ٩٧

٣ — احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من أقطار العالم المتمدن في ذلك الحين وسيأتي خبرها . وتوالى على هذه المكتبة أحوال كثيرة في ايام الرومان الى الفتح الاسلامي وقد ضاعت بين احراق ونهب. والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو بن العاص بامر عمر بن الخطاب ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية وأشهرها اقوال ابى الفرج الملطى وعبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خلفه . ومنهم من يجل العرب عن ذلك ويطعن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا ممن جارى هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ثم عرض لنا بمطالعاتنا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي ترجيح الرأي الاول لاسباب نحن باسطوها فيما يلي اجلاء للحقيقة فنقول

أولا : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة

ثانياً : جاء في تاريخ مختصر الدول لابي الفرج الملطي عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه « وعاش (يحيي الغراماطيقي) الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيي يوما « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا تعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به» فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه «قال» كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية» فقال عمرو «هذا ما لا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيي فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية

واحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ماجرى واعجب» [1]

وليس في نص هذه العبارة التباس ولكن الذين يجلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون في هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الديني وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخي الافرنج وقد ألفوا الرسائل والكتب في تجريحها . وخلاصة اقوالهم: ان أبا الفرج المذكور هو أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو ابن العاص وانه انما فعل ذلك تعصباً للنصرانية وتحقيراً للاسلام وانه من أهل القرن السابع للهجرة وكان أبوه يهودياً وتنصر وشب أبو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس الى الاسقفية ثم الف تاريخاً في السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً في العربية سماه مختصر الدول ـ قالوا « وهو أول كتاب ذكرت فيه هذه القصة وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » وان ما جاء في هذا الشأن من أقوال عبد اللطيف البغدادي والمقريزي وحاجي خلفه من مؤرخي المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة لان المقريزي نقل عن عبد اللطيف حرفياً وحاجي خلفه لم يذكر مدينة الاسكندرية وانما أشار الى أن العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم حتى قال « ويروى أنهم احرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن عمود السواري بغير تحقيق . ويزعم اصحاب هذا الرأي أن مكتبة الاسكندرية أحرقها الرومان قبل الاسلام وأنها لو أحرقها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصاً كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا تنكر أن بعض هذه المكتبة احترق قبل الاسلام ولكن ذلك لايمنع احتراق باقيها في الاسلام . أما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس أبو الفرج أول من رواها كما توهم بعضهم فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدها وآثارها وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة لان أبا الفرج ولد سنة ١٢٢٦م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في أواخر القرن السادس للهجرة وهاك نص عبارته « ورأيت أيضاً حول عمود السواري من

(١) كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك في اوكسونيا سنة ١٦٦٣ م وأما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حذفت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه

هذه الاعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والاعمدة تحمل السقف وعمود السواري عليه قبة هو حاملها . وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار المعلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه »(١)

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة وقد جاءت عرضاً لكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها كانه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر كالذي أخذ عنه أبو الفرج

أما أبو الفرج فقد أتم كتابه مختصر الدول في العربية في أواخر حياته (توفى سنة ٦٨٤ هـ) وهو ليس مختصر تاريخه السرياني الا من حيث أخبار الفتح لأنه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم. وأما السرياني فهو عبارة عن أخبار الفتح فقط فاغفال ذكر احراق المكتبة فيه لا يدل على أنه دخيل في النسخة العربية أو دسه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم وانما ذكر في النسخة العربية لانه يتعلق بآداب الروم والعرب التي ادخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب ان أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو أربعين سنة وهو جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ابن ابراهيم القفطي وزير حلب المعروف بالقاضي الاكرم ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ وتوفى في حلب سنة ٦٤٦ هـ وللقاضي المذكور كتاب فى تراجم الحكماء عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب الخديوية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ وقرأنا فيها في أثناء ترجمة يحي النحوي كلاماً في معنى كلام أبي الفرج واكثر تفصيلاً منه وفيه شيء عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها ـ واليك نص قوله :

« وعاش (يحي النحوي) الى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى فاكرمه عمرو ورأى له موضعاً وسمع كلامه في ابطال التثليث فاعجبه وسمع كلامه أيضاً في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها

(١) الافادة والاعتبار ٢٨

انسة ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه. ثم قال له يحيي يوماً « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها فاما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه وأما ما لا نفع لكم به فنحن أولى به » فأمر بالافراج عنه . فقال له عمرو « وما الذي تحتاج اليه ؟ » قال « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » فقال له « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها؟» . فقال له يحيي « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبب اليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغة في أثمانها وترغيب تجارها ففعل واجتمع من ذلك في مدة خمسون الف كتاب ومائة وعشرون كتاباً ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة أترى بقي في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا . فقال له زميرة قد بقى في الدنيا شيء فى السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم فعجب الملك من ذلك وقال له دم على التحصيل فلم يزل على ذلك الى أن مات وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلى الامر من الملوك وأتباعهم الى وقتنا هذا » . فاستكثر عمرو ما ذكره يحيي وعجب منه وقال له « لا يمكنني ان آمر بامر الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه بقول يحيي الذي ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله فغى كتاب الله عنه غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها فذكروا انها استنفدت في مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب » (١) انتهى كلام ابن القفطي

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبي الفرج يتضح لك ان أبا الفرج نقل قول ابن القفطي مختصراً . ولو قرأت الكتابين لعلمت ان أبا الفرج نقل كثيراً من زياداته العلمية في كتابه العربي عن كتاب ابن القفطي ككلامه عن ثيادوق طبيب الحجاج (٢) فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفياً

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤

بقي علينا البحث في المصدر الذي نقل عنه ابن القفطي والغالب انه نفس المصدر الذي نقل عنه عبد اللطيف البغدادي لانهما كانا متعاصرين وعبد اللطيف سابقه لانه ولد سنة ٥٥٧ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب. على اننا اذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست عن أخبار الفلاسفة الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية يتضح لنا ان في جملة المصادر التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخاً لرجل اسمه اسحق الراهب كان يبحث في أخبار اليونان والرومان وآدابهما. ومن جملة مانقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة وهاك نصه: «ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة فجمع من ذلك على ما حكي أربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً وقال له أيها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم» (١) وهي نفس عبارة ابن القفطي فالظاهر انه أخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور وأخذ حريقها عن سواه. ولولا مانقله ابن النديم عن اسحق الراهب من أمر الفلاسفة لما علمنا بوجوده وظنناه لم يقل شيئاً كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئاً عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو

فيؤخذ مما تقدم ان حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب ديني ولا دسها أحد بعده بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدراً محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف وكانوا يحملونها اليه من الآفاق وكانت مكتبته تساوي خمسين الف دينار ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب. وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة وفي جملتها كتاب اخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين في ستة مجلدات (٢) وكتاب تراجم الحكماء الذي نحن في صدده. وان ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب والغالب انهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه أو لعل لذلك

(١) الفهرست ٢٣٩ (٢) فوات الوفيات ٩٦ ج ٢

سبباً آخر . وفي كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج

ثالثاً : ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكاتب فارس وغيرها على الاجمال وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب اليه عمر (رضه) ان « اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى باهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى » فطرحوها في الماء أو في النار فذهبت علوم الفرس فيها » (١)

وجاء في أثناء كلامه عن أهل الاسلام وعلومهم « انهم احرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد » (٢) ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه وقد اشار ابن خلدون الى ذلك بقوله « فاين علوم الفرس التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح ؟ » (٣)

رابعاً : ان احراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لاتزال باقية الى أيامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في الماء وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه (٤)

ولما فتح هولاكو التترى بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لاول الفتح بكتب الفرس وعلومهم (٥) وقال آخرون انه بنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن (٦) والارجح أنه أغرقها انتقاما من أهل السنة

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في أثناء الحروب الصليبية أحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن فأمر باحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد (٧) وفعل الاسبان نحو ذلك

(١) كشف الظنون ٤٤٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٥ ج ١
(٣) ابن خلدون ٣٢ ج ١ (٤) Browne's Lit. Hist. of Persia,347
(٥) ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٣ ج ٥ (٦) ابن الساعي ١٢٧
(٧) Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢

بمكاتب الاندلس لما استخرجوها من ايدي المسلمين في اواخر القرن الخامس عشر

خامساً : ان اصحاب الاديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب اصحابها من قبيل السعي فى تأييد الاديان الجديدة . فامبراطرة الروم حالما تصروا أمروا بهدم هياكل الاوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها .وكان خلفاء المسلمين اذا ارادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة احرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سراً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن اشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوى لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة واحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة (١)

سادساً : في تاريخ الاسلام جماعة من ائمة المسلمين احرقوا كتبهم من تلقاء انفسهم منهم احمد بن ابي الحواري فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوما خاطر من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات فجلس يبكى ساعة ثم قال « نعم الدليل كنت لى على ربى فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » فغسل كتبه . وذكروا عن سفيان الثوري انه أوصى بدفن كتبه . وان ابا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت الى السقف ثم تنسك وأحرقها (٢)

فيرجح مما تقدم ان العرب احرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الاول تأييداً للاسلام فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم اضعاف ما احرقوه كما سترى

٤ — الرومان والاسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « أنهم حتى في ابان تمدنهم لم يشتغلوا هم انفسهم في العلم وانما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الامم الخاضعة لسلطانهم بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم فقد كانوا هم انفسهم يشتغلون بالعلم وقد وضعوا علوما تناقلها الناس عنهم وأما العرب فاكثر علومهم منقولة عن سواهم »

فاصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب والصواب أن يقابلوا بين الرومان والاسلام . لان العرب أسسوا دولة الاسلام كما أسس أهل رومية دولة الرومان ودخل في دين الاسلام أمم كثيرة اختلطوا بالعرب فتألف منهم أمة

(١) ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤ (٢) كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان ١٢٣ ج ١

الاسلام كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها أهل رومية وصارت أمة واحدة تعرف بامة الرومان

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين أكثر اشتغالا بالعلم والادب من اولئك لان كليهما نقلا العلم عن اليونان والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من أهل رومية كما ان المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من أهل جزيرة العرب. والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ان العرب فتحوا بلاداً أهلها عريقون في الحضارة فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب ومبالغة العرب في تفضيل انفسهم على سواهم من الامم الخاضعة لسلطانهم

أما اليونان فلا جدال في انهم واضعو العلم والفلسفة لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك ـ وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس أخذوا بعضها من المصريين القدماء والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم ـ لكنهم يعدون واضعين فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القبيل. ولكنهم أضعف منهما في انشاء الحكومات وسن الشرائع لان اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة وانما كانوا دولا صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافرون ويتنافسون

ثم ان الرومان أخذوا العلم والفلسفة عن اليونان وقلما زادوا فيهما ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان. فالرومان أهل فتح وسلطان واليونان أهل تصور وخيال. وأما العرب فقد جمعوا الحسنتين لانهم أهل فتح وسلطان وأهل تصور وخيال. ولذلك فانهم أنشأوا دولة بعيدة الاطراف ووضعوا الشرائع والنظامات (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم فضلا عما وضعوه هم أنفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية وما تفردوا فيه من قريحة الشعر وليس هنا محل الافاضة في ذلك

٥ — حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم

قد تقدم ان العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من المسلمين سببه ان العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية اميون فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج الى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن يدعون الناس به الى الاسلام وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع فضلا عمن قتل منهم في الحروب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية أهلها وتدبير شؤونها . فاصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظراً لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والامثال — وهي آدابهم في جاهليتهم — وتحريض أبنائهم على اتقانها مع المثابرة على أسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيل مما اعانهم على الفتح ونشر الدين وأصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم. وكان رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفي فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب في الامصار وتعرضوا لاخطار البحار كتب اليهم عمر ان يمارسوا السباحة أيضاً وهاك نص كتابه « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » (١)

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات وازمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه كان أكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب وهم الموالي واكثرهم من الفرس وكانوا يومئذ اهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ومن الاحاديث النبوية « لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من اهل فارس » (٢) وكان الفرس من الجهة الاخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو في اوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه — فكان لذلك أكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم وإذا كان فيهم احد من العرب فالاغلب فيه

(١) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ (٢) ابن خلدون ٤٧٨ ج ١

ان يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح كالاصمعي فقد كان عربياً ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيل للكلب يابأهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على أن الاكثرين كانوا من غير العرب فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث واصحاب التفسير وهو فارسي الاصل، ونافع القارىء ديلمي وقس على ذلك سائر العلماء فمن أكابر الفقهاء واقدمهم الحسن بن أبي الحسن ومحمد بن سيرين بالبصرة . وعطاء ابن ابي رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة . وزيد بن اسلم ومحمد ابن المنكدر ونافع بن ابي نجيح فى المدينة . وربيعة الرأي وابن أبي الزناد في قباء . وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن. ومكحول في الشام وغيرهم في أماكن أخرى وكلهم من الموالي أي المسلمين غير العرب(١)

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع الفاظها كان العجم احوج الى ذلك من العرب لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الالفاظ فاشتغل الاعاجم بعلوم اللغة وكان اكثر علماء الادب واللغة منهم كحماد الراوية وهو ديلمي والخليل وسيبويه والاخفش والفارسى والزجاج وغيرهم من الفرس أو من في معناهم

أما العلوم الدخيلة وهي العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين لان العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية استخدموا عارفي هذه الالسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها واكثرهم من النصارى كما سيجيء

فالعرب اشتغلوا عن العلم في أول دولتهم بالرئاسة والسياسة للاسباب التي قدمناها وما زالوا هم أهل الدولة وحاميتها واولي سياستها إلى أوائل الدولة العباسية فتولد فيهم بتوالي الاجيال الانفة من انتحال العلم لانه صار من جملة الصنائع ـ وأهل الرئاسة يستنكفون من الصنائع والمهن ـ وكانوا اذا رأوا عربياً يشتغل في اللغة أو التعليم عابوه وقالوا « انه يشتغل بصناعات الموالي »ومن أقوالهم « ليس ينبغي للقرشي أن يستغرق في شيء من العلم الا علم الاخبار وأما غير ذلك فالتنف والشذر من القول»ومر رجل من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال « أف لكم علم المتأدبين وهمة المحتاجين »(٢)

(١) العقد الفريد ٤٧ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٥١ ج ١

ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على أننا لا نعد العرب الذين تحضروا في الدولة العباسية عرباً خلصاً لاختلاطهم بالموالي والمماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة حتى الخلفاء فان اكثر امهاتهم من غير العرب وسنعود الى هذا البحث في جزء آخر

٦ — تدوين العلم في الاسلام

قلنا فيما تقدم إن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب لئلا تذهب بنشاطهم وبداوتهم .ولذلك منعوهم من تدوين الكتب لان علومهم في أوائل الاسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الاحاديث ونظراً لقلة الاختلاف والواقعات ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين لقرب عهدهم من صاحب الشريعة كانوا في غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل مما روي عن ابي سعيد الخدري أنه استأذن النبي في كتابة العلم فلم يأذن له ، وروي عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة وقال « انما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة » وجاء رجل الى ابن عباس فقال « اني كتبت كتاباً أريد أن اعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذ منه ومحا بالماء وقيل له « لماذا فعلت ذلك ؟ » قال « لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (١) وان الكتاب يزاد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره

وكان هذا الاعتقاد فاشياً في الصحابة والتابعين وتمسك به جماعة من كبارهم وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا ـ ولعلهم كانوا يفعلون ذلك ليبقى الناس في حاجة اليهم رأساً . سأل رجل سعيد بن جبير وهو من أعلام التابعين ان يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال « لان يسقط شقي احب الي من ذلك » (٢)

فقضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون الى البداوة لان دولتهم كانت عربية بدوية فانقضى القرن الاول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ويعتمدون على الحفظ ولم يدونوا غير القرآن لاسباب سيأتي بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ؟ » (٣)

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والاشعار والاخبار والامثال فقد كانوا يتناقلونها في صدورهم واكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ كما كان شأنهم في الجاهلية يشعرون ويخطبون ولا يقرأون

(١) كشف الظنون ٢٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ (٣) الفهرست ٢٤

فلما انتشر الاسلام واتسعت الامصار وتفرقت الصحابة في الاقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء اضطروا الى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الابواب والفصول فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه انس بن ملك وهو قوله « قيدوا العلم بالكتابة » (١) وقوله « العلم صيد والكتابة قيد » (٢)

على انهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بايديهم فكانوا يستكتبون الكتاب أو يلقون دروسهم بطريق الاملاء . وذلك ان يتكلم المحدث أو الفقيه والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد فيبدأ المستملي في أول القائمة بقوله « مجلس املاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا» ويذكر التاريخ ثم يورد المملي باسناده سواء كان حديثاً أو خبرا واذا كان فيه غريب يحتاج الى التفسير فسره وأورد اشعار العرب وغيرها باسانيدها أوالفوائد اللغوية باسناد أو بغير اسناد على ما يختاره(٣) وهذا معنى قولهم « امالي » المحدث فلان أو اللغوي أي ما أملاه من الفنون

وظلوا حتى بعد اشتغالهم بالتأليف يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع وان احوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لان الكتابة في القرون الاولى للاسلام كانت بلا نقط فلا تفرق في شعر الهذليين اذا أنت قرأته بين « شابة » و «سابة» وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز امثالها مما تتشابه صوره بدون اعجام . وقرىء يوماً على الاصمعي في شعر ابن ذؤيب « بأسفل ذات الدير افرد جحشها » فقال اعرابي حضر مجلس القارىء « ضل ضلالك ايها القارىء انما هي ذات الدبر (بالباء) وهي ثنية عندنا » فاخذ الاصمعي بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعذل في وصف الفرس :

من السح جوالا كأن غلامه يصرف سبداً في العنان عمردا

اذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيداً » بالياء لانصراف الذهن الى السيد وهو الذئب وقد أخطأ في ذلك اكثر الذين قرأوا هذا البيت (٤)

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن مع أن الكتابة

(١) البيان والتبين ١٦١ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٦ ج ١
(٣) المزهر ١٦٢ ج ٢ (٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠

كانت شائعة يومئذ. وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته وانما كانت الكتابة العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ولتدوين الحساب في دفاتر الحكومة بعد أن انتقلت الدواوين الى العربية . اما سائر العلوم فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ في الصدور وربما دون بعضها في صحف غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفاً عندهم

واختلف مؤرخو المسلمين في أول من صنف الكتب في الاسلام فقال بعضهم انه ابن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ هـ (١) وقال غيرهم غير ذلك ولم يخرجوا في كل حال عن أواسط القرن الثاني للهجرة وأن أول ما دون الحديث . ولكننا رأينا من ألف قبل ذلك بنصف قرن وأن أول ما دونوه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم ماعلمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفى سنة ١٠٤ هـ (٢). ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي واقدم ما وصل الينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص المتوفى سنة ١١٦ هـ وهو من ابناء الفرس المولدين باليمن . فالف كتاباً في الملوك المتوجة من حمير واخبارهم واشعارهم وقصصهم قال ابن خلكان انه شاهده بنفسه واثنى عليه (٣) ثم كتاب المغازي لمحمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٤١ هـ (٤) ثم الف المسلمون في الحديث والفقه في أواسط القرن الثاني للهجرة فصنف ابن جريج بمكة وسعيد بن ابي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . والف أبوحنيفة في الفقه والرأى في الكوفة وصنف الاوزاعي في الشام ومالك جمع الموطأ بالمدينة وغيرهم (٥) ثم تكاثرت التآليف بعد ذلك كما سيأتي

٧ ـ الخط العربي

تاريخه

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام مع انهم كانوا محاطين شمالا وجنوباً بامم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة . واشهر تلك الامم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند والانباط في

(١) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢ (٣) ابن خلكان ١٨٠ ج ٢ (٤) كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خلكان ٤٥٢ ج ١ (٥) النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١

الشمال كتبوا بالحرف النبطي وآثارهم باقية الى هذه الغاية في ضواحي حوران والبلقاء . والسبب في ذلك ان الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم والكتابة من الصنائع الحضرية

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق أو الشام قبيل الاسلام تخلقوا باخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي أو العبراني أو السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية فتخلف عن الاول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها

ومعنى ذلك ان السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني في جملتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس (١) فاقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان الى الآن

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب والاشهر ان أهل الانبار نقلوه - وذلك ان رجلا منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل تعلم هذا الخط من الانبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب ابن امية أخت أبي سفيان والد معاوية فعلم جماعة من أهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش (٢) عند ظهور الاسلام ولذلك توهم بعضهم ان أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن امية

والخلاصة في كل حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثناء تجاراتهم الى الشام وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والارجح انهم كانوا يستخدمون القلمين معاً الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الاسفار المقدسة النصرانية . والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي فضلا عن شكله ان الالف اذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تحذف وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية

(١) اللمعة الشهية ١٧ (٢) المزهر ١٧٧ ج ٢

وكان ذلك شائعاً في أوائل الاسلام وخصوصاً في القرآن فيكتبون «الكتب» بدل «الكتاب» و«الظلمين» بدل «الظالمين»

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة إلا بضعة عشر انساناً أكثرهم من كبار الصحابة وهم علي بن أبي طالب وعمر ابن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وعثمان وابان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة ويزيد بن أبي سفيان وحاطب بن عمرو بن عبد شمس والعلاء بن الحضرمي وأبو سلمة بن عبد الاشهل وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وحويطب بن عبد العزى وأبو سفيان بن حرب وولده معاويه وجهيم بن الصات بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بني أمية وفي ايامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة اقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان اكتب اهل زمانه وكان يكتب لبني امية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في اوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره فبلغ عدد الاقلام العربية الى اوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم اسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي ايام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط فحدث القلم المرصع وقلم النساخ وقلم الرياسي نسبة الى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل وقلم الرقاع وقلم غبار الحلية (١)

فزادت الخطوط على عشرين شكلا وكلها تعد من الكوفي واما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى إذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فادخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وادخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي ، والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام الكوفي للمصاحف ونحوها والنسخي (او النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم. وان ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار

(١) كشف الظنون ٤٦٦ ج ١

الكتب الخديوية عقد نكاح مكتوبا في أواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في اعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال ـ فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وادخله في كتابة المصاحف

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الاعوام الى فروع كثيرة واصبحت الاقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين الكوفي والنسخي ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي: الثلث والنسخي والتعليقي والريحاني والمحقق والرقاع. واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل بعضها في ادوات الخط كالاقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك (١) ومازال الخط يتفرع الى اليوم ولن يزال الى ماشاء الله عملا بسنة الارتقاء

الحركات

وكان القرآن في أول الاسلام محفوظاً في صدور القراء لاخوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه حتى دونوه وكثر أهل الاسلام فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام. وأول ما افتقروا اليه الحركات وأول من رسمها أبو الاسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفى سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات ولذلك توهم بعضهم انه وضع الاعجام. والحقيقة أنه وضع نقطا لتمييز الاسم من الفعل من الحرف وليس لتمييز الباء من التاء أو الجيم من الحاء، والارجح انه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسم هي ام فعل ام حرف. مثل قولهم «كتب» فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب أو فعلا ماضياً معلوما أو مجهولا وكان عندهم ايضا نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن (٢) وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث وما زالت عندهم الى اليوم. فالظاهر ان ابا الاسود اقتبس هذه الحركات ويؤيد ذلك انه لما اراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له ابو الاسود «اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه واذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي

(١) كشف الظنون ٤٦٧ ج ١ ٢ اللمعة الشهية ٢١

الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف (١). فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب الخديوية مصحفاً كوفيا منقطاً على هذه الكيفية وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من أقدم مصاحف العالم ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحته كسرة وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الاسود

الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط ـ ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم ـ فالاعجام حادث فى العربية وهو قديم فيها والظاهر ان المسلمين بعد أن استخدموا الحركات المذكورة رأو التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء ، والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء فانتبه لذلك الحجاج امير العراق في ايام عبد الملك بن مروان ـ قال ابن خلكان ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين اماكنها فعبر الناس بذلك زماناً لا يكتبوب الا منقوطا فكان مع استعمال النقط ايضاً يقع التصحيف فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام »(٢)وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس لايفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ولا يعقل ان يكون المراد بالنقط الحركات لانهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف أي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر أن النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ولكن نصراً هذا لم ينقط الا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب الخديوية كتابة عربية على صفحة من البردى (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١ هـ وفيها اعجام لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء وصورة حرف الشين لتميزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد ـ وشاهدنا اجزاء من مصاحف اخرى

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ١٢٥ ج ١

مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك

فيؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات والاعجام من أواسط القرن الاول ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونهما الا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . أما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط لا سيما اذا كان المكتوب اليه عالماً . وقد حكي أنه عرض على عبد الله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه (أي نقطه) » ويقال « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » وقد يقع بالنقط ضرر كما حكي عن جعفر المتوكل أنه كتب الى بعض عماله « ان احص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين(١)

ولذلك ظل الكتاب في أثناء التمدن الاسلامي مخيرين بين الاعجام وعدمه والغالب عدم الاعجام وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال وخصوصاً في اسماء الاماكن الغريبة أو الالفاظ الغريبة ونحوها(٢) وكان الادباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ويستهجنونه في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات لانهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيراً(٣)

أدوات الكتابة

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الامويين على الجلود والرقوق دروجاً فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الامر الى العباسيين وقام أبو العباس السفاح بالامر واستوزر خالد بن برمك غير خالد الدفاتر من الادراج الى الكتب . فظلت أعمال الحكومة تدون في كتب من الجلد الى أن تصرف جعفر بن يحيى البرمكي بالوزارة في أيام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده وظلوا مع ذلك اجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصيني والتهامي والخراساني (٤) فضلا عن الكاغد يصنعونه كراريس أو دفاتر وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها كالفارابي مثلا فقد كانت كتاباته اكثرها على الرقاع(٥)

(١) كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢ (٢) راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية ١٨
(٣) أدب الدنيا والدين ٥٢ (٤) الفهرست ٤٠ (٥) ابن خلكان ٥٧ ج ٢

العلوم الاسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتمدن الاسلامي على ما تقدم وتقسم الى ثلاثة أقسام (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا

١ — العلوم الشرعية الاسلامية

القرآن

جمعه وتدوينه

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لان عليه يتوقف دينهم ودنياهم وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم يظهر مرة واحدة وانما ظهر تدريجاً في أثناء عشرين سنة على مقتضى الاحوال من أول ظهور الدعوة الى وفاة النبي بعضه في مكة وبعضه في المدينة فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الايام وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالاكتاف والاضلاع وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفى النبي سنة ١١ هـ والقرآن إما مدون على أمثال هذه الصحف أو محفوظ في صدور الرجال وكانوا يسمون حفظته « القراء »

وكان اكثر الناس عناية فى تدوينه على عهد النبي علي بن أبي طالب وسعد بن عبيد بن النعمان وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وثابت بن زيد وابي بن كعب وغيرهم . فلما قام أبو بكر بالامر وارتد أهل جزيرة العرب عن الاسلام بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى أهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين فاشار على أبي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت أهله فتوقف أبو بكر وقال « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهداً » فما زال به عمر حتى اقنعه بجمعه . فاحضر أبو بكر زيد بن ثابت لانه كان من كتبة الوحي فجمع ما كان مدوناً عند

الصحابة وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين أو ثلاثة أو أكثر وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الانصاري (١) فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى أبي بكر فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانتقلت الى عند ابنته حفصة من أزواج النبي

وفي أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقيا وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً فعول اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فاهل دمشق وحمص مثلا أخذوا عن المقداد بن الاسود وأهل الكوفة اخذوا عن ابن مسعود واهل البصرة عن ابي موسى الاشعري (٢) وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب ـ ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلو من الاختلاف في قراءة بعض سوره

واتفق في اثناء ذلك ان حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة ارمينيا واذربيجان فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات وسمع بعضهم يقول لبعض «قراءتي خير من قراءتك» فلما رجع الى المدينة أنبأ عثمان بذلك وانذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الامر الى ان قال «ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى» فبعث عثمان الى حفصة ان «ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك» فارسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وامرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم «اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم» ففعلوا ذلك (٣) سنة ٣٠ هـ وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الاربعة مكة والبصرة والكوفة والشام (٤) واثنين أبقاهما في المدينة واحد لاهلها وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه «الامام» ثم أمر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف (٥) وأمر باحراقه

فاصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف فنسخوا منها شيئا كثيراً في مدة قليلة ـ ذكر المسعودي

(١) الفهرست ٢٤ (٢) أبو الفدا ج ١ ١٧٦ (٣) الفهرست ٢٥
(٤) نفح الطيب ٣٨٧ ج ١ (٥) أبو الفداء ١٧٦ ج ١

في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية وما كان من ظهور علي وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف »[١] وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر لهذا العدد وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أخرى أشهرها مصحف علي. ويعتقد الشيعة ان علياً أول من خط المصاحف عند وفاة النبي وتتوقل مصحفه في شيعته وبقي عند أهل جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه راى عند أبي يعلى حمزة الحسيني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن [٢] ـ ومنها مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سوره [٣]

على ان الخلفاء والامراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في اعدام ما سواه وفي جملة مساعيهم ان الامراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها فى تصحيح ما بين أيديهم من المصاحف الخصوصية. وربما كتب الامير عدة مصاحف وفرقها في الامصار ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الامير في الجامع اقراراً بسيطرته عليهم . وكان الحجاج في مقدمة من كتب المصاحف من الامراء وفرقها في الامصار فبعث منها مصحفاً الى مصر والوالي عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب وقال « ابيعث الى جند أنا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ في ضبطه وأعلن بعد الفراغ من كتابته ان من وجد فيه حرفاً خطأ فله رأس أحمر وثلاثون ديناراً . فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة « نجعة » بدل « نعجة » فنال الجائزة [٤]

قراءة القرآن

كان للقراءة شأن عظيم في أول الاسلام لقلة الذين يقرأون يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لانهم كانوا أميين . وقد تقدم ان السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمان قصير حتى أصبح لاهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته وتتوقل ذلك

(١) المسعودي ٢٠ ج ٢ (٢) الفهرست ٢٨ (٣) الفهرست ٢٦
(٤) المقريزي ٢٥٤ ج ٢

واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت هـذه القراءات السبع اصولا للقراءة ويعدها بعضهم عشرا

وأصحاب هذه القراءات هم نافع بن ابي رؤيم ويزيد بن القعقاع في المدينة . وعبد الله بن كثير في مكة . وابو عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي في البصرة . وعبدالله ابن عامر في الشـام وعاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلى الكسائي وخلف البزاز فى الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في اقطار العالم الاسلامي وفيهم من يقرأ قراءات غريبة وخصوصاً بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه . والخلفاء يشددون في مقاصة أولئك الشاذين خوف التفرقة كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الاولى للميلاد . ولـكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفـكر والقول وخصوصا في اوائله فلم يكن احدهم يستنكف من ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفا لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ وتعددت مذاهب اصحابها فى القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء حتى ذهب بعضهم الى أن سورة يوسف ليست من القرآن لانهـا قصة من القصص والقائلون بذلك العجاردة (١) وذهبت طائفة أخرى الى اثبات حكم من احكام الالهية فى السيد المسيح وانه هو الذي يحاسب الخلق (٢) وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية وفى جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر (٣)

واشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فانه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ذكرها ابن النديم وابن خلـكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله اياما فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته فامر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قدرجع عما يقرأه وانه لا يقرأ الا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضرا بذلك (٤)

والقراءات العشر التي ذكرنا اصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة ان الجميع على صواب فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو اكثر وقد تقرأ كل القراءات فى اقليم واحد (٥)

(١) الشهرستاني ٩٥ ج ١ (٢) الشهرستاني ٤٢ ج ١ (٣) طبقات الادباء ٣٦١
(٤) ابن خلـكان ٤٩٠ ج ١ (٥) المقدسي ٣٩ ونفح الطيب ١٠٤ ج ١

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل كقولهم قرأ يعقوب ابن اسحق على سلام وقرأ سلام على عاصم وقرأ عاصم على ابي عبد الرحمن وقرأ ابو عبد الرحمن على علي بن ابي طالب وقرأ علي على النبي (١)

تأثير القرآن

ان قراءة القرآن وحفظه من أول واجبات المسلمين وخصوصاً في اوائل الاسلام فانطبعت اوامره ونواهيه في افئدتهم وارتسمت عبارته على ألسنة أدبائهم وأصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا اساليبه في خطبهم وكتبهم وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم مع تباعد الامم التي اعتنقت الاسلام في أصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا باقواله ونصوصه في علومهم اللسانية فضلا عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن واصبح اهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة أو الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن كما سترى في باب الخطابة في الاسلام وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات

على انهم كانوا لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين

ومما يحكى من هذا القبيل ان السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث الى الخليفة يطلب ان يذكر اسمه في الخطبة ببغداد وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتابا فيه تهديد ووعيد وقال في جملته « لو اردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » فبعث اليه الخليفة كتاباً مختوما فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا الفاً ممدودة وفي وسطه لام وفي آخره ميم والصلاة والحمد لله . فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم ابوبكر القهستاني ففكر في ذلك وقال « عندي شرحه» فقال « اذكروا لك ما تريد » فقال « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه الف ولام وميم اشارة الى قوله تعالى (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى احسن الاحوال من الرضى والادب (٢)

(١) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ (٢) ترتيب الدول ٦٩

ويحكى أيضاً أن المأمون غضب على عبد الله بن طاهر وشاور اصحابه في الايقاع به وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتاباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم يا موسى » فلما قضه ووجد ذلك تعجب وما زال يطيل فيه النظر حتى علم أنه يريد « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك »(١)

وأبلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون «انَّ» وقد ذكرناها في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وفي اعادتها هنا تكرار

وقد عني المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها غاية فكتبوه على صفائح الذهب والفضة وعلى صفائح العاج وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ورسموه بكل الخطوط وأجلها على كل أصناف الرقوق والجلود والكواغد بالادراج والكراريس والرقاع باصناف المداد وألوانها وملأوا بين الكلام بالذهب. وكان الخلفاء والامراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد أو نحوها. وفي دار الكتب الخديوية بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الاشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما

وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وعدوا ما فيه من الالفات والباءات الى الياءات(٢)

تفسير القرآن

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لانها بلسانهم وعلى اساليب بلاغتهم ولان اكثرها قيلت في أحوال كانت كالقرائن تسهل فهمها واذا اشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ. فحفظ اصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الاحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها فزادت العناية في تفسيره واصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الاحكام أو هم الفقهاء لاول عهد الاسلام. وكانوا يتناقلون التفسير

(١) الدميري ١٢٦ ج ١ (٢) الكشكول ١٧٥

شفاهاً الى أواخر القرن الاول . فكان أول من دون التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى انتهى ذلك الى الواقدي سنة ٢٠٧ والطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما

وقد رأيت أن العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والاسناد من النبي فالصحابة فالتابعين والعرب يومئذ اميون لا كتابة عندهم . فكانوا اذ تشوقوا الى معرفة شيء مما تتوق اليه نفوسهم البشرية من أسباب الوجود وبدء الخليقة واسرارها سألوا عنه أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم واكثرهم من حمير باليمن الذين أخذوا بدين اليهودية(١) وكانوا قد أسلموا لكنهم ظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً أو كتابة مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية ـ فكانوا اذا سئلوا عن شيء أجابوا بما عندهم من اقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق . فامتلأت كتب التفسير من هذه المنقولات

ومن أشهر اولئك اليهود كعب بن مانع المعروف بكعب الاحبار اسلم في خلافة عمر بن الخطاب(٢) . وعبد الله بن سلام بن الحارث اسلم عند هجرة النبي الى المدينة(٣) ناهيك بمن كان هناك من أهل الاديان الاخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم وكان بعضهم من ذوي المقامات الرفيعة فكان المسلمون يسألونهم أيضاً وهم يجيبونهم مما عندهم . واشهرهم وهب بن منبه فانه فارسي الاصل جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالابناء أي ابناء الفرس ومنهم أيضاً طاوس بن كيسان التابعي الشهير

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية أو الزردشتية) فلما أقاموا بين اليهود باليمن أخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم واختلطوا بالحبشة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية وكان وهب يعرف اليونانية(٤) فاطلع على آداب اليونان وغيرهم فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في أخبار الامم وأحوال الانبياء وقيام الدنيا وسير الملوك ومن أقواله أنه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسألوه عن شيء الا افاض في الجواب عليه مما يحفظه

فكانت كتب التفسير في القرون الاولى محشوة بالاخبار وفيها الغث والسمين مما نقل اليها من الاديان الاخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب أو حولها . كما أصاب

(١) ابن خلدون ٣٦٧ ج ١ (٢) اسد الغابة ٢٤٠ ج ٤
(٣) اسد الغابة ١٧٦ ج ٣ (٤) المسعودي ١٠٩ ج ٢

النصرانية عند أول ظهورها اذ دخلها كثير من عادات الامم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم مع سهر الآباء الاولين على تخليصها من ذلك

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس فاعادوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها وفحصوها وسبروها بمسبار العقل . وأشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهم

وكتب التفسير كثيرة جداً ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلثمائة تفسير وقال انه ذكر بعضها وكانت أكثر من ذلك كثيراً (١)

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها أقوال النبي وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية وأقدم من سمعها الصحابة وحفظوها فكانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض وعند كل منهم بعض الاحاديث وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه فأصبح طالب الحديث إذا كان من أهل دمشق مثلا لا يستوفيه إلا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة وسائل المواصلات وأسباب النشر في تلك العصور . فكان المؤرخ أو الجغرافي مثلا يرحل في طلب التاريخ أو الجغرافيا الى أقاصي البلاد كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما. ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث أيضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان دياناتهم (٢)

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير

(١) كشف الظنون ٣٠٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢

واحد فانصرفت عناية كل حزب من أحزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الاحاديث المؤيدة لدعواهم فكان بعضهم اذا أعوزهم حديث يؤيدون به قولا أو يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم . وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى فكان المهلب بن ابي صفرة مثلا يضع الاحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج (١) وهو مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب وأمثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة

وتسابق الناس خصوصاً الى وضع الاحاديث في أثناء البحث في شروط الخلافة نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها . إذ مات النبي وانقسم أصحابه في طلب الخلافة الى قسمين المهاجرين والانصار وكل منهما يعتقد الاحقية في الخلافة لحزبه واشتد عزم الانصار على الثبات في المطالبة وعظمت الفوضى حتى روى أبو بكر الحديث «الأئمة من قريش» (٢) فكان في ذلك فصل الخطاب . فقس على ذلك حاجة أصحاب الفرق والاحزاب وغيرهم الى الاحاديث ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات حقوق الفتح وغيرها كأوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الاحكام والقوانين وفي كل باب من أبواب الادارة والقضاء. ولما أراد المأمون تحليل المتعة لم يرجعه عن عزمه إلا حديث رووه له في تحريمها (٣)

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب أهل المطامع في اختلاق الاحاديث وقد ذكروا من وضاع الحديث جماعة أشهرهم أربعة وهم ابن أبي يحيى في المدينة والواقدي في بغداد ومقاتل بن سليمان بخراسان ومحمد بن سعيد بالشام (٤) وكثيراً ما كان اولئك الوضاع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه كما فعل ابن أبي العوجاء وكان محدثاً في الكوفة فأمر أميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما أيقن أنه مقتول قال «والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم» (٥) ومنهم أحمد الجويباري وابن عكاشة الكرماني وابن تميم الفرياني فقد ذكر سهل بن السري انهم وضعوا من عند أنفسهم نحو عشرة آلاف حديث (٦) ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين أحاديث السنة والشيعة

(١) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٢ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢١٨ ج ٢
(٤) ابن خلكان ١١٣ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٣ ج ٦ (٦) تحذير المسلمين ٤

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون الى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح فالفوا كتباً كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب كقولهم الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها (١)

اسناد الحديث

وترتب على أهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت فاحتاج الى العناية في تحقيقه ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الاولى الا بالحفظ والرجوع بالمحفوظ الى المصدر الاصلي الذى أخذ عنه بالتسلسل وهو «الاسناد» كأن يقال «حدثنا فلان أو أخبرنا فلان أو املى على فلان ماهو كذا وكذا» فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا « حدثنا فلان عن فلان انه سمع فلاناً يقول كذا وكذا » وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم فجعلوهم طبقات ومنهم الصحابة فالتابعون فتابعو التابعين فالعلماء البالغون الى رتبة الاجتهاد فالمشتغلون في جمع الاحاديث وحفظها فالناقدون للاحاديث فالشارحون وغيرهم (٢) والفوا كتباً كثيرة في طبقات المحدثين والرواة

وكان أهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم فطريقة أهل الحجاز أعلى مما لسواهم وامتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ ثم أصحابه مثل الشافعي وابن حنبل وامثالهم . ومالك أول من دون الحديث في كتاب الموطأ رتبه على ابواب الفقه وقيل ان ابن جريج اول من ألف فيه . ثم عني الحفاظ في طرق الاحاديث واسانيدها وجاء محمد بن اسماعيل البخارى امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على ابوابها والف كتابه الصحيح ثم الف مسلم بن الحجاج النيسابوري المسند الصحيح فسمي كتابهما الصحيحين وصار الناس اليهما . ثم جاءت طبقة أخرى من المحدثين جمعوا بين هذين أو بينهما وبين الموطأ فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية اسماؤهم وهم البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ومسلم المتوفى

(١) ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ (٢) ابجد العلوم ٨٦

بنيسابور سنة ٢٦١ هـ وابو داود المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ والترمذي المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ والنسائي توفي سنة ٣٠٣ والدار قطني المتوفى ببغداد سنة ٣٨٥ هـ (١)

ولما صار الحديث علماً مدوناً انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في تحقيق السماع اي تعلم تلك الكتب أو بعضها كان يقول احدهم سمعت الحديث (اي تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخاري أو غيره. وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخاري قال « سمعت صحيح البخاري بمدينة أربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين وستمائة على الشيخ الصالح أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد من الشيخ ابي الوقت المذكور في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة بحق سماعه من أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة بحق سماعه من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي في صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة بحق سماعه من أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف بن مطر الفربري سنة ست عشرة وثلثمائة بحق سماعه من مؤلفه الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري مرتين احداهما سنة ثمان واربعين ومائتين والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين رحمهم الله تعالى اجمعين » (٢)

وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والادب كما هو مشهور وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير من العلوم الاسلامية مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى أو الامم الاخرى . فهم اذا ذكروا عالماً في علم فيها اسندوا تعلمه الى استاذه واستاذ استاذه الى واضع ذلك العلم كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين بن الخطيب انه اشتغل في الاصول على والده ضياء الدين ووالده على القاسم سليمان بن ناصر الانصاري وهو على امام الحرمين ابي المعالي وهو على الاستاذ ابي اسحق الاسفرايني وهو على الشيخ أبي الحسن الباهلي وهو على شيخ السنة أبي الحسن الاشعري وهو على ابي علي الجبائي اولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة

عدد الاحاديث

لما تكاثرت الاحاديث للاسباب التي قدمناها اصبحت تعد بمئات الالوف. فقد ذكروا

(١) الدميري ٥٢ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٠٦ ج ١

أن احمد بن حنبل روى مليون حديث منها ١٥٠ ٠٠٠ بالاسانيد والمتون (١) وان يحيى بن معين المري قال كتبت بيدى ٦٠٠ ٠٠٠ حديث ـ قال راوي هـذا الخبر واظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠ ٠٠٠ و ٦٠٠ ٠٠٠ وخلف من الكتب مائة قمطر (٢) وأن مسلماً صاحب المسند الصحيح استخرجه من ٣٠٠ ٠٠٠ حديث مسموعة (٣) وان الامام البخاري قال صنفت كتابي الصحيح من ٦٠٠ ٠٠٠ حديث (٤) وقس على ذلك مما يدل على كثرة فاحشة. أما الذي صح منها فانه أقل كثيراً وبعضهم بالغ في الاقلال وهم اصحاب الرأي وشيخهم أبو حنيفة فلم يصح عنده الا ١٧ حديثاً ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث والبخاري اشتمل صحيحه على ٢٠٠ ٩ حديث منها ٣ ٠٠٠ مكررة واحمد بن حنبل في مسنده ٥٠ ٠٠٠ حديث (٥) وقس على ذلك

الفقه

مصدره

لما صار الاسلام دولة احتاج امراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعي في الدول الكبرى. فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية أو القضائية لانهم لم يكونوا أهل دولة كبرى الا زمناً قصيراً فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها . وأما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع لكنها لم يتم نضجها عندهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد يوستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب من الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد يوستنيان المذكور

وأما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث وقد علمت ما كان لهم من العناية في حفظهما ودرسهما من أول الاسلام ولذلك لم يمض على المسلمين

(١) ابن الساعي ٦٦ (٢) ابن خلكان ٢١٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٩١ ج ١
(٤) ابن خلكان ٤٥٦ ج ١ (٥) ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١

قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم وهو من أفضل شرائع العالم . وقد أسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا ان القرآن أساس الفقه الاسلامي وكان المسلمون على عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاهاً فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر أو قياس . فلما توفى رجع الصحابة الى القرآن والسنة فاصبح القراء أول فقهاء المسلمين أو حاملي شريعتهم وكانوا يرجعون اليهم في الفتيا والاحكام لقلة الذين يقرأون في الصدر الاول . فلما عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب وكمل الفقه واصبح صناعة بدلوا باسم الفقهاء والعلماء

الفقهاء

فأول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون وأولهم الخلفاء الراشدون ثم عبد الرحمن ابن عوف وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعري(١) ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة في المدينة وهم سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وقاسم وعبد الله وعروة وسليمان وخارجة وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين

ألا كل من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجة (٢)

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء.(٣) وعنهم انتقل الفقه والفتيا في العالم الاسلامي

وفي أوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملا بناموس الارتقاء فلما استقل الفقه سموا أصحابه الفقهاء كما تقدم وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الفتيا من الامور الهامة كالعزل والتنصيب والقتل والعفو

ففي أيام بني أمية كان المرجع في الفقه والفتيا إلى أهل المدينة فكان الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم. وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب ما كان من تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم وأهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة على بني أمية كان الامويون يسعون في ارضائهم واكرامهم

(١) الدميري ٥١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١

وخصوصاً أهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فانه كان لا يقطع أمراً مهماً إلا بعد مشورتهم . فلما أفضى الامر الى بني العباس وأراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام أمر الفرس لانهم أنصارهم وأهل دولتهم كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجاً للناس وقطع الميرة عن المدينة (١) وفقيه المدينة يومئذ الامام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فافتى لهم بخلع بيعته فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي . وعظم أمر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه إلا بعد العناء الشديد . فرجع أهل المدينة الى بيعة المنصور قهراً وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس فعلم أمير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه (٢)

الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ونبغ من أبنائهما من درس الفقه والفتيا ولكنهم ما زالوا عيالا فيهما على أهل المدينة لانهم أوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن. وكان الحديث قليلا في العراق على الخصوص. وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس وهم أهل تمدن وعلم فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث فخالفوا بذلك أهل المدينة لانهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد . فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها وخصوصاً مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته انه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ أبو حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور الى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه . وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى انه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالي به (٣) ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه لان الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره الفرس وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة (٤)

فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه وهم المعروفون باهل الرأي أو القياس ازداد مالك تمسكا برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين أهل الحديث وأهل الرأي وزعيم الاول مالك وأنصاره من أهل الحجاز

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب ٣٠ (٢) ابن خلكان ٤٣٩ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٦٥ ج ٢ (٤) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٠٧

وأصحاب الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب احمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد وعرفوا باصحاب الحديث لان عنايتهم مبذولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً . ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي « إذا وجدتم لي مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبي فاعلموا ان مذهبي ذلك الخبر »

وزعيم أصحاب الرأى أبو حنيفة النعمان وأصحابه فقهاء العراق ومنهم محمد بن الحسن وابو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وأبو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم وقد سموا أهل الرأي لان عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها وهم يقدمون القياس الجلي على آحاد الاخبار (١)

وجاء بعد مالك من أصحاب مذهبه محمد بن ادريس المطلبي الشافعي فرحل الى العراق وخالط أصحاب أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا في كثير من مذهبه . ثم جاء بعده احمد بن حنبل وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية علماء الحديث والقرآن والفقه وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة فلا عجب بعد ذلك إذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء وأصحاب الحديث والزهاد والعلماء وقد رأيت ان بني أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة . وكثيراً ما كان أهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه ـ كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصري يسأله عن صفة الامام العادل فاجابه جواباً وافياً (٢) فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه

(١) الشهرستاني ١٦٠ ج ١ (٢) العقد الفريد للملك السعيد ٥٣

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة بالتقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور « يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين » فقال عمرو « أراك قد وطدت له الامور وهي تصير اليه وأنت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال « عظني يا عمرو » فوعظه (١) ولما مات عمرو رثاه المنصور بابيات (٢) ـ ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلا إذ سمع ذلك العابد يشكو ظهور البغي والفساد ولما سأله المنصور عمن يعنى صرح له انه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها (٣) وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشبيب بن شيبة للمنصور والمهدي والرشيد (راجع كتاب الثوري الى الرشيد في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١) وكثيراً ما كان الوعظ يبكي الخلفاء لانهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم حتى تسابقوا إلى احترامهم بما لا يصدر الا من خادم إلى مولاه فقد صب الرشيد الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو يغسل (٤)

وكان الاكرام في أول الامر للفقهاء والمحدثين خاصة ثم اطلق على أصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما ان لا ينزعجا لنهضته (٥) ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد «دفنت الفقه والعربية في الري » (٦) . وقد تنازع الامين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعال استاذهما الفراء وتقديمها اليه حتى اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة (٧)

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠ر٠٠٠ رجل و٦٠ر٠٠٠ امرأة (٨) وناهيك بهذا الاكرام. ولما سار أبو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدي الى السلطان ملك شاه تنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح باطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه (٩)

(١) المسعودي ١٧٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٣٨٥ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٨٧ ج ١ (٤) الفخري ١٧٥ (٥) المزهر ٢١١ ج ٢
(٦) ابن خلكان ٤٥٤ ج ١ (٧) طبقات الادباء ١٣٠
(٨) ابن خلكان ١٧ ج ١ (٩) ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣

٢ — العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لان الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره أما اذا أراد أن يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله. ولذلك فالامة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علماً . فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم إلا في القرن الخامس قبل الميلاد وأول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس المتوفى سنة ٤١١ ق . م . فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الاسماء ثم برودیکوس وقد عاصره وتكلم في المترادفات ثم جاء ارسطو وغيره وأتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية فانهم لم يدونوا قواعده إلا في القرن الاول قبل الميلاد في زمن بومبيوس وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس اقتداء باليونان

فاليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والادباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته واوذيسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً لان اللغة كانت ملكة فيه والف اشيلوس الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ونبغ الفلاسفة فريسيدس واناكسيمندر وطاليس وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والادباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو لان ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على انهم اضطروا إلى ضبط تلك القواعد وتدوينها باسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو. ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان لان السريان دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد وأول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوى الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة ٤٦٠ م (١) فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان

(١) شعراء السريان للقرداحي ١٨

في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فاعجبهم فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لان اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية

اما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالاعاجم والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب . لان العرب كانوا عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن . الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في ايام النبي يخطئون الاعراب وقد ذكروا رجلا لحن بحضرة النبي فقال « ارشدوا اخاكم فقد ضل » وقال ابو بكر « لان اقرأ فاسقط احب الي من أن اقرأ فالحن » (١) ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصا في قراءة القرآن فاحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة

اما واضع علم النحو أو مدونه فهو بالاجماع أبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين صحب علي بن ابي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم اقام في البصرة وكانه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد بن ابيه فأبى (٢) لاسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه امراً فسمعه يقول « اصلح الله الامير توفي ابانا وخلف لنا بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى ابي الاسود ان يضع ما كان قد نهاه عنه

وقيل بل السبب في وضعه ان بنت خويلد الاسدي دخلت على معاوية وقالت «ان ابوي ماتا وتركا لي مالا » (بالامالة) وبلغ ذلك علياً فرسم لابي الاسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع ابو الاسود رجلا يقرأ « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله فصنف باب العطف والنعت . ثم ان بنته قالت له يوما « يا ابت ما احسن السماء » على طريق الاستفهام فقال «نجومها» فقالت «انما اتعجب من حسنها » فقال « قولي ما أحسن السماء افتحى فاك » وقالت له يوما « ما اشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في الجملة الماضية فصنف باب التعجب (٣)

(١) المزهر ١٩٩ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ (٣) مفتاح السعادة (خط)

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكروا غيرها ولكن الفحوى واحد — فهم مجمعون على أن أبا الاسود وضع النحو لنحو الاسباب التي قدمناها وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب . فوضع علم النحو أو الشروع فيه على الاقل ثابت لابي الاسود ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه في خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب فكان في جملة مافيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني وبينها أربعة أوراق قال «احسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر »[1]

على أن ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع أو الفعل من الاسم فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر أو يميزون بها الفعل من الاسم كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربي

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو ابو الاسود وأتمه من جاء بعده من أهل البصرة والكوفة . وأول من أخذ عنه عنبسة بن معدان المهري وأخذ عن هذا ميمون الاقرن واخذ عنه عبد الله الحضرمي واخذ عنه عيسى بن عمر واخذ عنه الخليل بن احمد امام علم العروض واللغة ومنه اخذ سيبويه امام علم النحو [2] فتنوقل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر وهو ينمو ويرتقي عملا بناموس الارتقاء وألفوا فيه الكتب لكنه نضج في ايام سيبويه (توفي سنة ١٨٠ هـ) فالف فيه كتابه الشهير واصبح كل ما الف في النحو عيالا عليه وعلى كتاب العين الآتي ذكره . وكانوا اذا قالوا «الكتاب» ارادوا كتاب سيبويه وكان الناس يتهادونه كافخر التحف

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

الادب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معاني الفاظه وتفهم اساليب عباراته فجرهم ذلك الى البحث في أساليب العرب وأقوالهم واشعارهم وامثالهم ولا يكون ذلك سالماً من العجمة أو الفساد الا اذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخير من الفاظهم واساليبهم . فعني جماعة كبيرة من المسلمين في الرحلة الى بادية العرب والتقاط الاشعار والامثال والسؤال من أفواه العرب عن معاني الالفاظ وأساليب التعبير وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الادب.

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم واسد وعن هذه القبائل الثلاث اكثر ما أخذ من اللغة وعليها عول الناقلون في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا اخذوا شيئاً عن الحضر ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للامم الاخرى. - فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما أهل مصر ولا من قضاعة وغسان واياد لمجاورتهم اهل الشام واكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية . ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا من عبد القيس والازد وعمان لانهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم - والذين نقلوا اللغة وأساليبها عن القبائل المذكورة واثبتوها في الكتب وصيروها علماً هم أهل البصرة والكوفة فقط [1] وكان اكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك اكثر من العرب

علماء الادب بالبصرة والكوفة

ومن اقدم المشتغلين في جمع اللغة والادب واوسعهم حفظا ورواية ابو عمرو بن العلاء التميمي المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملا بيته الى قريب السقف [2] وقال مع ذلك « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »

(١) المزهر ١٠٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٣٨٦ ج ١

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الادب واللغة في القرن الثاني للهجرة اشهرهم أربعة في عصر واحـد وهم ابو زيد وأبو عبيدة والاصمعي والخليل وكان العلم كله عندهم والثلاثة الاول أخذوا عن أبي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة[١]

فابو زيد كان من الانصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة وأخذ عنه سيبويه . وابو عبيدة كان أعلم الجميع بايام العرب واخبـارهم واجمعهم لعلومهم ومن اقواله «ما التقى فرسان في جاهلية أواسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما» توفي سنة ٢٠٩ هـ والاصمعى غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده توفي سنة ٢١٣ هـ

وأما الخليل بن احمد المتوفى سـنة ١٧٠ فانه اسبقهم جميعاً وقد لقبوه بسيد علم الادب لانه أول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين سماه بذلك لانه رتبه على الحروف باعتبار مخارجهـا من الحلق فاللسان فالاسنان فالشفتين وبدأ بحرف العين وهاك ترتيبه ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف م و ا ي فكان الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية فانهم يبدأون باحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية[٢]

وكان من عادات العرب ان يسموا الكتاب باول لفظ من الفاظه ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبـه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم[٣] وكتاب الجيم لابي عمرو الشيباني[٤] ومن هذا القبيل كتاب العين في الحروف وكتاب الميم ونحوهما. ويستفاد من ملاحظة ترتيب الحروف في كتاب العين أن الجيم كانوا يتلفظون بهـا كالكاف الفارسية وان كثيراً من الاحرف تختلف عما تنطق به الآن

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر أو مثـل أو غير ذلك وما يسمعونه من معانيهـا لان عليها يتوقف تفسير القرآن ولذلك فانهم تحدوا فى نقل اللغة طريقة الاسناد المتسلسل كما كانوا يفعلون في رواية الحديث وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه لاعتبارهم ان ناقل اللغة يجب أن يكون عدلا كما يشترط في ناقل الحديث لانهـا واسطة تفسيره وتأويله . على انهم لم يستطيعوا ذلك تماماً

وزها القرن الثاني وبعض الثالث في البصرة والكوفة ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ

(١) المزهر ٢٠٢ ج ٢ (٢) William's Sanskrit Grammar 15
(٣) طبقات الادباء ٢٦٠ (٤) ابن خلكان ٦٥ ج ١

والادباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك وأهل الكوفة يأخذون عن أهل البصرة وهؤلاء يستنكفون أن يأخذوا عن أهل الكوفة لاعتقادهم أنهم غير محققين. ولم يعلم أن أحداً من البصريين أخذ عن أهل الكوفة الا أبو زيد الانصاري[١] على أن الشعر كان في الكوفة اكثر واجمع منه في البصرة ولكن كثيراً منه مصنوع . وأشهر علماء الكوفة الكسائي[٢] المتوفى سنة ١٨٢ هـ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وعلي الاحمر اللحياني وغيره كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة وأهل الادب

علماء الادب في بغداد

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الاسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم اليها . وغلب ورود أهل الكوفة الى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة . فقدمهم الخلفاء على أهل البصرة واستقدموهم اليهم ووسعوا لهم ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبدالله بن سعيد الاموي وأبو الحسن الاخفش الكوفي وأبو عكرمة الضبي وأبو عمرو الشيباني وغيرهم

وآل الامر بعد نضج علم الادب في العصر العباسي الى أربعة هم اركانه وعمدته دونوا علمهم في كتب شهيرة هي (١) كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقالي . وهذه الكتب هي مصادر علم الادب عند العرب الى الآن واكثر ما الف بعدها نقل عنها[٣]

ولما قدم العباسيون أهل الكوفة ارتقوا في عين انفسهم وأرادوا مسابقة أهل البصرة ومفاخرتهم ففامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والادب واللغة اشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نارها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة . وكان الكسائي يعلم الامين بن الرشيد فكان الامين ينصره كأن على انتصار احد النحويين يتوقف انتصار أهل بلده جميعاً . ولا بأس من ايراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار اهتمام الخلفاء في المسائل العلمية ـ وذلك ان الكسائي كان مقيما في بغداد يعلم الامين واتفق أن سيبويه قدم اليها من البصرة فجمع الامين بينهما في مجلس فتناظرا في أمور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور فذكر الكسائي من

(١) طبقات الادباء ١٧٥ (٢) المزهر ٢٠٦ (٣) ابن خلدون ٤٨٦ ج ١

أمثال العرب مثلا رواه على هذه الصورة « كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فاذا هو اياها » فقال سيبويه ليس المثل كذلك بل « فاذا هو هي » وتشاجرا طويلا واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر . وكان الامين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه فقال له « نريد أن تقول كما قال الكسائي » فقال « لساني لا يطاوعني على ذلك فانه ما يسبق الاّ إلى الصواب » فقرروا معه أن شخصاً يقول « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما » فيقول العربي « مع الكسائي » فقال « هذا يمكن » ثم عقد لهما المجلس واجتمع أئمة هذا الشأن وحضر العربي وقيل له ذلك فقال « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس

ويدل ذلك على عناية أهل الدولة بالمسائل الادبية وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على أنهم كانوا يهتمون بالاداب من أيام بني أمية فقد ذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة فقال مرة لبعض أهل مسامرته « أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ؟ » أراد أن يعدد اعضاء بدنه فيذكر عضواً أوله حرف الالف ثم عضواً أوله حرف الباء وهكذا الى الياء، فقام سويد بن غفلة فعدها فقام أحد الحاضرين فعدها في جسد الانسان مرتين[1] فاجاز الاثنين

وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ثم تميزت وتشعبت فصارت علوما عديدة كل منها مستقل عن الآخر كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وأمثالهم والجدل وغيرها وقد يطلقون عليها علم الادب ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة

بلاغة الانشاء

البلاغة في الانشاء مما اقتضاه القرآن لانه مثال البلاغة والفصاحة عندهم يتحدونه في خطبهم ورسائلهم وانشائهم واذا لم يتحدوه عمداً فشيوع حفظه فيهم اكسبهم ملكة البلاغة مع ما كانوا فيه من أسباب الحماسة والانفة في ابان دولتهم. فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ظهر في عبارتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة أو كتابة. أما بلاغة الخطابة فسيأتي الكلام عليها . وأما الكتابة فينظر فيها من

(١) الكشكول ١٥٥

عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب

انشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة من حيث التفنن في أساليب الخيال بالتهديد أو الوعيد أو النصح أو الاستنهاض أو الاستعطاف أو نحو ذلك من المعاني الشعرية وكانوا في أوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان عملا بالحديث القائل «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً» فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة كانهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء

ومن أمثلة الرسائل المختصرة البليغة ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص أمير مصر وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة «من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص سلام عليك أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت أنت ومن معك ان أهلك أنا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه» فكتب اليه عمرو «لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص أما بعد فيالبيك ثم يا لبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله »

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة ان عبد الملك بن مروان بنى باباً في بيت المقدس باسمه وأمر الحجاج فبنى باباً باسمه هوفاتفق ان صاعقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه « بلغني ان ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج وما مثلنا في ذلك الا كمثل ابنى آدم اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر» فسري عن عبد الملك بذلك

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من البلغاء ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ومن أمثلة ذلك ان المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتاباً الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب « كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معنى بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية» وكثيراً ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة وخصوصاً اذا أرادوا التهديد أو نحوه كما أجاب الرشيد تقفور ملك الروم وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الاموال ويطلب اليه ارجاع ما كان قد قبضه منها الى ان قال «وافتد نفسك بما تقع به المصادرة والا فالسيف بيننا وبينك» فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب

بعد البسملة « قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » وأجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب فكتب يوسف على ظهر الكتاب « الذي يكون ستراه »

التوقيعات

ويعد من هذا القبيل أيضاً التوقيعات وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام وكانوا يتفننون في التوقيع تفنناً بديعاً. ويغلب ان يجعلوا أجوبتهم آيات من القرآن أو جملا من الحديث أو أشعاراً مشهورة ومن أمثلة ذلك ان سعد بن أبي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنيان يبنيه فوقع عمر في أسفل الكتاب «ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر» ووقع عثمان ابن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا انه أمر بوجأ أعناقهم « فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » وكتب سلمان الفارسي الى علي بن أبي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة فوقع على جوابه «يحاسبون كما يرزقون»

وكتب عبد الله بن عامر الى معاوية في أمر يعاتبه فيه فوقع في أسفل الكتاب «بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام فأنت تراه» وكتب اليه ربيعة ابن عسل اليربوعي يسأله ان يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر الف جذع فوقع في أسفل الكتاب « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذنه بقتل أشرافهم فوقع له « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ومن شؤمه ان يختلف به المتألفون » ووقع عبد الملك في كتاب ابن الاشعث

فما بال من اسعى لاجبر عظمه حفاظاً وينوي من سفاهته كسري

ووقع عمر بن عبدالعزيز الى عامل شكاه الناس «كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت والسلام » (١) وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوقع على الكتاب « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم »

وقس على ذلك سائر توقيعات بني أمية وبني العباس وهي كثيرة وكلها بليغة كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لامرجاء عنه « أنا ساهر وأنت نائم » وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله أكثر منه » وتوقيع المأمون الى ابن هشام في أمر

(١) المسعودي ١٢١ ج ٢

تظلم فيه « من علامة الشريف ان يظلم من فوقه ويظلمه من تحته فاي الرجلين انت ؟ »

وكان الامراء والوزراء أيضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم أحدهم الى زياد بن ابيه من بعض عماله بكتاب فوقع له « انا معك » ووقع الحجاج في كتاب أتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها وما يقاسي من مداراتهم « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه » ووقع جعفر بن يحيى في قضية محبوس « ولكل أجل كتاب » ووقع لآخر « الجناية حبسته والتوبة تطلقه » وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لانهم سبقوهم الى ذلك

١وما زال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع د وقد بدأوا بذلك من أوائل القرن الثاني للهجرة. وأول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب وفتق أكمام البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ هـ وهو من اهل الشام [1] غير عربي . وسار الكتاب بعده على خطته وقلدوه وتوسعوا في طريقته فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والامراء وأكثرهم من غير العرب ومنهم يحيى بن خالد البرمكي فارسي والفضل بن الربيع من الموالي والفضل بن سهل فارسي والصاحب بن عباد من الطالقان وابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ خراساني وعماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ اصبهاني وهو أكثرهم توسعاً واطناباً

انشاء الكتب

ونريد بها الكتب المؤلفة في المواضيع الادبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف مواضيعها . وكتب الادب أحوج الى البلاغة لما تقتضيه المواضيع الادبية من التخيلات الشعرية والكنايات ونحوها . والغالب في كتاب الادب أن يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا أساليبهم في أشعارهم وخطبهم واقوالهم فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ولذلك كان الفقهاء وأهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال فيتعودون التعبير بعبارات وضيعة بعيدة عن أساليب الادباء . ولو حاولوا الكتابة في الادب أو نظم الشعر لجاء كلامهم ضعيفاً ركيكا

(١) ابن خلكان ٣٠٧ ج ١

فلغة الكتاب قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربية كانت أقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعدذلك لانها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة لكنه أقرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين تحدوه في صدر الاسلام اجادوا في الخطب والمراسلات لافتقارهما الى ذلك الاسلوب بما فيه من أسباب التأثير في النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من اسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . وأحسن أمثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم

﴿ ابن المقفع ﴾ كان ابن المقفع عريقاً في الفارسية عالماً بآدابها متمكناً من أساليبها لانها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية وقد نشأ في البصرة في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالادباء والشعراء فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية. فلما أقدم على نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة وقد تحداها من جاء بعده لانه أقدم من حفظ انشاؤه في المواضيع الادبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ هـ)

على أن سائر كتاب الادب نحو ذلك العصر فلما انشأوا شيئاً من عند أنفسهم لان أكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن أهل البادية أو عن بلغاء الخطباء بنصها وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم حدثنا فلان أو أخبرنا فلان أو خطب فلان فقال كذا وكذا وكتب فلان الى فلان كذا وكذا مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل ـ حتى ما كتبه أركان علم الادب في أواسط القرن الثالث للهجرة كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم فان كتبهم عبارة عن قطع من أقوال العرب أو مروياتهم منقولة بالاسناد الى أصحابها وشأنهم في ذلك شأن كتاب المغازي والفتوح والسير والاخبار والاشعار كحماد والاصمعي وأبي عبيدة ومحمد بن اسحق فانهم كانوا يقولون ويسندون أقوالهم الى الرواة وأكثرهم من أهل البادية . ويقال نحو ذلك فيما جمع بين هذه الفنون ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني وغيرهما فانها عبارة عن أخبار مسندة إلى أصحابها ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف

فكتاب كليلة ودمنة أقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد.

وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ونظراً الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره أو ما بعده من كتب الادب يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الاخرى التي كان يعرفها الكاتب أو لاقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الاسلوب. وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت أحد باحسن منه مع مابلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير مما يدلك على ان الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تقيد بالزمان أو المكان إلا قليلا

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن أو علم وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس أو السابع فاخذوا يحذفون الاسانيد أو يختصرونها إلا لاسباب خصوصية كما سترى في باب التاريخ

السجع

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الادباء والشعراء وأصبح الشعر شائعاً على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم وكثر تمثلهم به وتناشدهم إياه الف الناس التلذذ برنة القافية فاستحسنوا ادخالها أولا في المراسلات وهو التسجيع وقد كان في أول أمره مقبولا لقلته وحسن وقعه حتى أدخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في أواخر القرن الرابع. وأول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من احمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (١) وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة. وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في أيام الكهان

والتسجيع في الكتب أنبى على السمع مما في الرسائل وخصوصاً فيما لا يحتاج الى تنميق أو اطناب أو رنة أو خيال ككتب التاريخ والعلم. فمن يطالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ أو الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره او تاريخ آل سلجوق لعماد الدين أيضاً يرثقل الاسجاع على الاسماع في التاريخ وان حسنت أحياناً في الرسائل والخطب

على ان معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا إلا مرسلا وقد أجادوا

(١) ابن خلكان ٣٥ و ٣٩ ج ١

كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ونسبوا ذلك إلى ضعف ملكة الانشاء.(١)

٣ – التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الانسان أحقاباً لم يدون فيها التاريخ لانه لم يكن يعرف الكتابة ولان أحواله لم تكن تستدعي التدوين لسذاجتها مع انصراف همه في تلك العصور الى ضروريات الحياة على انه ما لبث ان أصيب بطوارق الحدثان فحفظ أكثرها تأثيراً في أحوال معائشه كالطوفان والقحط والحرب ونحوها وتنوقلت تلك الاخبار في اعقابه أدهاراً وهي تتعاظم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب والمنافسة في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المتمقة المستغربة . فوصلت أخبار الاوائل إلى زمن التاريخ وهي أشبه بالخرافات منها بالحقائق. واتخذ بعضها وجهة دينية والبعض الآخر حماسية واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية ويختلف ذلك باختلاف الامم والعصور. فنشأ من ذلك كله مايعرف بالخرافات القديمة كالميثولوجيا اليونانية في الالياذة وأخبار الهنود في المهابهاراتة وأخبار الفرس القدماء في الشاهنامة واخبار القبائل البائدة التي كان العرب يتناقلونها. فان ماينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لاتخلو من أصل تاريخي تعاظم وتضاعف بكرور الايام وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما

ويلي ذلك طبقة من الاخبار أقرب الى التاريخ من تلك كالهاجرات القديمة والحروب القديمة ومنها أيام العرب وحروبهم قبل الاسلام وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه في باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير أنسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ولا علم لهم باحوال الامم الاخرى إلا ماله علاقة بهم . غير ماكانوا يسمعونه من حوادث التوراة والتلمود من أحبار اليهود أو قسس النصارى ولايخرج ذلك كله عن أخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة أو واقعة لا علاقة لها بالحوادث الاخرى

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من أضعف الامم المتمدنة في التاريخ . فلما

(١) ابن خلدون ٤٩٨ ج ١

ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب حتى إذا استتب لهم الامر وفرغوا من الفتح تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ليس لانه خاصاً بالاسلام بل لان الاسلام دعا الى وضعه كما سترى

قد تقدم في كلامنا عن « حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم الا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها وخصوصا اخبار الفرسان والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء لما في ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس

وكان اكثر الخلفاء دهاء وسياسة اكثرهم رغبه في استماع الاخبار ـ فمعاوية بن أبي سفيان داهية بني أمية كان يجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل فيقصون عليه أخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها. ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسيات [1] والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب في اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لان العرب لم يدونوا الكتب الا بعد زمن معاوية

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ولذلك كان اكبر القواد العظام الراغبين في العلى من العرب وغير العرب يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد واذا وقع احدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من امثالها قبله تسهيلا لابداء حكمه فيها ـ يقال ان المنصور لما هم بقتل ابي مسلم الخراساني تردد بين ان يمضي قتله أو يشاور فيه لما كان لابي مسلم من السعي الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى أرق فلما اصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال له « حدثني حديث الملك الذى اخبرتني عنه في حران » فقص عليه الحديث وخلاصته ان سابور ملك الفرس انفذ وزيره الى خراسان يدعو اهلها الى طاعته فمضى وسعى في تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان فلما رجعوا بغتهم فلم ينتبهوا الا ورأس الوزير بين أيديهم فاضطروا

(١) المسعودي ٥٢ ج ٢

الى طاعة سابور ـ فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية ابي مسلم اطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الانسان الا ليعلما

وأقر على قتل أبي مسلم وقتله (١) وكان بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان احضرت له كتب التواريخ والسير وجلسوا يقرأون عليه احوال العالم فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة وكان من الامثال الشائعة في أوائل الاسلام قولهم « علم الملوك النسب والخبر وعلم اصحاب الحروب درس كتب الايام والسير وعلم التجار الكتاب والحساب » (٢)

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء في أمور الدولة اصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ أو السير خوفاً من أن يتفطنوا الى أشياء لا يحب الوزراء ان يفطنوا لها ـ قيل ان المكتفي طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه « والله انكم اشد الناس عداوة لى انا قلت لكم حصلوا له كتبا يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري فقد حصلتم له مايعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الاموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعار تطربه » (٣) ففعلوا

مصادر التاريخ الاسلامي

للتاريخ الاسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الاحوال واليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بها الآيات أو قيلت بها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لانها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . وأول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ الفها للمنصور. على اننا رأينا في كشف الظنون ان محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ الف كتاباً في المغازي(٤) وقد توفي قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما في وفيات الاعيان

(١) البيان ١٥٥ ج ٢ (٢) العقد الفريد ١٥٠ ج ١
(٣) الفخري ٥ (٤) كشف الظنون ٣٩ و ٣٠١ ج ٢

انهما كانا متعاصرين . ويقال ايضا ان أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ (١) وفي كل حال فان هذه السير ضاعت واقدم ما وصل الينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام وهي منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة

ولما اشتغل المسلمون فى ضرب الخراج على البلاد اختلفوا في بعضها هل فتح عنوة أو صلحاً أو أماناً أو قوة وفي شروط الصلح أو الامان . فاضطروا الى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد فالفوا كتباً في فتح كل بلد على حدة. كفتوح الشام للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات . وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً في كتاب واحد كفتوح البلدان أو فتح الامصار للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ وهو أوثق كتب الفتح واشملها وأقدم ما بين أيدينا منها الا الواقدي

الطبقات والمغازي

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والادب أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في اسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرهم ذلك الى النظر في رواة تلك الاسانيد وتراجمهم وسائر احوالهم حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الاخبار بمتونها واسانيدها والاحاطة باحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها والاحاطة بالوقائع الخاصة بها (٢) فقسموا رواة كل فن الى طبقات فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات . ومنها طبقات الشعراء وطبقات الادباء وطبقات النحاة وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والاطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم والفوا في كل باب غير كتاب. ولذلك كان المسلمون اكثر أمم الارض كتباً في التراجم لافراد الرجال؟

وأقدم كتب الطبقات التي وصلت الينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلداً ويحتوي على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء الى أيام المؤلف (٣) وكان هذا الكتاب

(١) كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٥٤ ج ١ (٣) ابن خلكان ٥٠٧ ج ١

مشتتاً في مكاتب العالم ومنه الجزء الثاني في دار الكتب الخديوية بمصر وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف أن جمعية المانية شرعت في طبعه وأصدرت الجزء الاول منه . ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في ليدن في هـذا العام بعناية الاستاذ دي كويه المستشرق الهولندي الشهير . ثم الف الناس طبقات كثيرة في أزمنة مختلفة ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى كوفيات الاعيان والوافي في الوفيات وفوات الوفيات وغيرها مما سيأتي ذكره غير التراجم الدخيلة في تواريخ البلاد كتاريخ دمشق لابن عساكر في ثمانين مجلداً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي فى نحو ذلك وفيهما تراجم كثيرة

وكان طلاب الادب الراحلون في جمع اللغة والشعر من أفواه أهل البادية يلتقطون أخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك في كتب الادب كما تقدم . ناهيك بالاخبار المستخرجة من تلك الاشعار ـ قال ابن يونس « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس »(١)

ولما استبد بنو أمية في الخلافة واعوجوا في أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر اعمالهم المؤسسة على العدل والرفق ـ وذلك طبيعي في هذه الاحوال . ثم الف بعضهم كتباً في تاريخ الخلفاء الرشدين ثم في الخلفاء على الاجمال وأقدمهم الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ ويقال نحو ذلك في تأليف تراجم الوزراء وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسير والفتوح على ماتقدم . أما التواريخ العامة مثل تواريخ الامم أو البلاد قديماً أو حديثاً فلم يشتغلوا بها الا بعد ذلك وأقدم من كتب في التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبي وكتابه مطبوع في جزئين جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم والثاني في تاريخ الاسلام من ظهوره الى أيام المعتمد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليه ابن جرير الطبري المفسر الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتاريخه كبير مرتب على السنين ينتهي الى حوادث سنة ٣٠٢ هـ وقد الف الفرغاني عليه ذيلا ينتهي الى سنة ٣١٢ هـ وكلاهما مطبوع . ثم المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ صاحب مروج الذهب وفيه وصف البلاد والبحار

(١) البيان ١٢٤ ج ١

والحيوانات وغيرها فضلا عن التاريخ وهو مبوب حسب الدول أو الامم ومطبوع . وللمسعودي كتاب سماه « أخبار الزمان » قد ضاع ولم يقف له أحد على أثر ولكن يظهر مما ذكر عنه في مروج الذهب أنه مطول جداً . يليه حمزة الاصفهاني صاحب تاريخ سني ملوك الارض فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة اذ انقضت الدول الاسلامية العربية ـ العباسية في العراق والفاطمية في مصر والاموية في الاندلس . وقامت دول الاتراك والاكراد والبربر فانتقل الناس الى عصر جديد فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضي فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوبوا مشوشها وجمعوا بين مواضيعها وأضافوا مالم يدركه اصحابها . وألفوا عدة تواريخ مطولة أشهرها وأوعاها وأضبطها كتاب الكامل لابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ فقد ضمنه تاريخ الطبري كله بعد حذف الاسانيد واختصار النصوص المطولة وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث في زمن الطبري في الاندلس وغيرها . ورتب ابن الاثير كتابه على السنين مثل كتاب الطبري فجاء ١٢ مجلدا كبيرا وهو مطبوع . وجاء بعده ابو الفداء صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢هـ فاخذ الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيراً من أخبار الادباء والعلماء وتوسع في اخبار العرب الجاهلية وابقاه على حوادث السنين فجاء في ثلاثة مجلدات وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فاختصر تاريخ ابي الفداء

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالماً دقيق النظر صحيح القياس فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين وأفاض خصوصاً في أخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه أحد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج احد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفي شهرتها ما يغني عن وصفها

ونهج بعض المؤرخين في تآليفهم منهجاً آخر فجعلوا مؤلفاتهم باسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . وأطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ في ثمانين مجلدا وقد تقدم ذكرهما وكلاهما لم يطبعا والثاني اكثر وجودا من الاول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندي ثم للقضاعي ثم للمقريزي

وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها اخبار مصر القاهرة لابي المحاسن والسيوطي

التراجم والمعجمات

واما التراجم فكانت في القرون الاولى تدون في الطبقات باعتبار المهن أو العلم الذي يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم واخذ العلماء في الترتيب والتبويب نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم واشهر تلك الكتب « وفيات الاعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ثم « فوات الوفيات » لصلاح الدين الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيات » لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعا في مكتبة واحدة ولا جمعوه بعد فهو لم يطبع ومنه اجزاء متفرقة في مكاتب أوربا . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ في ٤٠ مجلدا وهو مشتت . وفي تراجم اهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ وكتاب « المعجم » لابن الابار وغيرهما

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس أو طبقة من طبقاتهم ككتاب « أسد الغابة » في أخبار الصحابة لابن الاثير صاحب الكامل وهو في خمسة اجزاء كبيرة وخاص بالصحابة وهو مطبوع ومنشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطي غير مطبوع

على أن كثيراً من التراجم والاخبار التاريخية منتشر في كتب الادب ككتاب الاغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولا تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ككتاب حياة الحيوان للدميري فان فيه فصولا تاريخية قلما نعثر عليها في كتب التاريخ

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الامم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم واكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم أخذ اهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة هي كنوز في التاريخ والجغرافية والادب والعلم . فوفيات الاعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على احرف الهجاء غير ما جاء عرضاً في اثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه انه يضبط الاعلام من اسماء الرجال والاماكن ويذكر سني الوفاة والولادة ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الادبية والعلمية مما يندر في سواه .

ويقال نحو ذلك في قواميس التراجم الاخرى كفوات الوفيات وفيه أكثر من ٤٥٠ ترجمة لم يذكرها ابن خلكان . وكتاب الوافي في الوفيات واسد الغابة في اخبار الصحابة وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ككتب الطبقات للشعراء والفقهاء والاطباء ومن احاسنها كتاب طبقات الاطباء لابن ابى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ فانه جامع تاريخ الطب والاطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان فضلا عن العرب والمسلمين وهو مرتب بحسب العصور والبلاد . ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والاداب الاجتماعية وغيرها . وهو مطبوع ومشهور

عـدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألفوا في التاريخ كتباً لا تحصى وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم مابلغ اليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة اسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب وأهمل ذكره وهو كثير جداً ـ يدلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ أو الجغرافية اذ يذكر المؤلف كتباً عديدة نقل عنها أو اعتمد عليها في تأليف كتابه فاذا بحثت عنها رأيت اكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون أو غيره . فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه مروج الذهب عشرات من الكتب التي كانت شائعة في ايامه وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل . فلو بقيت الكتب التي ألفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في أربعين مجلداً أو خمسين أو ثمانين ومنها في عشرة أو خمسة أو أقل أو أكثر

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الاثير وابي الفداء أو باعتبار الامم أو الدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون أو بحسب المدن أو الملوك مما لا يحصى . واكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ربما زاد في بعض الاحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين لما تعودوه من الاسناد في تناقل الاخبار الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لاغراض بعض ذوي المطامع أو الاهواء والعرب لايزالون على سذاجتهم

عيوب المؤرخين المسلمين

وانما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ أو التراجم على ايراد

الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم وقد يسندونها الى راو أو عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالاسناد . وقد فاتهم أن بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول أو ما بعده لاغراض سياسية كما وضع كثير من الاحاديث لاسباب تقدم بيانها

ومما ينتقد عليهم أيضاً أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين أخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة . وقلما يذكرون تاريخ الاداب او العلوم أو أحوال الدولة من الحضارة واسبابها وتعليل الحوادث وما نجم عنها وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضاً . فيندر أن ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة او انتقاداً على خليفة او أمير او ملاحظة على نكتة حتى في الاحوال التي يعلم انه لا يسيء به الخليفة بل قد يكون في انتقاده ما يسر ذلك الخليفة كما كانت حال مؤرخي الدولة العباسية في شؤون الدولة الاموية فان شدة العباسيين على الامويين مشهورة ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئاً من مساوىء بني أمية الا ما قد يجيء عرضاً — ولعل السبب في ذلك السكوت ان حوادث التاريخ الاسلامي اكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة واخرى أو مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين أو أميرين مسلمين لا يخلو أن يكون احدهما ظالماً والآخر مظلوماً فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في احدهما احتراماً لمقام الدين فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء — وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامي من كتب التاريخ

وقد يكون من أسباب سكوتهم عن مساوىء بعض الامراء التزلف اليهم أو الاستجداء بمدحهم وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء أو السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويجيزونهم على تأليفها فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن ألطف الشواهد على ذلك ماقاله أبو اسحق الصابي الكاتب الشهير وقد كلفه عضد الدولة بن بويه أن يؤلف له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية فألف له تاريخاً سماه « التاجي » فاتفق وهو يؤلفه ان دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله فقال « اباطيل انمقها واكاذيب الفقها »(١)

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخسه حقه عمداً كما فعل الفتح ابن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير(٢)

(١) ابن خلكان ١٢ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٦١٢ ج ٤

ويندر أن ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوىء أحد الخلفاء أو الامراء أو غيرهم من أولي الامر . واكثر ما عثرنا عليه من أمثال ذلك في كتاب الآداب السلطانية للفخري وتاريخ ابن خلدون . أما الفخري فقد صرح بذلك انتصاراً لآل علي كقوله على أثر حكاية وقعت للرشيد مع أبي نواس فاورد الفخري قول أبي نواس في الرشيد

قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفك الله

ثم قال « ولم يكن الرشيد يخاف الله وافعاله باعيان آل علي (عم) أولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » وهذا تصريح لم نر له شبيهاً في كتب مؤرخي المسلمين الا ما قد يقوله الشيعة في أعمال أهل السنة أو بالعكس. وأما ابن خلدون فقد انتقد اعمال بعض الدول أو الخلفاء مدفوعاً بالقياس الصحيح والحكم الفلسفي

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين ايضاً بالنظر الى آداب هذه الايام انهم اذا عرض لهم في بعض الاخبار الفاظ بذيئة أو واقعة يخجل سماعها الاديب فانهم يذكرونها بالفاظها كما يذكرون سائر الحوادث ويدخل في ذلك كثير من الاشعار السفيهة وهم يسمون ذلك احماضا . وقد يتبادر الى الذهن انه من مقتضيات تلك الاعصر أو انه لم يكن منكراً عندهم . والحقيقة ان أهل الادب الصحيح من أولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع في ذلك وفي جملتهم ابن خلكان فانه من ابعدهم عن الفحش في القول ، ومن الادلة على ادبه انه لما ترجم حسين بن محمد المنعوت بالبارع وهو من الشعراء المشهورين ساقه الحديث الى قصيدة نظمها أحدهم للبارع المذكور وقصيدة أجابه البارع بها فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيده ثم قال « لولا ما أودعها من السخف والفحش لذكرتها »

الجغرافية أو تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كاف للدلالة على أن هذا الفن ليس من موضوعات العرب ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ولان العرب كتبوا فى وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لاسباب خاصة بالاسلام

لم يقدم البشر على وضع علم أو فن الا لاسباب حملتهم على ذلك لانهم يساقون في شؤنهم واعمالهم بالحاجة ولذلك قالوا الحاجة أم الاختراع . واضطرارهم الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة بل جاء بالتدريج فنما واتسع عملا بناموس الارتقاء .

وأهم الاسباب التي دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديماً الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها اما للتجارة او للفتح فجمعوا معلومات التجار والفاتحين بتوالي الازمان وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها حتى اتيح لها من رتب أبوابها وضبط اجزاءها وجعلها علما

وأول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون لانهم اقدم تجار العالم واكثرهم اسفاراً فقد رادوا شواطىء البحر الابيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً. وكانت مدينة صور مركز العالم التجاري في تلك الايام تجتمع حاصلات الامم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . واسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على اصلها الهندي . فاطلع الفينيقيون في اثناء اسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها وأخبار اهلها

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند برا وبحراً اطلع رجاله على احوال اواسط آسيا واعاليها فاشتغلوا في جمع الاخبار والاوصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطىء البحر الاحمر الى الحبشة . ثم الرومان وغيرهم

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالي الاجيال والناس يتناقلونها متقطعة متفرقة ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . وأول من فعل ذلك اراتستين اليوناني المتوفى سنة ١٩٦ ق م على عهد البطالسة فألف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون أورواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافي بلينيوس الى زمن بطليموس القلوذي في أواسط القرن الثاني للميلاد فألف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخرط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق أماكنها على مابلغ اليه العلم في عصره وذكر فيه عدد المدن في أيامه ٤٠٣٥٠ وسماها مدينة مدينة وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما في بطونها من المعادن وذكر ما على الارض من الخلائق وغير ذلك. فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه في تقويم البلدان . فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسي كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطي وعلى هذين الكتابين بنوا أكثر ما كتبوه في علم الجغرافية

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان أو غيرهم الى وضعها. لان العرب من أكثر الامم فتحاً وغزوا وقد تفرقوا بعد الاسلام في أربعة أقطار المسكونة. وهم وخصوصاً أهل الحجاز كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم. أما الاسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فاولها الحج لان المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون الى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند أو الصين أو غيرهما والقدوم الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل. وثانيها الرحلة في طلب العلم فقد رأيت فيما تقدم ان المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الامصار الاسلامية والرحلة تستلزم معرفة الاماكن والمناطق. ولذلك كان اول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند انفسهم ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية. وأول من ألف في ذلك رواة الادب والشعر كالاصمعي والسكوني ثم ألفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمذاني في جزيرة العرب وأبو الاشعث الكندي في جبال تهامة[1] وغيره. والسبب الثالث أن العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين أن تكون قد فتحت صلحاً أو عنوة أو أماناً أو قوة ولكل من ذلك حكم في قسمة الفيء وأخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويفات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلا عن الامراء. فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ولا يتوصل اليه الا بالتاريخ والجغرافية

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيراً من مغالط بطليموس. والظاهر أن علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الا في القرن الرابع للهجرة فتهافت الناس على التأليف فيه مثل تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ أبو زيد البلخي ألف في أول القرن الرابع كتاباً في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد أن قسمها الى عشرين جزءاً ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك

(١) معجم يا قوت ٧ ج ١

كثيراً من أمهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه أبو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي وكان محباً للاسفار فسافر وحقق بنفسه كثيراً من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقي على كتاب البلخي وألف كتاباً سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . وأما كتاب البلخي فقد ضاع

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم البلخي فجعل بلاد المسلمين عشرين قسما بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة وذكر البلاد وحرفها وتجارتها وغير ذلك . ونسج نحو ذلك الزمن ابن حوقل فألف كتاب « المسالك والممالك » وقد سار بنفسه أيضاً لمشاهدة البلاد ـ قال في مقدمة كتابه « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخارطات الكثيرة . لكل اقليم من أقاليم الاسلام خارطة أو غير خارطة ورسم المدن والانهر والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخري والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن

ثم الف ابن الفقيه الهمذاني والمقدسي والمسعودي وغيرهم . وقد رحل المسعودي رحلات عديدة بلغ بها الى أقاصي الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من أهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن الا الخارطات فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها أو الاشارة اليها

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه فنهض جماعة ألفوا في الجغرافية كما الفوا في التاريخ فوضعوا المعجمات الجغرافية على أحرف الهجاء وأشهر من فعل ذلك ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فقد ألف كتاباً ضخماً سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والاصنام والابداد والاوثان وضمن ذلك كثيراً من تراجم الناس في أثناء ذكره للبلاد التي ولدوا فيها أو نسبوا اليها . فهو قاموس جغرافي تاريخي ادبي . ولابي الفداء صاحب حماه أيضاً كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها فضلا عن الرحلات الكثيرة التي خدم العرب بها الجغرافية فنكتفي بالاشارة اليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية

الاداب العربية الجاهلية

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء لحاجة المسلمين اليها في الفتوح والغزوات والعرب يومئذ لا يزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة أو الشعر. والخطابة أقرب تناولا ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء - فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويفخم شانهم ويهول على عدوهم ويهيب فرسانهم أصبح الخطيب في الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة [1] في استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء.

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء ومن تحدي أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضاً ولكن الخطابة أوسع مجالا للاقتباس. فاخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلا أو اشارة أو تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لاخيه عبد الله فصعد المنبر وقال « بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) [2]

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه أحد من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعاً

(١) البيان ٩٨ ج (٢) البيان ٢٩ ج ٢

وتأثيراً حتى اليونان والرومان ـ لا تنكر ما كان من تبرز هاتين الامتين في الخطابة وما نبغ بين رجالها من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان ولكن العرب لم يأتوا باقل مما أتى به اولئك بلاغة ووقعاً . وربما كان الخطباء في الاسلام أكثر عدداً وخطبهم اوفر وأبلغ مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقاً وادباً

فقد ذكروا لديموستنيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأ وهذه خطب الامام علي تعد بالمئات . واما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء لان خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد (١) ولا غرابة في ذلك لان العرب أهل خيال وذوو نفوس حساسة وللبلاغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ماساعد على نشر الاسلام بينهم ـ وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع أو الهجوم . وفي أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على إيرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم

فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة ـ كان العراق متمرداً على عبد الملك فلما أعجزه امره ولى عليه الحجاج فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه واضعاً ابهامه على فمه فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وأزاح لثامه عن وجهه ولفظ خطبته التي قال في مطلعها :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

الى أن قال :

« اما والله لاحمل الشر بثقله واحذوه بنعله واجزيه بمثله . أما والله اني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وكأني أرى الدماء بين العمائم واللحى

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم

« ألا وان امير المؤمنين عبد الملك بن مروان كب كنانته فعجم عيدانها فوجدني

(١) البيان ١٣٥ ج ١

اصلبها عوداً فوجهني اليكم . فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي . اما والله لا لحونكم لحو العصا ولاعضبنكم عضب السلمة ولاقرعنكم قرع المروة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل . والله ما اخلق الا فريت ولا اعد إلا وفيت ... الخ »(١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له وكان شديداً عليهم وامره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقى المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه يخيل للسامع انه صادق وان أهل العراق ظالموه (٢) ولذلك كان الامراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء لما في أقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة

واذا رجعت الى حوادث الفتح أو جمع الاحزاب او اخماد الثورات رأيت عجباً واول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ اهل المدينة موت النبي فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام ابو بكر خطيباً فقال « ايها الناس ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يمت. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم . . وقد علمتم انى اكثركم قتباً في بر وجارية في بحر فاقروا اميركم وانا ضامن ان لم يتم الامر ان اردها عليكم » (٣) فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة

وقس على ذلك خطبته في السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين وأخطبهم بلا خلاف علي بن أبي طالب وفي كتاب « نهج البلاغة » المنشور بين ظهرانينا أكبر شاهد على ذلك وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه فاكثرها من أقواله وفيها أمثلة من كل ضروب الخطب ومنها الدينية والادبية والعلمية والحماسية والفخرية

وكان أكثر الخلفاء يخطبون ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة على ان تلك القوة أخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في أسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية. وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم أو اخماد الفتن لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح. على انهم كانوا اذا احتفلوا

(١) العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره (٢) البيان ٢٠ ج ١
(٣) البيان ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١

بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة (١)

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك وخطبة المغيرة في وقعة القادسية وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس وخطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة أو دمشق او بغداد او غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة او استنفاره او استنجاده او استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم (٢) ولاقتباس اساليب البلاغة منهم

ويعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات فقد كان الخلفاء وخصوصاً في صدر الاسلام اذا كاتبوا اميراً في امر تحدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب في قوي العارضة في الخطابة ان يكون بليغاً في الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك

الشعر بعد الاسلام

الشعر وبنو أمية

لما ظهر الاسلام ودهش العرب باساليب القرآن وبالنبوة والوحي واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام انصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين والعرب في شاغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل بيت النبي واحتاجوا الى من يؤيدهم استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الاحزاب بالاموال واستخدموهم بالدهاء فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء اما ليرغبوا الناس في خلافتهم أو ليقطعوا السنتهم فيسكتوا عن هجوهم ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه

فكان الخلفاء من بني أمية يرغبون الناس في الشعر ويجيزونهم باعظم الجوائز على

(١) نفح الطيب ١٧٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم في أقوالهم ، وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الاشعار والآثار . على ان تحريض الناس على تعليم أولادهم الشعر بدأ في ايام عمر كما تقدم. أما بنو امية فقد بذلوا المال والسعي في هـذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم « اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم » (١) وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه واقتدى به خلفاؤه وامراؤه حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن اشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم واذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به اهل العلم كما كاتب قتيبة بن مسلم (٢) . وكانوا اذا امسك الشعراء عن ابوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالاموال والاكرام . ومن اكثرهم رغبة في الشعر عبدالملك بن مروان فكان الناس في ايامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الاشعار ويتدارسون اخبار الشعراء (٣)

وقد يتبادر الى الاذهان انهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الادب وتنشيطاً لاهله لان الشعر سجية في العرب ودولة الامويين عربية بحتة . فلا يبعد ان يكون لذلك يد في الامر ولكن الاغلب انهم كانوا يفعلونه للاستعانة بألسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت لعلمهم أن الجمهور يعتقدون الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون ينعم بني أمية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال

فالفرزدق مثلا امتدح بني أمية ونال جوائزهم وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم والامويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة أخباره أن مروان بن الحكم وكان عاملا لمعاوية على المدينة بلغه عن الفرزدق قولٌ أوجب حدَّه فطلبه ففرَّ الفرزدق الى البصرة . فقال الناس لمروان « أخطأت فيما فعلت فانك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه . ومع ذلك اتفق ان الخليفة هشام بن عبد الملك ذهب الى الحج وبينما هو في الطواف شاهد علي ابن الحسين وأنكره فسأل عنه وكان الفرزدق حاضراً فنظم قصيدته المشهورة في مدح أهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

ومما يدل على أن بني أمية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم أن عمر بن عبد العزيز أتقاهم وأعدلهم لما أراد أن يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢ (٢) المزهر ٤٢٠ ج ١
(٣) لطائف المعارف ٧٠

والزهد منع الشعراء من بابه وأعلن أنه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء[١] فلم يطل حكمه وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالاموال

الشعر وبنو العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين عدل المنصور عن اكرام الشعراء وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء أو نيل جوائزهم فاصبحوا اذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه أياماً حتى تنفد نفقاتهم ويملون الانتظار وحاجبه يرفع أمرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم اذا أذن لهم بعد ذلك اشترط عليهم أن يمدحوه كما كانوا يمدحون بني أمية[٢] وكان بخيلا عليهم فتغيرت قلوب الشعراء عليه فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنه وميلهم الى العلويين فاستفحل أمر محمد بن عبد الله بالمدينة وقاسى المنصور أمر العذاب في اخماد ثورته . فاصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون إغضاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين وخصوصاً الرشيد فقد كان مروان بن أبي حفصة يتقرب اليه بهجائهم [٣] وبعد أن كان الشعراء يسمون في أيام بني أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالغ المأمون في اكرامهم حتى كان يغضي عنهم اذا هجوه . ذكروا أن دعبلا الشاعر الخزاعي هجا ابراهيم بن المهدى فرفع ابراهيم أمره الى المأمون فقال له المأمون «لك اسوة بي فقد هجاني واحتملته وقال في :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو ما رأى بالامس رأس محمد
اني من القوم الذي سيوفهم قتلت اخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد»

فقال ابراهيم « زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين »[٤]

وتزاحم الشعراء بباب المهدي والرشيد والمأمون ونبغ بشار بن برد العقيلي وأبو نواس وأبو العتاهية وغيرهم

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية فلما تغلب العنصر الاعجمي في دولة بني العباس وصارت الامور الى أيدي الاتراك ضعف أمر الشعراء . حتى اذا قامت دولة بني حمدان وهم عرب عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة حتى قيل

(١) العقد الفريد ١١٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ٩٢ ج ١
(٣) ابن خلكان ٨٩ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٧٩ ج ١

إنه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه . وكان هو أديباً شاعراً فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والوأواء وغيرهم

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الخمول وكان قد أينع في دولة بني أمية بالاندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما يجيء

أما دول المسلمين غير العرب فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ولكن الغالب فيهم أن يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة أو المباهاة وهو لا يفهم مايقرأه من مدائحه - ومما يضحك من هذا القبيل أن الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين وهو من البرابرة اللمتونية بالمغرب ونظموا القصائد فى مدحه بواسطة المعتمد بن عماد. فلما أنشدوه قصائدهم قال له المعتمد « ايعلم أمير المسلمين ما قالوه » قال « لا أعلم ولكنهم يطلبون الخير » ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء « يطلب منا جواري سوداً وبيضاً » قال « لايامولانا ما اراد الا أن ليله كان بقرب امير المسلمين نهاراً لان ليالى السرور بيض فعاد نهاره ببعده ليلا لان ليالي الحزن سود » فقال « والله جيد اكتب له في جوابه ان دموعنا تجري عليه ورءوسنا توجعنا من بعده »[1]

جمع الشعر ورواته

لما اخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الالفاظ كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها فاضطروا الى جمعه بالاخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الاول للهجرة . وأكثر الناس اشتغالا في جمع الشعر اهل العراق مما يلي بلاد العرب اي في البصرة والكوفة ، وكان أهل الكوفة اجمع للشعر من اهل البصرة [2] وأول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفى سنة ١٥٥ هـ[3] وخلف بن حيان الاحمر الفرغاني مولى ابى بردة [4] وابو عمرو بن

(١) نفح الطيب ٧٨١ ج ٢ (٢) المزهر ٢٠٦ ج ٢
(٣) ابن خلكان ١٦٤ ج ١ (٤) طبقات الادباء ٦٩

العلاء وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم ، واكثرهم من رواة الادب واللغة وقد مر الكلام على ذلك في بابه

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الالوف من القصائد ما لم يسمع له مثيل في امة من الامم كما تقدم . على أن بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لاسباب دعتهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا فى هذا النحو ما يتجاوز الابيات القليلة . قال خلف الاحمر « اتيت الكوفة لاكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح حتى مرضت فقلت لهم ويلكم انا تائب الى الله هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني فبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب »[1]

وقال ابو عمرو بن العلاء « مازدت في شعر العرب الا بيتا واحداً وهو :

وانكرتني وماكان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا

ادخلته في جملة ابيات الاعشى » . وفعل حماد ايضاً نحو ذلك[2] على ان العرب ما لبثوا ان اخذوا في تمحيص الروايات بالاسانيد بعد أن تعودوا ذلك في رواية الحديث

ومن عادة العرب في رواية الشعر انهم كانوا من ايام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي اشعاره ويتلوها أو يروي له أشعار غيره للشاهد أو نحوه . ويغلب في الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية كأنه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه . وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ لانهم لم يكونوا يكتبون فكان كثير عزة راوية جميل بثينة وجميل راوية هدبة بن خشرم وهدبة كان راوية الحطيئة والحطيئة راوية زهير وابنه [3] وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له ويعجب به اعجاب التلميذ باستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتاج العرب الى جمع الشعر كثر رواته أو جماعه وكل منهم يجمعه ويرويه لغرض. فالنحويون كانوا يعتنون بحفظ الاشعار التي يستشهد بها في الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب أومعنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر مايجدون فيه الشاهد والمثل . وكان فيهم من يروي اشعار المجانين ولصوص الاعراب والارجاز الاعرابية القصار واشعار اليهود . على ان هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة . وتفرد جماعة بجمع كل أنواع الشعر وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهما. وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة لتعويد

(١) ابن خلكان ٢٠٨ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١ (٣) الاغاني ٧٨ ج ٧

ذاكرتهم على ذلك مذ أخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث لتجنب الكتابة للاسباب التي قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين الف قصيدة يرويها باسانيدها ومعاني الفاظها كما تقدم . وكان للشعراء عناية خصوصية في حفظ اشعار العرب، لاكتساب ملكة العرب فيها . لانهم كانوا يعتقدون ان من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله . أو للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة اذ كان للخلفاء والامراء في الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع اشعار العرب

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر ولكنه يختلف فيهم معنى واسلوبا باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوي الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البيداء لا يرى حوله الا رمالا أو اطلالا إذا لذعته الشمس أوجنه الظلام أوى الى بيت من الشعر أو الوبر أنيسه فيه البعير والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيعه السيف والرمح يتوسد على حذر من عدو يبغته أو حشرة تلسعه واذا واعدحبيبته فموعدها الرقمتان أو العقيق فيلتقيان على اكمة أو في واد . يعبد آلهة من الحجارة أو الاخشاب أو يصنعها من التمر واذا جاع اكلها . فالبدوي الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور الشماء والحدائق الغناء ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود ابهة الدولة وجلال الملك وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى اسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ. فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الاحوال. ولذلك كان الشعر الجاهلي أقرب الى الخشونة والمتانة مع خلوه من زخرف الكلام وأساليب الكناية والمجاز

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الاحاديث وعني الناس بجمع الآداب والامثال واستظهار احاسنها وأحاسن الشعر نهضت طباع الناس وارتقت أذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة وأصفى رونقاً واقتبسوا من الفرس أساليب الاطناب. ولذلك كان الشعراء الاسلاميون أعلى طبقة في البلاغة واذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وذي الرمة والاحوص ارفع طبقة في البلاغة والتفنن في اساليب التعبير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة (١) كما كان الخطباء الاسلاميون أحسن ديباجة وابلغ عبارة من خطباء الجاهلية

(١) ابن خلدون ٥٠٨ ج ١

فالجاهليون طبقة أولى تليهم طبقة الاسلاميين الى أواخر دولة بني امية وهم المخضرمون ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين تليها طبقة المحدثين. ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها لان كثيرين من الشعراء ادركوا اواخر احدى هذه الطبقات واوائل التي تليها . فمن شعراء الجاهلية من ادرك الاسلام ومن المخضرمين من ادرك زمن المولدين وقس على ذلك

وانما نقسم الشعراء الى هـذه الطبقات تقسيما اجماليـاً . فالطبقة الاولى شعراء الجاهلية والمراد بهم من كان شعره جاهليـاً أو نظم اكثره قبل الاسلام . ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها او وصفوا اسداً او بيتاً او ظبياً لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل او مبالغـة . واشهر اهل هذه الطبقة اصحاب المعلقات

والطبقة الثانية وهي المخضرمون تشبه الاولى من حيث بقاء اهلها على البداوة في عهد الامويين ولـكنها اسمى منها في البلاغة للاسباب التي قدمناها وعليها مسحة من الحضارة ومن اشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجرير والاخطل والفرزدق

والطبقة الثالثة المولدون وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون في عصر الزهو العباسي عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء فرقت طباعهم وارتقت اذواقهم بالمعاشرة والمخالطة فظهر ذلك في اشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الانس وحدائق القصور ونحو ذلك. فشعر المولدين يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالرقة والخلاعة واشهر المولدين بشار العقيلي وابو العتاهية وابو نواس وابو تمام والبحتري

واما الطبقة الرابعة فنريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الـكلام . وفي شعر اهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضي والصفي الحلي

الشعراء في الاسلام وأشعارهم

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي لرواج سوق الشعر في القرون الاولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياع أكثر اخبارهم لـكننا نستدل من بعض النصوص على ان عددهم كان عظيما جداً فقد ذكر ابن خلـكان «ان هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارع في اخبار الشعراء المولدين وجمع فيه ١٦١ شاعراً وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمحمد بن عبـد الملك بن

صالح » والفترة بينهما قصيرة . وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبتهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين من أهل الطبقة الرابعة ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات

أما مقدار ما نظمه اولئك الشعراء من القصائد والدواوين فما لا يحصيه عد وقد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى فنكتفي منها بما ذكره صاحب كشف الظنون فانه ذكر نحو ستمائة ديوان لستمائة شاعر من المشاهير أورد أسماءهم وألقابهم وسني وفاتهم وهم من اهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من الفي صفحة الى مائة وما تحتها وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطرا . فديوان بشار العقيلي مثلا الف ورقة في الفي صفحة اي ٤٠٠٠٠ سطر او بيت . وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠٠٠٠ بيت وشعر ابي نواس في نحو الف ورقة ومسلم ابن الوليد ٢٠٠ ورقة وقس على ذلك[١]

واذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها والشعراء الذين لم تجمع أشعارهم ولم يكن لهم دواوين زاد استغرابك كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلا في لغة من لغات العالم القديم او الحديث

عروض الشعر

المشهور ان الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٧٠هـ اول من وضع عروض الشعر العربي أي استنبطه وأخرجه الى الوجود وحصر اقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً ثم زاد فيه الاخفش بحراً واحداً سماه الخبب[٢] . ولكن الغالب أن بحور الشعر كانت معروفة من قبل ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه في أشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكراً قول من قال ان القرآن شعر « لقد عرفت أضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك » [٣] فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر . فالظاهر أن الخليل أول من جعل العروض علماً ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب[٤] وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئاً من بحور اليونان أو أساليبهم لان بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية في ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها

(١) الفهرست ١٥٩ (٢) ابن خلكان ١٧٢ ج ١
(٣) المزهر ١٧٧ ج ٢ (٤) المزهر ٢٠٢ ج ٢

وشعر العرب . ولابن الهيثم في أوائل القرن الخامس للهجرة رسالة في صناعة الشعر ممتزجة من اليوناني والعربي (١) لم نقف عليها . على أن ابن شرشير الشاعر المعروف بالناشيء الاكبر المتوفى سنة ٢٩٣ هـ كان قد نظر في قواعد العروض وادخل عليها شبهاً ومثلها بغير أمثلة الخليل (٢)

ولا مشاحة في أن عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالي القرون شأن كل ما هو من قبيل الاحياء فتولد في النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوي والحوراني وغيرها

أما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الامم الاخرى عنه فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معافر القبري الاندلسي في أواخر القرن الثالث للهجرة (٣) ولما شاع التوشيح عندهم وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعراباً واستحدثوا فناً سموه « الزجل » شهره أبو بكر بن قرمان القرطبي ويعرف بامام الزجالين

ثم استحدث أهل الامصار في المغرب فناً آخر من الشعر في اعاريض مزدوجة نظموه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه اصنافاً سموه المزدوج والكاري والملعبة والغزل وغيرها كما شاع الآن أنواع الزجل المصري في مصر والقريض اللبناني والمعنى في الشام

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ذكروا منها « القوما » و « كان وكان » (٤) ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتفننوا فيه وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر

الشعر والدولة

بينا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساستها وسرعة تأثرها . فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسة وتضاعف تأثير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء واشعارهم . فقد رأيت ما كان من احتفاء بني أمية

(١) طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٦٣ ج ١
(٣) ابن خلدون ٥١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٨ ج ٨ (٤) ابن خلكان ٥٣٠ ج ١

بالشعراء واستقدامهم اليهم وظل ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة أو الامير استأذن في الدخول عليه فاذا دخل انشد قصيدته جهاراً والخليفة وأرباب مجلسه يسمعون(١) ويترنمون فيأمر الخليفة أو الامير بالجائزة وقد تتجاوز مائة الف درهم الى الف الف(٢) وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلده الوظائف(٣) . ومن اكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والمنصور الاندلسيان . ومن اسخى الامراء خالد القسري أمير العراقين في زمن الامويين وسيف الدولة بن حمدان

على أن الخلفاء والامراء عموماً كانوا يبذلون الاموال للشعراء الا نادراً . وكانوا يعينون يوماً كل أسبوع أو كل شهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم(٤) كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون ويتنافسون في ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الاذهان وانهاض العزائم وكان الاندلسيون اكثر عناية في ذلك من سواهم ـ كان للمعتضد عباد المتوفى سنة ٤٦١ هـ دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة فاذا آن يوم الشعراء وهو يوم الاثنين من كل اسبوع يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان(٥) وسجل خاص يقيدون فيه اسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة (٦) وكان امراء الاندلس اذا عاد أحدهم من فتح جلس للناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظمهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفاء بغداد كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظاماتهم وسائر أحوالهم

الشعر والخلفاء والامراء

ومن اسباب رواج صناعة الشعر في الدولة العربية ان الخلفاء انفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ولبعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن أشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظ ابياتها لشدة غرامه بها(٧) ولا غرابة في ذلك لان يزيد نشأ في البادية ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الابيات المشهورة التي مطلعها :

(١) ابن خلكان ٧٢ ج ١
(٢) ابن خلكان ١٩٨ ج ١
(٣) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢
(٤) الاغاني ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٩ ج ١
(٥) نفح الطيب ١١٩ ج ٢
(٦) نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٥٠٨ ج ١

لبيت تخفق الارواح فيه احب الى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها فسارت الى أهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فارضعته سنتين [١] هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . واكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر واشعرهم بلااستثناء عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ولم يتول الخلافة الا يوما وليلة وكان من رجال العلم وله ديوان شعر [٢] قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ فانه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء (٣)

وأما خلفاء الاندلس وامراؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الاوسط والمستعين بالله . وقد الف الصولي كتابا مستقلا في أشعار خلفاء بني العباس فحسدهم خلفاء بني امية بالاندلس فكان هم الخليفة الحكم الاندلسي من يؤلف له كتابا فى شعراء خلفاء بني أمية مثل كتاب الصولي في بني العباس (٤)

واذا تدبرت ماتقدم رأيت أكثر الخلفاء والامراء عناية في الشعر اكثرهم اقتداراً على نظمه لانهم كانوا يقدرون الشعر قدره ـ وذلك شأن العلم في الدول المطلقة فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك أو الامراء رغبة فيه . فالوليد بن يزيد بن عبد الملك اعطى يزيد بن منبه على قصيدة مدحه بها عن كل بيت الف درهم (٥) وهو أول خليفة عد الشعر واعطى على البيت الف درهم . ويقال نحو ذلك في سائر الخلفاء الشعراء وكذلك الامراء فان سيف الدولة لم يرج الشعر في عصره الا لانه كان هو نفسه شاعراً (٦)

فكان الغرض من تقريب الشعراء في أول دولة بني امية سياسيا ثم صار اديبا يندفع الخلفاء والامراء اليه تلذذاً بالشعر وآدابه . ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد أو الابيات أو يستفقدونهم للسؤال عن بيت اغلق عليهم فهمه أو نسوا بعضه وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام ابن عبد الملك بدمشق الى اميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي أن يوجد اليه حماداً

(١) الدميري ٢١٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١
(٣) الفخري ٢٥٢ (٤) نفح الطيب ١٠٠٣ ج ٢
(٥) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ (٦) ابن خلكان ٣٦٥ ج ١

الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملا مهرياً فسار حماد الى الشام في ١٢ ليلة ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه قال له هشام «خطر ببالي بيت لا اعرف قائله وهو :

دعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها ابريق »

فقال حماد «يقوله عدي بن زيد العبادي » وانشده باقى القصيدة (١) . وكثيراً ماكانوا يفعلون ذلك وهم في مجلس من مجالس الطرب لايجوزه الشرع فان يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة التي مات في سبيل تهتكه بها كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

اذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابر

فسألها عن قائل هذا البيت فقالت لا أدري فبعث الى الزهري ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطره فجاء وهو يرتعد خوفا فلما علم السبب سري عنه (٢)

على أن الغالب في مجالسة الشعراء أن تكون لغرض أدبي كوصف منظر أو اداة كما فعل الهادي اذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم أن يصفوا سيفاً أهداه اليه المهدي وهو سيف عمرو بن معد يكرب . فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء صفوه فقال الجائزة ابن يامين المصري (٣)

وكان الرشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه فقد سأل اهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت « ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبه » فلم يعرفه احد وكان الاصمعي مريضاً لايقدر على المجيء فارسل اليه اسحق الموصلي وبعث معه الف دينار لنفقته فجاء الجواب ان البيت من قصيدة لابى النشناش النهشلي وهذا صدره :

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه (٤)

وكثيراً ماكان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت . وقد سأل أهل مجلسه يوماً عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ورعا فلم أر مثله مخذولا

وكان في المجلس الكسائي والاصمعي فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع (٥) واعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة على أحسن بيت قالته العرب في الذئب (٦) والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه منه واشترط عليه

(١) ابن خلكان ١٦٥ ج ١ (٢) حلبة الكميت ٦٠ (٣) المسعودى ١٨٧ ج ٢
(٤) المزهر ٨٣ ج ١ (٥) المزهر ٢٧٨ ج ١ (٦) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١

ذلك (١) وقس على ذلك ما كان يجري من هـذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر

تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم يتناشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيـه ولم يكن ذلك قاصرا على الخلفاء أو الامراء أو الادباء ولـكنه كان عاماً في الرجال والنساء . وكانوا لـكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من ابياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى كما اتفق لرجل كان قاعدا على جسر بغداد فوجد امرأة بارعـة في الجمال قادمة من جهة الرصافة فاستقبلها شاب فقال « رحم الله علي بن الجهم » فقـالت له المرأة « رحم الله ابا العلاء المعري » وما وقفا بل سارا مشرقاً ومغرباً ـ قال الرجل « فتبعت المرأة وقلت لها والله ان لم تقولي لي ما أراد وما أردت لافضحنك قالت أراد بعلي بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا أدري

وأردت بابي العلاء قوله :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولـكن دون ذلك اهوال(٢)

فلا غرو بعد ما تقدم ان رأيت للشعر تأثيراً شديداً في نفوس كبار القوم حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب أو قتـل جماعة أو انقاذهم من القتل

ومن أمثلة ذلك ان ابا العباس السفاح اول خلفاء بني العباس لما استوثق له الامر بالخلافة تتبع بقايا بني أمية ورجالهم ووضع السيف فيهم . ولـكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس السفاح فاتفق مرة ان احدهم سليمان بن هشام بن عبد الملك كان في مجلس السفاح وقد اكرمه فدخـل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضـلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فـوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال قتلتني يا شيخ ثم أخذ سليمان فقتل. ودخل على السفاح شاعر آخر وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا من بني أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس

(١) الاغاني ١٦ ج ١٣ (٢) حلبة الكميت ٩٥

ثم ذكر مظالم بني أمية الى أن قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أضحى ثاويا بين غربة وتناس

فامر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا وبسط النطوع عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً (١)

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة نقفور ملك الروم ومطلعها :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور(٢)

وكثيراً ما كان ينجو الرجل من القتل ببيت يعجب به الخليفة فيخلي سبيله وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة. فانه بعد ان استوجب القتل وركع على النطع قال القصيدة التي مطلعها :

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً يلاحظني من حيث ما أتلفت

الى أن قال :

وما بي من خوف أموت وانني لأعلم ان الموت شيء موقت
ولكن خوفي صبية قد تركتهم واكبادهم من حسرة تتفتت
كاني أراهم حين أنعى اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة اذود الردى عنهم وان مت موتوا
فكم قائل لا يبعد الله داره وآخر جذلان يسر ويشمت

فبكى الرشيد وقال « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية فارجع الى ولدك ولا تعاود » فقال « سمعاً وطاعة» وانصرف (٣)

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكره فتحمس ـ قال معاوية لما رغب الناس فى الشعر « فان فيه مآثر اسلافكم ومواضع ارشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري :

ابت لي عفتي وابى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح(٤)

وقس على ذلك كثيراً من أمثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام

---

(١) الفخري ١٣٤ (٢) المسعودي ١٤٢ ج ١
(٣) فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامى من العلوم الاسلامية وفي الاسباب التي دعت الى نشوئها وفي الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه في الاسلام ونحن متقدمون فيما يلي الى الكلام فى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية ونريد بها العلوم القديمة التى كانت شائعة عند ظهور الاسلام في الممالك التي عرفها المسلمون . وهي عبارة عن خلاصة ابحاث رجال العلم والفلسفة والادب في ممالك التمدن القديم على اختلاف الامم والدول والاماكن والاصقاع في القرون المتوالية من أقدم أزمنة التاريخ الى ايامهم وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك ان العرب اخذوا علم كل أمة عن اهله رأسا ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلبت بتوالي الادهار وتفاعل العناصر واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فاثرت فيها وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ممن دانوا للمسلمين وانتظموا فى خدمتهم . فاخذوا من هؤلاء جميعاً . ولذلك كان من جملة افضال التمدن الاسلامي على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتي

فلنبحث أولا في حال العلم والادب في البلاد التي عرفها المسلمون وهو يتناول النظر فى آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والاسباب التى دعت الى نقله

آداب اللغة اليونانية

اليونان من القبائل الآرية التي نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت في الارخبيل اليوناني وما يقابله من شواطىء آسيا الصغرى حول بحر ايجيا . وللشعوب الآرية آداب مشتركة واخلاق متشابهة . فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التي نزل بها إخوانهم الآريون الى بلاد الهند ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في اقدم أزمنة التاريخ

أما اليونان فكانوا يسمون هلاس أو الهيلينيين وهم ثلاث قبائل كبرى اليونيون والايوليون والدوريون . فنزل اليونيون شواطىء آسيا الصغرى والايوليون في لسبس وما والاها ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرها . وكان التمدن القديم يومئذ مورقا في وادي النيل ووادي الفرات وكان الفينيقيون جيران اليونيين براً والدوريين بحراً وقد استعمروا شواطىء آسيا الصغرى مما يلي بلادهم. فاصبح اليونيون (أو اليونان الاسيويون) على مقربة منهم فحمل اليهم الفينيقيون كثيراً من اسباب التمدن واكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين . فاقتبس اليونيون مبادىء العلم والادب كالفلك والطب والدين ونقلوها الى اخوانهم الدوريين في الجانب الغربي من بحر ايجيا. وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط فمالبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهي من قرائحهم الفطرية ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء وجعلوا للعلم قواعد لاتزال مرعية في أكثر وجوهها الى اليوم

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة اعصر :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد وهي السنة التي امر فيها القيصر يوستنيان باقفال المدارس الوثنية في مملكة الروم

(٢) العصر البيزنتي أو القسطنطيني ويبتدىء سنة ٥٢٩ م وينتهي بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

(٣) العصر الحديث يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال

ولا يهمنا في هذا المقام الا العصر الاول وبعض الثاني

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية القديمة الى ثلاثة أدوار (١) دور الشعر وينتهي سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ ـ ٣٠٠ قبل

الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه أو الدور الاسكندري ويقسم الى عصرين العصر اليوناني والعصر الروماني

١ — الشعر اليوناني

اليونان من الامم التي استنبطت آدابها الخيالية استنباطاً ولم تقلد بها أحداً ولا أخذتها عن أحد وشأنهم فى ذلك شأن العرب فى علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . وأقدم آداب اليونان الشعر وقد أتقنوه وأجادوا فيه من قديم الزمان لان كل قبيلة منهم تولت اتقان فرع منه فاشتغل اليونيون في الشعر القصصي والايوليون في الشعر الموسيقي البسيط واشتغل الدوريون في اتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، وأخيراً اشتغل الاتيون وهم فرع من اليونيين في اتقان الشعر التمثيلي وسائر الفنون الخيالية وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرهما . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض مثل اختلاف لغات قبائل العرب في عصر الجاهلية

ويغلب على الظن ان اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم وأقدم أشعارهم « اناشيد الفصول » تليها أشعار وصفوا بها الآلهة أو الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونيون بالشعر القصصي فألفوا من تلك الحكايات الملاحم وأقدم الملاحم الالياذة والاذيسية نظمهما هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد وصف بهما الايام العشرة الاخيرة من حصار طروادة

وقد زها الشعر القصصي عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر لانه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا في أوائل أحوالهم مثل قبائل العرب وكان أمراؤهم يحبون سماع أخبار أسلافهم من الابطال وانصاف الآلهة فحببوا الى أصحاب القرائح نظم تلك الاخبار في الملاحم . وفي أواسط القرن الثامن قبل الميلاد أخذت السلطة الاستبدادية في الافول وأخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعداداً للحكم الجمهوري . فنمت شعائرهم الاستقلالية وأحس كل منهم بذاتيته وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وأمياله فنظمها شعراً هو الشعر الموسيقي . وأكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون وله عند كل منهما ميزات . وأشهر نوابغ الشعر الموسيقي عند اليونان سميونيدس وبندار — الاول يوني الاصل دوري النظم وأكثر منظوماته في وصف أحوال الحرب بين اليونان والفرس والثاني دوري المولد والمنشأ وأسلوبه ونظمه دوريان

٢ — الادب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ — ٣٠٠ ق م

الادب والتاريخ

ويسمى هذا الدور أيضاً الدور الآتي أو الاتيكي نسبة الى اتيكا فى جزائر اليونان وسكانها مزيج من اليونيين والدوريين ـ فبعد ان اشتغل اليونيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودونوا به أخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم استحثهم قرائحهم الوقادة الى ماينثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف ليراها الناس رأي العين أو يشعروا بها كأنها بين جنبيهم فاحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا وأجادوا في كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من أهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه وهو خارج عن موضوعنا . وانما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه ومواضيعه قبل ان يعنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصي . وأقدم آثارهم النثرية وأكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفى سنة ٤٠٦ ق.م وهي بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم

على ان هيرودوتس ليس أول من كتب النثر المرسل عندهم فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم في الفلسفة أو الميثولوجيا أو التاريخ أو غيرهما من العلوم النثرية . وأما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن أسلوبه وأهمية المواضيع التي كتب فيها. فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق م وهي التاريخ المعروف باسمه بين فيه أسباب الحروب التي انتشبت بين الفرس واليونان في القرن السادس وأول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريداً في بابه الى اليوم ولذلك لقبوه بأبي التاريخ . وبعده بقليل انتشبت بين أهل أثينا وأهل المورة حرب أهلية هائلة هي الحرب المورية أو البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ ـ ٤٠٤ ق م فأرخها ثوسيدس وكان معاصراً لهيرودوتس وأصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون وغيره ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستيس واشينس وهبريدس وغيرهم واشتغل آخرون في وضع الشرائع مثل صولون وآخرون بوضع قواعد اللغة أو غيرها مما لايهمنا البحث فيه هنا

العلم والفلسفة

وهما من نتاج الدور الآتي فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والادبية حتى تنبهت اذهانهم الى البحث فى الخليقة والعلل والمعلولات

بنهضة حدثت على أثر الحرب المورية المذكورة . فانها توالت ٢٧ سنة وفي نهايتها دخلت أثينا في حوزة اللقديمونيين وأصبح الاثينيون بعد العز اذلاء فساقتهم العبرة والمذلة الى النظر في الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع أساسها سقراط . والحروب يغلب ان يعقبها نهضة ادبية أو علمية أو سياسية على ما قررناه في غير هذا المكان

على أن اليونان تنبهوا الى النظر في الموجودات الطبيعية وأحوالها قبل تلك النهضة على اثر احتكاك الافكار في أثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصراً على تفهم نواميسها على نحو ما نعبر عنه اليوم بالطبيعيات . واقدم من وصل خبره الينا من الفلاسفة الطبيعيين طاليس المليطي ولد في مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا وغلب عليه النظر فى النجوم والهندسة وله آراء فى الوجود والموجودات وأصل العناصر . ووضع كثيراً من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر إلى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلامذتهم . ومنهم ارخيلاوس وهو الذي نقل الطبيعيات من يونيا الى أثينا وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق م وفي أيام هذا الفيلسوف حدثت الحرب المورية فامتزجت الطباع وتحاكت الافكار فهاجت القرائح وثارت العواطف واصبح الناس متضاغنين متنافسين وربما كان للرجل عدو من قبيلته وأهله

فلما أصيبت أثينا بالذل بعد تلك العظمة أصاب أهلها اضطراب وانكسار . والانسان اذا أصيب بنكبة لا حيلة في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود وأصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه . خصوصاً في مثل ما أصيبت به اثينا بعد عزها ورفعة شأنها وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة فتنبهت اذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر في شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص . فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة . فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على مايوافق احوالهم ونفوسهم تشتاق الى الزيادة

﴿سقراط﴾ وكان الناس في ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ورأى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدي نفعاً في تلك الاحوال فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها

جيداً وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض وطبقها على حاجات الاثينيين يومئذ وقسم شرائعه الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدبر والى ما يتعلق به من حيث هو احد الجماعة. وذهب الى خلود النفس . ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الادبية العلمية أو هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل . قال شيشرون « ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض »

ويندر ان ينجو النوابغ وأصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون اذيتهم أو يسعون فيها . وقد كان فى تعاليم سقراط مايخالف اعتقاد الاثينيين يومئذ فقاموا عليه وقتلوه

﴿ أفلاطون ﴾ مات سقراط ولم يدون شيئاً من تعاليمه فدونها تلامذته من بعده ولكنهم اختلفوا في تفسير اقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيرينية والكلبية والاشراقية . وهذه الاخيرة أشهرها وتسمى ايضاً الافلاطونية نسبة الى صاحبها أفلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة فانه تبع هيرقليطس في الطبيعيات وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات وتبع سقراط في الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة أصول الاله والمادة والادراك والآلهة عنده ثلاث طبقات عليون ومتوسطون وسفليون وعلم بتناسخ الارواح. وكتب أفلاطون على أسلوب المحاورات وسيأتي ذكرها في كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية

﴿ارسطو﴾ وانقسم تلامذة أفلاطون أيضا الى فرق أهمها فرقة المشائين وصاحبها أرسطو أو أرسطوطاليس الذي اجمع العلماء على أنه أقدر الفلاسفة القدماء ويسميه العرب المعلم الاول ولد سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٣٢٢ ق م وعنه نقل العرب اكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع أرسطو في كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فاخذها عن أستاذه أفلاطون ويدخل فيها الابحاث المنطقية والعقلية والنفسية والسياسية . وأما العلم ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها فقد كانت من جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه وكان غرض ارسطو إيضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلي أو نظري الى النواميس الطبيعية . ولم يكن يهمه تزويق

العبارة أو برقشة الالفاظ وانما كان يهمه الغرض الاصلي من الموضوع . فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة افلاطون

فلما أظهر ارسطو فلسفته شغف الناس بها وكان يلقيها في أروقة حول هيكل ابولو قرب أكاذيمية افلاطون وكان يتلو دروسه وهو يمشي هناك فسمي تلامذته المشائين أو الرواقيين . ومن حظ ارسطو ان الاسكندر المكدوني ظهر في ايامه وتتلمذ له وامده بالاموال لابحاثه في الطب والحيوان وغيرهما . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل ارسطو في اثينا فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفي جملتهم ارسطو. وكأن فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل فنهضت نهضة ثانية والعقول اكثر استعداداً وأقوى على الابحاث . ولا يبعد ان يكون الاسكندر قد نقل الى اثينا بعض علوم فينيقية وبابل وفارس كما سيأتي فادخلها ارسطو في فلسفته والف في كل موضوع عقلي وطبيعي وفلسفي ومنطقي ولغوي . ومؤلفاته كثيرة وينسبون اليه كتباً لم يؤلفها هو . وأما الكتب التي ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتاباً نقل المسلمون أكثرها الى العربية وسيأتي ذكرها

والكتب المنسوبة اليه خطأ اكثرها في الميكانيكيات والبلاغة والاديات والرياضيات مما لا حاجة الى ذكره وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما كتاب المقولات (قاطيغوراس) في المنطق وكتاب التفسير

قد جاء ارسطو في اواخر عصر الزهو اليوناني فجمع ماولدته العقول اليونانية الى ايامه من الآراء والابحاث والاختبارات في العلم والفلسفة ورتبها في كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهولة فعاشت تعاليمه ادهاراً ولم تستغن عنها أمة من الامم التي تمدنت في عصر اليونان او بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ولا يزال كثير منها مرعياً الى اليوم

﴿ مؤلفات ارسطو ﴾ ولمؤلفات ارسطو تاريخ غريب لا بأس من ايراده : — لما دنا أجله عهد بكتبه ومسوداته الى اكبر تلامذته ثيوفراستوس وبعد ٣٥ سنة توفي هذا وقد عهد بها وبكتبه هو الى تلميذ اسمه نيليوس . فرحل هذا الى وطنه سبسس في آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفي فخاف ورثته عليها من ملك برغامس حينئذ فاخفوها في مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما استخرجوها في رأس المائة الاولى قبل الميلاد وجدوا بعضها قد تهرأ بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر أكله الدود والعث فباعوها صفقة واحدة الى كتبي اسمه ابليكون فارجعها الى أثينا . فلما استولى سولا

الروماني على اثينا سنة ٨٦ ق م كانت مكتبة هـذا الرجل في جملة غنائم الرومانيين فنقلوها الى رومية فتوصل اليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا في نسخها وضبطها . وأول المشتغلين في ذلك تيرانيون صاحب شيشرون . ثم تولى اندرونيكوس الرودسي تصحيحها وترميمها ثم تناقلها الناس . فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات ارسطو انما هو من تصحيح اندرونيكوس المذكور في أواسط القرن الاول قبل الميلاد

على انها ما لبثت أن ظهرت في العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها بين درس ونقل وترجمة وتلخيص وشرح ونقـد . بدأ بذلك اليونان انفسهم ثم الرومان فالفرس فالعرب فاهل الاجيال الوسطى في اوربا فأهل أوائل التمدن الحديث وخصوصاً فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت مدرسة الاسكندرية الآتي ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى ارسطو وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية وكانوا قد وقفوا على نسخ اندرونيكوس فاعتمدوا عليها دون سواها وأصبحت عمـدة التعليم في رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهـرت النصرانية فبطل تعليمها في رومية وظل في الاسكندرية . ولمـا سعى قياصرة الروم في ازالة الوثنية من مملكتهم بحثوا عن العلوم الوثنية وأبطلوها ومن جملتهـا كتب ارسطو الا بعض كتبه المنطقيـة . على انهم كانوا يعلمونهـا سراً حتى جاء الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية على يد عمر بن عبد العزيز . فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظوراً لا يتعلمها الا بعض اليهود أو الحرانيين لتقوى بها حجتهم على النصرانية

الطب والنجوم

والطب أيضاً من ثمار تلك النهضة على اثر الحرب المورية وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة وينسبون الامراض الى أعمال الشياطين والعلاجات الى أعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون في الطب باعتبار انه فرع من العلم الطبيعي ولم يستقل احد منهم بالبحث فيـه . واول من رتب الطب وبوبه وبنـاه على أسس صحيحة ابقراط المتوفى سنة ٣٥٧ ق م ولذلك سموه أبو الطب وهو من نتاج الحرب المورية فقد نشأ في أثنائها ونبغ بعد انقضائها وسافر الى سوريا ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فأضافهما الى طب اليونان والف فيه الكتب . وأساس معالجته الاعتماد على الطبيعة وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة

ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب في الطب كثيرة ذكروا منها ٨٧ كتاباً ولم يثبت له منها الا نحو العشرين وسيأتي ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربيـة . وما زالت كتب ابقراط معول الاطباء الى العصر الجديد وفيهم من شرحها أو فسرها أو ترجمها أو علق عليها . وممن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط أرسطو وغيره من الفلاسفة العظام فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيجيء

والنجوم أو علم الفلك قديم عند سائر الامم كما قد رأيت في كلامنا عن علوم العرب قبل الاسلام . أخذ اليونان مبادىء هذا العلم عمن سبقهم من أمم التمدن القديم على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند أنفسهم . وكان النظر فيه من جملة ابحاث الفلاسفة وأقدمهم طاليس المتقدم ذكره وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن وأشهرهم فيه انكسيمندر وانكسيمينس وانكساغوراس. وكان للقسم الايطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ومقدام فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفى سنه ٥٠٠ ق م أخذ بعض هـذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر في النجوم واحكامها مما يطول شرحه . على أن هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة فقد اشتغل فيها الفلاسفة لـكنها لم تنضج الا في مدرسة الاسكندرية على يد اوقليدس

٣ — الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المكدوني العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما في أيديهم ثم حمل بهم على العالم المتمدن في ذلك العهد ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها اعصابه واختلطت عناصره فالتقى اليوناني بالفينيقي والمصري والفارسي والكلداني والهندي وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح وكان من أقل نتائجها : أولاً نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم في أمم الارض . ثانياً نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى بلاد اليونان أو مصر . فقد ذكروا أن الاسكندر لما فتح اصطخر عاصمة الفرس أخرب

ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعاً من ذلك في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطي . وبعد فراغه من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوباً بالفارسية . وأخذ ما كان يحتاج اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن والعلماء الى بلاد مصر(١)

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق م انقسمت مملكته بين قواده فانتقل علماء اليونان من بلادهم للاقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام والعراق فابتنوا المدارس في الاسكندرية وانطاكية وبيروت وغيرها وكان حظ البطالسة في الاسكندرية أوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة. وكان سوتر أول البطالسة عادلا محباً للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ ـ ٢٨٥ ق م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل والاماكن فاكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس وأطلق لهم الاموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم

وكان في جملة المقربين اليه خطيب اثيني اسمه ديمتريوس فاليروس أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من انحاء العالم فأجابه الى ذلك وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن أسباب حريقها فيما تقدم من هذا الكتاب . والظاهر أن الكتب التي بعثها الاسكندر من اصطخر وغيرها وضعوها في هذه المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذي سماه ابن القفطي « زميرة » وسبب الفرق تصحيف في النسخ . وباشارته أيضاً أنشأ سوتر المتحف أو النادي (Museum) على شكل مدارس اوربا الجامعة يجتمع فيه العلماء والادباء والفلاسفة للدرس والبحث وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون أثره في تنشيط العلم واكرامهم من العلماء وخصوصاً فيلاذلفوس (من سنة ٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) فانه اضاف الى المكتبة مالم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية فابتاع الكتب التي كانت عند ارسطو وجمع كثيراً من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص هذه المكتبة علم ولا خبر وخلفه بطليموس اورجيتس (سنة ٢٤٧ ـ ٢٢٢ ق م) فاضاف الى المكتبة كثيراً من كتب الادب والشعر والتمثيل مما وجدوه في خزائن اثينا وفرض على كل من يقيم

(١) الفهرست ٢٣٩

في الاسكندرية أو يمر بها من رجال العلم ان يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب فزهت الاسكندرية بالعلم ونبغ فيها العلماء في كل موضوع حتى فاقت كل ماتقدمها أو عاصرها من مدن العالم القديم وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام أي عبارة عن نيف وتسعمائة سنة تقسم الى مدتين الاولى يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهي بدخول مصر فى حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهى سنة ٦٤٠ م لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها في المدة الاولى علمياً أدبياً وغايتها ترقية العلوم اليونانية وتوسيع نطاقها وكانت المرجع العلمي الوحيد في تلك العلوم الى أواخر القرن الثاني للميلاد فأخذت تتقهقر لاسباب كثيرة اهمها فساد الحكومة واعوجاج الاحكام وظهور مدارس أخرى من نوعها في سوريا ورودس وغيرها فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية . فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوي القرائح في اثباتها أو نفيها . ونظراً لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدال اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية ـ فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران الاول يوناني علمي أدبي والثاني روماني فلسفي ديني

العصر الاسكندري اليوناني من سنة ٣٠٦ — ٣٠ ق م

زهت الاسكندرية في عصرها الاول بمن انتقل اليها من جالية اليونان على أثر ما أصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى كما تقدم فأقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة فى ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد أضاعوا انفة الاستقلال وروح الحرية لتقيد عواطفهم وشعائرهم بالحكم المطلق الذي لا يقترب منه الا المتزلفون ففسدت القرائح وضاقت العقول فاشتغل يونانيو الاسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا لكنهم لم يجيدوا بشيء منها مثل اجادتهم في اثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الاذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة فنبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب والهندسة والجغرافية وان كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء أو شروحاً لها

الرياضيات ـ نبغ اقليدس الصوري المولود سنة ٣٢٣ ق م وقد طلب العلم في بلاد اليونان وأتقن الرياضيات بنوع خاص وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم

البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلاذلفوس فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلاذلفوس أول من تلقاها عنه وهناك الف كتابه المعروف بأصول اقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن



فلكي يوناني يرصد الكواكب في مرصد الاسكندرية

ونبغ من الرياضيين بعد اقليدس ارخميدس أو ارشميدس الصقلي المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد وجاء مدرسة الاسكندرية تلقى فيها الرياضيات وعاد الى بلاده وكان ملكها يحترمه فقربه اليه وكان في حرب ضد الرومان فأعانه بعلمه مالم يستطعه القواد بسيوفهم ولكنه ذهب ضحية تلك المساعي فقتله بعض جنود الرومان في أثناء الفتح وهو لا يعرفه ولارخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب وذكروا له من الكتب كتاباً في الكرة والاسطوانة وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر المماسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات[1]

ثم نبغ ابولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق م صاحب الابحاث في قطع المخروط وهيبارخوس المتوفى سنة ١٢٥ ق م مؤسس الرأي الفلكي للسموات واشتغلوا في أثناء

(١) الفهرست ٢٦٦

ذلك بالجغرافية الرياضية وأول من كتب فيها أراتستين المتوفى سنة ١٩٥ ق م وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك الفراعنة وأول من قاس الارض

ثم ظهر بطليموس القلوذى الشهير في أواسط القرن الثاني بعد الميلاد فأخذ رأي هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطي الذي كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن اقوالهم « لا يعرف كتاب ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط باجزائه غير ثلاثة كتب المجسطي في علم هيأة الفلك وحركات النجوم وكتاب أرسطوطاليس في صناعة المنطق وكتاب سيبويه في النحو (١) ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الاربعة وكتاب الحرب والقتال وكتاب الجغرافية فى المعمور وغيرها

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصاً برصد الافلاك واستخراج الازياج وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى أيام الاسلام

الطب ـ أما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برغامس فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبة الطب فيها وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات ابقراط لكنهم اشتغلوا خصوصاً فى فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك العهد واشتهر فيها أثناء العصر اليونانى طبيبان لكل منهما مذهب فى الطب والعلاج وهما هيروفيلوس واراسستراتس الاول من خلكيدونة وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصاً في التشريح والف كتباً وافق ابقراط في أكثرها وبعدونه في المنزلة الاولى بعده أما الثاني فكان معاصراً لهيروفيلوس وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح وله مؤلفات ذهب فيها مذهباً غير مذهب هيروفيلوس فكان لكل من هذين الطبيبين تلامذة يؤيدون رأيه وأصحاب هيروفيلوس ينصرون ابقراط والآخرون ضده . وظل المذهبان الى القرن الثانى بعد الميلاد وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان حتى ظهر جالينوس القلوذى المولود فى برغاموس سنة ١٣٠م تلقى أصول العلم على ابيه ثم شرع في درس الطب هناك . وسافر سنة ١٥٠ م الى أزمير ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح وطاف بلاداً أخرى في طلب العلم حتى عاد سنة

(١) تراجم الحكماء (خط)

١٥٨ م الى برغاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفاؤهم على يديه فذاع صيته وسموه « الخطيب العجيب » فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ م توفق في الرجوع الى رومية وخدم بعض امبراطوريها حتى توفي سنة ٢٠٠ م وله مؤلفات عديدة فى الطب اشهرها يعرف بالكتب الستة عشر وبعضها يعرف باسماء خاصة حسب مواضيعها وسيأتي ذكرها في جملة مانقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من أهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن في صدده وانما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب

العصر الاسكندري الروماني من سنة ٣٠ ق م - ٦٤٠ م

هو العصر الاسكندري الثاني ويبتدىء بالحقيقة قبل الفتح الروماني بنصف قرن أي منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد فان قائدهم سولا بعد أن فتح اثينا حمل منها الى رومية احمالا من كتب العلم والفلسفة كما تقدم فانتقل العلم من ذلك الحين من أثينا الى رومية ولما أسس أوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين لاتيني ويوناني . ولم ترث رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها أيضا فاصبح اليونان أنفسهم اذا أرادوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان

فمدرسة الاسكندرية أخذت قبل دخولها في حوزة الرومان في الانحطاط فلما صارت رومانية زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة لان الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود نزحوا اليها كعادتهم فى الرحيل للارتزاق أو فراراً من الاضطهاد فآنسوا في الاسكندرية ترحابا وراحة فتكاثروا. فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الاذواق والابحاث تغيرهم في الفلسفة والدين لان اليهود أهل توحيد ووحي وتقليد واليونان أهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية فادى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان أخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة (Neo-Platonic) والفلسفة الفيثاغورية الجديدة (Neo-Pythagoric) وجملة القول أن العصر الاسكندري الثاني قلما أفاد العلم لان ابحاثه كانت غايتها فلسفية دينية

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم : أولا التشريح لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لاجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها . ثانياً علم الكيمياء لانه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ولما انشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماؤها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحد

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى أواخر القرن الاول للهجرة حتى نقله عمر بن عبد العزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرها من مدارس تلك الايام (١)

العصر البيزنتي من سنة ٥٢٩ — ١٤٥٣ م

سمي هذا العصر بالبيزنتي نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لان أداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص فلا بأس من الاشارة الى ما يهمنا منه . ويقال بالاجمال إن الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة مع أن العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية وخصوصاً بعد موت يوستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم . واقتصر النوابغ فيها على ما لايحتاج الى مواهب خصوصية أو الى بحث أو نظر فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة وأراد التشبه بمنشطي العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات وقد يفعل القيصر نفسه ذلك . فان قسطنطين السابع (٩٠٥ — ٩٥٩ م) كان محباً للعلم مشتغلا في التأليف فألف كتباً متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون في سائر المواضيع الادبية كالتاريخ والشعر واللغة بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . أما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت لان علماء النصرانية استخدموا الادلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد أو الاراء الدينية في مجادلاتهم أو في مواعظهم على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الافلاطونية الجديدة . وممن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقي (٧١٨ — ٧٤١ م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لا حاجة بنا الى ذكره

(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون فجردت على بلادهم جيشاً قد يمتنع على أعظم دول الارض اليوم حشده ونقله بمهماته ومؤونته من أواسط آسيا الى البحر الابيض فكيف منذ بضعة وعشرين قرناً . فالدولة التي هذا مبلغ قوتها لا تخلو من أدب وعلم والفرس أهل ذكاء وتعقل وفيهم استعداد فطري لاسباب التمدن فلا بد من اجادتهم في نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابهاراتة ونحوها وان كان ما وصل منه الينا قليلا. ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من قبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والانواء فقد أحرزوا شيئاً منها وخصوصا لانهم ورثوا البابليين والاشوريين واحتكوا باليونان وهم في ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الاحجار باللغة الفهلوية ويؤيد ذلك ماجاء فى كتب الاخبار عن فتوح الاسكندر بلاد فارس وما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر من خزائن الكتب فاستنسخها وأحرقها كما تقدم وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الايام

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم فقد عثروا فى أوائل القرن الرابع للهجرة على مخابىء في رستاق جي بفارس هي عبارة عن أزج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة فى لحاء التوز وفيها اصناف من علوم الاوائل باللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « أن طهمورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الامطار على كتب العلم فاودعها ذلك الرستاق « وهي كتب نفيسة فى علم النجوم وعلل حركاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان (١). وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على أزج آخر انهار فانكشف عن كتب كثيرة لم يهتد أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب في المغر أو نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان ـ قال ابن النديم « والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن ابا الفضل بن العميد أنفذ الى هنا في سنة نيف وأربعين (وثلثمائة) كتباً متقطعة اصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت في اليونانية فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره وكانت اسماء الحيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ »

على أن الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب

(١) الفهرست ٢٤٠

العقائد والاديان الى أيام سابور بن ازدشير من الدولة الساسانية في أواسط القرن الثالث للميلاد . وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية وانتشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته وقد حمل معه عدداً كبيراً من أسراهم الى بلاده فأنشأ لهم في الاهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه واكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان أو الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية(١) واختزنها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها

فلما تولى كسرى أنو شروان العادل (من سنة ٥٣١ — ٥٧٨ م) فتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ففر بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم وجاء منهم سبعة الى انو شروان فاكرم وفادتهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها الى الفارسية فنقلوا المنطق والطب (٢) والفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها. وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن حتى خيل لليونان الذين جالسوا انو شروان انه من تلامذة افلاطون . والمظنون ان تلك الفلسفة كانت أساساً لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود أيضاً من السنسكريتية الى الفارسية (٣) وأنشأ في جنديسابور مارستاناً (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان وكانوا يعلمون فيه الطبين الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتي

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم وأحكام الافلاك مما توارثوه عن أسلافهم أو نقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في ايام انوشروان العادل . والعلم لا يزهو الا في ظل العدل والحرية

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٢

(٣) E. Browne's Literary History of Persia 167

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان أو البابليين القدماء الذين أنشأوا تمدناً ووضعوا علوماً هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا أسس الطب قبل الميلاد بقرون ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم حتى اذا تألفت النصرانية وانتشر دعاتها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية

وانما يهمنا في هذا المقام ما كان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان لانهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريان أهل ذكاء ونشاط فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال في العلم فأنشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضها . ومنهم خرج أكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين وأكثرهم من النساطرة كما سيجيء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم في العلم لا نفسهم

كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية أشهرها مدرسة الرها وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها أخذوا في نقلها الى لسانهم فنقلوا المنطق في أواسط القرن المذكور . ثم أتم دراسة المنطق سرجيس الرأس عيني الطبيب المشهور وفي المتحف البريطاني بلندرا نسخ خطية من ترجمته الايساغوجي الى السريانية وكذلك مقولات ارسطو لفرفوريوس وكتاب النفس وغيرها وقد نشر بعضها من عهد قريب

وفي أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف سوبرس فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني. وقد أتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني واثناسيوس بلد . ومن تلامذته اثناسيوس جورجيوس المعروف باسقف العرب (٦٨٦ م) فقد ترجم بعض كتب ارسطو . واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب افلاطون

وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه . واشتهر هناك مدارس أخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية

أما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر انشاء مارستان جنديسابور واشتهر فيهم من أهل هذه الصناعة كثيرون منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره واناتوس الامدي وسمعان الطيبوني والاسقف غريغوريوس والبطريرك ثيودوسيوس وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها

وقد نقل أطباء السريان كثيراً من كتب الطب من اليوناني الى السرياني حتى في اثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية لانهم كانوا كثيراً ما ينقلونها الى السريانية فقط أو الى السريانية والعربية معاً . فسرجيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ثم نقلها في الاسلام موسى بن خالد الى العربية [1] والطيبوني الف في أواخر القرن السابع للميلاد كتاباً في الطب وترجم غير كتاب ناعيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل الينا غير خبره والف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس . والف السبكتي في صور الابراج . وممن الف في النجوم أيضاً يعقوب الرهاوي المتقدم ذكره وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهاري وغيرهم

واشتغل السريان أيضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات فضلا عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور انهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان وحركات أحرفهم عبارة عن أحرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف أو تحتها. وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها فترجموا الالياذة والاوذيسية الى لسانهم . ترجمها ثيوفيل الرهاوي سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان. ويقال انهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الالياذة ضبط الاعلام اليونانية فيها . وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربي . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والاحرف اليونانية الى اليوم ، الاولى شائعة عند السريان الشرقيين والثانية عند الغربيين

---

(١) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

آداب اللغة الهندية قبل الاسلام

الهنود أمة قديمة والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعراً من قديم الزمان ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى كثيراً ما كان ملوك الفرس يستعينون باطبائهم كما فعل انو شروان في مارستان جنديسابور وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم فانهم كانوا يستقدمون الاطباء من الهند ويستشيرونهم في أمراضهم بعد أن تفرغ حيل أطباء الفرس والسريان من معالجتهم . لان للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني أو الفارسي وقد اشتهر منهم عدة اطباء ألفوا في الهندية ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجيء ومنهم كنكة وصنجهل وشاناق وغيرهم

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وابراجها ولها أسماء خاصة بلسانهم وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب مذهب الارجهير ومذهب الاركند ومذهب ثالث يقال له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhânta وهو عبارة عن زيج ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب وهو الذي وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند. والهنود هم الذين اخترعوا الارقام وعنهم أخذها العرب ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتي ذكرها

الخلاصة

هذه حال العلوم في المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية وقد رأيت انا اكثرها يونانية الاصل وضعها اليونان في أيام وثنيتهم مع ما اقتبسوه من الامم التي تمدنت قبلهم . ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسريان على مقتضيات آداب تلك الامم وعاداتهم

وكان العراق على الخصوص حافلا بالعلماء وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين وفيهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما أراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض

العرب والعلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها

قد رأيت فيما كتبناه عن «العرب والقرآن والاسلام» أن المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الاول « أن الاسلام يهدم ما كان قبله » وانه « لا ينبغي أن يتلى غير القرآن » وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس. ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة فاصبحوا لا عناية لهم الا بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم الاسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك. وكان أهل البلاد الاصليون من الروم والفرس يحببون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون - يحكى أن ماسرجويه البصري من معاصري مروان بن الحكم كان عالماً في الطب وهو سرياني الجنس يهودي المذهب وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنانيش الفه القس أهرون ابن أعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك أربعين يوماً ثم أخرجه الى الناس وبثه في أيديهم[١] ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع أنه من كتب الطب وليس الفلسفة

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصنائع وأخذوا في أسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا بالصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والاقسة وهان عليهم ذلك بالاسناد الى الحديث النبوي القائل «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في أي وعاء خرجت » وقوله « خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين »[٢] و« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» و« اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو بالصين» [٣] على انهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الاحوال

(١) تاريخ الحكماء (خط) (٢) العقد الفريد ١٦٠ ج ١
(٣) كشف الظنون ٣٩و٤٣ ج ١

أول من اشتغل بها

أقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي وهو ابن خالة النبي وكان قدرحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة اشياء جليلة واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب . وكان يجاري أبا سفيان بعداوة النبي لانه ثقفي وكان بنو ثقيف حلفاء بني أمية . فكان النضر كثير الاذى للنبي يتكلم فيه بأشياء كثيرة ليحط من قدره عند أهل مكة . ثم وقع النضر اسيراً في واقعة بدر فامر النبي بقتله وذهب خبره (١)

على أن النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئاً الى العربية . أما أول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت ابي سيفان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية . فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم (٢) وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

وكان خالد راغباً في علم النجوم أيضاً وانفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ولعلهم ترجموا له شيئاً منه لم يصلنا خبره . على ان بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » (٣)

ويلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه أوماسرجيس المتقدم ذكره لكناش أهرون من السرياني الى العربي وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين (٤)

---

(١) طبقات الاطباء ١١٣ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤
(٣) تراجم الحكماء (٤) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ١

نقل العلوم في العصر العباسى

المنصور والنجوم والطب

أول الخلفاء العباسيين السفاح ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه .ثم أفضت الخلافة الى أخيه المنصور (سنة ١٣٦ — ١٥٨ هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في أيامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة . وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته (بغداد)

النجـوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالا الى التنجيم لا يكاد يعمل عملا الا استشار المنجمين فيه وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم (١) واقتدى به أكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه اشهرهم نوبخت المنجم الفارسي كان مجوسياً واسلم على يده وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور « احضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو أبو سهل بن نوبخت (٢) وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين وترجموا لهم كتباً في الكواكب واحكامها وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الاوائل

وخدم المنصور أيضاً فى النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد . وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم (٣) ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب وحبه الاطلاع عليها قصده اصحابها من بلاد فارس والهند والروم . وفي جملتهم رجل من الهند قيم في حساب السدهنتا المتقدم ذكره جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند . فأمر المنصور ان ينقل هذا الكتاب الى العربية وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب . فتولى ذلك محمد ابن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتاباً سماه المنجمون السندهند الكبير وظل أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام المأمون (٤)

فاهتم الناس من ذلك الحين في علم النجوم ومتعلقاتها . وجرم النظر في الافلاك

---

(١) المسعودي ٣٦٤ ج ٢ (٢) أبو الفرج ٢١٦
(٣) المسعودي ٢٦٤ ج ٢ (٤) تراجم الحكماء (خط)

الى الهندسة فكتب المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة . فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات(١) ولعل المجسطي من جملتها لانه في النجوم . والظاهر أن ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة لاننا رأينا اقليدس والمجسطي في جملة ماترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول ان رغبة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في أيام المنصور الطب . والسبب في ذلك أن المنصور اصابه في أواخر أيامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته وكان الاطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً . فجمعهم يوماً وقال لهم « هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً » فقالوا « ليس في وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس اطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني فقد كان ماهراً في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية . وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم حتى أصبح رئيس اطباء مارستان جنديسابور أشهر مدارس الطب في تلك الايام. فبعث المنصور في طلبه على عجل فلما جاء الرسول الى جورجيس أراد استمهاله فهدده بالقتل اذا أبطأ . فعهد بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع واصطحب اثنين من تلامذته هما ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذاهيبة ووقار وفصاحة فوقع عند المنصور موقعاً حسناً فأجلسه قدامه وسأله بعض الاسئلة فاجابه عليها بسكون فازداد اعجاباً به فاخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس « أنا ادبرك كما تحب » فخلع عليه وأنزله في قصر خاص وأمر باكرامه . ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفا فشفي ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه أنه رآه عفيفاً صادقاً في تدينه . وكان المنصور قد علم أن جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخدمه فارسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجواري فلما عاتبه المنصور في الغد أجابه «اننا معشر النصارى لانتزوج الا بامرأة واحدة ومادامت المرأة حية لا نأخذ غيرها » (٢)

(١) ابن خلدون ٤٠١ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١

فحسن موقع ذلك عند المنصور وأطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطببهن وتعلق به تعلقاً شديداً

وكان جورجيس محباً للتأليف كما رأيت وكان يعرف اللغة اليونانية فضلا عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية غير ما الفه في السريانية . أما التأليف في الطب فقد سبقه اليه أكثر الاطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألف لنفسه أو لولده أو لاحد تلامذته كتاباً أو غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه. والغالب أن يؤلفوا الكنانيش كالكناش الذي ألفه ثياذوق المتوفى سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ألفه لابنه وألف له أيضا كتابا في الادوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة

فالمنصور أول من عني بنقل الكتب القديمة ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي أيامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست أن ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية ـ فلعله نقلها لنفسه

المهدي والرشيد

أما المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فانه اشتغل عن العلم بما ظهر في أيامه من البدع الدينية وما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية فكثر الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس فامر المهدي أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لابطال تلك المذاهب . أما الهادي . فلم تطل أيامه ولم يأت أمراً يذكر

فلما افضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) كانت الافكار قد نضجت والاذهان قد زادت تنبها الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود. وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى أذهانهم من مخالفته للدين ـ الا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها أو مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين ويغلب أن يكونوا

من محبي الفلسفة والمنطق وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض أهلهم كما سترى . فأدى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة وأصبحوا اذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون باحراقها أو اعدامها بل يأمرون بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم كما اتفق للرشيد في أثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها [1] ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني [2]

وفي أيام الرشيد نقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون [3]. وفي أيامه نقل المجسطي الى العربية وأول من عني بنقله يحيى بن خالد البرمكي ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة فاتقناه واجتهدا في تصحيحه

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها الا في أيام المأمون لسبب متصل بالمأمون نفسه ، وذلك أن المسلمين تعودوا من أول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم فكان اذا خطر لاحدهم رأي في خليفة أو أمير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رايه . وكان ذلك شأنهم أيضا في الدين فاذا فهم أحدهم من الآية أو الحديث غير مافهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه . فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون في المذاهب . ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت وفي جملتها المعتزلة . والمعتزلة طوائف كثيرة أساس مذهبهم تطبيق النصوص الدينية على الاحكام العقلية . ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق أحدث الاراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون أصحاب العدل والتوحيد

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في أواخر القرن الاول للهجرة وكثر أشياعه بسرعة لارتياح العقل الى أدلته. وقد تقدم في كلامنا عن الفقه أن المنصور أخذ بناصر اصحاب الرأي

(١) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ (٢) ابو الفرج ٢٢٧
(٣) الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨

والقياس واستقدم ابا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية وظل الميل الى القياس متواصلا في بني العباس. والاعتزال اقرب المذاهب الى أصحاب الرأي لان عمدة المعتزلة في اثبات مذهبهم البرهان العقلي ولذلك كانوا إذا رأوا رجلا مطلعاً على منطق ارسطو أو أقواله في الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعونه منه في تأييد مذهبهم واحتاجوا الى ذلك خصوصاً في أيام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم. فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم أو شعروا باحتياجهم اليها على الاقل وأخذوا في انشاء علم الكلام. وكان البرامكة من أصحاب الرأي أيضاً وفيهم ذكاء وميل الى العلم فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون[1] وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم. ولكن يظهر ان الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به

فلما أفضت الخلافة الى المأمون (١٩٨—٢١٨هـ) تغير وجه المسألة لانه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي. وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع الى أحكام العقل فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه أشياخه كأبي الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال. فأخذ بناصر أشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفاً من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن أي انه غير منزل. وكان المسلمون في أيام الرشيد يخافون المأمون في ذلك لانه ظهر فيه قبل تولية الخلافة وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من أمر المأمون من هذا القبيل

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عدداً ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعمل على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة[2] في هذا الموضوع. وتأييداً لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكا بالاعتزال. ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف — باشر ذلك في العام الاخير من حكمه وهو خارج بغداد فكتب الى عامله فيها اسحق بن ابراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن فمن أقر انه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به[3]

فالراجح عندنا ان المأمون لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يرى بأساً من نقل علوم اليونان الى العربية وانه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييداً

(١) ابن خلكان ٦٧٥ ج ١ (٢) الدميري ٧٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٣٣ ج ٢

لمذهب الاعتزال ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات ارسطو في الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب في أعوام بضعة عشر ومائتين فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقي الظمآن لموارد الماء وأقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها (١) فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام (٢) كما تولد من اشتغال النصارى بها « الفلسفة الافلاطونية الجديدة »

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسباباً كثيرة ـ قال أبو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ان المأمون رأى في منامه ارسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المذخرة ببلد الروم فأجابه الى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل (٣)

وذكر نحو ذلك ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الاطباء وأبو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب فلا مشاحة في ان المأمون بذل جهده في استخدام التراجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهباً . وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم (٤)

واقتدى بالمأمون كثيرون من أهل دولته وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد فتقاطر اليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الادب والمناظرة وأصبح هم الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية

(١) المقريزي ٢٥٧ ج ٢
(٢) الشهرستاني ١٨ ج ١
(٣) الفهرست ٢٤٣
(٤) أبو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء

نقلة العلم فى العصر العباسى

رأيت فيما تقدم ان السريان كانوا في نهضة علمية قبل الاسلام وانهم أخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ودرسوا كثيراً منها وخصوصاً الفلسفة والطب وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم وان اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من أطراف المملكة الاسلامية وغيرها كان اولئك السريانيون من جملة الوفود التماساً للرزق فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانكليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم الاختلاط بالعرب أو المسلمين لما آنسوه من عدل العباسيين في أول دولتهم واطلاق حرية الاديان لرعاياهم حتى كثيراً ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم أو اساقفتهم . ولهذا السبب أيضاً انتقل جماعة من الفرس الى بغداد وكانوا أهل دولة وحكومة فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون حكومتهم وفيهم جماعة كبيرة من أهل العلم والادب واستقدم الخلفاء أيضاً جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم

فلما أراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية كان واسطة ذلك النقل أهل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وجواري وبالغوا في اكرامهم ومحاستهم فتكاثروا وأكثرهم من السريان النساطرة لانهم أقدر على الترجمة من اليونانية وأكثر اطلاعاً على كتب الفلسفة والعلم اليوناني. وفيهم جماعة من أهل فارس والهند وغيرهم للنقل من الفارسية أو الهندية وكان أكثرهم تتوالى الترجمة في أعقابه فيتولاها هو وأولاده وأحفاده . واليك اشهر نقلة العلم في العصر العباسي

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة أولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور اباه قبله . فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية فقال الرشيد لوزيره يحيى امتحنه فدعا يحيى الاطباء لامتحانه وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سرابيون وغيرهم فلما رأوه قال أبو قريش « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا لانه كون الكلام وهو وأبوه وجنسه فلاسفة » ويدل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة. فولاه الرشيد رئاسة الاطباء وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظياً عند الخلفاء

ونال جوائزهم وعطاياهم . وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل وقد بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من أطباء عصره ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع خدم المقتدر العباسي وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع كلهم من مهرة الاطباء ولم يعن في الترجمة منهم الا جورجيس الاول وانما أوردنا ذكرهم لان أكثرهم الف في الطب كتباً مفيدة وبعضهم استخدم التراجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية (١)

(٢) آل حنين : أولهم حنين بن اسحق العبادي شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤ هـ وكان أبوه صيرفياً ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ثم انتقل الى بغداد ليشتغل بصناعة الطب فلقي في ذلك مشقة لان الاطباء وخصوصاً أهل جندبسابور كانوا يكرهون ان يدخل في صناعتهم ابناء التجار . وكان أعمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه أحد متخرجي مارستان جندبسابور فجعل حنين يحضره. فاتفق انه سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه فغضب يوحنا وقال « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب فصر الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً تشتري بها قفافاً صغارا بدرهم وزرنيخاً بثلاثة دراهم واشتر بالباقي فلوساً كوفية وفارسية وزرنخ القادسية في تلك القفاف واقعد على الطريق وصح الفلوس الجياد للصدقة والنفقة وبع الفلوس فانه أعود عليك من هذه الصناعة » ثم أمر به فاخرج من داره

فخرج حنين باكياً مكروباً وقد بعثه ذلك على زيادة النشاط للسعي في تعلم الطب بلغته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ أشعار هوميروس (٢) فأصبح أعلم أهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلا عن العربية واصبح أطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية واحتذى فيها حذو الاسكندرانيين (٣) . وترجم أيضاً لجبريل بن بختيشوع كتاب التشريح لجالينوش وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له «ربن حنين» في اصطلاح السريان اي «يا معلمنا حنين» ولما أراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٨٥ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٨٩ ج ١

يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين لانه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لايزال شابا فاخرج المأمون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم وعليهم حنين المذكور ليصلح ما يترجمونه . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربي مثلا بمثل ولذلك فقد كان حنين يكتب الترجمة بحروف غليظة وأسطر متفرقة على ورق غليظ جداً لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر أن حنيناً رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها وكان يترجم أيضا لبني شاكر الآتي ذكرهم ولغيرهم

وكان لحنين ولدان داود واسحق صنف لهما كتباً طبية في المبادىء والتعليم ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فافلح اسحق وتميز واشتغل في الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية الا أن عنايته كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة مثل كتب أرسطوطاليس وغيره من الحكماء . أما أبوه فكان أكثر اشتغاله في نقل كتب الطب وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر أن يوجد من جالينوس كتاب الا وهو بنقل حنين أو باصلاحه وما لم يكن كذلك لم يكن معتبرا عندهم لبراعة حنين في العربية فضلا عن تمهره بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ هـ) فاختاره لرئاسة الترجمة فعين جماعة من التراجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد فكانوا يترجمون وينصفح حنين ترجماتهم وينقحها . وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق أيضاً واكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها وكان مع أبيه ثم انقطع للقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وكان يفضي اليه باسراره وله فضلا عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرها

(٣) حبيش الاعسم الدمشقي : هوحبيش بن الحسن الدمشقي ابن أخت حنين ابن اسحق وقد تعلم صناعة الطب منه وكان قد سلك مسلكه في الترجمة ـ وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فان اكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة مترجما بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف فيكشطه ويجعله لحنين (١)

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي: وهو من نصارى الشام وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفا نبيلا رحل الى بلاد الروم في طلب العلم وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية

(١) ابو الفرج ٢٥٣

ونقل كتباً كثيرة من اليونانية الى العربية وكان جيد النقل وأصلح نقولا كثيرة والف رسائل عديدة في الطب وكان حسن العبارة جيد القريحة وفضلا عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والفلك والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والادب والدين ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج الملطي « لو قلت حقا لقلت انه أفضل من صنف كتابا بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ومارزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني »

(٥) آل ماسرجويه: أولهم ماسرجويه متطبب البصرة وهو يهودي المذهب سرياني اللغة وكان ينقل من السرياني الى العربي وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه وكان يلحق بابيه ولهما مؤلفات في الطب

(٦) آل الكرخي : أولهم شهدي الكرخي من أهل الكرخ وكان قريب الحال في الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل أبيه في النقل ثم فاق أباه في آخر عمره ولم يزل متوسطاً وكان ينقل من السرياني الى العربي

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قرة الحراني وهو من الصابئة المقيمين في حران وكان صيرفيا ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً وكان جيد النقل الى العربية وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق وله في السريانية كتاب في مذهب الصابئة . وكان في خدمة المعتضد العباسي وبلغ عنده أجل المراتب حتى كان يجلس فى حضرته في كل وقت ويحادثه طويلا ويضاحكه فيقبل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت وكان مقدما عند القاهر بالله وله تصانيف كثيرة وكذلك ابنه ثابت بن سنان ولكنهما لم ينقلا شيئا

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للمأمون وقد نقل كتاب المجسطي واقليدس الى العربية ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني

(٩) ابن ناعمة الحمصي : هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصي أيضا زروبا بن ماتحوه وكان اضعف من سابقه

(١٠) اصطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق في جودة النقل الا ان عبارة حنين كانت افصح وأحلى

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان نقل كتبا كثيرة من الستة عشر لجالينوس وهو دون حنين

(١٢) سرجيس الرأسي : هو من مدينة رأس العين في جزيرة العراق نقل كتباً كثيرة وكان متوسطا في النقل وحنين كان يصلح نقله

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم وكان ينقل الكتب من اليوناني الى السرياني وليس الى العربي

(١٤) البطريق: كان في أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين

(١٥) يحيى بن البطريق : كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف اللاتينية(١)

(١٦) ابو عثمان الدمشقي : كان من النقلة المجيدين الى العربية

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير قني تفقه في مدرسة مارماري على أساتذة عظام واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره

(١٨) يحيى بن عدي : هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة قرأ على متى بن يونس وعلى ابي نصر الفارابي وهو يعقوبي المذهب خلافا لاكثر المترجمين السريان وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة (٢)

هؤلاء اشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني الى العربي . وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار

وأما النقلة من الالسنة الاخرى فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية كابن المقفع وآل نوبخت وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي الى العربي في النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد وكانا يخدمان داود ابن عبد الله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية الى العربية وعلي بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيج الشهريار والحسن بن سهل وكان من المنجمين. والبلاذري احمد بن يحيى وجبلة بن سالم كاتب هشام واسحق ابن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيارنامه . ومنهم محمد الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي كان في جملة اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية . وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي(٣)

(١) طبقات الاطباء ٢٠٥ ج ١ (٢) الفهرست ٢٦٤ (٣) الفهرست ٢٤٥

ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها

السوريون ونقل العلم

اذا تدبرت ما تقدم من أخبار النقلة ومواطنهم ومللهم رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الامم ونقلها من أمة الى اخرى أو من لسان الى لسان من أقدم أزمنة التاريخ . يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم واقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب

فالسوريون (أو الفينيقيون) هم الذين نشروا أحرف الهجاء في العالم قبل الميلاد بضعة عشر قرنا فحملوها معهم في اثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ولا تزال صورها وأسماؤها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الامم المتمدنة في تلك الاعصر كما يدرسون اليوم الانكليزية والفرنساوية وغيرها من لغات ممالك التمدن الحديث لنقل العلم أو الاتجار أو الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم وأضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في ادبرتهم ثم كانت مصدرا للعلم والفلسفة الى بلاد فارس والهند وغيرهما

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى أنوشروان مارستان جنديسابور لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حران لان أهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه أهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم

فلما ظهر الاسلام وارادا لخلفاء نقل العلوم الى العربية كان السوريون ساعدهم الاقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد وفيهم الحمصي والبعلبكي والدمشقي والحيري

والحراني والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها فضلا عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين من أهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله وفيهم من ألف في أكثر فروع العلم أو الفلسفة أو المنطق أو الطب وغيرها

وذلك شأن السوريين أيضاً في علوم التمدن الحديث فقد كانوا من أكثر الناس اشتغالا في نقلها من لغات أوربا المختلفة الى اللغة العربية ولا يزالون في ذلك الى اليوم

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم ان الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها أهل بغداد نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها واستخدموا التراجمة وبذلوا الاموال في البحث عنها وترجمتها

وأشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاكر أو بني موسى لانهم أولاد موسى بن شاكر وهم محمد واحمد والحسن وتعرف أولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون والمأمون يرعى حقه في أولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من أهل العلم والادب بل كان في حداثته حرامياً يقطع الطريق ويتزيا بزي الجند وكان شجاعاً مجرباً وكان يصلي العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكراً فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ويركب فرساً له أشقر يشد على قوائمه خرقاً بيضاء ليوهم من يراه في الليل انه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلي الصبح مع الجماعة في المسجد . فلما كثر فعله واشتهر امرهم فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صغاراً فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي وأثبتهم مع يحيى بن أبي منصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق ان يراعيهم حتى قال اسحق « جعلني المأمون داية لاولاد موسى » وكانت حالهم رثة رقيقة وأرزاقهم قليلة . ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم وكان أكبرهم وأجلهم محمد وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم عالماً باقليدس والمجسطي وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان أخوه احمد دونه في العلم الا صناعة الحيل (الميكانيكيات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لاخيه . وكان أخوهما الحسن منفرداً بالهندسة وله طبع

عجيب فيها لا يدانيه أحد فيه مع انه علم كل ما علمه من نفسه بدون تعليم ولا قرأ كتب الهندسة الا ست مقالات من اقليدس [١]

وتفانى أولاد شاكر في طلب العلوم القديمة وبذلوا فيها الرغائب وأتعبوا أنفسهم في جمعها وانفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم وأحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني . وكان في جملة من أنفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق [٢] وغيره . وأقاموا التراجمة وفي جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة [٣] . ولبني موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم اليها أحد . وقد برهنوا للمأمون ان محيط الارض ٢٤٫٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً فضلا عن مهارتهم في الرصد وغيره

وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢٫٠٠٠ دينار في الشهر ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم علي بن يحيى المعروف بابن المنجم كان أحد كتاب المأمون ونقل له كثير من كتب الطب وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك

ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب وكان حريصاً على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب كثير البذل في سبيلها . ومنهم نادري الاسقف في الكرخ وكان راغباً في طلب الكتب متقرباً الى قلوب نقلتها وصنف له الاطباء النصارى كتباً كثيرة . وعيسى بن يونس الكاتب الحاسب من أهل العراق وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية . ومنهم شير شوع (كذا) بن قطرب من أهل جنديسابور وكان يبر النقلة ويهدي اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال وكان يريد النقل الى السرياني أكثر مما الى العربي . وقس على ذلك جماعة من أطباء الخلفاء كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وداود بن سرابيون وسلموية وابن الطيفوري وغيرهم . واقتدى بالخلفاء العباسيين في نقل العلوم الى العربية أيضاً كثيرون من أمراء المسلمين المستقلين عنهم . فقد كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل له من السرياني الى العربي [١]

(١) تراجم الحكماء (خط) وطبقات الاطباء (٢) الفهرست ٢٤٣
(٣) طبقات الاطباء ١٨٧ ج ١ (٤) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢

الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التي حملت الخلفاء على نقل علوم القدماء في النهضة العباسية وقبيلها وقد ذكرنا الذين اشتغلوا في ترجمتها من الالسنة المختلفة . بقي علينا أن نذكر الكتب التي نقلت وكان عليها معول علماء المسلمين فيما الفوه بعد ذلك . وهي كثيرة تصعب الاحاطة بها لتشتت أخبارها وضياع كثير منها على اننا نكتفي بما يبلغ اليه الامكان

وتسهيلا للاحاطة بمواضيع تلك الكتب واللغات المنقولة هي عنها نقسمها باعتبار اللغات التي نقلت عنها وهي : اليونانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية . ونقسم منقولات كل لغة الى أقسام باعتبار المواضيع على ما يقتضيه المقام :

١ — الكتب المنقولة عن اليونانية

هي اكثر ما نقلوه الى العربية في تلك النهضة واكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي . واليك كتب كل علم على حدة مرتبة باعتبار المؤلفين وبازاء كل كتاب اسم المترجم الذي نقله

١ — كتب الفلسفة والادب

كتب افلاطون

١	كتب السياسة	نقله حنين بن اسحق
٢	« المناسبات	« يحيى بن عدي
٣	« النواميس	« حنين ويحيى
٤	« طيماوس	« ابن البطريق واصلحه حنين
٥	« افلاطن الى اقرطن	« يحيى بن عدي
٦	« التوحيد	. . . .
٧	« الحس واللذة	. . . .
٨	« أصول الهندسة	« قسطا بن لوقا

كتب ارسطوطاليس

١	قاطيغورياس اي المقولات	نقله حنين بن اسحق
٢	كتاب العبارة	« « الى السريانية واسحق الى العربية
٣	تحليل القياس	« ثيادورس واصلحه حنين
٤	كتاب البرهان	« اسحق الى السرياني ومتى الى العربي
٥	« الجدل	« « « « ويحيى « «
٦	« المغالطات أو الحكمة المموهة	« ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي
٧	« الخطابة	« اسحق وابراهيم بن عبد الله
٨	« الشعر	« أبو بشر من السرياني الى العربي
٩	« السماع الطبيعي	« أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
١٠	« السماء والعالم	« ابن البطريق واصلحه حنين
١١	« الكون والفساد	« حنين الى السرياني واسحق والدمشقي الى العربي
١٢	« الآثار العلوية	« أبو بشر ويحيى
١٣	« النفس	« حنين الى السرياني واسحق الى العربي
١٤	« الحس والمحسوس	« أبو بشر متى بن يونس
١٥	« الحيوان	« ابن البطريق
١٦	« الحروف أو الالهيات	« اسحق ويحيى وحنين ومتى
١٧	« الاخلاق	« اسحق
١٨	« المرآة	« الحجاج بن مطر
١٩	« اثولوجيا	. . . .

ولكتب ارسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته أو من جاء بعده كثاوفرسطس وديدوخس برقلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس وامونيوس وتامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم. ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكلها في

الفلسفة وفروعها وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها فاغضينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضعة كتب في الفلسفة والادب وهي كتاب ما يعتقده رأياً ترجمه ثابت وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه نقله توما وأصلحه حنين وكتاب الاخلاق نقله حبيش وكتاب انتفاع الاخيار باعدائهم نقله حبيش والمحرك الاول لا يتحرك نقله حبيش وعيسى وغيرها

٢ ـ كتب الطب وفروعه

كتب ابقراط

١	كتاب عهد ابقراط	حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية
٢	« الفصول	نقله حنين لمحمد بن موسى
٣	« الكسر	« « «
٤	« تقدمة المعرفة	« وعيسى بن يحيى
٥	« الامراض الحادة	عيسى بن يحيى
٦	« ابيذيميا	« « «
٧	« الاخلاط	« « « لاحمد بن موسى
٨	« قاطيطيون	حنين لمحمد بن موسى
٩	« الماء والهواء	« وحبيش
١٠	« طبيعة الانسان	« وعيسى

كتب جالينوس

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي كتاب الفرق. الصناعة . كتاب النبض . شفاء الامراض . المقالات الخمس . الاسطقصات . كتاب المزاج . القوى الطبيعية . العلل والامراض . تعرف علل الاعضاء الباطنة . كتاب النبض الكبير . كتاب الحمايات . البحران . ايام البحران . تدبير الاصحاء . حيلة البرء . وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربية الا كتاب العلل الباطنة . وكتاب النبض الكبير . وكتاب تدبير الاصحاء وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش أما مابقي من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع اسماء ناقليها :

١ التشريح الكبير	حبيش الاعسم	٢٥ الحركات المجهولة	حنين
٢ اختلاف التشريح	» »	٢٦ علل الصوت	»
٣ تشريح الحيوان الحي	» »	٢٧ افضل الهيئات	»
٤ » » الميت	» »	٢٨ سوء المزاج المختلف	»
٥ علم ابقراط بالتشريح	» »	٢٩ الادوية المفردة	»
٦ الحاجة الى النبض	» »	٣٠ المولود لسبعة أشهر	»
٧ علوم ارسطو	» »	٣١ رداءة التنفس	»
٨ تشريح الرحم	» »	٣٢ الذبول	»
٩ آراء ابقراط وافلاطون	» »	٣٣ قوى الاغذية	»
١٠ العادات	» »	٣٤ التدبير الملطف	»
١١ خصب البدن	» »	٣٥ مداواة الامراض	»
١٢ المني	» »	٣٦ ابقراط في الامراض الحادة	»
١٣ منافع الاعضاء	» »	٣٧ الى تراسوبولوس	»
١٤ تركيب الادوية	» »	٣٨ الطبيب والفيلسوف	»
١٥ الرياضة بالكرة الصغيرة	» »	٣٩ كتب ابقراط الصحية	»
١٦ » » الكبيرة	» »	٤٠ محنة الطبيب	»
١٧ الحث على تعليم الطب	» »	٤١ افلاطون في طيماوس	واسحق
١٨ قوى النفس ومزاج البدن	» »	٤٢ تقدمة المعرفة	عيسى
١٩ حركات الصدر	نقله اصطفان واصلحه حنين	٤٣ الفصد	عيسى واصطفان
		٤٤ صفات لصبي يصرخ	ابن الصلت
٢٠ علل النفس	اصطفان واصلحه حنين	٤٥ الاورام	» »
٢١ حركة العضل	» »	٤٦ الكيموس	ثابت وحبيش
٢٢ الحاجة الى النفس	» »	٤٧ الادوية والادواء	عيسى
٢٣ الامتلاء	» »	٤٨ الترياق	ابن البطريق
٢٤ المرة والسوداء	» »		

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل افسس كان قبل جالينوس ولعلها

لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لاوريباسيوس وهي كتاب الادوية المستعملة نقله اصطفان بن باسيل وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين وكتاب الى ابيه ارنافيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زربي ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش كتاب في الحشائش سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات وهاك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها أصول الهندسة نقله الحجاج بن مطر نقلين الهاروني والمأموني ونقله اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرة ونقله أبو عثمان الدمشقي ولا يزال هذا الكتاب باقياً الى الآن . ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب الظاهرات وكتاب اختلاف المناظر وكتاب الموسيقى وكتاب القسمة وكتاب القانون وكتاب الثقل والخفة

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن آداب اليونان وهي عشرة ولم يعرف ناقلوها

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسة ولم يعرف ناقلوها

(٤) منالاوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب أصول الهندسة نقله الى العربي ثابت بن قرة

(٥) بطليموس القلوذى : صاحب كتاب المجسطي الشهير وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولبطليموس أيضاً كتاب الاربعة نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الارض نقله ثابت الى العربي نقلا جيداً . ولبطليموس ١٥ كتاباً أخر في الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد لم يعرف ناقلهما

(٧) ذيوقطس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها منها كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لايون البطريق وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس وكتاب العمل بذات الحلق وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير وكتاب العمل بالاسطرلاب وكلها لثاون الاسكندري غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لاصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقي الكبير لنيقوماخس الجهراسيني وكتاب الموسيقى المنسوب لاقليدس وقد تقدم ذكره ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره ـ وكتاب الريموس وكتاب الايقاع لارسطكاس وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غير ما جاء في كتب ارخميدس كتاب الحيل الروحانية وكتاب ثيل الاثقال لابرن وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس

٢ — الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والاخبار والسير والاشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي بن زياد التميمي وغيرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع اسماء ناقليها :

١	كتاب رستم واسفنديار	جبلة بن سالم	
٢	« بهرام شوس	« «	
٣	« خداينامه في السير	عبدالله بن المقفع	
٤	« آيين نامه	« «	
٥	« كليلة ودمنة	« «	
٦	« مزدك	« «	
٧	« التاج في سيرة انوشروان	« «	
٨	« الآداب الكبير	« «	
٩	كتاب الآداب الصغير	عبدالله بن المقفع	
١٠	« اليتيمة	« «	
١١	« هزار افسانه	لم يذكر ناقله	
١٢	« شهريزاد مع ابرويز	«	
١٣	« الكارنامج انوشروان	«	
١٤	« دارا والصنم الذهب	«	
١٥	« بهرام ونرسي	«	
١٦	« هزاردستان	«	
١٧	« الدب والثعلب	«	

١٨ سير ملوك الفرس وهي غير كتاب ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكي والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني (١)

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠٫٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني نثراً للملك المعظم عيسى الايوبي أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ (٢) ولا ريب ان العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها

---

٣ — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وان لم يصل الينا من أخبارها الا القليل لان بغداد كانت في ابان الزهو العباسي حج العلماء والاطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية في استقدام أطباء الهند اليها وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم (٣)

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الادب أو الطب أو الصيدلة أو السير انهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الاصل . راجع قانون ابن سينا مثلا أو الملكي للرازي أو غيرهما من كتب الطب الكبرى فتراهم يذكرون بعض الامراض ويشيرون الى ان الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبدربه أو سراج الملوك للطرطوشي أو غيرهما من كتب الادب المهمة رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الاخلاق أو نحوها قالوا «وفي كتاب الهند كذا وكذا »

كتب الطب وفروعه

على انا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الاطباء انه اشتهر حوالي العصر العباسي

---

(١) رسائل شبلي في اللغة الهندستانية (٢) كشف الظنون ٤٧ ج ٢
(٣) البيان ٤٠ ج ١

جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها منهم كنكه الهندي وهو من متقدميهم وأكابرهم وخصوصاً فى علم النجوم فضلا عن الطب وله مؤلفات كثيرة منها كتاب النموذار في الاعمار وكتاب أسرار المواليد وكتاب القرانات الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش وكتاب في التوهم وكتاب في احداث العالم والدور في القران . ومنهم أيضاً صنجل وباكهر وغيرهما وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب الى اللغة العربية اما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية بأن ينقل الكتاب من الهندي الى الفارسي ثم ينقل من الفارسي الى العربي . منها كتاب سيرك الهندي وقد نقله من الفارسي الى العربي عبد الله بن علي وكتاب آخر في علامات الادواء ومعرفة علاجها أمر يحي بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الادوية وكتب أخرى في فروع الطب

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين وقد أتى بغداد باشارة يحي بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقاً واسعاً . وكان منكه يعرف الفارسية أيضاً فكان ينقل من الهندي الى الفارسي وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الاطباء(١) .ومنهم صالح بن بهلة الهندي جاء العراق في ايام الرشيد أيضاً ونال شهرة واسعة وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به فاذا لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلابد من اقتباسهم شيئاً من آراء الهند عنه

ومن مشاهيرهم ايضاً شاناق وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي الى الفارسي منكه الهندي واوعز يحي بن خالد الى رجل يعرف بابي حاتم البلخي بنقله الى العربي ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل الى العربي أيضاً

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية الى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره (٢) : —

١	كتاب سسرد في الطب	نقله منكه
٢	« اسماء عقاقير الهند	« « لاسحق بن سليمان
٣	« استانكر الجامع	« ابن دهن

(١) طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢ (٢) الفهرست ٣٠٣

٤	كتاب صفوة النجح	نقله ابن دهن
٥	« مختصر الهند في العقاقير	لم يذكر ناقله
٦	« علاجات الحبالى للهند	« « «
٧	« روسا الهندية في علاجات النساء	« « «
٨	« السكر للهند	« « «
٩	« التوهم في الامراض والعلل	« « «
١٠	« رأي الهند في أجناس الحيات وسمومها	« « «

كتب النجوم والرياضيات

أما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدم وكان لنقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب وقد قلدوه وألفوا على مذهبه . وممن الف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزاري وحبش بن عبد الله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم (١) والفزاري أول من عمل أسطرلاباً في الاسلام (٢). وما من فلكي من فلكي المسلمين اراد التوسع في علم النجوم الا وطالع كتبهم اما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ابو ريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم الف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة أو تصحيحاً أو نقداً ، ومما ذكره من كتبه التي الفها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السندهند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زيج الاركند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المدارين المتحدين والمتساويين وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشهر فيما بينهم لايخلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عند اصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بارقام السند والهند في ٣٠ ورقة . وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب وتذكرة في أن رأي العرب في مراتب العدد أصوب من رأي الهند فيها. وفي راسكيات الهند وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند. ومقالة

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) الفهرست ٢٧٣

في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كتاب باره وهي مقالة للهند في الامراض التي تجري مجرى العفونة » وغير ذلك فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأي في النجوم وعلومها وان المسلمين نقلوا عنهم شيئاً كثيراً

كتب الادب

وأما كتب الهند في الادب والتاريخ والمنطق والاسمار والخرافات مما نقل الى العربية فاولها كتاب كليلة ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم وبعد نقله الى العربية نظموه شعراً كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمه في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب بوذاسف (٦) بوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب سادبرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة [1]

ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية (بيافر) ومعناه ثمار الحكمة وفيه أصول الالحان وجوامع تأليف النغم [2]

---

٤ ـ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليوناني الى العربي بواسطة اللغة السريانية اخت النبطية أو هي عينها فلا نتعرض لذكرها . وانما المراد بهذا الباب الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابه وقد نقله الى العربية احمد بن على بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنه ٢٩١ هـ وظل معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته فقد قال ابن وحشية وهو يملي الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨هـ «اعلم يابني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة

(١) الفهرست ٣٠٥ (٢) تراجم الحكماء (خط)

الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها. وكان هؤلاء الكسدانيون أشد غيرة عليها لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه بجهدهم. وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه. وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عني علمه فلما اطلعت عليه لمته في اخفاء الكتاب عني وقلت له انك ان أخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لاسلافك ذكر وما يصنع الانسان بكتب لا يقرأها ولا يخلي من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر. فصدقني في ذلك وأخرج الي الكتب فجعلت أنقل كتابا بعد كتاب. فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة أسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم وهو كتاب عظيم المحل ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ» (١) (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالاسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب اسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء واكثرها من نقل ابن وحشية (٢) غير ما لا بد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء

---

٥ — الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب ان كثيراً من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل الى العربية وان كنا لا نرى شيئاً منها مدوناً بصفة ترجمة لانهم كانوا ينقلونها شفاهاً للصحابة وغيرهم على ما تقدم وربما دونوا منها شيئاً وضاع. وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة أسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل الينا خبره وله أيضاً شروح وتفاسير عليها (٣)

ولا يبعد ان يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية لانها كانت تحوي كثيراً من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها وربما فات نقلة الاخبار ذكر ما نقل عنها. وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية وانه ترجم عدة كتب فالظاهر انه ترجمها عن اللاتينية

---

(١) كتاب الفلاحة النبطية (خط) (٢) الفهرست ٣١٢ (٣) الفهرست ٢٣

واما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأساً فلا نشك في انهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معاً بامر خالد ابن يزيد [1]

الخلاصة

وفي الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والادبيات عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من السن الامم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً وان كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فاخذوا من كل امة احسن ما عندها فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان . وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس . وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود . وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان . وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي (الدخيلة)

ومما نلاحظه من أمر ذلك النقل ان العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الادبية أو الشعر مع انهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس واخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوذيسيته . والسبب في ذلك ان أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق لاسباب تقدم بيانها وأما التواريخ والاداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالباً من عند انفسهم حباً في اظهار مآثر اسلافهم او جيرانهم . فالمترجمون الفرس نقلوا شيئاً من تواريخ الفرس وآدابهم وكذلك فعل التراجمة السريان باداب أجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان في اولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيراً من تواريخ امتهم واشعارها . ولا ريب ان من جملة ما منعهم من نقل الالياذة الى العربية ذكر الآلهة والاصنام فيها ولكن في الشاهنامة أيضاً كثيراً من ذلك فلم يمنعهم من نقلها

(١) الفهرست ٢٤٢

ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون وذلك شأن المسلمين فى أكثر أسباب تمدنهم العجيب

محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ان الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو انسابهم وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح ان يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور

بلغ من اكرام المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع[1] حتى أمر ان يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام ـ وذلك انه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد فقال المنصور لحاجبه الربيع « أرى هذا الرجل قد تغير وجهه لا يكون قد منعته مما يشربه على عادته » قال الربيع « لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً » فأجابه المنصور بقبيح وقال « لا بد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما أمكنه من الشراب الجيد[2] وكان ذلك شأن المنصور مع أكثر أطبائه حتى كان يستشير بعضهم في أهم الامور ـ فلما طلب أهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من أطبائه طبيب يهودي اسمه فرات بن شحاثا وكان حاضراً فقال له المنصور « ماتقول يافرات » فأشار عليه بما يراه

وبلغ من اكرام الرشيد لطبيبه جبريل بن بختيشوع انه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيراً فأنكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا « يا سيدنا ذمي » فقال « نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين[3] أما المأمون فلطفه واكرامه العلماء أشهر من ان يذكر

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون أيدي أطبائهم في دورهم ويستشيرونهم في مهام أمورهم الادارية والسياسية وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب

(١) ويقال أيضاً جورجيس بن جبرئيل (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

يقتضي توقيعاً وكان سلمويه حاضراً أمره ان يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الامراء والقواد من خروج أمر أو توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد (١) ومن أدلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولى أخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبي » وكان اذا قرب الفصح أو غيره من أعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده الفادسية ليقيم في كنيستها ويتقرب ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له «تشير علي بعدك بما يصلحني» فأشار عليه بيوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من أكل الطعام يوم موته وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته (٢)

وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمهم والاحسان اليهم وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة (٣) وربما جلس الطبيب والوزراء والامراء وقوف كما كان شأن ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله (٤) . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم وهم أول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح أبدانهم أو يختارون لهم الاطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء الا باذن طبيبه فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا ان المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفوري فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة ٥٠٫٠٠٠ درهم (٥) وكان جبرائيل الكحال أول من يدخل على المأمون بعد الصلاة فيغسل اجفانه ويكحل عينيه فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك (٦)

وطبيعي ان يأنس الانسان بطبيبه ويكرمه وخصوصاً في دور الخلفاء في ذلك العصر والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن أقرب الطرق الى نيل مطالبهم ان يقتلوا الخليفة بالسم وذلك هين على الطبيب . وكثيراً ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون ان يفعل الاطباء ذلك طمعاً بمال أو منصب فكانوا يبذلون الجهد في ان يملأوا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيراً ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل

(١) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١
(٢) طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١
(٣) ابو الفرج ٢٤٩
(٤) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١
(٥) طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١
(٦) طبقات الاطباء ١٧١ ج ١

التسليم لهم كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما اراد ان يستطبه وقد خافه على نفسه فبعث اليه فلما حضر اقطعه اقطاعا سنياً وقرر له جاريا وخلع عليه ثم قال له « اريد أن تصف لى دواء يقتل عدواً نريد قتله سراً » فقال حنين « ماتعلمت غير الادوية النافعة ولا علمت ان أمير المؤمنين يطلب مني غيرها فان أحب أن امضي واتعلم فعلت» فقال « هذا شيء يطول بنا » ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم احضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً وهدده بالقتل فقال « لي رب ياخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم » فتبسم المتوكل وأخبره انه اراد امتحانه (١)

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على اطبائهم النصارى أو غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم(٢) ويكرمون أهل تلك الاديان من أجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئياً فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الاسلام الا نادراً كما أراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم أسلم خوفا منه . على أن الصابئة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين كما كان يفعل ابو اسحق الصابي الكاتب المشهور في أيام عز الدولة ومع ذلك فلما اراده عز الدولة على الاسلام لم يفعل لانه كان متمسكا بدينه والصابى هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها (٣)

أرأيت من حملوا على الاعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

ولم يمنعه شرفه في الاسلام من هذا الرثاء . ويدلك ذلك على أن التعصب أو التساهل انما يكون مصدرهما من صاحب الامر والنهي فاذا كان الامير معتدلا أو متعصباً كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملا على الخصوص أهل الخلفاء وأهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف ان يأخذ العلم عن نصراني حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد أخذ بعض علمه عن أحد نصارى حران(٤) وكان النصارى من الجهة الاخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والانجيل على فقيه مسلم (٥)

أما بذل الاموال للاطباء فلاحاجة الى ذكره لشهرته ومن مراجعة ثروة جبريل ابن بختيشوع في الجزء الثانى من هذا الكتاب كفاية . فضلا عما كانوا يكسبونهم من الاموال غير الرواتب فان المأمون أمر أن كل من يتقلد عملا لايخرج الى عمله الا بعد

(١) ابو الفرج ٢٥١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٣ ج ١ (٤) ابن خلكان ٧٦ ج ٢ (٥) ابن خلكان ١٣٣ ج ٢

أن يلقى طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

افي طبك يا جبريـ ـل مايشفى ذوي العلة
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة(١)

فكيف لا يزهو العلم ويزهر ويثمر في ظل هؤلاء

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم فالدولة الفاطمية بمصر كان أكثر اطبائها من النصارى واليهود والسامريين وكانت لهم عندهم منزلة الاطباء في الدولة العباسية فكانوا يغدقون عليهم الاموال ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بالقاب الشرف كسلطان الحكماء وأمين الدولة ومعتمد الملك (٢) ويخاطبونهم كما يخاطبون الامراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانيا اسمه منصور بن مفشر فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم على طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وانم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا اقالك الله العثرة وأعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » (٣)

ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس فقد كان للاطباء والعلماء في أيام الحكم بن الناصر ما كان لهم في أيام المأمون لمشابهة بين الخليفتين فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جماعاً للكتب كما سيأتي . على أن حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء واختلاف العصور

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل الى العربية حتى أخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها . وكان اشتغالهم في بادىء الرأي على سبيل التلخيص أو الشرح أو التعليق حتى اذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد للاسباب الاتية أخذ المسلمون في التأليف من عند انفسهم وبعد أن كانت العلوم في القرنين الاولين نقلية انما تحتاج الى الادخار في الذاكرة اصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب

(١) طبقات الاطباء ١٣٨ ج ١ (٢) تراجم الحكماء (٣) ابو الفرج ٣١٦

وكانت بغداد كعبة العلم وحج العلماء ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم في أثناء النهضة العباسية وخصوصاً فى أيام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك وظهرت منهم الاساءة لاهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون في الاعتزال واكرام الشيعة فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في أيام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع[١]

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة حتى أمر بهدم قبر الحسين بن علي وماحوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه وكان كثير الاستهزاء بعلي[٢] وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد فابطل القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث فانحط علم الكلام بعد أن بلغ رونقه في أيام الرشيد وخلفائه فأخذ في التقهقر في أيام المتوكل لانه كان شديد الوطأة على أصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم فاهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم[٣] . ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم أنه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين وقتل أبا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت[٤] وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب وأخذ منه مالا وجوهراً وأمر أن يصفع فى كل يوم فاحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة[٥]

ومات المتوكل مقتولا سنة ٢٤٧ هـ قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت أحوال الخلافة واستفحل شأن الاتراك ففرت قلوب طلبة العلم واكثرهم من الفرس والعرب ففرقوا من بغداد رويداً رويداً الى انحاء المملكة الاسلامية شرقاً وغرباً ولذلك كان اكثر من ظهر من العلماء بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده انما نبغوا خارج بغداد وفيهم الاطباء والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والمتكلمون وأصحاب

(١) المسعودي ٢٦١ و٣٦٧ ج ٢ (٢) أبو الفداء ٤٠ ج ٢ (٣) تاريخ المشارقة (خط)
(٤) أبو الفداء ٤٣ ج ٢ (٥) المسعودى ٢٦٩ ج ٢

المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة عند ظهور الاسلام في الاسكندرية ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز فى آخر القرن الاول للهجرة الى انطاكية . وكان مركز العلوم الاسلامية في أول الاسلام في المدينة ثم انتقل الى البصرة ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك العلوم ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة فاصبحت بغداد أم المدائن في العلم والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم لما نشأت الدول الجديدة في انحاء المملكة الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض. وتدرج الانتقال من بغداد أولا الى العراق العجمي فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب والاندلس

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر لانها ورثت دول المشرق في ذلك فاصبحت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع العلماء واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء[١] وهي في ذلك وفي غيره مدينة لبغداد وخصوصاً في العلوم الدخيلة . فان الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون دخلا في أيام الحكم بن هشام[٢] . وأما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبد الرحمن الاوسط المعاصر للمأمون وازدهت في أيام الحكم بن الناصر[٣] أما الطب فدخل المغرب ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران أصله من بغداد ورحل الى المغرب ونقل الطب معه[٤] في أوائل القرن الثالث . على أن اطباء الاندلس ومصر مازالوا حيناً من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة الى بغداد . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود بغداد[٥] ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام

وبالجملة فان بذور العلم التي القاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان واذربيجان وما وراء النهر وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك رافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب

(١) نفح الطيب ٢١٧ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٥٣ ج ٢
(٣) طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢
(٥) طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢

الثروة ولانها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين فضلا عن الاطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة

على ان أكثر العلماء غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة كانوا يتقاطرون اليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . أما المسلمون فالغالب أن يكون ظهورهم خارج العراق ، لا سيما وان أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب اهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازي من الري وابن سينا من بخارى في تركستان والبيروني من بيرون في بلاد السند وابن جلجل النباتي من أهل الاندلس وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب وأقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الاندلس

أما مصر فأكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين وقد نبغ فيها ابن الهيثم من أهل الفلسفة والطبيعيات وعلي بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديد رئيس الاطباء ورشيد الدين أبو حليقة الطبيب الفيلسوف وضياء الدين بن البيطار النباتي الشهير . أما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف وأبو المجد بن أبي الحكم وشهاب الدين السهروردي وموفق الدين البغدادي الرحالة ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والامراء في الطب والفلسفة وغيرها ممن نبغ في الشام

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الاسلامية كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء فانهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها وألقابهم تدل على أماكنهم كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزابادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم

الخلفاء والامراء والعلم

اشتغال الخلفاء والامراء بالعلم

فلا غرو اذا احتفى الخلفاء والامراء باهل العلم وحاسنوهم وهم انفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه واذا كان الملك أو الامير عالماً زها في أيامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة في الاسلام أن يكون الخليفة عالماً بالامور الشرعية ولذلك كان

الخلفاء في الغالب عالمين بها يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين وتطرقوا من ذلك الى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق وأحاط بهم أهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس واطلعوا على شيء من تلك العلوم تاقت أنفسهم اليها واشتغلوا بها وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استثارة الخلفاء والامراء فنبغ من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء انتظموا في سلك أهل العلم الطبيعي فضلا عن الادبي

وأعلم خلفاء بني العباس المأمون فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ويقابله في الدول الاسلامية الاخرى الحكم بن الناصر الاموي في الاندلس (توفي سنة ٣٦٦ هـ) والحاكم بامر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١ هـ) أما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جماعا للكتب يبذل الاموال في استجلابها من الاقطار . واما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وانشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كان عبد الرحمن الاوسط أمير الاندلس المتوفى سنة ٢٣٨ هـ [١] وهو أول من وصلت اليه كتب الفلسفة من أمراء الاندلس واطلع عليها وتظاهر بها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . أما قبلهما فلم يكن أحد من الخلفاء يعرف الفلسفة واذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشتغلون بها كما فعل المنصور والرشيد . أما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي

أما الادب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . اما الادب فقد كان السفاح تعجبه المحادثة ومفاخرات العرب من نزار واليمن [٢] وكان المنصور صاحب أخبار وآداب وله كتاب فيها [٣] وكان الهادي يجالس الادباء يقصون عليه الاخبار والاشعار. وابن المعتز أول من ألف بعلم البديع [٤] وابراهيم بن المهدي كان من علية أهل الادب والشعر. ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب وبني عباد في الاندلس وبني بويه في بغداد

وكان هؤلاء الخلفاء أو الامراء يقدمون أهل العلم ويستوزرونهم. ومن الوزراء العلماء يحيى بن خالد وزير الرشيد ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر وكذلك كان اكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها

(١) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٢) المسعودي ١٥٩ ج ٢
(٣) البيان ١٥٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

واذا كان السلطان من أهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء في عصره وزها العلم على يده لان الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصا في الحكم المطلق لان الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه ـ قال اسامة بن معقل « كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها فحفظت الف رسالة والف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنياً بالاسمار والاخبار وأيام العرب يدني أهلها ويجيزهم عليها فلم يبق شيء من الاسمار أو الاخبار الا حفظته طلباً للقربى منه . وكان موسى الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهله فما تركت بيتاً نادراً ولا شعراً فاخراً ولا نسيباً سائراً الا حفظته ولم أر شيئاً أدعى الى تعلم الاداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » (١)

تأليف الكتب للخلفاء والامراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة. فالمأمون لولا حبه العلم واحرازه شيئا منه لم يقدم على ترجمة الكتب وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة وهو الذي أمر الفراء بجمع أصول النحو وأخلاه في غرفة وأطلق له الاموال (٢) فزها العلم في أيامه وخصوصا الفلسفة لانه كان يحبها . وما من امير ولا ملك محب للعلم الا اجتمع العلماء حوله وألفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد ابن اسحق الراوية الشهير الف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة (٣) وابن بكار الف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله (٤) والرازي الف كتابه المنصوري باسم المنصور بن اسحق . ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه أهل العلم فقصدوه من كل بلد وصنفوا له كتاب الايضاح في النحو وكتاب الحجة في القراءات وكتاب الملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم وغيرها (٥) وسعيد بن هبة الله الطبيب الف كتاب المغني في الطب للمقتدي بامر الله (٦) وقد يؤلفون الكتب للوزراء والامراء فقد الف الحريري مقاماته لانوشروان وزير المسترشد (٧) والف جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع كتاب الكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له . وقس على ذلك كثيرين ألفوا الكتب باسماء الخلفاء والامراء أو الوجهاء . والغالب أن يكون الغرض من ذلك الطمع بالعطايا الوافرة وكانوا ينالون شيئاً كثيراً منها . فالمنصور الاندلسي أثاب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار (٨) والفردوسي

(١) كتاب البلدان للهمذاني ١ (٢) طبقات الادباء ١٢٧
(٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ (٤) المسعودي ٢٤١ ج ٢ (٥) ابو الفداء ١٢٩ ج ٢
(٦) طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ (٧) الفخري ٢٧٤ (٨) نفح الطيب ٧٢٨ ج ٢

نظم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوي على أن يعطيه على كل بيت ديناراً فبلغت ٦٠٫٠٠٠ بيت

على انهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطا وانما كانوا ينظرون فيها فاذا لم يتوسموا بها نفعاً نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها . فابو بكر الرازى الطبيب الف للمنصور بن اسحق المذكور كتابا في صناعة الكيمياء فاجازه عليه بالف دينار ولكنه طالبه باثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور « ما اعتقدت ان حكيما يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بالالف دينار ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب » ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ثم جهزه وأرجعه الى بغداد (١)

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب باسمائهم وخصوصا بالاندلس بعد ذهاب دولة بني امية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء في حب العلم وتنشيط العلماء وهم في جهل وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك وخصوصا عند مباديه في الرئاسة(٢) وكانوا يتباهون أن يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني . وكان العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون وربما ابى الشاعر أن يمدح الملك الا بمال معين يشترطه سلفاً والملوك يسترضونهم بما يريدون . وقد يقترح الامير على العالم أن يؤلف كتابا باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكي أن أباغالب تمام بن غالب اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ لما الف كتابه في اللغة بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامري ملك دانية الف دينار ومركوبا وكساء على أن يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد في آخره « هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لابي الجيش مجاهد» فرد الدنانير وقال « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي أجعل في صدره اسم غيري وأصرف الفخر له ؟ فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن انفته وأضعف له العطاء وقال « هو في حل من أن يذكرني فيه لانصده عن غرضه » (٣)

على أن بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لابنائهم واخوانهم وأصدقائهم لا يلتمسون على ذلك اجراً . وقد يؤلفون لانفسهم . ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب حياة الحيوان للدميري قوله «هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه»

(١) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٢) نفح الطيب ١٠١ ج ١
(٣) نفح الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ٩٧ ج ١

وجملة القول ان التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مراسح الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها وفي الآداب على تنوع وجهاتها وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على أولادهم واخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الاشعار والاخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة أم الامين مائة جارية يحفظن القرآن وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة[1] حتى المخانيث فقد كانوا يؤدبونهم وكان في قرطبة في أوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخانيث ممن أخذ من الادب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات [2]

وأغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين فضلا عن المؤلفين فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغاب الادب فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه جماعة كبيرة[3] وهذه منقبة لم يسمع بمثلها

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط وغيرهم من الملل الخاضعة للاسلام في أنحاء العالم المتمدن يومئذ في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت ابحاثهم الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم ذكرها طاشكبرى زاده في مفاتيح العلوم . ومنها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام كالاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ والموسوعات التاريخية والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى أصبحت تعد بعشرات الالوف ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها الى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤٥٠١ غير الشروح والتعاليق . وغير ما ضاع خبره منها في النكبات المتوالية في أثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها .

(١) أبو المحاسن ٦٣٢ ج ١ (٢) نفح الطيب ٧٢٩ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١

وما كان يحرقه ولاة الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها اضطهاداً لاصحابها كما سيجيء حتى ذهب معظم ما ترجموه أو الفوه ولم يبق منها الا النزر اليسير

ولا ريب عندنا ان الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك ان بعض المؤلفين القدماء كالمسعودي والطبري وابن الاثير وغيرهم ذكروا في مقدمات كتبهم كثيراً من اسماء المؤلفات التي نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد اسماءها في الفهارس

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف فمؤلفات أبي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ومؤلفات الكندي ٢٣١ ومؤلفات القاضي الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في المواضيع المختلفة كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا وقد بلغت مؤلفات بعضهم الف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس (١) وقد عدت مؤلفات جمال الدين الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس (٢)

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات وخصوصاً كتب التاريخ فكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي أربعون مجلداً وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤ مجلداً والاغاني عشرون مجلداً وابن الاثير ١٢ مجلداً ويقال نحو ذلك في غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري فانه بلغ ستين مجلداً (٣) وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغاني الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا في بعض النصوص ان تقدير المجلد عشر ورقات (٤) وربما اختلف ذلك باختلاف المواضيع

والغالب في المؤلفات الكبرى عندهم ان تكون من قبيل الموسوعات الحاوية في موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلي في الجغرافية ولكنه يحوي تراجم جماعة كبيرة من علماء الاسلام وأدبائه . والاغاني في الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن في تاريخ العرب وآدابهم في الجاهلية وأوائل الاسلام . والعقد الفريد كتاب في الادب ولكن فيه فوائد كثيرة في الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها وقس على ذلك سائر كتب التراجم أو التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح

(١) نفح الطيب ٣٣١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١
(٣) نفح الطيب ٨٨٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥

والفسيولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها وكذلك كتاب الرازي . وقد يجمع الكتاب الواحد مواضيع متباعدة ككتاب حياة الحيوان للدميري فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئاً كثيراً من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات. والكشكول كتاب في الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا في فنون متناقضة كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها

تأثير التمدن الاسلامي

في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الاسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الاسلام عني المسلمون في درسها ونبغ منهم جماعة فاقوا اصحابها وأدخلوا فيها آراء جديدة فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الاسلام والآداب الاسلامية وما مازجها من علوم الامم الاخرى فاصبحت على شكل خاص بالتمدن الاسلامي . فلما نهض أهل أوربا الى استرجاع علوم اليونان أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الاسلامية . فلنبحث فيما أثره التمدن الاسلامي في علوم التمدن القديم

١ — الفلسفة في الاسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب افلاطون وارسطو وما علقه عليها اليونان من الشروح وأضافوا اليها من الآراء وهي تشمل المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق. فبدأ المسلمون أولا بدرس هذه الكتب ثم أخذوا في شرحها أو تلخيصها ثم عمدوا الى الكتابة في تلك المواضيع من عند انفسهم . ويندر أن يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم أو في الطب دون الفلسفة والنجوم أو بالعكس. ومن أقوال حنين « ان الطبيب يجب أن يكون فيلسوفاً » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه

الفلاسفة المسلمون في الشرق

واكبر فلاسفة المسلمين واشهرهم واسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي وهو عربي الاصل دون سواه من الفلاسفة ويتصل نسبه بملوك كندة ولذلك سموه فيلسوف العرب — فبعد أن كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من الاشتغال

في العلوم حتى الاسلامية . وبعد أن عملوا على ابادة ما عثروا عليه من علوم الاقدمين في مصر وفارس أصبحوا لايستنكفون من الاشتغال حتى في العلوم الفلسفية الدخيلة. وأول من اشتغل فيها منهم ابناء ملوكهم . كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم الى المتوكل وكانت له عندهم منزلة سامية وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والالحان والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ، وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره وحذا في تآليفه حذو ارسطوطاليس وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه وكان يعد من حذاق التراجمة ولم يذكر بينهم لانه لم يرتزق بالترجمة . وقد الف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم : —

في الفلسفة	٢٢ كتاباً	في الطبيعيات الخ	٣٣ كتاباً
« الحساب	١١ «	« الكريات	٨ كتب
« النجوم	١٩ «	« المنطق	٩ «
« الهندسة	٢٣ «	« الموسيقى	٧ «
« الفلكيات	١٦ «	« الاحكام	١٠ «
« الطب	٢٢ «	« النفس	٥ «
« الجدل	١٧ «	« الابعاد	٨ «
« السياسة	١٢ «	« تقدمة المعرفة	٥ «
« الاحداث	١٤ «	المجموع كله	٢٣١ كتاباً

واكثر هذه الكتب قد ضاع . ويتضح من مراجعة اسمائها أن الرجل كان كثير التضلع في هذه العلوم حتى انتقد اصحابها وخطأهم. وللكندي تلامذة حذوا حذوه

ويليه أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي المنتسب (١) وقد نشأ في الشام واشتغل فيها وكان فيلسوفاً كاملا درس كل ما درسه الكندي من العلوم وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق وتعمق في الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم وافاد التعليم وجوه الانتفاع بها والف كتباً في مواضيع لم يسبقه أحد اليها ككتابه « في احصاء العلوم والتعريف باغراضها » وهو أشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه أحد قبله وكتاب

(١) طبقات الاطباء ١٣٤ ج ٢

« السياسة المدنية » وهو الاقتصاد السياسي الذي يزعم أهل التمدن الحديث انه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ الف سنة ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته . وبرع الفارابي خصوصاً في علم الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فيه أحد واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثاني (١)

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وله من المؤلفات نحو مائة كتاب ٢٦ منها في الفلسفة فقط . ومنهم أبو حامد الغزالي الملقب حجة الاسلام المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وهو امام التصوف . غير الذين ظهروا في الاندلس وسيأتي ذكرهم ـ على ان الافاضة في ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة في الاسلام وما كان من تأثيرها في الدين والعلم

أهم ما كان من تأثير الفلسفة في الاسلام انهم بنوا عليها علم الكلام وايدوه بها لتقوى حجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام في المسلمين وعكفوا على درسه وخصوصاً المعتزلة واشتهر به جماعة من علية القوم وفي جملتهم الشريف المرتضي والزمخشري والباقلاني وغيرهم

وأما الفلسفة بحد ذاتها فقد كان اصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب اليها مرادفاً للانتساب الى التعطيل ومن أقوالهم « كان فلان سامحه الله يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه » (٢) وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في أيام المأمون ولذلك سماه بعضهم أمير الكافرين (٣) ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق وتنصب المتوكل فاصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها أو ينكرونها وهم كلفون بها فكانوا يشتغلون فيها سراً فألفوا الجمعيات السرية لهذه الغاية

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا تألفت في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة ذكروا من أعضائها خمسة هم : أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني وابو أحمد المهرجاني والعوفي

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج ١ (٢) ابن خلكان ١٣٤ ج ٢
(٣) اليعقوبي ٥٤٦

وزيد بن رفاعة (١) وكانوا يجتمعون سراً ويتباحثون في الفلسفة على انواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام. وأساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا وكتموا اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها وتشمل النظر في مبادىء الموجودات واصول الكائنات الى نضد العالم فالهيولي والصورة وماهية الطبيعة والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم وتكوين المعادن وعلم النبات واوصاف الحيوانات ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والصنائع العلمية والعملية والعدد وخواصه والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الاخلاق وطبيعة العدد وان العالم انسان كبير والانسان عالم صغير والاكوار والادوار وما هية العشق والبعث والنشور واجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم . . وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي أو رياضي أو فلسفي أو الهي أو عقلي . وبين أيدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشي فى نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة. ويظهر من امعان النظر فيها ان اصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يتصل أهل هذا الزمان الى أحسن منها . وفى ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشفقة وان الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سراً الى بلاد الاسلام ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الاندلس على يد ابي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني وهو من أهل قرطبة رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين . فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من ادخلها الاندلس (٢) فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢

أصحاب العقول الباحثة وأخذوا في درسها وتدبرها

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في أيام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم وقد أخذ الاندلسيون بشيء منها وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم وأولهم أبو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة (١) توفي في أواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينة المتوفى سنة ٣١٥ هـ وأبو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمرحيطي أو المجريطي من أهل قرطبة كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ وانجب تلامذة جلة اشهرهم ابن السمح المهندس الغرناطي وابن الصفار استاذ الرياضيات في قرطبة والزهراوي صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان وابو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفي في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ

على أن هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم والهندسة ونحوها أما الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن أهل الاندلس فيها الا بعد دخول رسائل اخوان الصفا وكان الحكم بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ولكنهم لم ينبغوا فيها الا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنبغ ابو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ويعرف بابن الصائغ . ومن تلاميذه القاضي أبو الوليد ابن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ونبغ أيضا ابن الطفيل وابن هود وغيرهما وقد الفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذه الافرنج قاعدة لفلسفتهم في أوائل نهضتهم

على أن أولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم فما من ملك الا نقم على الفلاسفة واضطهدهم. ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن ابي عامر صاحب الاندلس في أواخر القرن السادس للهجرة فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم وفي جملتهم ابن رشد وأبو جعفر الذهبي وأبو عبد الله قاضي بجاية وغيرهم (٢) وعزم ان لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة في بلاده فأمر باحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها وأصبح العامة كلما قيل فلان

(١) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢

يشتغل في الفلسفة أو التنجيم أطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو احرقوه . أما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سراً وربما أمر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقرباً من قلوب العامة ويكون هو نفسه يحبها (١)

---

٢ - الطب فى الاسلام

الطب الاسلامي

الطب الاسلامي خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الامم المتمدنة قبل الاسلام . لان المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان واطلعوا على ما كان عندالسريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ونقل اليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية واطلعوا على طب الهنود ممن جاؤا بغداد من أطبائهم . غير ما كان عند العرب فى أيام الجاهلية وتنوقل في الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامي الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي (أو الملوكي) لابي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ألفه للملك عضد الدولة بن بويه وجمع فيه كل ما وجده متفرقا من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع للهجرة وللرازي من كتب الطب والفلسفة وغيرها شيء كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكي حتى ظهر القانون لابن سينا وهو منشور ومشهور الى اليوم واذا قلبت صفحاته علمت انه قاموس في الطب والصيدلة وقد جمع خلاصة ابحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض لانك تقرأ في أماكن كثيرة منه تفصيلا لآراء الهنود وانتقادها واستحسانها . ومما ذكره من طبهم مثلا انهم وصفوا أنواع العلق وأشكاله وخصائص كل منها (٢) ومن آرائهم أن أكل اللبن مع الحوامض أو مع السمك يورث أمراضاً منها الجذام . وقولهم ان لا يوكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على ارز بلبن أو نحو ذلك (٣) ناهيك بالعقاقير الهندية التي تدل اسماؤها على أصلها

---

(١) نفح الطيب ١٠٤ ج (٢) القانون ١٠٧ ج ١ (٣) القانون ٨٤ ج ١

ومن الكتب الطبية الاسلامية التي استفاد منها الافرنج في نهضتهم الاخيرة كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي من أهل القرن الخامس للهجرة وهو قاموس في الطب ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحي . وكتاب التيسير لعبد الملك بن زهر الاندلسي ألفه لابن رشد الفيلسوف في أواسط القرن السادس للهجرة وأطباء المسلمين كثيرون وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا

الاطباء المسلمون

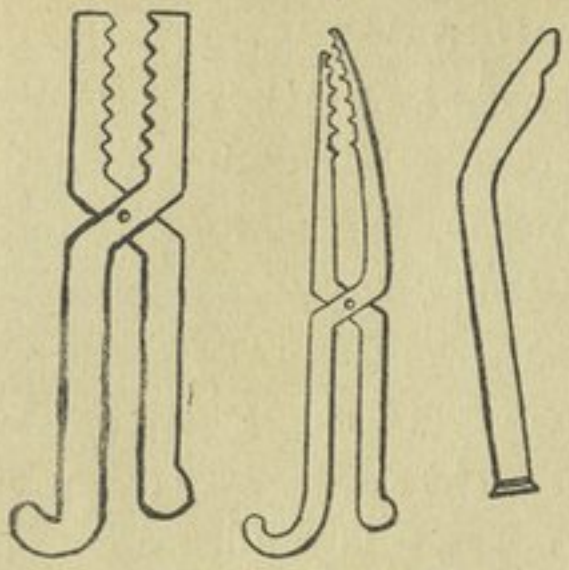
ولو أحصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر أي في أثناء ثلاثة أو أربعة قرون لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا أسماؤهم على بضع مئات وأكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة وألفوا الكتب العديدة وترى ذلك مفصلا في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطي وكتاب كشف الظنون وغيرها . أما عدد الاطباء على الاطلاق فما لا يمكن حصره لضياع ذلك مع الزمان وانما يستدل من بعض القرائن انه كان كثيراً جداً . فقد أحصوا أطباء بغداد وحدها في زمن المقتدر بالله في أول القرن الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيباً احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن في التطبيب سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان في خدمة الخليفة(١) فلا يمكن ان يكون مجموع ذلك كله أقل من الف طبيب متعاصرين في مدينة واحدة . وبلغ عدد أطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيباً (٢) . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيباً ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم (٣)

وكان للاطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب وأشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر . ويقال نحو ذلك في الصيادلة فقد كانوا كثاراً وتفشى الغش في الادوية حتى اضطر أولو الامر الى امتحانهم واعطاء الاجازات أو المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين . وأول من فعل ذلك الافشين في بغداد فقد وكل زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره (٤) وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والامراء ولهؤلاء رواتب

(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ (٤) ابو الفرج ٢٤٤

خاصة ويعرفون بالمرتزقين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين

وكان الاطباء طبقات وأصنافاً وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحال والاسناني ومن يعالج النساء والمحاظي فقط أو يطبب المجانين فقط ـ على نحو الاطباء الاختصاصيين في هذه الايام . وكان الكحالون في مصر أكثر منهم في سواها لتعرضها لامراض العين وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدح العين على نحو عملية الكتركتا اليوم



آلات قلع الاسنان عند العرب

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب منهن أخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسي وأهله ولا يقبل المنصور سواهما(١) واشتهر في أيام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بني أود كانت عالمة بالاعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة(٢) فضلاً عمن اشتهر منهن بالعلم والادب كشهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما

وكان الفحص الطبي عندهم قاصراً على فحص البول وجس النبض . فيأتي المريض ومعه قارورة الماء أي زجاجة البول فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ليتحقق وجود الحوامض أو القوابض أو السكر فيها ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم في حال المريض لاعتقادهم ان النبض يدل على مزاج القلب والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم

ما الذي أحدثه المسلمون في الطب

بقي علينا النظر فيما أحدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة والحكم في ذلك يستلزم درساً طويلاً لا يسعه هذا المكان . على اننا نقول بالاختصار ان المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم وأضافوا الى ذلك كثيراً من نتائج اختبارهم في هذه الصناعة كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية فانهم كثيراً ما يذكرون رأي جالينوس أو ابقراط مثلاً

(١) طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١

وينتقدونه ويبينون وجه الخطأ وصوابه (١) . فضلا عما ادخلوه من الترتيب والتبويب في الكتب التي ترجموها كما فعل ابن ابى الاشعث بكتب جالينوس فانه رتبها وبوبها وفصلها تسهيلا لمطالعتها (٢) غير ما أحدثوه من الشروح والذيول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء

اما ما أحدثوه من عند أنفسهم رأسا فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك انهم احدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الامراض وان لم يصلنا خبر غير القليل منها مثل نقلهم تدبير أكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة (على اصطلاحهم.) الى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها وذلك على غير ما سطره القدماء . وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب في بغداد فانه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء فنجح تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي فرفع منه المعاجين الحارة والادوية الحارة ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البروز فاظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الاطباء بعده (٣)

والعرب أول من استخدم المرقد (٤) (البنج) في الطب يقال انهم استخدموا له الزوان أو الشيلم وهم أول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب اول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وانهم اول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدح العين وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة

وقد الف للعرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق أحد الى مثله . فالجذام أول من كتب فيه أطباؤهم وأول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه (١) وهم أول من وصف الحصبة والجدري بكتاب لابي بكر الرازي غير ما الفوه من الموسوعات الضافية في الطب

(١) القانون ٢١ ج ٣ (٢) طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١ (٤) ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانسيكلوبيديا

الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة وللعرب فضل كبير فيها فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها. بدأوا بذلك من أيام يحيى بن خالد البرمكي كما تقدم ثم نبغ منهم الاطباء والصيادلة ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عني الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة في درس تاريخ فن الصيدلة فتحققوا ان العرب هم واضعو أسس هذا الفن وهم أول من اشتغل في تحضير الادوية أو العقاقير فضلا عما استنبطوه من الادوية الجديدة . وانهم أول من الف الاقرباذين على الصورة التي وصلت الينا (١) وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيادلة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ حتى ظهر اقرباذين أمين الدولة ابن التلميذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠ هـ . وهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن أقرب الشواهد على ذلك أسماء العقاقير التي أخذها الافرنج عن العرب ولا تزال عندهم باسمائها العربية أو الفارسية أو الهندية كما اخذوها عن العربية

على أن تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ولا خلاف في ان العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم . وقد تقدم ان أول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الاسكندرية وعنه أخذ جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠ هـ وبعده جابر بن حيان ثم الكندي فابو بكر الرازي وغيرهم فاكتشفوا كثيراً من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة وقد ذكر محققو الافرنج ان العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) وماء الذهب (الحامض النيتروهيدروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا) والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) والكحول والقلي والزرنيخ والبورق وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل الينا خبرها . على اننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في أيامهم مما لم نسمع له بمثيل في تاريخ الكيمياء قبل أواخر القرن الماضي ـ فقد أشار ابن الاثير الى أدوية استخدمها العرب

(١) طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ (٢) Encyclopaedia Brit. art. "Medicine"

في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ اذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه (١) ولم يذكر ما هي . ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضا البارود فقد ترجح لنا بالبحث انهم هم الذين ركبوه (٢) وهم من أول من وصف التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب وقد ألفوا في ابطال الكيمياء القديمة - أول من الف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في أواسط القرن الثالث للهجرة (٣)



العرب يستقطرون العقاقير

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه وقد أخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس فى أيام المتوكل نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية فالعقاقير التي لم يعرف لها أسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالا على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة فانتفع به الناس الى أيام الناصر صاحب الاندلس في أواسط القرن الرابع للهجرة . فكاتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ولم يكن في الاندلس مَن يحسن اليونانية فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلا يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهبا اسمه نقولا وصل

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٧ (٢) الهلال السنة العاشرة صفحة ٨٧
(٣) كشف الظنون ٣٤١ ج ٢

قرطبة سنة ٣٤٠ هـ فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاقير هذا الكتاب ثم جاء ابن جلجل في آخر القرن الرابع فألف كتابا فيما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والادوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في أواسط القرن السابع للهجرة فتناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ثم سافر الى بلاد اليونان والى أقصى بلاد الروم ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه واجتمع أيضا في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه وذهب الى الشام ودرس نباتها وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيساً على العشابين وأصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار الف كتابه في النبات وهو فريد في بابه (١) وكان عليه معول أهل أوربا في نهضتهم الاخيرة

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب الادوية المفردة وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصوراً معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه واصوله ويصور بحسبها بالدقة (٢) وذلك غاية مايفعله الباحثون في هذا العلم اليوم

المارستانات في الاسلام

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ولكن المارستانات كانت في التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لانهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب أخذوا المارستانات عن الفرس وانشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره

وأول من أنشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي انشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨هـ جعل فيه الاطباء وأمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الارزاق (٣) فانقضت الدولة الاموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان فلما حكم العباسيون كان المنصور أول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ولم ينشىء مارستاناً

(١) طبقات الاطباء ١٣٣ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٢١٩ ج ٢
(٣) المقريزي ٤٠٥ ج ٢

ولكنه أنشأ داراً للعميان والايتام والقواعد من النساء(١) وأنشأ هو أو من خلفه دوراً لمعالجة المجانين(٢)

وأول من أنشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد فانه لما رأى مهارة القادمين عليه من أطباء مارستان جنديسابور أراد أن يكون لبغداد مثل ذلك فأمر طبيبه جبرائيل ابن بختيشوع بانشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيب هندي اسمه دهشتك فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه(٣) وكان البرامكة أهل علم ولهم رغبة في طب الهند واطبائه كما رأيت فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن وهو ممن نقل الى العربي من اللسان الهندي رأساً(٤)

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدتها في سائر أسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد أنشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر فلما تولاها ابن طولون انشأ فيها سنة ٢٥٩ هـ مارستاناً عرف باسمه وانفق على بنائه ٦٠٠٠٠ دينار وشرط أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم وحبس ريعاً يضمن بقاءه . وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزيارة(٥)

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرها . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وانفق عليه من ماله وقلده طبيبه أبا عثمان الدمشقي(٦) ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة أشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر أن يتخذ مارستاناً ينسب اليه فأمر فبنوا له بباب الشام من أبواب بغداد المارستان المقتدري وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر . وبنى أيضاً الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستاناً بدرب الفضل عرف باسمه(٧) وبنى غيرهم مارستانات أخرى في الري ونيسابور وغيرهما. وفي أواسط القرن الرابع بني المارستان الكافوري بمصر .ثم أنشأ عضد الدولة بن بويه المارستان

(١) ابن خلكان ٤٩٥ ج ١ (٢) السكشكول ٢١٣
(٣) طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ (٤) الفهرست ٢٤٥ (٥) المقريزي ٤٠٥ ج ٢
(٦) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ (٧) طبقات الاطباء ٢٢٢و٢٢٤ ج ١

العضدي سنة ٣٦٨ هـ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ورتب له ٢٤ طبيباً وفيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات وكان على الاطباء رئيس يسمونه « الساعور »

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في أواسط القرن السادس ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره. ولما تولى السلاطين المماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق وصفه المقريزي وصفاً مسهباً في الجزء الثاني من خططه . ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر ناهيك بما انشاوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس وغيرها مما يطول شرحه . وفي رحلة ابن جبير وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم وفيها لكل مرض قاعة أو قاعات خصوصية يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فيتفقد المرضى ويصف لهم الادوية ويكتب لكل مريض دواءه(١) فمن شفي فيها زود السلام ومن مات كفنوه ودفنوه .وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة ويمارس بها هاتان الصناعتان

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقال يحملونه على الجمال أو البغال على نحو المستشفيات النقالة في دول هذه الايام . فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستان يحمله أربعون جملا يستصحبه العسكر حيثما توجهوا (٢)

٣ — التنجيم والنجوم أو الفلك

النجوم عندالقدماء علمان علم طبيعي ينظر فى النجوم من حيث مواضعها وحركاتها وأحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف . وعلم ينظر فيها باعتبار علاقتها بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلا للبحث نسمي الاول علم النجوم أو الفلك والثاني علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم ان العرب كانوا يعرفون هذين العلمين فلما تمدنوا ونقلوا العلم أضافوا

(١) طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء

ما أخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين

التنجيم

وأول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية أبو جعفر المنصور فترجموا له السندهند كما تقدم واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم حتى في ابان العصر العباسي وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والارزاق(١) وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من أحوالهم الادارية والسياسية فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو عدمها. وكانوا يعالجون الامراض على مقتضى حال الفلك وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع في أي عمل حتى الطعام والزيارة. على ان علماء الشرع الاسلامي كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم

علم النجوم أو الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه يكفيك انهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة. فقد رأيت ان محمد الفزاري نقل السندهند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب وانه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون. وفي أيامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي وكان منقطعاً الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم فجعل أساسه على السند هند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس واخترع فيه أبواباً حسنة فاستحسنه أهل عصره وطاروا به في الآفاق. ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي فنقله مسلمة بن احمد المرحيطي الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي ووضع أواسط الكواكب لاول تاريخ الهجرة (١) والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم

واشهر منهم في علم النجوم بنو شاكر الثلاثة وقد تقدم ذكرهم. ومن أعمالهم المأثورة انهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار واستعملوا فيها محيط الارض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره. وقد الف بنو شاكر كتباً جليلة في الفلك

(١) الفرج بعد الشدة ٩٠ ج ١

والهندسة ونبغ في عصرهم أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة فدس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم والف فيه كثيراً . ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير وثابت بن قرة الحراني المتوفى سنة ٢٨٨ هـ واحمد بن كثير الفرغاني وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين . ومحمد بن عيسى الماهاني ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني وكان صابياً اصطنع زيجاً عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية أصح . ابتدأ بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ وكان أوحد عصره في فنه وتوفي سنة ٣١٧ هـ (٢) وغيرهم . يليهم في القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون . وامام فلكي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد والفخر المراغي بالموصل والفخر الخلاطي بتفليس ونجم الدين القزويني (٣) وغيرهم في عصور أخرى وتفصيل مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » وانما يهمنا في هذا المقام النظر فيما أحدثه التمدن الاسلامي في علم الفلك

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل ان العرب (أو المسلمين) قالوا بابطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم (٤) ولعلهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا ابطالها ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ويتبحرون في كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لا يسعه هذا المكان فنذكر أولا المراصد ثم نأتي على أمثلة مما استنبطوه في هذا العلم

المراصد

الرصد أساس علم الفلك وعليه المعول في تعيين أماكن النجوم وحركاتها وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفي القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصداً في الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذي صاحب المجسطي . وظل المرصد الاسكندري وحيداً في العالم حتى

(١) تراجم الحكماء خط (٢) الفهرست ٢٧٩
(٣) أبو الفرج ٥٠١ (٤) ابن خلدون ٤٥٧ ج ١

نهض العرب وأنشأوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومراغة وسمرقند وغيرها كما سيجيء

﴿آلات الرصد﴾ وللرصد آلات كان منها في عهد التمدن الاسلامي بضعة عشر شكلا تختلف باختلاف الغرض منها وهاك أهمها :

(١) اللبنة : وهي جسم مربع مستو يستعلم به الميل الكلي وابعاد الكواكب وعرض البلد

(٢) الحلقة الاعتدالية : هي حلقة تنصب في سطح دائرة المعدل ليعلم بها التحويل الاعتدالي

(٣) ذات الاوتار : هي أربع اسطوانات مربعة تغني عن الحلقة الاعتدالية ويعلم بها تحويل الميل

(٤) ذات الحلق : هي اعظم الآلات هيئة ومدلولا وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج وحلقة تقوم مقام المارة بالاقطاب تركب احداها في الاخرى بالتصيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة الطول الصغرى تركب الاولى في محدب المنطقة والثانية في مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الارض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهي توضع على كرسي

(٥) ذات السمت والارتفاع : هي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعه وهي من مخترعات الرصاد الاسلاميين

(٦) ذات الشعبتين : هي ثلاث مساطر على كرسي يعلم بها الارتفاع

(٧) ذات الجيب : هي مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد وهي ثلاث مساطر

(٩) الاسطرلاب : وهو أنواع كثيرة منها التام والمسطح والطوماري والهلالي والزورقي والعقربي والآسي والقوسي والجنوبي والشمالي والمبطح والمسرطق وحق القمر والمغني والجامعة وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ولكل شكل تنوعات مما لا يحصيه عد(١)

(١) ابجد العلوم ٣٤٢



اسطرلاب عربي

﴿ المراصد في الاسلام ﴾ لما اشتغل المأمون في نقل علوم الاوائل الى العربية ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به نزعت به همته الى تحديه فجمع علماء النجوم في عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية في بغداد وجبل قيسون في دمشق سنة ٢١٤ هـ (١) ولما توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره وخالد المروزي وسند بن على والعباس بن سفيد الجوهري فالف كل منهم في ذلك زيجاً منسوبا اليه. وارصاد هؤلاء أول الارصاد في الاسلام (٢)

ثم بنى بنو شاكر مرصداً في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر (٣) وبنى شرف الدولة بن عضد الدولة رصداً في طرف بستان دار المملكة في أواسط القرن الرابع للهجرة وقد رصد فيه الكواكب السبعة أبو سهل الكوهي (٤)

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) كشف الظنون ٥٧٢ ج ١
(٣) فوات الوفيات ١٥١ ج ١ (٤) أبو الفرج ٢٠٧

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع تحولت الهمم الى تلك الفروع وأكبرها المملكة المصرية في أيام الفاطميين فأنشأوا رصداً (أو مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي نسبة الى الحاكم بامر الله المتوفى سنة ٤١١ هـ وفيه استخرج ابن يونس الزيج الحاكمي (١) ثم أعيد بناء هذا الرصد في أيام الافضل بن أمير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ هـ وذكر المقريزي خبر انشائه في حديث طويل . وأنشأ بنو الاعلم ببغداد سنة ٤٢٥ هـ رصداً عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات رصداً في حدود الشام سماه البيناني (كذا)

وما زال الرصد الحاكمي عمدة الراصدين حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وأنفق فيه الاموال الطائلة وأنشأ له مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد (٢) ثم بنى تيمورلنك مرصداً في سمرقند وبنى غيرهم مراصد أخرى في أصبهان ومصر والاندلس وأرصاداً خصوصية أو عمومية لم يصل الينا تفصيلها

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج وأطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره كتبه ابن يونس في أربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الازياج البغدادية . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور وازياج الخوارزمي وأبي حنيفة الدينوري صاحب رصد اصبهان وأبي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس وزيج ابي السمح الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وزيج ابي حماد الاندلسي والزيج الايلخاني لنصير الدين الطوسي وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة ٧٧٧ هـ وغيرهم (٣) وقد أصلحوا في هذه الازياج كثيراً من الارصاد اليونانية

وللمسلمين طرق جديدة ادخلوها في الرصد من عند أنفسهم واخترعوا كثيراً من آلاته كذات السمت والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانها من اختراع تقي الدين الراصد (٤) . والبديع الاسطرلابي البغدادي المتوفى في أوائل القرن السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد أن مرت السنون على نقصها وألف رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الخجندي وجعلها بعرض واحد وأقام الادلة على انها لا تكون لعروض متعددة فنظر

(١) ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٤٩ ج ٢
(٣) كشف الظنون ١٣ ج ٢ (٤) ابجد العلوم ٣٤٢

فيها البديع المذكور وعملها لعروض متعددة غير ما اخترعه من المساطر والبراكير وغيرها (١)

وأدخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسيناً في الاسطرلاب فاستنبط أن يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة وهو أول من أظهر هذا في الوجود فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي الخط ولم يبق غير النقطة (٢) وبين البتاني نقطة الذنب للارض وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء وهو أول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا (٣)

والبيروني أول من استنبط تسطيح الكرة وقد فصل ذلك في كتابه الآثار الباقية (٤) وللبيروني استنباطات جليلة في الفلك والرياضيات يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور ومن فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب . يكفيه انه نقل علوم اليونان الى الهند ونقل حكمة الهنود الى المسلمين . فقد دخل بلاد الهند وأقام فيها عدة سنين وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم (٥) بظل السلطان محمود الغزنوي كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة ومرجع الفضل في ذلك للاسلام

فطار خبر فلكي المسلمين فى أقطار العالم وأصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام في الشرق لهذه الغاية . ومما نقله ابن أبي أصيبعة ان الانبرور ملك الافرنج انفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا وبيده مسائل في علم النجوم وغيره فبعث بدر الدين الى كمال الدين بن يونس في حلها في حديث طويل (٦)

ويعترف الاسبان أن العرب علموهم الرقاص (البندول) لقياس الزمان ولايخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على انهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ويقال ان الرشيد أهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات انهم نقلوا عن اليونانية كتبا ضاع

(١) تراجم الحكماء (٢) ابن خلكان ١٨٥ ج ٢ (٣) القبة الزرقاء ٥
(٤) البيرونى ٣٥٧ (٥) ابو الفرج ٣٢٥ (٦) طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١

أصلها بعد نقلها وحفظت العلوم في ترجماتها العربية. منها مؤلفات تموخارس وارستلوس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطي (١) ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم حتى كتب الادب فان كليلة ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية وقد ضاع أصله الفارسي فلما عمد أهل أوربا الى ترجمته نقلوه عن العربية

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب لانه من شأن عمال الخراج أهل الذمة والموالي وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم أولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن النوأم « علم ابنك الحساب قبل الكتاب »(٢) ثم ما لبثوا أن استغرقوا فى طلب العلم كله على اختلاف أنواعه ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم وقلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده

ومن اكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر أقطار العالم . فالعرب يسمونها ارقاماً هندية لانهم نقلوها عن الهنود والافرنج يسمونها عربية لانهم أخذوها عن العرب(٣) وأول من تناول تلك الارقام من الهنود أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي(٤) ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ(Algorism) الافرنجية

وأما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية أن العرب نقلوا كتابين في الجبر أحدهما لديوفانتوس والآخر لابرخس وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث أن ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء أو هي أصول ضعيفة لا يعتد بها وهم يعتقدون ان الجبر من موضوعات العرب . والحقيقة على مانرى أن العرب بعد أن اطلعوا على حساب الهنود اضافوه الى مانقلوه عن اليونان وبنوا على ذلك علم الجبر . ومن اشهر كتب المسلمين فى الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور فالظاهر أن الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الاصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربي كما جمع في

(١) القبة الزرقاء ٥ (٢) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١
(٣) راجع كتابنا الفلسفة اللغوية الطبعة الثانية ١١٦ (٤) تراجم الحكماء (خط)

زيجه بين آراء الهند والفرس واليونان . وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مراراً . والف أيضاً في الجبر أبو كامل شجاع بن اسلم وأبو الوفاء البوزجاني واكثر مؤلفاته في الحساب وأبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ وأبو العباس السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦هـ وغيرهم. ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث اخذوا الجبر عن العرب

ومما احدثه المسلمون في الهندسة أنهم طبقوها على المنطق وقد فعل ذلك ابن الهيثم في أوائل القرن الخامس للهجرة فانه الف كتاباً جمع فيه الاصول الهندسية والعددية من اقليدس وابلونيوس ونوع فيها الاصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الامور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي اقليدس وابلونيوس وأدخل في الجبر والحساب اساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وعدل فيه عن اوضاع الجبريين والفاظهم(١)

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الاولين كقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية وطرح خطين بين خطين ذي توالي على نسبة (كذا) وكان يحللها ويردها على المسائل الاخرى ولا ينتهي الى آخر أمرها لانها أعيت الاولين(٢)

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجماله ورونقه لا لمنفعته ومناسبته . والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان الاول تظهر اشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل . والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . أو أن الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقي. والامم التي تمدنت قبل الاسلام اشتغلت في هذه الفنون على تفاوت في اتقانها. وممن أجاد فيها اليونان والرومان فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الالحان

ومن الاعتقادات الشائعة ان التمدن الاسلامي مقصر في هذه الفنون لانه لم يخلف ما خلفه اليونان أو الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين أو العرب من أكثر الامم استعداداً للفنون الجميلة والاجادة

(١) طبقات الاطباء ٩٣ ج ٢ (٢) تراجم الحكماء

فيها لا يقلون شيئاً عن اليونان والرومان وربما فاقوهما في بعضها . أما الجمال المحسوس فقد أجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ولهم نمط خاص فيه مشهور ومن آثارهم البنائية الحمراء في الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسج ونحوهما من الصنائع الجميلة . أما التصوير فلم يشتغلوا فيه لانه محرم عندهم كما هو معلوم

أما الشعر فقد بينا فيما تقدم ان العرب أكثر الامم انطباعا على الشعر واتقاناً له وأكثرهم نظماً وأوسعهم خيالا

الموسيقى

وأما الموسيقى فالعرب فاقوا سواهم فيها وقد وضعوا الالحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها وكان للموسيقى عندهم شأن كبير . والمشهور ان العرب كان عندهم من الالحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الامم قبل سائر العلوم الدخيلة لان اقتباسها لا يحتاج الى نقل أو ترجمة . وأول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجح كان حسن الصوت مغرما بالموسيقى وكان في مكة عند حصار الامويين لها على عهد عبد الله ابن الزبير في الثلث الاخير من القرن الاول للهجرة. واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس فى ترميم الكعبة فسمع ابن مسجح بعضهم يغني بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ثم رحل الى الشام وفارس وأخذ الالحان الرومية والفارسية والقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي وغنى على هذا المذهب وهو أول من فعل ذلك . وأخذ عنه من جاء بعده من مغني المسلمين فنبغ منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف ولذلك كثروا في أواخر الدولة الاموية وأواسط الدولة العباسية . ومن اشهر المغنين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفليح بن ابي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وابراهيم الموصلي وابنه اسحق وغيرهم . ومن المغنيات جميلة وحبابه وسلامة وعقيلة وغيرهن

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند فتناولها المسلمون ودرسوها وأصبحت الموسيقى علماً عندهم باصول وقد جمعوا بين ألحان اليونان والهنود والفرس والعرب فالفوا من ذلك علماً خاصاً بالتمدن الاسلامي

بلغ درجة حسنة من الاتقان . فالفوا فيه المؤلفات فضلا عما استنبطوه من الالحان أو اخترعوه من الآلات . وكان للخلفاء عناية كبرى في الغناء يبذلون الاموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور وكانوا يشترطون في المغني أن يكون حافظاً للاشعار والنوادر يحسن النحو والاعراب فكان المغنون في الدولة العباسية من أحاسن أهل الادب وفيهم من يحسن الفقه فضلا عن الادب واللغة كابراهيم بن اسحق الموصلي (١) وغيره وبعضهم كان عالماً بالنجوم مثل زرياب المغني . وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين (٢) ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والجواري فقد كان راتب الموصلي عند الهادي ١٠٫٠٠٠ درهم في الشهر غير الصلات وغلات الضياع وغيرها (٣) ولما قدم زرياب المغني من العراق الى الاندلس ركب الامير عبد الرحمن بنفسه للقائه (٤)

وقد ادخل الموسيقيون في فن الموسيقى ألحاناً لم تكن من قبل وفيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها ألحاناً لا يقدر الشبعان الممتلىء على غنائها ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها واخرى لا يقدر المتكىء ان يغنيها حتى يقعد مستوفزاً ولا القاعد حتى يقوم (٥)

﴿ الآلات الموسيقية ﴾ والآلات الموسيقية أخذوا أكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند فقد كان لكل من هذه الامم آلات خاصة يتغنون بها ـ كان غناء الفرس بالعيدان والصنوج وغناء أهل خراسان بالزنج ذات سبعة أوتار ايقاعه يشبه ايقاع الصنج . وغناء أهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط والجرامقة بالعيروارات وهي كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها الاوعر عليها ١٦ وتراً والسلبان له ٢٤ وتراً واللوزا وهي كالرباب من خشب لها خمسة أوتار والقيثارة ولها ١٢ وتراً والصليح من جلود العجاجيل والارغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العودوالصنج. وكان عند العرب الدف والمزهر . فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة كما جمعوا بين علوم تلك الامم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها فضلا عما استنبطوه من عند أنفسهم كالآلة المعروفة بالقانون فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف وهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن

(١) ابن خلكان ٦٦ ج ١ (٢) حلبة الكميت ١٨٠ (٣) حلبة الكميت ٦٣
(٤) نفح الطيب ١٦٣ ج ١ (٥) الاغاني ٢٠ ج ١

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها في كل حال غريبة فى بابها - ذكروا ان الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعاب المغنين فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضرباً آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج (١)

وزاد المسلمون في العود وتراً خامساً زاده زرياب بالاندلس وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الاربع فزاد عليها وتراً خامساً احمر متوسطاً ولون الاوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الاندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال (٢)

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة بل هم فاقوا سواهم في أكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين

المدارس فى الاسلام

التعليم

قد رأيت فيما تقدم ان القرآن أساس العلوم الاسلامية فتعليمه أساس التعليم الاسلامي وأول دروس القرآن قراءته فأول المعلمين في الاسلام النبي علمه للصحابة وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه أو تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في ادبرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول أستاذ يتلقون علماً من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالي الاعوام واتسعت دوائرها حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات والغالب ان تنسب الحلقة الى أستاذها فيقولون مثلا حلقة أبي اسحق الشيرازي في جامع المنصور أو نحو ذلك . وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ

على ان التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها . وكان الاغنياء اذا أرادوا تعليم اولادهم

(١) ابن خلكان ٧٧ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٨٣ ج ٢

أحضروا المعلمين الى منازلهم كذلك كان يفعل الخلفاء والامراء ولا يزال أهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم

وأشهر الجوامع في التدريس على الاطلاق الجامع الازهر في القاهرة فقد بني مع القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ومنهم من جاء من أقاصي البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم أو الزيالعة أو السنارية أو اليمنية أو الهندية فضلا عن أروقة أهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الازهر في أوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ومجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات في الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك أو الماوى وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله في خطط المقريزي والخطط التوفيقية . على ان حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر الفاً والهمة مبذولة في ادخال بعض العلوم الحديثة فيه

المدارس

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الاسلامي ان العلم نضج على اختلاف وجهاته وأثمر ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة وليس في الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد أجمع المؤرخون المسلمون تقريباً على ان أول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة . ومن الغريب ان ينقضي العصر العباسي ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف مواضيعه ولم ينشىء المسلمون مدرسة أو ان ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم . ولكننا رأينا الافرنج يذكرون للمسلمين مدرسة أنشأها المأمون في خراسان وهو وال هناك(١) ولا ندري من أين نقلوا ذلك ولم نر له ذكراً في كتب العرب التي طالعناها . على اننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس انشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك منها مدرسة ابن فورك

(١) Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun

المتوفى سنة ٤٠٦ (١) والمدرسة البيهقية نسبة الى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ومدرسة بناها اسمعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ واخرى بنيت للاستاذ ابي اسحق (٢) وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد . حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور أيضاً قبل مدرسة بغداد بناها لامام الحرمين في سلطنة الب ارسلان ٣ فلعل السبب فى اشتهار اسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الاسلامية انه أول من بنى مدرسة كبرى في بغداد وجعل التعليم فيها مجاناً وفرض لتلامذتها الارزاق والجواري والمعاليم

وفي كل حال ان أول من بنى المدارس في الاسلام الامراء الاعاجم واذا صحت رواية الافرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (أو نيسابور) فقد بنيت في بلاد اعجمية لغرض اعجمي والا فلماذا لم يبن المأمون مثلها في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم ؟ ـ فما هو السبب في اختصاص انشاء المدارس في الاسلام بغير الخلفاء :—

قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والامراء لارتباط السياسة بالدين عندهم ولان العلماء هم حملة الدين والداعون اليه . فكان العلماء في أوائل الاسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه . فلما ضعف شأن الخلفاء وأفضت الحكومة الى السلاطين والامراء من الفرس والاتراك والديلم والاكراد وغيرهم أصبح هؤلاء في حاجة الى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني . وأقرب السبل المؤدية الى ذلك الاحسان الى الفقراء واكرام العلماء والفقهاء . فأصبح السلطان أو الامير اذا تولى بلداً وكان حكيما عاقلا فأول ما يسعى فيه تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بانشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها وتعيين الرواتب والارزاق للعلماء والفقراء وغيرهم فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضا الخاصة . غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر وعضد الدولة في بغداد ونور الدين في الشام وصلاح الدين بمصر . وآخر من نسج على هذا المنوال محمد على باشا مؤسس العائلة الخديوية وكان من نتائج مساعيه في هذا السبيل حدوث النهضة العلمية في مصر والشام

وذلك ايضا مما حمل نظام الملك على انشاء المدارس لانه وزر للسلطان الب

(١) ابن خلكان ٤٨٢ ج ١ (٢) السيوطي ١٨٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

ارسلان عشر سنين وكان بمنزلة والده وله النفوذ الاكبر عنده فلما توفي الب أرسلان وازدحم أولاده على الملك وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد ـ اقام على ذلك عشرين سنة وكانت طائفة الباطنية قد استنحل أمرها في ذلك العصر وكثر المزاحمون على السلطة . وكان نظام الملك عاقلا حكيما فبذل جهده في استمالة الاعداء وموالاة الاولياء فأكثر من الاحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من أهم مساعيه في ذلك أنه بنى دور العلم للفقهاء وانشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد واهل الصلاح والفقراء ثم أجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائر اقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان الى سمرقند فلم يكن فيها حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد الا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه وقدروا ما كان ينفقه فى هذا السبيل فبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ دينار في السنة. فوشى به بعضهم الى السلطان وقالوا « ان الاموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية » فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يابني انا شيخ اعجمي لو نودي علي في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً وانت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك وأكثر مايصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماها ثلثمائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم وأطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وبركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملك شاه وسكت (١) وتوفي نظام الملك مقتولا سنة ٤٨٥

ومن الاسباب التي كانت تحمل الامراء غير العرب على انشاء المدارس والمساجد غير التماس الاجر والثواب انهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ويغلب أن يكونوا من صنائعه أو مواليه فيكون له عليهم حق الولاء أو الرق . فاذا توفي أحدهم عن مال أو ضياع وأراد السلطان قبضها فعل وحرم ابناءه منها . فكان الرجل منهم اذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفه من ذريته فيبني المدارس أو

(١) سراج الملوك ٢٦٧

الزوايا أو الربط ويقف عليها الاوقاف المغلة من ضياعه أو ابنيته ويجعل في شروط الاوقاف أن يتولاها بعض ولده وله نصيب منها والاوقاف ثابتة فيأمن بذلك على أولاده الفقر

وكان من أسباب انشاء المدارس أيضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان أو الامير فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الازهر على مذهب الشيعة فلما تولاها صلاح الدين الايوبي ابطل هذا المذهب وأحيا المذهبين المالكي والشافعي فأنشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعي وهي أول مدرسة حدثت بمصر(١) واقتدى به من جاء بعده من الاكراد والاتراك

ومهما يكن السبب فلا خلاف في أن نظام الملك أول من اشتهر بانشاء المدارس في الاسلام في أواسط القرن الخامس للهجرة. فبنى المدارس في بغداد واصبهان ونيسابور وهرات وغيرها وكل منها تمت بالنظامية نسبة اليه أشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها سعيد الصوفي سنة ٤٥٧ هـ على شاطىء دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات ووقفها عليها فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠ ٠٠٠ دينار

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الاسلامي وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الافاق . أول اساتذتها الشيخ أبو اسحق الشيرازي ثم الامام أبو نصر الصباغ صاحب الشامل ثم أبو القاسم الدبوسي وأبو حامد الغزالي والشاشي والكيا الهراسي والسهروردي وكمال الدين الانباري وغيرهم من أقطاب العلم . فأصبح التعليم في هذه المدرسة من أكبر أسباب الثقة بالمعلمين وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية

واقتدى السلاطين والامراء بنظام الملك في انشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في أنحاء المملكة الاسلامية وأشهرهم على الترتيب السلطان نور الدين زكي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وهو تركي الاصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودور الحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ وهو كردي بنى المدارس في مصر والاسكندرية والقدس وغيرها . ثم

(١) الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١

الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الايتام والملاقيط والارامل وغيرها . واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من أهله في مصر فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما افضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الاغنياء فبلغ عدد ما أنشأوه بمصر الى أيام المقريزي في أواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك في الاصقاع الاخرى . وأول من أنشأ المدارس في الدولة العثمانية السلطان اورخان المتوفى سنة ٧٦١ هـ واقتدى به سلاطين آل عثمان بانشائها وأشهرها المدارس الثماني التي انشاها السلطان سليمان (١)

وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الاسلامي في القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد . أما الاندلس فقد نقل الامير علي صاحب تاريخ الاسلام في الانكليزية أن العرب أنشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها وان مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى (٢) ولكن يظهر أن مدارس الاندلس أنشئت على غير مثال المدرسة النظامية ـ قال المقري صاحب نفح الطيب « وليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرأون جميع العلوم في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يتعلموا لا لان يأخذوا جارياً » (٣) فترى في عبارة المقري نفياً صريحاً للمدارس في الاندلس ، فالظاهر أن الامير علياً المذكور نقل كلامه عن الافرنج وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد

والمدارس في الاسلام على اشكال منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة غير ماقد يعقده العلماء من مجالس التعليم في منازلهم . وعدد الطلبة في كل حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ في فنه فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات المئين من الطلبة . وقد يكون للاستاذ تلامذة تحتهم تلامذة ـ ذكروا أن أبا بكر الرازي الطبيب الشهير كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لاول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا

(١) الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢
(٢) Ameer Ali's Short History of the Saracens 627
(٣) نفح الطيب ١٠٤ ج ١

والا تكلم الرازي[1] وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة ـ كان الامام فخر الدين بن خطيب الري اذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء[2] . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه أحد كتاباً كتب هو علامته على الكتاب شهادة بانه قرىء عليه . ومن أكثر العلماء تلامذة الشيرازي والفارابي والرازي وابن خطيب الري وابن سينا والغزالي . وكان التعليم شاملا كل طبقات الناس حتى المماليك والجواري والعبيد والخانيث وغيرهم

المكاتب أو خزائن الكتب

ما برح الناس منذ أخذوا في تدوين أعمالهم واخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه لانهم دونوه رغبة فى استبقائه. ويعبرون عن المكان الذي يحفظون الكتب فيه بالمكتبة أو خزانة الكتب وأقدم من أنشأ المكاتب في العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضي في خرائب بابل واشور هي عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفيني . يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها في قبر ملك مصري اسمه اوسيمندياس. ثم اليونان وهم أول من أنشأ المكاتب العمومية لفائدة الناس وأقدم منشئيها بسستراتوس في أواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة في برغاموس مؤلفة من ٠٠٠ ر ٢٠٠ مجلد . وانشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان وأول مكاتبهم نقلوها عن مكدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق م ثم استولوا على مكتبة برغاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق م ثم نقلوا مكاتب اثينا سنة ٨٦ ولما عظم شأن قسطنطين فى القسطنطينية انشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥م غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس في الرساتيق والازج . ثم كف الناس عن انشاء المكاتب حتى تمدن المسلمون وانشأوا مكاتبهم

المكاتب الاسلامية

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ماعثروا عليه من الكتب لاسباب تقدم بيانها لكنهم ما لبثوا ان تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلا في الحصول عليها وأشدهم عناية في صيانتها . وقد رأيت

---

(١) الفهرست ٢٩٩ (٢) طبقات الاطباء ٢٣ ج ٢

ان العرب قضوا القرن الاول ونصف الثاني وابحاثهم قاصرة تقريباً على العلوم الاسلامية ولم يدونوها الا في أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصوراً في الاشعار والاخبار والامثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الانسجة أو نحوها . قالوا ان كتب أبي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الادب والشعر كالاصمعي وحماد وابي عبيدة

غير ان ذلك لا يعد من قبيل المكاتب العمومية التي انما يقوم بانشائها ولاة الامور أو من يجري مجراهم. ومرجع الفضل في انشاء هذه المكاتب الى خلفاء النهضة العباسية وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في أيام بني أمية التي أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناش هرون فتلك على الغالب مما أنشأه الاطباء أو الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لانفسهم أو لاولادهم

﴿مكاتب بغداد﴾ أما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم فأنشأوا مكتبة في بغداد سموها «بيت الحكمة» الغالب ان الرشيد أنشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم وما الف من العلوم الاسلامية مع ما سعى يحيى بن خالد في جمعه من كتب الهند وما وقع للرشيد من كتب الروم في انقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية فضلا عن العربية وعلم الناس رغبته في ذلك فأتوه بالكتب على اختلاف مواضيعها واشكال خطوطها ولو لم يكن لها قيمة علمية ككتاب ذكر ابن النديم انه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي على جلد وفيه ذكر حق عبد المطلب المذكور « على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعاء عليه الف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان » (١)

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لانفسهم أو باجور معينة وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون. ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبي أصله فارسي وكان راوية عارفاً بالانساب والمنافرات وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة وله كتاب في مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها(٢) وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة أو التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ويحيى بن أبي منصور الموصلي أحد أصحاب الارصاد في ايام المأمون والفضل بن نوبخت المنجم وأولاد شاكر

(١) الفهرست ٥ (٢) الفهرست ١٠٥

وغيرهم. وكان للبيت المذكور قيم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة واشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب وله في ذلك كتب كثيرة. ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت أو الخزانة المذكورة أنشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس وأكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لاسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب

ثم أنشأ البغداديون المكاتب على مثال بيت الحكمة أشهرها مكتبة وقفها سابور ابن اردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم - واحترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طغرل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١) وممن تولى حفظها والاشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (٢) . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ هـ (٣)

﴿ مكاتب الاندلس ﴾ وكان المأمون مثالا في انشاء المكاتب بالممالك الاسلامية كما كان مثالا في سائر أسباب النهضة العلمية . فاقتدى به بنو أمية في الاندلس وأشبههم به الحكم بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ وكان محباً للعلوم مكرماً لاهلها جماعاً للكتب على أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . فأنشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من أنحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الاموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان أبو الفرج الاصفهاني صاحب الاغاني معاصراً له وهو أموي مثله فبعث اليه ان يرسل اليه كتاب الاغاني قبل إخراجه الى بني العباس وبذل له على ذلك الف دينار ذهباً . وفعل نحو ذلك مع القاضي أبي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة أقاموا عليها مديراً ومشرفاً ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا ان فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة (٤) فاذا قدرنا للصفحة ٢٥ اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب فكيف بسائر الكتب ولا

(١) ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧٩٩ ج ١ (٢) طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٣٥٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ (٤) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري ان مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠,٠٠٠ مجلد (١)

واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته وأنشأوا المكاتب فى سائر بلاد الاندلس حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكاتب العمومية وأصبح حب الكتب في الاندلس سجية في أهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلا ويحتفل ان يكون في بيته خزانة كتب ليقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به ـ قال الحضرمي « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ فوق حده . فقلت له يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى مالا يساوي ـ قال فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي لست بفقيه ولا أدري فيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع بسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ـ قال الحضرمي فأحرجني وحملني على ان قلت له نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك يعطي الجوز من لا له أسنان وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه » (٢)

وظل أهل قرطبة في كل حال أحسن الاندلسيين رغبة في الكتب كما كان أهل أشبيلية أرغبهم في اللهو والطرب فاذا مات عالم في اشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية (٣) أما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع أكثرها في حصار البربر ثم أتم عليها الافرنج

﴿ مكاتب مصر ﴾ واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب فاستوزر

(١) نفح الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢١٨ ج ١

يعقوب بن كلس وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم وأجرى لهم الارزاق وحبب الى الخليفة اقتناء الكتب فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره وسماها «خزانة الكتب» وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة فى التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة نسخة أو أكثر ـ ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمائة دينار ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد. وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمه قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب. فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠٠ كتاب (١) فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة (٢) غير أدوات الهندسة والفلك

على أننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة. وقد قدرها آخرون ٢٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباسا من حيث المراد بخزانة الكتب أو خزائن الكتب لان العزيز بعد أن انشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من أهله فأنشأوا مثلها في قصورهم. فالظاهر أن المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد مافي خزائن القصور كلها. وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠ مجلد أو كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها فيما يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب وينادمه. وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (٣)

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالي الفتن مثل ما أصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان. فألقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالا عرفت بتلال الكتب. واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه. وبالاجمال فقد طرح مابقي منها عند دخول الاكراد للمبيع في أواسط القرن السادس وكان في جملة ما أخرجوه من تلك القصور نحو

(١) المقريزي ٤٠٨ و٤٠٩ ج١ (٢) تراجم الحكماء (٣) ابن خلكان ٣٣٨ ج ١

١٢٠٠٠٠ كتاب اعطاها صلاح الدين للفاضل عبد الرحيم البيساني (١)

﴿دار الحكمة﴾ وتسمى أيضا دار العلم وهي غير خزانة العزيز أو خزائن القصور كما توهم الاكثرون . أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر العربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على أبوابها وممراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي أنشأه العباسيون أي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس إذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن أحب تعليم رعيته أنشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح أبوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم أقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والاطباء وأجرى لهم الارزاق وأباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا أو ينسخوا ما شاؤا وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام . واتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائه فاضطر الافضل بن أمير الجيوش في أوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للاسباب فلما توفي الافضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فأعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها السير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلا ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب ولما أفضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية (٢)

﴿ مكاتب الشام ﴾ لما كانت الشام مركز الخلافة في أيام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون اليها . ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ فانتهبوها (٣) وذكر جبن ان عدد كتبها ٣٠٠٠٠٠٠ مجلد أحرقها الافرنج (٤) . فلما تولى نور الدين الشام

(١) ابن خلدون ٨١ ج ٤ (٢) ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسميها دار للمعرفة)
(٣) ابن خلكان ١٢٨ ج ٢ (٤) Gibbon's Rom. Emp. 11,505

وأنشأ المدارس في مدائنها جعل فيها خزائن الكتب وتعرف بالخزائن النورية وهكذا فعل صلاح الدين

أما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة في الرساتيق والازج والقباب مكتوبة بالاحرف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام فلما نضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من أكبر العوامل فيها وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . وأما المكاتب فلم يتصل بنا من أخبارها الا القليل فقد ذكر ياقوت في معجمه انه ترك مرو الشاهجان أشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة وقد فصل اخبارها وأخبار واقفيها وذكر أن واحدة منها كان فيها ١٢ ٠٠٠ مجلد وأنه أخذ علمه منها(١)

أما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها وكانت لنوح بن منصور سلطان بخارى ـ قال الشيخ الرئيس « ورأيت فيها من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس وما كنت رأيته من قبل الخ » وأنشأ هولاكو التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠ ٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة

هذا ما عثرنا على خبره من المكاتب العمومية التي أنشأها الخلفاء أو السلاطين لمنفعة الناس غير خزائن الكتب التابعة للمدارس أو المارستانات أو الجوامع فانها كانت كثيرة جداً ومنها ما لا تقل كتبها عن المكاتب الكبرى وهي مرتبة أبواباً حسب المواضيع وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخصوصية التي كان يقتنيها العلماء لانفسهم وهي كثيرة وعظيمة فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠ جمل وخلف افرايم الطبيب المصري ٢٠ ٠٠٠ مجلد ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزانته ١٠ ٠٠٠ مجلد غير ما استنسخه وكان له ثلاثة نساخ يكتبون . وكان عند أمين الدولة ٢٠ ٠٠٠ مجلد وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرهما

ولا تتضح فخامة تلك المكاتب الا اذا قابلناها بمكاتب هذا العصر مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب مع مرور الازمنة الطويلة على مكاتب هذه الايام وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة

(١) معجم ياقوت ٥٠٩ ج ٤

وغير ذلك . ونقتصر على المكاتب الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها ونقابلها بأشهر مكاتب اوربا اليوم :

أشهر مكاتب المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات	
٠٠٠ ٠٠٠	بيت الحكمة في بغداد
١٠ ٠٠٠	مكتبة سابور «
٤٠٠ ٠٠٠	« الحكم بقرطبة
١ ٠٠٠ ٠٠٠	خزائن القصور بالقاهرة
١٠٠ ٠٠٠	دار الحكمة «
٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ؟	مكتبة طرابلس
٤٠٠ ٠٠٠	« مراغة

أشهر مكاتب هذه الايام في عواصم اوربا الكبرى

عدد المجلدات	
٢ ٧٠٠ ٠٠٠	مكتبة باريس الاهلية
١ ٦٤٨ ٠٠٠	« المتحف البريطاني في لندن
١ ٣٦٠ ٠٠٠	« بطرسبرج القيصرية
١ ٢٣٠ ٠٠٠	« برلين الاهلية
٩٢٤ ٠٠٠	« فينا الملوكية
٦٧٧ ٠٠٠	« رومية الاهلية

وفي الولايات المتحدة ٤ ٠٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٨٧٢ ٠٥١ ٣٣ مجلداً

وبالجملة ان المسلمين جمعوا في مكاتبهم العمومية والخصوصية من الكتب على اختلاف مواضيعها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها الا جزء صغير جداً وقد ضاع معظمها في أثناء القرون الوسطى وذهب بذهاب التمدن

أما الباقي من تلك الكتب فاكثره تجمع في عاصمة الاسلام في أثناء تلك القرون وهي القسطنطينية . وقد توفق المستشرق غوستاف فلوغل ناشر كتاب الفهرست وكتاب كشف الظنون الى احراز قوائم المكاتب العربية على ما بلغت اليه قبل

النهضة الاخيرة وشيوع الطباعة في الشرق وذيل كتاب كشف الظنون باسماء تلك الكتب بحسب مواضيعها . فبلغ عدد تلك المكاتب بضعاً وعشرين مكتبة منها ٢١ في القسطنطينية بلغ مجموع كتبها ٢٧٤٤٥ كتابا . وأما ما بقي ففي مصر ودمشق وحلب ورودس ومجموع كتبها ٢٤٠٠ كتاب فيكون الباقي من كتب التمدن الاسلامي في المكاتب العمومية نحو ٣٠٠٠٠ كتاب هاك تفصيلها باعتبار أماكنها :

مكاتب المسلمين في أواخر القرون الوسطى وكتبها

عدد المجلدات	
١٥٣٧	مكتبة السلطان محمد الثاني فى القسطنطينية
٨٠٣	« « سليمان «
٧٥٢	« قليج علي باشا بالطبخانة «
٤١٢	« حافظ احمد باشا «
١٤٤٨	« كيوبريلي اوغلو «
٢٩٠٦	« شهيد علي باشا «
٨٣١	« ابراهيم باشا «
٧٣٢	« والده سلطان «
٥٥٢	« بشير اغا «
١٣٣٦	« عاطف افندي «
١٤٤٥	« ايا صوفيا «
٥٥٦	« سراي غلطه «
٢٤٢١	« عثمان الثالث «
١٠٧٧	« محمد راغب باشا «
٩٨٠	« لعله لي دفتر اول «
١٩٤٧	« « « ٢ «
٩١٦	« سراي همايون «
١٧٦٩	« ولي الدين افندي «
١٨٧٧	« عاشر افندي «
١١٠٩	« داماد زاده محمد مراد افندي «

١٣٨٣	مكتبة عبد الحميد	في القسطنطينية
٦٥٦	« حالت افندي	«
٢٧٤٤٥	(مجموع الكتب في القسطنطينية)	
١٠٩٩	مكتبة الازهر	في القاهرة
٤٢٢	« عبد الله باشا العظم	بدمشق
٢٦٩	« المدرسة الاحمدية	بحلب
٦٠٩	« رودس	
٢٩٨٤٤	(المجموع كله)	

وبديهي ان هذه الكتب ليست كل ما بقي من المؤلفات العربية فقد كان منها شيء كثير في المكاتب الخصوصية وغيرها ولكنها في كل حال لا تعد شيئاً بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصاً اذا اعتبرنا تكاثر المؤلفات بتوالي القرون مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لايخفى لا الى نقصانها ولكن لكل شيء أجلا لا يتعداه سنة الله في خلقه

﴿ تم الجزء الثالث ﴾

الفهرست

صحيفة

٣ المقدمة

علوم العرب قبل الاسلام

٩ تمهيد فى جزيرة العرب
١٠ علم النجوم في الجاهلية
١٣ « الانواء «
١٥ الميثولوجيا
١٦ الكهانة
١٩ الطب في الجاهلية
٢١ الشعر « «
٢٩ الخطابة « «
٣٢ مجالس الادب وعكاظ
٣٤ الانساب في الجاهلية
٣٦ التاريخ

علوم العرب بعد الاسلام

٣٧ الاسلام والعلوم الاسلامية
٣٩ العرب والقرآن والاسلام
٤٠ احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها
٤٦ الرومان والاسلام والعلم
٤٨ حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم
٥٠ تدوين العلم في الاسلام
٥٢ الخط العربي

العلوم الشرعية الاسلامية

٥٨ القرآن
٦٥ الحديث
٦٩ الفقه

العلوم اللسانية

٧٤ النحو
٧٧ الادب واللغة
٨٠ بلاغة الانشاء
٨٦ التاريخ
٩٥ الجغرافيا

الآداب العربية الجاهلية

٩٨ الخطابة بعد الاسلام
١٠٢ الشعر « «

صحيفة

العلوم الدخيلة

١١٧ آداب اللغة اليونانية
١١٨ الشعر اليوناني
١١٩ الادب والعلم والفلسفة عند اليونان
١٢٤ الدور الاسكندري
١٣٠ العصر البيزنتي
١٣١ آداب اللغة الفارسية
١٣٣ « « السريانية
١٣٥ « « الهندية
١٣٦ العرب والعلوم الدخيلة

نقل العلوم فى العصر العباسى

١٣٨ المنصور والنجوم والطب
١٤١ المأمون والفلسفة والمنطق
١٤٤ نقلة العلم في العصر العباسي
١٤٩ السوريون ونقل العلم
١٥٠ نقل العلم لغير الخلفاء

الكتب التى ترجمت

١٥٢ الكتب المنقولة عن اليونانية
١٥٧ « « « الفارسية
١٥٨ « « « الهندية
١٦١ « « « النبطية
١٦٢ « « « العبرانية واللاتينية والقبطية
١٦٣ الخلاصة
١٦٤ محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين
١٦٧ انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية
١٧٠ الخلفاء والامراء والعلم
١٧٤ المؤلفون والمؤلفات

تأثير الاسلام فى العلوم الدخيلة

١٧٦ الفلسفة في الاسلام
١٨١ الطب « «
١٨٩ التنجيم والنجوم
١٩٦ الحساب والجبر والهندسة
١٩٧ الفنون الجميلة
٢٠٠ المدارس في الاسلام
٢٠٦ المكاتب في الاسلام

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث فى نشوء الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها
الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها وتاريخ
العلم والادب والسياسة والتجارة فيها
ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها
وحضارة المملكة وأبهة
الدولة الخ

تأليف

جرجى زيدان

منشىء الهلال

الجزء الرابع

فى سياسة الدولة وتنازع رجالها على السيادة

ويشمل النظر فى دول الخلفاء من عهد الراشدين فالامويين
فالعباسيين فالاندلسيين فالفاطميين وسياسة كل منها فى تأييد
سلطانها ومعاملة رعاياها وخصوصا الخلافة العباسية مع علاقتها
بما عاصرها من الامارات والسلطنات غير العربية على اختلاف العصور

(الطبعة الخامسة)

مطبعة الهلال

سنة ١٩٤٧

مقدمة الطبعة الاولى

أخذنا فى تأليف هذا الكتاب ونحن نعلم أهمية موضوعه ونشعر بافتقار اللغة العربية الى مثله . ولكننا لم نكن نتوقع ما لاقاه من حفاوة أهل اللغات الاخرى فى العالم الاسلامى بأمره ولا اعجاب كبار العلماء المستشرقين فى أوربا بموضوعه الى مثل ما رأيناه منهم على أثر صدور الاجزاء الثلاثة الماضية . لانهم فضلا عما كتبوه الينا من عبارات الاستحسان والتنشيط، وما نشروه من التقاريظ فى المجلات والجرائد التى تصدر فى بلادهم قد أخذوا يشتغلون بنقله الى ألسنتهم ونشره بين مواطنيهم ونحن لم نفرغ بعد من تأليفه . وبعض هذه الترجمات قد طبع ونشر ولا يزال البعض الآخر تحت الطبع والآخر تحت الترجمة ـ فقد صدر الجزء الاول من الترجمة الاوردية (الهندستانية) مطبوعا على الحجر فى امرتسار (الهند) بقلم الشيخ محمد غلام منشىء جريدة وكيل الهندية الشهيرة . وسيصدر الجزء الاول من الترجمة الفارسية قريبا بقلم ميرزا ذكاء الملك صاحب جريدة تربيت الفارسية . وكتب الينا المستشرق الكبير الاستاذ مرجليوث المشتغل بنقله الى الانكليزية فى جامعة أوكسفورد أنه سيفرغ من ترجمته ويبدأ بنشره فى أواخر هذا الصيف . وبعث الينا الاستاذ دانيلوف المستشرق الروسى فى موسكو انه أتم نقل الجزء الاول الى اللغة الروسية ويليه الثانى . وقد خابرنا بعض المستشرقين بشأن نقله الى اللغة الفرنسية وغيرها

فنشطنا ذلك فى المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامى وكشف أسراره بما يبلغ اليه الامكان على أسلوب لم يطرقه كتاب العرب نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى أسبابها وبيان ارتباطها بعضها ببعض مع تطبيقها على أحكام العقل ونواميس العمران . فنطالع كتب التاريخ والادب وغيرها على سذاجة أسلوبها فى سرد الحوادث وايراد الوقائع ونتدبر ما نقرأه ثم نستخرج منه فلسفة ذلك التمدن العجيب ، كما يستخرج السكر من الحروب . لان مؤرخى الاسلام مع ما بذلوه من الجهد فى تحقيق الحوادث وتمحيص أسانيدها ومصادرها قلما نظروا

فى علاقاتها أو عللوا أسبابها وانما نقلوها على علاتها وخصوصا ما يتعلق منها بسياسة الدولة وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة أو أمة الى أمة أو طائفة الى طائفة . لان تعليل تلك الحوادث يبعث أحيانا على الطعن فى أقوال بعض الخلفاء أو تخطئة بعض المذاهب وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين ورجاله . ولذلك كان موضوع هذا الجزء أوعر مسلكا من مواضيع سائر الاجزاء الماضية وادعى الى أعمال الفكرة واستنباط الاقيسة وتطبيق النتائج على المقدمات لانه عبارة عن فلسفة تاريخ الاسلام فى ذلك التمدن

موضوع هذا الجزء

بسطنا الكلام فى الجزء الاول من هذا الكتاب عن نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية والجند والقضاء وغيرها . وخصصنا الجزء الثانى لبيان ثروة الدولة الاسلامية ورجالها واسباب تكون تلك الثروة وأسباب انحطاطها . وجعلنا الجزء الثالث خاصا بالعلم والادب فبحثنا فيما كان منهما عند العرب فى الجاهلية وما أحدثه الاسلام من التغيير فى القرائح والعقول وما نقل عن اللغات الاجنبية من العلوم وما كان من تأثير التمدن الاسلامى فى كل ذلك

فبعد أن نظرنا فى التمدن المذكور من حيث نظام الدولة وثروتها وعلومها عمدنا الى البحث فى سياستها فخصصنا لها هذا الجزء برمته ولعله أهم أجزاء الكتاب وأوعرها مسلكا لما يحول بيننا وبين أسباب الوقائع السياسية من العقبات والشكوك ولا سيما انتقال الخلافة من دولة الى دولة وما يعترض ذلك من تنازع أهل الدولة على الاستئثار بالسلطة وتأثير الاختلاف الجنسى أو المذهبى فى ذلك مما لا يتيسر العثور عليه فى كتب القوم لما قدمناه من تحاشى المؤرخين الخوض فى مثله . على أننا لم نعدم بصيصا من خلال تلك الظلمة تلمسنا به سبيلنا فى البحث عن الاسباب والعلل فتوفقنا الى كشف أسباب أكثر الحوادث فبسطناها بما يقتضيه ذلك من النظر الفلسفى والحكم العقلى والقياس التمثيلى وتحرينا الحقيقة جهد طاقتنا

ولما عمدنا الى تقسيم الموضوع وتبويبه اعترضتنا عقبة أخرى لا تقل وعورة عن تلك لاختلاط الحوادث وتقاطع اسبابها واشتراك نتائجها وتلون مظاهرها وتعدد

أوجهها من حيث الدين أو الجنس أو المكان أو الزمان فرأينا بعد امعان النظر أن نقسم الموضوع باعتبار العناصر التى سادت فى الاسلام وما كان من تنازعها على تلك السيادة مع ملاحظة أطوار التمدن الاسلامى باختلاف تلك العناصر . فقسمنا تاريخ الاسلام الى دورين كبيرين : الاول دور التمدن الذى نحن فى صدده يبتدىء بظهور الاسلام وينتهى بذهاب الدولة العباسية من العراق وانحطاط المملكة الاسلامية وتسلط المغول عليها . والدور الثانى هو النهضة السياسية التى حدثت بعد ذلك الانحطاط بتغلب الدولة العثمانية واحياء الخلافة الاسلامية بجمع شتات المسلمين السنيين فى ظلها وظهور الدولة الصفوية الفارسية وجمع شتات الشيعة تحت رايتها

وقسمنا الدور الاول الى خمسة أعصر باعتبار تغلب أحد العناصر الاسلامية على سائرها . ولا يتيسر وضع حد فاصل بين هذه الاعصر لاسباب لا تخفى على المطالع فيغلب أن تختلط أوائل كل عصر بأوائل العصر الذى يليه واليك هى :

١ ـ العصر العربى الاول : من ظهور الاسلام الى انقضاء الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ

٢ ـ العصر الفارسى الاول : من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

٣ ـ العصر التركى الاول : من خلافة المتوكل الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

٤ ـ العصر العربى الثانى : من قيام الدولة الفاطمية الى انقضائها

٥ ـ العصر المغولى : من ظهور جنكيزخان الى وفاة تيمورلنك

أما العصر التركى الثانى فهو عصر الدولة العثمانية والعصر الفارسى الثانى عصر الدولة الصفوية ومن خلفها على بلاد فارس ويتألف منهما الدور الاسلامى الثانى وهو خارج عن دائرة بحثنا فى هذا الكتاب

وقسمنا كلا من الاعصر الخمسة الى فصول وأبواب على ما يقتضيه المقام . فقدمنا الكلام بتمهيد فى العرب قبل الاسلام من حيث نظام الاجتماع فوصفنا البدو والحضر وأنساب العرب وقبائلهم وبطونهم واستفحال عصبية النسب عندهم ومنها الامومة والخؤولة ثم ذكرنا توابع تلك العصبية كالحلف والاستلحاق والخلع ثم العبيد والموالى فى الجاهلية وأنواعهم وأحكامهم والنزالة الاجانب فى جزيرة العرب

قبل الاسلام وخصوصا الابناء الفرس . وختمنا التمهيد بفصل فى سياسة الدولة ومناقب العرب

ثم تقدمنا الى العصر العربى الاول فقسمناه الى أيام الراشدين وأيام بنى أمية فبينا أولا ان الاسلام قام بالجامعة الاسلامية التى جمعت كلمة العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم تحت راية الاسلام . فتساووا فى الفضل من حيث انسابهم وتفاضلوا من حيث سبقهم الى الدين أو جهادهم فى سبيله فتولدت طبقات اسلامية جديدة كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية مما لم يكن من قبل . ثم وصفنا سياسة الخلفاء الراشدين وانها مبنية على التقوى والحق والعدل وذكرنا مزايا كل خليفة منهم وان سياسة عمر بن الخطاب كانت فى أول خلافته تدعو الى حصر المسلمين فى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق وانه اضطر بطبيعة العمران أن يأذن لقواده وأمرائه فى الانسياح بالارض فانتشر العرب بالفتح أو المهاجرة وتكاثروا بالتناسل الكثير . وختمنا العصر الاول بفصل فى العبيد والموالى وأحكامهم فى الاسلام

ثم انتقلنا الى القسم الثانى من العصر الاول وهو أيام الامويين فذكرنا أولا الاسباب التى ساعدت على انتقال الخلافة اليهم وما كان بين هاشم وأمية من المنافسة قبل الاسلام وكيف شق على الامويين أن يعظم أمر بنى هاشم بالنبوة وهم أقل منهم عددا وقوة . فما زالوا حتى غلبوهم على الدولة فأخذها معاوية بن أبى سفيان من على بن أبى طالب بالدهاء والاطماع . وفصلنا سياسة الامويين فى تأييد سلطتهم . وبينا أن محور هذه السياسة طلب التغلب بأية وسيلة كانت والامويون يعلمون أن الهاشميين أحق منهم بالخلافة فعمدوا الى الاستقواء بالعصبية كما كانت فى الجاهلية وكان العرب المسلمون قد نسوا دهشة النبوة فعادوا الى عصبية النسب أولا بين قريش وسائر العرب ثم بين اليمنية والمضرية . وبالغ الامويون فى التعصب على غير العرب فاحتقروا الموالى الفرس وغيرهم وضيقوا عليهم . وتحضر العرب فى عصر الامويين والفوا السكنى فى المدن فحدثت العصبية الوطنية أى تعصب البلاد بعضها على بعض كالبصرة والكوفة والشام وغيرها . واضطر الامويون فى التغلب على بنى هاشم الى اصطناع القبائل والرجال ببذل المال فحملهم ذلك على الاستكثار من الاموال وجرهم الاستكثار منها الى ابتزازها بحق أو بغير حق فضيقوا على

الرعية من المسلمين وأهل الذمة حتى مل الناس أيامهم وخصوصا بعد ما ظهر من استخفافهم بأحكام الشريعة وتهتكهم وفتكهم واحتقارهم الموالى وتضييقهم على أهل الذمة . ويلى ذلك فصل طويل فى أحكام أهل الذمة من زمن عمر بن الخطاب الى آخر أيام الامويين

ثم تقدمنا الى العصر الفارسى الاول فصدرناه بفصل فى انتقال الخلافة الى العباسيين بنصرة الموالى الناقمين على بنى أمية . وكيف نصروا بنى العباس وهم فى الاصل من شيعة على وكانوا يظنون بيعتهم مشتركة بين العلويين والعباسيين لان العباسيين كانوا قد بايعوا العلويين على ذلك فسكتوا فنقل أبو مسلم الخراسانى المملكة الاسلامية من الامويين وسلمها الى العباسيين . فلما قبض العباسيون على أزمة الدولة نكثوا البيعة وغدروا بمن كانوا يخافونه على سلطانهم من العلويين وغيرهم حتى فتكوا بجماعة من أكبر دعاتهم ونصرائهم وفيهم أبو مسلم نفسه . وقسمنا سياسة العباسيين الى سياستين : الاولى سياستهم فى تأييد سلطتهم وكانت مبنية على الغدر والفتك فخافهم الفرس الذين ساعدوهم على قيام دولتهم وكظموا غيظهم لئلا يصيبهم ما أصاب أبا مسلم وأصحابه فاستخدمهم العباسيون فى مصالح دولتهم وسلموا اليهم مقاليد الحكومة وجعلوهم وزراءهم وأشهرهم البرامكة . فلما اشتد ساعد البرامكة ونالوا ما نالوه من القوة والسطوة والثروة أخذوا يبذلون الاموال لاكتساب قلوب الناس وقد اضمروا ارجاع البيعة الى العلويين أو تسليم الدولة للفرس فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها فتضاعفت نقمة الفرس فشعر الرشيد بذلك فنكبهم . وفصلنا مقدمات هذه النكبة وأسبابها فتضاعفت نقمة الفرس على العباسيين ولما مات الرشيد اختلف ابناه الأمين والمأمون وكان الفرس أخوال المأمون فنصروه وحاربوا معه وقتلوا أخاه وأعادوا الخلافة اليه على ان يبايع بعده لعلى الرضا أى ينقل الدولة من العباسيين الى العلويين فأطاعهم حتى ملك مراده منهم ثم غدر بهم

والثانية سياستهم فى معاملة الرعية وكانت مؤسسة على العدل والحق والمحاسنة ويتخلل ذلك فصول فى أهل الذمة وأحكامهم وأسباب ما لحقهم من الاضطهاد الى عهد غير بعيد وفصل فى حرية الدين واطلاق الافكار وما كان من تنازع العناصر وكيف ذهبت العصبية العربية بذهاب دولة الامين وما رافق ذلك من اختلاط

الانساب حتى ندر الدم العربى الخالص بعد ذهاب القرن الثانى للهجرة الا فى البادية

ثم تقدمنا الى العصر التركى الاول وذكرنا الاسباب التى دعت الى تداخل الاتراك فى الدولة من أيام المعتصم وكيف جمع الاتراك وجندهم وبنى لهم سامرا وكيف تدرجوا فى مصالح الدولة حتى تغلبوا على الخلفاء وما ترتب على ذلك من احتجاب الخلفاء فى دور النساء ومعاشرتهم الخدم ووثوقهم بهم حتى رفعوا الخدم والخصيان الى رتب القيادة وامارة الامراء وغيرهما وأطلقوا أيدى النساء فى مصالح الدولة فآل ذلك كله الى فساد الاحكام واختلال الاعمال وذهبت هيبة الخلفاء — فعمد أصحاب الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم فتشعبت الدولة العباسية الى فروع فارسية وتركية وعربية وكردية وكلها تبايع للخليفة العباسى . فاستطرقنا بذلك الى البحث فى معنى الخلافة ونسبتها الى السلطة من أول الاسلام الى الآن

ثم انتقلنا الى العصر العربى الثانى فذكرنا نقمة العرب على العباسيين منذ اهملوهم وأسقطوهم من الديوان وأضفنا اليها نقمة العلويين والامويين وكيف ظهرت الدولة الاموية فى الاندلس والفاطمية فى مصر لمقاومة الدولة العباسية وأوشك الفاطميون وهم علويون أن يتغلبوا على العباسيين لو لم يقف السلاجقة فى سبيلهم. على ان الفاطميين ما لبثوا ان تضعضعوا وغلبهم الاكراد على دولتهم وأولهم صلاح الدين فأعاد البيعة الى العباسيين وانقضى هذا العصر وقد تضعضعت المملكة الاسلامية وانقسمت على نفسها وطمع بها أعداؤها المحيطون بها فجاءها المغول وهى فى تلك الحال فاكتسحوها وزادوها ضعفا واختلالا وهو العصر المغولى وبه ينتهى هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد فى تمحيص الحقائق وتحقيق الحوادث بالاعتماد على أوثق المصادر وأصح الروايات وتدبرنا ذلك واستخرجنا من علل الحوادث واسبابها ما نظنه الاقرب الى الصواب ووجهتنا الصدق والاخلاص والانصاف والله حسبنا ونعم الوكيل

وسيكون موضوع الجزء الخامس حضارة المملكة وأبهة الدولة وآداب الاجتماع وبه ينتهى هذا الجزء

وقد طبع طبعة رابعة سنة ١٩٢٧ وخامسة سنة ١٩٤٧

العصر العربى الاول

من ظهور الاسلام إلى سنة ١٣٢ هـ

نريد بهذا العصر المدة التى كانت فيها الدولة الاسلامية فى أيدى العرب وكانت سياستها عربية وقوادها عربا وعمالها عربا ، وكانت السيادة فيها للعنصر العربى. والعصر المذكور يبتدىء بالاسلام وينقضى بانقضاء الدولة الاموية . وهو ينقسم الى دولتين : دولة الراشدين ، ودولة الامويين ، ولكل منهما أحكام خصوصية فى السياسة وشؤون الحكومة سيأتى بيانها. ولا بد لنا تمهيدا لذلك أن نأتى بفذلكة فى حال العرب قبل الاسلام من حيث ما يهمنا بيانه فى هذا الباب فنقول :

تمهيد فى العرب قبل الاسلام

البدو والحضر

البدو أهل البادية والحضر أهل المدن والبداوة أقدم من الحضارة لانها أقرب منها الى الفطرة الطبيعية . فالانسان كان فى أول أدواره بدويا يحترف الزراعة والفلاحة أو ينتحل القيام على تربية الحيوان من الغنم والبقر والماعز أو النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها مما لا تتسع له المدن من المزارع للغرس والمسارح للمرعى . فالتجأوا الى السهول والبرارى وكان همهم بلوغ الضرورى من القوت والكن والدفء بالمقدار الذى يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش . فاذا اتسعت أحوالهم وحصل لهم ما وراء ذلك من أسباب الغنى والرفه عمدوا الى السكون والدعة وتأنقوا وأترفوا وتمدنوا

فالبداوة تقوم اما على الفلاحة والزرع أو على تربية الحيوان . فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار فى مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان المداشر والقرى والجبال وكانوا قليلين فى بادية العرب . وانما يكثر هذا الصنف من البدو فى بلاد البربر بشمالى افريقيا وفيما يجاور المدن العامرة بمصر وفارس والشام وغيرها . وأما البدو الذين يحترفون تربية الحيوان فدأبهم الظعن والارتحال

لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم . وهم صنفان أهل سائمة وأهل ابل فأهل السائمة هم القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون فى القفر لقلة المسارح الطيبة ويقال لهم الشاوية نسبة الى الشاء . وهؤلاء مثل البربر فى شمالى افريقيا والترك واخوانهم التركمان والصقالبة وغيرهم ممن يقطنون بوادى تركستان وخراسان ونحوها

وأما أهل الابل فأشهرهم بدو العرب وهم اكثر ظعنا وأبعد فى القفر مجالا من أهل السائمة لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الابل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء فى نواحيه فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لماخض النتاج فى رماله لان الابل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها فى ذلك الى الدفء . فاضطروا الى ابعاد النجعة والايغال فى القفار فهم ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وقيامهم بالمدافعة عن أنفسهم . فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون فى الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون فى القفر والبيداء واثقين ببأسهم حتى صار البأس لهم خلقا ولذلك كان اكثر البدو توغلا فى القفر أشدهم بأسا وأصبرهم على المشاق

فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ولذلك كانت المدن قليلة فى تلك الجزيرة ولا سيما فى أواسطها . وأشهر المدن العربية قبل الاسلام مكة والمدينة والطائف فى الحجاز ومأرب وصنعاء فى اليمن . وسكانها اخلاط من العرب والفرس واليهود وغيرهم يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من أهل البادية

العصبية العربية قبل الاسلام

قلنا ان العرب جمهورهم من البدو والعصبية ضرورية لاهل البادية . لان الناس مفطورون على المطامع ودأبهم التخاصم والتنازع فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام وأهل الدولة من أن يظلم بعضهم بعضا وهى أيضا تدفع غارات الاعداء بما تقيمه من الاسوار وتعده من الجند والسلاح . وأما البدو فيحكم بينهم مشائخهم وكبراؤهم بما وقر فى نفوس أهل القبيلة أو الحى من الوقار لهم — واكرام السن من سنن البدو . واذا سطا عليهم عدو فى منازلهم قام فى الدفاع عنها فتيانهم

وشجعانهم وهؤلاء لا يصدق دفاعهم الا اذا كانوا عصبية تشتد بها شوكتهم ويخشى جانبهم

وأهل البلد الواحد أو المصلحة الواحدة لا بد لهم من جامعة تجمع بين أفرادهم. والجامعة تختلف فى الامم باختلاف أحوالهم فبعض الامم يجمعهم الوطن وآخرون يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة . وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الاسلام لا دين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمتان خصوصا فى البداوة . فعنى العرب فى حفظ أنسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا فى استقصائها حتى ردوها الى الآباء الاولين

فأقرب أسباب العصبية عندهم الاخوة والوالدية والعمومة ومنها تتألف العائلة أو الاسرة ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل ابى طالب وآل العباس مثلا فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما من بنى هاشم . ومن الفصائل تتألف الفخذ مثل بنى هاشم وبنى أمية وكلاهما من بنى عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطن مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم وكلاهما من قريش . ومن البطون تتألف العمارة مثل بنى قريش وبنى كنانة وكلاهما من مضر . ومن العمائر تتألف القبيلة مثل ربيعة ومضر وكلاهما من عدنان . ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان

أنساب العرب

والذى عليه النسابون ان سكان جزيرة العرب قبل الاسلام يرجعون فى أصولهم الى قسمين : العرب البائدة ، والعرب الباقية . فالقبائل البائدة هى التى بادت وضاعت أخبارها قبل ظهور الاسلام مثل عاد وثمود وطسم وجديس وعملیق وجرهم وجاسم . وقد بحثنا بحثا تحليليا فى نسب هذه القبائل وأماكنها بمقالة نشرت فى الهلال العشرين من السنة الخامسة لا محل لها هنا . وأما العرب الباقية فهى القبائل التى ظهر الاسلام وهى حية، فقامت به ونشرته وأنشأت الدولة الاسلامية، والقبائل الباقية فرقتان ترجع كل منهما الى أب واحد يضمها وطن تنسب اليه : الفرقة الاولى القحطانية وترجع فى أنسابها الى قحطان وهو يقطان الذى ينتهى نسبة الى ارفكشاد من آباء التوراة ومقر القبائل القحطانية فى اليمن ولذلك عرفت أيضا بالقبائل اليمنية أو عرب اليمن . والفرقة الثانية العدنانية نسبة الى عدنان من

بعض أعقاب اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتعرف أيضا بالاسماعيلية ولما كان مقر أكثرها فى الحجاز ونجد عرفت بالقبائل الحجازية أو بعرب الحجاز ونجد

ولكل من القحطانية والعدنانية فروع من القبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل لا يحصيها عد ولا محل لذكرها ولكننا نأتى بما يهمنا منها فى هذا المقام — فالعرب القحطانية أقدم من العدنانية أو تمدنت قبلها على الاقل ومنها بنو حمير الذين أنشأوا تمدنا فى اليمن ومنهم الملوك التبابعة وآثارهم فى حضرموت وخرائب اليمن لا يزال أكثرها مدفونا فى الرمال وعليه نقوش بالقلم المسند . وقد تفقد آثار ذلك التمدن غير واحد من المستشرقين ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع على شىء كثير لصعوبة السلوك فى تلك القفار . على ان بعضهم ألف الكتب فى هذا الموضوع وذهب الى أن التمدن اليمنى أقدم من التمدن المصرى وان الفراعنة أخذوا جراثيم تمدنهم عن أولئك العرب القحطانية . والمظنون ان ملكة سبأ التى زارت سليمان الحكيم نحو القرن العاشر قبل الميلاد انما هى من ملوك هذه الدولة

وما زال اليمنية فى بلاد اليمن وحضرموت حتى كان سيل العرم أو انبثاق السد المعروف بسد مأرب . وهو عبارة عن حائط كان موصلا بين جبلين يحجز الماء الذى كان يسيل بينهما فيرتفع ويروى السفحين الى أعلاهما . بناه بعض ملوك تلك الدولة بناء متينا فصبر على صدمات الماء وتأثير الهواء عدة قرون . فلما دنا القرن الثانى للميلاد (تقريبا) وكانت الدولة قد شاخت أحسوا بقرب سقوط السد فخافوا الطوفان والقحط فنزحوا من ذلك المكان وتفرقوا فى البلاد بحسب قبائلهم وبطونهم ومنهم بنو غسان فى الشام وبنو لخم فى العراق وبنو الاوس والخزرج فى المدينة والازد فى منا وخزاعة بجوار مكة . ثم انفجر السد فهاجر من بقى هناك من القبائل اليمنية . وفى نحو القرن الخامس للميلاد استولى الاحباش على بلاد اليمن ثم جاء الفرس فأخرجوا الاحباش وضموا اليمن الى مملكتهم . وجاء الاسلام واليمن من أعمال مملكة الفرس

فلما ظهر الاسلام كانت دولة العرب القحطانية قد دالت وهم الحضر وسكان المدن . وأما البدو القحطانية فكانوا لا يزالون كثيرين غير من بقى من القحطانية الحضر فى المدينة وغيرها من مدن الحجاز واليمن . واليك أشهر القبائل القحطانية عند ظهور الاسلام وهى : سبا وحمير وكهلان والازد ومازن وغسان والاوس

والخزرج وخزاعة وبجيلة وخثعم وهمدان وطيء ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والاشعر وغيرها

وأما القبائل العدنانية أو عرب الحجاز ونجد فلم يظهروا قبل الاسلام الا قليلا ولم ينشئوا دولة الا بعد الاسلام . وهم قبائل عديدة مواطنهم على الغالب فى نجد والحجاز والعراق وتهامة وكلها بادية رحالة الا قريشا فقد كانوا حضرا يقيمون فى مكة وبعض أهل الطائف . وأعظم القبائل العدنانية قبيلة «معد» ومنها تسلسلت قبائل عدنان كلها ويقال انه كان معاصرا لارميا النبى (١) وتفرع من معد اياد ونزار وسكنت اياد العراق وتشعبت الى بطون وافخاذ . وأما نزار ففيها العظمة والقوة ولها الفضل الاعظم على العرب لان منها جاءهم النبى . وانقسمت نزار الى قبيلتى ربيعة ومضر فسكنت ربيعة فى جزيرة العراق ومن بطونها ضبيعة واسد وعنزة وجديلة والنمر وتغلب وبكر بن وائل وغيرهم . وأما مضر بن نزار فهم أهل الكثرة والغلب بالحجاز أكثر من سائر بنى عدنان وكانت لهم الرياسة بمكة . ومن مضر تشعبت عدة عمائر من جملتها قريش وتشعبت قريش الى ٢٥ بطنا من جملتها بنو عبد مناف ومنهم بنو هاشم رهط النبى وبه شرفت مضر بعد الاسلام على سائر العرب قحطانيها وعدنانيها

وأشهر القبائل العدنانية غير ما تقدم خزيمة وكنانة والنضر وشيبان وقيس وهوازن وسليم وغطفان وذبيان وثقيف وكلاب وعقيل وتميم وهلال وباهلة ومخزوم وأمية وعبد القيس وغيرها وبعضها فروع للبعض الآخر . ولكل قبيلة أو عمارة شؤون خاصة وحكومة خاصة وشارة خاصة . ولكل منها سمة خاصة تمتاز بها عن سائر القبائل تعرف بها رايتها وتسم بها ابلها أى تنقش عليها علامة خاصة بها كيا بالنار يقال لها الميسم (٢) وكانت القبيلة تمتاز بشيء تعرف به ويذيع بين القبائل خبره وتفاخر به سواها . فكانت مضر مثلا تفتخر بفصاحتها وربيعة تفتخر بفروسيتها ونجدتها (٣) واشتهر بعض القبائل بالعز والمنعة دون سواها كقبيلة بهدلة من العدنانية فقد ذكروا ان العز والقوة تسلسلا اليها من معد الى نزار فمضر فخندف فتميم فسعد فكعب فعوف فبهدلة

(١) ابن خلدون ٣٠٠ ج ١ (٢) الاغانى ٤ ج ١٩ (٣) المسعودى ٢١١ ج ١

عصبية النسب

وبين القبائل أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها على بعض ـ الاقرب فالاقرب على الابعد فالابعد . فتجتمع الفصيلتان من الفخذ الواحد على فخذ آخر ولو كانوا جميعا من بطن واحد وتجتمع البطنان من عمارة واحدة على عمارة أخرى ولو كانوا جميعا من قبيلة واحدة على حد قول المثل : « أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب » فالقحطانى يتعصب على العدنانى وهذه أوسع العصبيات ثم ان القبائل يتعصب بعضها على بعض . والعمائر من قبيلة واحدة تتعصب بعضها على بعض ويقال نحو ذلك فى البطون من عمارة واحدة أو الافخاذ من بطن واحدة حتى تصل الى الفصائل والعائلات . فبنوا العباس وبنو أبى طالب مثلا تخاصما وكلاهما من بنى هاشم . وبنو هاشم وبنو أمية تخاصما وكلاهما من بنى عبد مناف وقس على ذلك

وكل من القبائل أو البطون أو الافخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين . ولهم فى ذلك مفاخرات يطول بنا شرحها . على أن أشهر حوادث المنافسة بين العرب انما هو بين القبائل القحطانية (أو اليمنية) والقبائل العدنانية وقد يرد ذكر ذلك فى التاريخ ولا ينتبه له القارىء لانهم قلما يذكرون انتساب القبائل الى احدى هاتين العصبيتين فيقولون مثلا : « انتشبت الحرب بين قيس وكلب » ولا يذكرون ان قيسا من العدنانية وكلبا من القحطانية لاعتقادهم ان القارىء يعرف ذلك . وقس عليه قولهم تفاخرت قحطان ونزار أو معد واليمن أو مضر وحمير أو هوازن وكهلان أو قيس وهمدان أو نحو ذلك

العرب والعجم قبل الاسلام

على ان العرب القحطانية والعدنانية يجتمعون على غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم « العجم » ويفاخرونهم بالانساب واللغة ويحتقرونهم وقد شقوا من اسمهم لفظ الاعجم للدلالة على الخرس أو ان العجم مشتق من العجمة فالعجمى عندهم غير العربى والاعجم الاخرس (١) والاخزر عندهم الذى فى عينه ضيق وهذا وصف العجم وهو عند العرب من النقائص فاذا قيل للعربى يا اخزر عد قوله اهانة لانه أخرجه من العرب . على ان العجمى فى الاصل الفارسى والعجم

(١) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

الفرس لان الفرس أقدم من خالط العرب من الامم الغربية عن لسانهم ثم أطلقوا لفظ العجم على كل أجنبى غير عربى

والمنافسة بين العرب والعجم قديمة فان الفرس فى أيام دولتهم كثيرا ما كانوا يخرجون العرب من بلادهم بالسيف والعرب كانوا يسطون على مدن الفرس حتى فى أيام سابور قبل الاسلام ببضعة قرون . وكان هذا قد تعمد أذى العرب واخراجهم من بلاده وخصوصا قبيلة اياد وفيه يقول الشاعر :

على رغم سابور بن سابور أصبحت قباب اياد حولها الخيل والنعم

ولكنه تمكن منهم بالقوة والجند فقتل منهم خلقا كثيرا ومن أفلت لحق بأرض الروم . وفعل نحو ذلك ببنى تميم فى البحرين . وما زالت الضغائن بين العرب والفرس حتى اضطر عرب اليمن الى استنجاد كسرى على الاحباش فى القرن الخامس للميلاد فأرسل جندا أخرجوا الاحباش واحتلوا مكانهم وحكموا العرب الى أن جاء الاسلام وتحول السلطان الى العرب فتسلطوا على العجم فكبر ذلك عليهم وخصوصا فى أيام بنى أمية لتعصبهم على غير العرب . ونشأت فرقة الشعوبية للطعن فى العرب وسيأتى بيان ذلك

الأمومة والخؤولة

الاصل فى العصبية عند العرب الأبوة أو الانتساب الى الأب مثل سائر الامم الراقية على ان الأمومة كان لها شأن كبير عندهم وكثيرا ما كانت المزاوجة أو المصاهرة سببا كبيرا للعصبية ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على الاجمال وانما الفضل فيه للأمومة فان المرأة كانت لا تزال محتقرة حتى تصير أما فتعلو منزلتها وتشتد عرى الاتحاد بها . فالرجل منهم يفضل أمه على امرأته لان الأم فى اعتقاده أبقى له من امرأته . ومن أمثلة ذلك ان صخر بن عمرو بن الشريد اخا الخنساء لما حضر محاربة بنى أسد طعنه ربيعة بن ثور الاسدى فأدخل بعض حلقات الدرع فى جنبه وبقى مدة حول فى أشد مايكون من المرض وأمه وزوجته سليمى تمرضانه فضجرت زوجته منه فمرت بها امرأة فسألتها عنه فقالت « لا هو حى فيرجى ولا ميت فينسى » فسمعها صخر فانشد قصيدة قال منها :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى وملت سليمى مضجعى ومكانى

وأى امرىء ساوى بأم حليلة فلا عاش الا فى شقى وهوان(١)

وكانت العرب من أجل ذلك لا يعزون بالمرأة الا أن تكون أما (٢) ولم يكن ذلك خاصا بحال المرأة عند العرب فقد كان هذا شأنها أيضا عند اليونان لانهم كانوا يعدون المرأة أمة يحجبونها قبل الزواج وبعده وتشتغل بأشغال البيت من الحياكة والغزل وتمريض المرضى . وكذلك كان يفعل الفرس بنسائهم فاذا صارت المرأة أما علت منزلتها وصار اليها الامر والنهى فى بيتها ولا يزال هذا دأب أهل البادية الى اليوم . ونشأت من ذلك عصبية الخؤولة عند العرب وهى نصرة عشيرة الام لاولادها وبعبارة أخرى لعشيرة زوجها ولو كان الاب من قبيلة يمنية والام من قبيلة عدنانية أو بالعكس

وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الاسلام وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل المدينة للنبى فى هجرته اليهم فان الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم لان أم النبى من بنى النجار من الخزرج وهى قبيلة قحطانية وأبوه من قريش وهى قبيلة مضرية . فلما توفى والده ذهبت به أمه الى المدينة لكى تلتجىء الى أخواله بنى النجار وهم كثيرون وكانوا من أقرب أهلها الى التدين وقد ترهب أحدهم فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها واتخذ بيته مسجدا . فأقامت عندهم على الرحب والسعة ثم ذهبت به الى أعمامه فى مكة وماتت على الطريق . فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه هاجر الى أخواله فى المدينة وأهلها يعرفون ذلك فيه لان خؤولة بنى النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله فلما نزل المدينة رحب به أهلها وكان أول من تابعه منهم أخواله أو من يمت اليهم بقرابة . وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعا عنه (٣) ثم تهافت أهل المدينة الى مبايعته . وكان فى أثناء غزواته اذا اشتد القتال جلس تحت راية الانصار (٤) وهم يستهلكون فى سبيل نصرته ولا سيما آل النجار . وكان أعداء الانصار اذا هجوهم خصوا بنى النجار منهم بالذكر لتصدرهم فى ذلك أكثر من سائر أهل المدينة . فمن قصيدة قالها عمرو بن العاص يوم أحد وهو لم يسلم بعد :

(١) ابن خلكان ١٣٢ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٦٤ ج ٢
(٣) ابن هشام ١٨٩ ج ١ (٤) ابن هشام ٨١ ج ٢

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح فى رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والامانى تصدق
فما راعهم بالشر الا فجاءة ... كراديس خيل فى الازقة تمرق (١)

وظلت الخؤولة مرعية عند العرب بعد الاسلام وكان لها تأثير كبير فى العصبية وسياسة الدولة . فلما طلب معاوية الخلافة بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان نصره بنو كلب وهم يمنية لان نائلة امرأة عثمان منهم وقد تلطخت أصابعها بالدم . وكان لنصرتهم دخل كبير فى قيامه وتزوج هو واحدة منهم ولدت له ابنه يزيد . ولما أفضت الخلافة الى يزيد كان الكلبية من حزبه لانهم أخواله وأمثال هذه الشواهد كثيرة فى تاريخ الاسلام منها ان المأمون نصره الفرس لان أمه منهم وكان أخوه الأمين ضده وحزبه عربى لان أمه عربية فلجأ المأمون الى خراسان وأقام بمرو عند أخواله فأخرجوا الخلافة من يد الامين وسلموها اليه . والمعتصم كانت أمه تركية وكان ميله الى الاتراك كثيرا وقد جندهم فنصروه على الفرس . وقس على ذلك تأثير الأم فى الدولة مما سيأتى تفصيله . وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوون أحزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم

توابع العصبية العربية

الحلف

فعمدة العرب فى العصبية جامعة النسب من الأب ثم الأم على انهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية فى هذه الايام . وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول . فالحلف يجمع بين القبائل ولو تباعدت انسابها من القحطانية والعدنانية . وقد يكون التحالف بين العرب وغير العرب ممن ينزلون بينهم وهو من قبيل الولاء كاليهود الذين نزلوا المدينة من بنى النضير وبنى قينقاع وغيرهم ومنهم حلفاء الاوس والخزرج وكان أهل وادى القرى حلفاء بنى هاشم وسيأتى ذكرهم فى الموالى

وللتحالف أو الحلف عندهم شروط وأسباب منها أن يكون الحليف أسيرا

(١) ابن هشام ١١٠ ج ٢

لا يستطيع فداء نفسه فيسمونه بسمة تلك القبيلة فيعد حليفا لها (١) والحليف يرث من القبيلة كما يرث الصريح من أبنائها (٢) اما اذا قتل فديته نصف دية الصريح (٣)

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الاسلام الاستلحاق وهو ان يدعى الرجل رجلا يلحقه بنسبه وقد يكون عبدا أو أسيرا أو مولى فيسميه مولاه وينسبه اليه . ومن أشهر حوادث الاستلحاق فى الجاهلية أن أمية جد بنى أمية كان له عبد اسمه ذكوان استلحقه بنسبه وكناه أبا عمرو فصار اسمه عندهم أبا عمرو بن أمية ومن نسله جاء الوليد بن عقبه أخو عثمان بن عفان لامه وكان من جلة الصحابة

وأشهر حوادث الاستلحاق فى الاسلام استلحاق زياد بن ابيه بأبى سفيان والد معاوية داهية العرب وقصة استلحاقه مشهورة فى كتب التاريخ . وكان زياد هذا ابن امرأة اسمها سمية وكانت جارية فولدت زيادا من غلام رومى من موالى ثقيف اسمه عبيد ولم يكن ذلك مشهورا عند العرب فكانوا يعتبرون زيادا مجهول الاب فسموه « زياد بن أبيه » فلما طلب معاوية الخلافة واحتاج الى من ينصره قرب اليه جماعة من دهاة العرب ومنهم زياد المذكور واختص زيادا بالاستلحاق فاستشهد خمارا من أهل الطائف اسمه ابو مريم السلولى فشهد ان أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأتاه بسمية فحملت منه بزياد وثقات المؤرخين ينكرون ذلك ويعتقدون ان معاوية اختلق هذه القصة ليكتسب نصرة زياد وقد تم له ما أراد . فسمى زياد من حينئذ « زياد بن ابى سفيان » بعد ان كان يعرف بزياد بن أبيه أو ابن سمية (٤) وما زال آل زياد معدودين من قريش حتى ردهم المهدى سنة ١٦٠ هـ الى نسب عبيد المذكور وصاروا من موالى ثقيف (٥) ومثل هؤلاء آل ابى بكرة فقد كانوا من موالى النبى وألحقوا بثقيف فردهم المهدى الى أصلهم

وكانوا يسمون المستلحق « دعيا » وقد يكون الرجل دعى أدعياء فيكون هو دعيا فى رهطه ورهطه دعى فى قبيلة مثل ابن هرمة، فقد كان دعيا فى الخلج والخلج

(١) الاغانى ١١٠ ج ٧ (٢) تاريخ الوزراء ٢٥١ (٣) الاغانى ١٦٧ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ (٥) ابن ٢٠ ج ٦

أدعياء فى قريش وكثيرا ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة لنزولهم فيهم أو لنصرتهم اياهم كما أصاب بنى العم من أهل البصرة فانهم نزلوا ببنى تميم فى أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين فقالوا لهم : « أنتم وان لم تكونوا من العرب اخواننا واهلنا وانتم الانصار وبنو العم » فلقبوا بذلك وصاروا من جملة العرب (١)

وكانوا يعدون الدعى من أنفسهم ويورثونه كما يورثون الابن الصريح (٢) ويرثونه وكثيرا ما كان العرب يرغبون فى استلحاق مواليهم رغبة منهم فى أن يرثوهم وقد يأبى المولى أن يلحقوه اذا عرف غرضهم كما أصاب نصيبا المغنى المشهور اذ أراد مواليه ان يلحقوه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لان أكون مولى لائقا أحب الى من أن أكون دعيا لاحقا وقد علمت انكم تريدون مالى » (٣).

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة » وقد تكون بين القبائل أو بين الافراد ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الآن فاذا آخيت العربى أخذ بناصرك وحماك ودافع عنك كأنك أخوه

الخلع

وضد الاستلحاق عندهم « الخلع » فكان الرجل اذا ساءه أمر من ابنه سواء كان صريحا أو دعيا خلعه أى نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قد يرتكبه الولد من المكروه وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة فيذهب جماعة منها الى سوق عكاظ ومعهم المراد خلعه ويشهدون على أنفسهم انهم خلعوه ويبعثون مناديا بذلك فلا تحتمل القبيلة جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه . كما فعلت خزاعة بقيس ابن الحدادية الشاعر الجاهلى (٤) وقد يكتبون بالخلع كتابا

ومن اشهر حوادث الخلع قبل الاسلام خلع عمرو بن العاص من عشيرته وكان قد ذهب الى الحبشة بتجارة فى الجاهلية مع عمارة بن الوليد المخزومى واختصما فى الطريق فأساء عمارة الى عمرو فأضمر له الشر وعمرو من بنى سهم فكتب الى أبيه أن يخلعه ويتبرأ من جريرته اذا أذى عمارة ففعل فخلعت كل من العشيرتين صاحبها وارسلوا بذلك مناديا الى مكة (٥)

---

(١) الاغانى ٧٦ ج ٣ (٢) الاغانى ٩٤ ج ١٧ (٣) الاغانى ١٣٤ ج ١
(٤) الاغانى ٢ ج ١٣ (٥) الاغانى ٥٢ ج ٨

وكان الخلعاء فى البادية كثيرين يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة . فلما جاء الاسلام أصبح تمردهم على الحكومة . فقد كان يعلى الاحول من شعراء الدولة الاموية خليعا يجمع صعاليك الازد وخلعاءها فيغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة . وكان فى تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم الى بلاد الروم

العبيد فى الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الانسان لان الانسان مفطور على الاستبداد والقوى يستعبد الضعيف . وكان الانسان فى أول عهد العمران اذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله الا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن . ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم فى حرث الارض ورعاية الماشية أو نحو ذلك من الصنائع أو يبيعونهم بيع المتاع . ذلك كان شأنهم فى عهد التمدن القديم فى مصر واشور وبابل . وكان للاسترقاق سوق رائجة فى الدولة الرومانية فكانوا يأتون بالاسرى بالمئات والالوف ويبيعونهم بيع الاغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات . ولما انتظم حال تلك الدولة صاروا يتزوجون بالجوارى وبعد ان كان الرومانى يتصرف بعبيده كما يشاء من قتل أو أو جلد ، أصبح قصاصه منوطا برأى القضاة ، واذا بالغ السيد فى ظلم عبده حكم القضاة عليه

على أن العبيد ما زالوا كثارا فى المملكة الرومانية لا يخلو منهم بيت واكثرهم من الاسرى أو أبنائهم يستخدمونهم فى المنازل ويعلمونهم الصنائع على اختلاف ضروبها ويبيعونهم فى أسواق خاصة بالرقيق . ويختلف ثمن العبد عندهم من عشرين ريالا رومانيا الى أربعة آلاف ريال ويقال نحو ذلك فى سائر الممالك القديمة . فالفرس مثلا كانوا يستعبدون الاتراك فى الحرب ويتهادونهم وقد يتهادون أبناء الامراء منهم . ومما ذكره التاريخ من ذلك ان ابرويز ملك الفرس أهدى الى موريقس ملك الروم مائة غلام من أبناء اراكنة الترك فى نهاية الحسن والجمال فى آذانهم أقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ فى جملة هدايا أخرى . فأهدى ملك الروم

هدية فاخرة فى جملتها عشرون جارية من بنات ملوك برجان Burgundians والجلالقة Gallicians والصقالبة Sclavs والوشكنس Gascons من الاجناس المجاورة لبلاده على رؤوسهن أكاليل الجوهر (١)

العبيد عند العرب

والعرب أيضا كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب أو ممن يبتاعونهم من الامم المجاورة لجزيرتهم كالحبشة وما حواليها من الامم المتوحشة. فكان النخاسون يحملون العبيد والاماء من تلك البلاد وغيرها الى جزيرة العرب يبيعونهم فى أسواقها بالمواسم وكانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع . ومن أشهر النخاسين فى الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمى رئيس قريش فى حرب الفجار (٢) فاذا اشترى أحدهم عبدا وضع فى عنقه حبلا وقاده الى منزله (٣) كما تقاد الدابة . واذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها فى كنانتهم حتى يفتدى نفسه . وكانوا يبتاعون الارقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الامتعة الا اذا دبر المولى عبده أى قال له « أنت حر بعد موتى » فانه يكون حرا. وقد يخرجون العبيد فى جملة صداق العرائس وممن أخرج فى الصداق بشار بن برد الشاعر الاسلامى الشهير فانه كان هو وأمه لرجل من الازد تزوج امرأة من بنى عقيل فساق اليها بشارا وأمه فى صداقها (٤)

فيدل ذلك على كثرتهم ولا سيما عند الامراء والملوك حتى يزيدوا على المئات والالوف . فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على ابى بكر ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته (٥) ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستعملهم فى حاجات منزله فعبد الله بن أبى ربيعة كان له عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن وكان عددهم كثيرا وفيهم من يخرج للحرب وقلما كانوا يثقون بأمانتهم (٦) على انهم كانوا يستعينون بهم فى القتال وكان لذلك شأن بعد الاسلام . وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر (٧) واذا شهد حربا لا يضرب له بسهم (٨) بل يكون سهمه لسيده

(١) المسعودى ١١٩ ج ١ (٢) المسعودى ٢٨٢ ج ١ (٣) المعارف لابن قتيبة ١١٢
(٤) الاغانى ٢٠ ج ٣ (٥) المسعودى ٢٨٧ ج ١ (٦) الاغانى ٣٢ ج ٠١
(٧) الاغانى ١٢٤ ج ١٤ (٨) المعارف لابن قتيبة ١١٠

وكان من أصناف العبيد عندهم « القن » وهو العبد الذى يعمل بالارض ويباع معها ويشبه SERF فى المملكة الرومانية . ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة كما اتفق لابى لهب مع العاصى بن هشام فانهما تقامرا على أن من قمر كان عبدا لصاحبه فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله (١) وكانوا يسترقون المدينين أيضا

وكانت العرب تتزوج الاماء فاذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم فاذا أنجب أحدهم ألحقوه بأنسابهم واعترفوا به والا بقى عبدا . وأشهر حوادث الاستلحاق على هذه الصورة الحاق عنترة العبسى بأبيه شداد وهو ابن جاريته زبيبة وكان شداد نفاه فلما أنجب ألحقه بنسبه (٢) وقصته مشهورة . وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم الا لسبب هام . واذا أحب العبد العتق استباع أى طلب البيع فاذا رضى صاحبه باعه لسواه . اما بعد الاسلام فكثر الاعتاق لحكمة سياسية دينية سيأتى ذكرها

الموالى فى الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر والغالب فيه أن يكون عبدا معتقا فكل عبد اعتق صار مولى وهو يشبه ما كان فى الدولة الرومانية من العبيد المحررين ويسمونهم Libertines وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له وينسب اليه أو الى قبيلته أو رهطه . فمولى العباس مثلا هو مولى بنى هاشم وهو أيضا مولى قريش ومولى مضر . وقد ينسب المولى الى بلد معتقه فيقال فلان مولى أهل المدينة أو مولى أهل مكة . والمولى عندهم كالقريب ولكنهم يسمون قرابة الاهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة . ويطلق المولى على الصاحب والقريب وابن العم والجار والحليف والابن والعم والنزيل والمحب والتابع والصهر وغير ذلك وأكثر هايطلق على المولى بسبيل المجاز . وأما عند التحقيق فالموالى ثلاثة أنواع : مولى عتاقة ومولى عقد ومولى رحم

مولى العتاقة

فمولى العتاقة هو الذى كان أسيرا أو عبدا واعتق وكانوا يعتقون الاسير مكافأة على احسان فيشترط الرجل على عبده مثلا اذا فعل كذا وكذا فهو حر ويكون

(١) الاغانى ١٠٠ ج ٣ (٢) الاغانى ١٤٨ ج ٧

مولى لمعتقه وكان لذلك تأثير كبير فى صدر الاسلام لان المسلمين كثيرا ما كانوا يستعينون بالعبيد على أسيادهم بطريق الاعتاق ـ من أمثلة ذلك ان المسلمين لما حاصروا الطائف فى السنة الثامنة للهجرة وكادت تمتنع عليهم أمر النبى منـاديا فنادى : « ايما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فنزل جماعة كبيرة (١) وقد يكون الاعتاق لسبب آخر

واذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا اعتاقه جزوا ناصيته وخلوا سبيله فيصير مولى لمالك تلك الناصية . ومن قول حسان بن ثابت شاعر النبى بعد واقعة أحد جوابا على قول هبيرة بن أبى وهب :

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت أهل القليب ومن الفينه فيهـا
كم من أسـير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها (٢)

(المكاتبة) وقد يقع العتاق باتفاق بين العبد وصاحبه بالبيع وهو ما يعبرون عنه بالمكاتبة ، وذلك ان يكتب العبد على نفسه صكا بثمن اذا سعى وأداه عتق وقد يجعل الدفع انجما « تقسيطا » فأبو سعيد المقرى أحد كبار التابعين كان عبدا لرجل من جندع وكاتبه على أربعين ألفا وشاة لكل أضحى فأداها (٣)

قلنا ان من اعتق عبدا كان ولاؤه له ومعنى ذلك انه يكون هو صاحب ولائه فينسب اليه واذا مات كان هو وارثه . على انهم كانوا يشترطون أحيانا أن لايكون ولاؤه لمعتقه بل يكون لمن يؤدى ثمن المكاتبة . وقد تكون العتاقة « سائبة » وهى ان يعتق العبد ولا ولاء له . فكان الرجل اذا قال لعبده « أنت سائبة » يعتق ولا يكون ولاؤه لمعتقه ويضع ماله حيث شاء . ومن اشهر المعتقين سائبة سالم مولى أبى حذيفة بن عتبة وأصله من اصطخر وكان مملوكا لثبينة امرأة ابى حذيفة فأعتقته سائبة (٤)

على ان الاسلام نهى عن أن يكون الولاء لغير المعتق فبريرة بنت سعود الثقفية دخلت على عائشة أم المؤمنين تستعينها فى كتابتها وعليها خمس اواق نجمت عليها فى خمس سنين فقالت لها عائشة « أرأيت ان عددت لهم عدة واحدة أبيعك أهلك فأعتقك فيكون ولاؤك لى » فذهبت بريرة الى أهلها فعرضت ذلك عليهم فقالوا

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٢) ابن هشام ١٠٥ ج ٢
(٣) المعارف لابن قتيبة ١٥٤ (٤) المعارف ٩٢

« لا الا أن يكون لنا الولاء » قالت عائشة « فدخلت على رسول الله (صلعم) فذكرت ذلك له فقال اشتريها فاعتقيها فانما الولاء لمن اعتق » (١) الا أن يشترى أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء الى المشترى كما أصاب أبا معشر أحد أصحاب الحديث فقد كان مكاتبا لامرأة من بنى مخزوم فأدى وعتق ثم اشترت أم موسى بنت منصور الحميرية ولاءه (٢)

ومن أسباب العتاقة عندهم التدبير وذلك ان يقول الرجل لعبده انت حر بعد موتى فلا يرثه أهله

مولى العقد

ويقال له أيضا مولى حلف أو اصطناع وذلك إن ينتمى الرجل الى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها أو بالمحالفة أو المخالطة أو الملازمة على ان يتعاقب ذلك أجيالا . ومن أمثلة الموالى بالمحالفة أو المخالطة اليهود فى يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالى الاوس والخزرج فولاؤهم من قبيل الحلف . ولولاء اليهود فى يثرب تاريخ يطول شرحه . خلاصته ان اليهود نزلوا قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل ان ينتقل اليها الاوس والخزرج من عرب اليمن . فلما جاءوا اليها رأوا اليهود مستأثرين بالارض والماشية فأقاموا فى ضيق حتى اتفق ان أميرا منهم اسمه مالك بن عجلان استشار ملك غسان بالشام فى شأنهم وكأنه استعانه عليهم فاتفقا على الكيد بهم . فجاء المدينة وفعل ذلك فذل اليهود وخافوا وأصبحوا اذا داهمهم أحد من الاوس أو الخزرج بشىء يكرهونه لا يمشون بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون من قبل بل يذهب كل منهم الى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيستجير بهم فلجأ كل قوم من اليهود الى بطن من الاوس أو الخزرج يتعززون بهم (٣) ويحالفونهم على انهم مواليهم وفيهم من ينسب ولاءه الى رهط خاص كموالى بنى النجار أخوال النبى أو موالى غيرهم من عرب المدينة

ومن هذا القبيل اكثر موالى العرب بعد الاسلام فقد كان العرب أهل السيادة والشوكة وأهل البلاد يلازمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة فينسبون اليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاة وهى ان يقول شخص لآخر « انت مولاى ترثنى اذا مت وتعقل عنى اذا جنيت » وقال الآخر « قبلت » ولكل طبقة من العرب طبقة

(١) البخارى ٦٠ ج ٢ (٢) المعارف ١٧٢ (٣) الاغانى ٩٧ ج ١٩

من الموالى فقد كان البرامكة مثلا من موالى الرشيد ومنهم دونهم من العجم موالى الامراء وهكذا

وكان المولى فى الجاهلية ربما كان نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا لا فرق فى ذلك عندهم، فموالى النبى كان أحدهم حبشى الاصل والآخر يونانى الاصل والآخر قبطى الاصل والآخر فارسى الاصل (١) وعدس مولى عتبة بن أبى ربيعة كان من أهالى نينوى وقتل يوم بدر على النصرانية (٢) اما بعد ظهور الاسلام فأصبح الولاء خاصا بالمسلمين لان القرآن نهى عن تولى اليهود والنصارى بالآية «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء» الخ. وصاروا يعدون بعد الاسلام من أهل الذمة

مولى الرحم

وأما مولى الرحم فيكتسب الولاء بالزواج من موالى بعض القبائل فينسب الى القبيلة التى تزوج من مواليها. ومن أمثلة ذلك سديف الشاعر فقد كان مولى خزاعة ثم ادعى ولاء بنى هاشم لانه تزوج مولاة لآل أبى لهب (من بنى هاشم)(٣)

وللموالى عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة، فأحكامهم العامة ان المولى أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد فهو حر لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر فى الزواج والميراث. فالمولى لا يتزوج حرة ودية المولى نصف دية الحر(٤) كأنه عبد. ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص فيجلد نصف حد الحر

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء وأهمها الارث فمولى العتاقة يورث ولا يرث ومولى العقد لا يرث ولا يورث ومولى الرحم يرث ويورث (٥) فمن أعتق عبدا كان الولاء له وهو يرثه ولذلك يسمونه مولى النعمة. وكان الرومانيون يرثون ثلث ما يملكه مواليهم أو يكتسبونه بالعمل أو غيره، واذا لم يكن لهم من يرثهم من نسلهم ورثوا كل أموالهم (٦)

وكان للموالى شأن فى عصبية العرب قبل الاسلام وقد عظم شأنهم فى الاسلام حتى كانوا سببا فى قلب الممالك ونقل السلطة من دولة الى دولة

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٢ (٢) المسعودى ٣١ ج ١ (٣) الاغانى ١٦٢ ج ١٤
(٤) الاغانى ١٧٦ ج ٢ (٥) العقد الفريد ٦٢ ج ٢
(٦) Gibbon's Roman Empire II. EPB

النزالة الأجانب فى الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالى والحلفاء ونحوهم وفيها أيضا جماعة من النزالة نزحوا اليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند وفيهم الاحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم . وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها فيختلطون بهم وتضيع أنسابهم فيهم كالكلدان والسريان وغيرهم . وفيهم من يحالفونهم وينتمون اليهم كاليهود والنصارى ومنهم من يدخلون فى جملة عبيدهم ومواليهم كالاحباش والفرس والهنود فتضيع أصولهم . ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الاسلام عربا صرفا الا بعض اليهود كبنى قينقاع والنضير وغيرهم وشرذمات من نصارى الروم وطائفة من الفرس الاحرار يعرفون بالابناء

الابناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون فى بلاد اليمن ويعرفون بأبناء الفرس الاحرار أو « الابناء » تمييزا لهم عن الفرس الموالى . وأبناء الفرس الاحرار هم أبناء الجند الفارسى الذى جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذى يزن الحميرى على الاحباش وكان الاحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ففزع سيف المذكور الى كسرى ملك الفرس واستنجده فى حديث طويل فسير كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز . فلما وصل الجيش الى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الاحباش فاستظهر الفرس عليهم وأخرجوهم من البلاد وملك سيف ابن ذى يزن ووهرز أربع سنين . وكان سيف قد اتخذ من الاحباش خدما فخلوا به يوما وهو فى الصيد وقتلوه وهربوا فى رؤوس الجبال وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعا ، وتضعضع أمر اليمن ولم يولوا عليهم أحدا من العرب فظلت سيادة الفرس عليها حتى ظهر الاسلام ، وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمى والآخر راذويه فأسلما

فالجيش الفارسى لما استوطنوا اليمن تزوجوا فيها وتناسلوا ورزقوا الاولاد والاحفاد وعرفوا بالابناء . واشتهر منهم فى صدر الاسلام طاوس بن كيسان أحد أعلام التابعين ووهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص ووضاح اليمن الشاعر وغيرهم

وكان مثل هؤلاء الفرس أيضا فى الشام والعراق والجزيرة واختلفت أسماؤهم باختلاف أماكنهم بعد الاسلام فهم يسمون فى اليمن الابناء كما رأيت وفى صنعاء خاصة يسمون بنى الاحرار وفى الكوفة الاحامرة وبالبصرة الاساورة وبالجزيرة الحضارمة وبالشام الجراجمة (١) وكان للابناء شأن عند ظهور الاسلام فتجندوا للمسلمين ونصروهم وظلوا مميزين عن سائر المسلمين غير العرب بانهم غير الموالى

سياسة الدولة فى الجاهلية

لم يكن للعرب دولة فى جاهليتهم الا ما كان فى اليمن من دول التابعة مما لا يدخل فى بحثنا . وانما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التى كانت تدور عليها أحكامهم ومعاملاتهم لحفظ علائقهم السياسية وآدابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الادارية والسياسية الدولية فى الامم المتمدنة

فالرياسة عندهم أو الامارة انما ينالها أهل العصبية والجاه واذا تساوت العصبية فى جماعة قدموا أكبرهم سنا ولذلك كان لفظ «الشيخ» عندهم يدل على الشيخوخة والرياسة معا واذا أشكل عليهم الانتخاب لاى سبب عمدوا الى الاقتراع . وكذلك اذا اجتمعت عدة قبائل فى محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا فانهم يقترعون بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة رأسوه ـ ذلك هو شأن بدو العرب وهم معظمهم . وأما حضرهم فى مكة فالرياسة فيهم لسادن الكعبة وقد تقدم ذكر مصالح الحكومة عندهم فى الجزء الاول من هذا الكتاب

وكان فى كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرياسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرياسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى من قيس وبيت آل زرارة بن عدى من تميم وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام من شيبان وبيت بنى الريان من بنى الحرث بن كعب من اليمن . وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالى ثلاثة آباء منها فى الرياسة على الاقل . ولاهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة . وكان أهل

(١) الاغانى ٧٦ ج ١٦

السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك فى تولية الحكام . ومن هـذا القبيل وصية ابن عباس للحسن بن على « ول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم »

والامير البدوى مع سلطته المطلقة قلما يستبد فى احـكامه ويغلب أن يستشير أهل بطانته وخاصته على أنه لم يكن يحتجب عن أحد ولا يمتهن أحدا . يجالس الناس ويخالطهم ، رفيعهم ووضيعهم . وهم لا يعرفون ألقاب التفخيم ولا نعوت التمليق فاذا خاطب البدوى أميره ناداه باسمه وطالبه بحقه بعبارات تشف عن عزة النفس واباء الضيم أو هى أنفة البداوة . على انهم كانوا يتكلمون عـلى الاسنان والامير يخاطب رعاياه بألقاب الوقار كالاب والعم والخال والابن أو ابن الاخ على ما تقتضيه الاسنان والانساب . وظل ذلك شأنهم فى صدر الاسلام ينادون الخليفة باسمه ويحاجونه فى شؤونه حتى اذا تحضروا احتجبوا وتكبروا فاتسع الفاصل بين المحكوم والحاكم

مناقب العرب فى الجاهلية

الوفاء

على ان العرب قلما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل فى الخصومة بينهم لما فطروا عليه من المناقب الجميلة التى تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء . وسيد هذه المناقب « الوفاء » لانه اذا تأصل فى أمة أغناها عن القضاء ـ والحكومة انما تقضى بين الذين لا يعرفون الوفاء . وكان الوفاء متمكنا فى خلق العربى ويزيد تمكنا فيه كلما بعد عن المدن وأوغل فى الصحراء لان الغدر والنكث لا يعيشان الا فى القصور الشماء بظل الحدائق الغناء

وترى الوفاء مطبوعا فى أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم ويتجلى فى عاداتهم وأخلاقهم وفى سائر أعمالهم وهو فيهم سجية وفى سواهم صناعة وتكلف . وحكاية حنظلة الطائى والنعمان بن المنذر تمثل هذه الخلة أحسن تمثيل ؛ فان حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت فطلب النعمان من يضمنه فضمنه شريك ابن عدى ولم يقدم شريك على ذلك الا وهو يعتقد صدق البدو لاشتهارهم به . وقد وفى حنظلة فجاء فى الوقت المعين لا جنـد يقوده ولا ضابطة تخفره مما حمل

النعمان على العفو عنه وقصته مشهورة (١)

وأغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء وكان امرؤ القيس الكندى قد استودعه سلاحا وأمتعة تساوى مالا كثيرا وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه فبعث ملك كندة يطلب الاسلحة والامتعة المودعة عند السموأل فلم يسلمها . ولما ألح عليه أجابه « لا أغدر بذمتى ولا أخون أمانتى ولا اترك الوفاء الواجب على » فجرد الملك عليه جيشا وحاصره فى حصنه فوقع ابن السموأل أسيرا عند الملك فهدد السموأل بقتل ابنه ان لم يسلم الوديعة فأبى التسليم وقال «ماكنت لاخفر ذمامى وابطل وفائى فافعل ما شئت » فذبح ولده والسموأل ينظر . فلما امتنع الحصن على ملك كندة عاد خائبا وأما السموأل فصبر على ما تحمله من الثكل محافظة على الوفاء ولم يسلم الوديعة الا الى ورثة امرىء القيس

فمن كانت هذه مناقبهم قلت حاجتهم الى القوانين واستغنوا عن الجند والضابطة وخصوصا اذا أضفنا اليها علو الهمة وطيب النفس وقلة احتمال الذل والسماحة والكرم والنزاهة عن الدنيئة فهذه كلها من مناقب العرب أهل البادية

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضا « الجوار » فان البدوى يحافظ على جاره محافظته على نفسه . والمقصود بالجوار فى الاصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب وهو من قبيل التعاون الطبيعى حتى قيل « جارك القريب ولا أخوك البعيد» ولكن العرب توسعوا فى ذلك حتى شقوا منه الاجارة والأستجارة والجوار وكلها بمعنى الحماية والحفظ مع أصل المادة « جار » يفيد ضد ذلك . واستعاروا الجوار للحماية على الاطلاق فاذا خاف أحدهم سوءا جاء الى رجل يحميه ويكفى أن يقول له « أجرنى » فيجيره بقدر طاقته وقد يفرط بأهله ولا يفرط بجاره

ومن أمثلة ذلك ان الاعشى امتدح الاسود العنسى فأعطاه جائزة من الحلل والعنبر فرجع وطريقه على بنى عامر فخافهم على ما معه من المال فأتى علقمة بن علاثة فقال له « أجرنى » فقال « قد اجرتك » قال « من الجن والانس » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال « لا » ، فتركه وأتى عامر بن الطفيل فقال له « أجرنى » قال « قد اجرتك » قال « من الانس والجن » قال « نعم » قال « ومن الموت » قال

(١) المستطرف ١٦١ ج ١

« نعم » قال « وكيف تجيرنى من الموت» قال « اذا مت وأنت جارى بعثت الى أهلك الدية » فقال « الآن علمت انك تجيرنى » (١)

وقد يجىء بعضهم ليستجير برجل فلا يجده فى بيته فيكفى ان يعقد طرف ثوبه الى جانب طنب البيت فاذا فعل ذلك صار جارا ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به أن يجيره وأن يطلب له بظلامته (٢)

ومن قبيل تعظيم الجوار والمحافظة عليه ان عامر بن الطفيل لما مات نصبت بنو عامر انصابا ميلا فى ميل على قبره لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش اشارة الى ما كان عليه من المحافظة على الجوار فى حياته (٣)

وما زال الجوار مرعيا عند العرب بعد الاسلام الا من خالط الامم الاخرى فى البلاد المفتوحة . على أن تأييد الدولة اقتضى ضعف الجوار لان أهل الوجاهة أصبحوا من أهل الدولة والرجل يومئذ انما يستجير من حاكم يطلبه فاذا استجار به مظلوم قالوا « انما يجير الرجل على عشيرته واما على سلطانه فلا » خوفا على مناصبهم كما أصاب ابن مفرغ لما هجا بنى زياد واستجار بالاحنف بن قيس على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ أمير البصرة فأبى الاحنف خوف العزل وقال له « اذا شئت أن أجيرك من بنى سعد فعلت » فذهب الى غيره من وجهاء العرب فأبوا اجارته لنفس هذا السبب (٤)

الاريحية

ومن المناقب التى تغنى العرب عن الوازع القهرى أو القوة الحاكمة «الاريحية» وهى من مقتضيات العصور الجاهلية البدوية أو ما يجرى مجراها من أحوال الفروسية التى يعبر عنها الافرنج بقولهم *Chevalerie* ومرجع ذلك الى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة . وكان للاريحية شأن عظيم عند العرب لدقة شعورهم وسرعة تأثرهم لانهم أهل خيال وذوو نفوس حساسة يقيمهم البيت من الشعر ويقعدهم وقد يسمعون الكلمة فتطير لها نفوسهم وربما بذل العربى حياته فى سبيل كلمة يقولها أو فرارا من كلمة يسمعها ولذلك كثرت عندهم ضروب المفاخرة والمباهاة فى المواسم والاندية مما يرغب فى الفضائل ويغنى عن زجر الحكام

ومناقب العرب كثيرة كالكرم والضيافة وعلو الهمة مما لا دخل له فى موضوعنا

(١) الاغانى ٨٣ ج ٨ (٢) الاغانى ١٨٤ ج ٢.
(٣) الاغانى ١٣٩ ج ١٥ (٤) الاغانى ٥٦ ج ١٧

سياسة العرب فى عصر الراشدين

من سنة ١١ـ٤١ هـ

الجامعة الاسلامية

قد رأيت ان العرب انما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان فى جملة ما بدله من أحوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يدا واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم . وبعد أن كان اليمنى يفاخر الحجازى والمضرى يفاخر الحميرى ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبى «المسلمون اخوة» وقال فى خطبة القاها يوم فتح مكة « يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب» (١) وقال من خطبة فى حجة الوداع « أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » (٢)

واقتدى بالنبى خلفاؤه الاولون لا سيما عمر بن الخطاب فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد أن أسلم اتفق وهو يطوف فى الكعبة ان فزاريا وطىء ازاره فانحل فرفع جبلة يده وهشم الفزارى فشكاه الى عمر فأراد عمر أن يهشم أنف جبلة فقال « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك » فأجابه عمر « ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضله بشىء الا بالتقى والعافية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار (٣)

فيؤخذ من ذلك ان الجامعة الكبرى انما هى الاسلام ولكنهم كانوا يجعلون للعرب مزية على سواهم من الامم لانهم قوام الاسلام ، وأوصى عمر بن الخطاب بأهل البادية خيرا لانهم أصل العرب ومادة الاسلام (٤) وقال « اياكم واخلاق العجم ، والاسلام نهضة عربية جمعت العرب على العجم . وعمر أول خليفة فضل

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٤ ج ١
(٣) الاغانى ٤ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ٢٥ ج ٣

العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم، ومن أقواله «قبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله عز وجل وفتح الاعاجم» وفدى سبايا العرب من الجاهلية والاسلام الى أيامه (١) عملا بالحديث «لا سبأ فى الاسلام».

وكان عمر لا يدع أحدا من العجم يدخل المدينة (٢) وهو الذى قسم خيبر بين المسلمين وأخرج اليهود منها وقسم وادى القرى وأجلى يهود نجران الى الكوفة (٣) لتخلو جزيرة العرب من غير العرب. وكان كثير العناية بالجامعة العربية يوصى العرب بحفظ انسابهم لئلا تضيع عصبيتهم، ومن وصاياه «تعلموا النسب ولاتكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدكم عن أصله قال من قرية كذا» (٤).

الجامعة العربية

ثم ان عمر مع حرصه على الجامعة العربية واختصاص جزيرة العرب بها قد حرض العرب المسلمين على سكنى العراق والشام فقال «ليست الحجاز لكم بدار الا على النجعة. سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها» (٥) لعلمه ان فى العراق والشام عربا يتحدون معهم وينصرونهم. وكان عرب العراق ناقمين على الفرس من أيام دولتهم لما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد. وكانت ديانة عرب العراق والشام النصرانية ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين. وخصوصا عرب العراق فانهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس - فأبو زبيد الطائى حارب مع المسلمين فى واقعة الجسر حتى قتل وهو نصرانى وانما حارب حمية للعرب. وجاء المسلمين يوم واقعة البويب أنس بن هلال النمرى فى جمع عظيم من النمر وهم نصارى وقالوا «نقاتل مع قومنا» (٦) وكذلك فعل جماعة من تغلب وغيرهم حمية للجامعة العربية بقطع النظر عن الدين

وكثيرا ما كان عرب الشام والعراق عونا للمسلمين فى حروبهم يرشدونهم وينصحونهم ويحملون اليهم أخبار أعدائهم. فلما خرج الوليد بن عقبة غازيا للروم لقيه الروم فقاتلوه فجاءه رجل من العرب نصرانى وقال له «انى لست من دينكم ولكننى أنصحكم للنسب، فالقوم مقاتلوكم الى نصف النهار فان رأوكم

(١) ابن الاثير ١٨٦ ج ٢ (٢) المسعودى ٢٩ ج ١ (٣) ابن الاثير ٢٨٠ ج ٢
(٤) ابن خلدون ١٠٩ ج ١ (٥) ابن خلدون ١٢٢ ج ١ (٦) ابن الاثير ٢١٥ ج ٢

ضعفاء أفنوكم وان صبرتم هربوا وتركوكم » (١) وقد نفعته هذه النصيحة

ولم يكن عمر يجهل تلك الرابطة فحرض المسلمين على فتح الشام والعراق . ولما رأى ماكان من نصرة عرب العراق لهم عرف فضلهم فلما هم المسلمون بوضع الجزية على أهل الذمة وفى جملتهم عرب تغلب واياد والنمر وهم نصارى أبى هؤلاء الجزية وبلغ عمر ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم « انهم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعن عدوك عليك » فوافق ذلك ما فى نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه شرط عليهم ان لاينصروا أولادهم (٢)

كل ذلك محافظة على الجامعة العربية وكان يعد ذلك حقا واجبا . فلما سار الوليد بن عقبة لفتح العراق والجزيرة انضمت اليه عربها النصارى الا قبيلة اياد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغنى ان حيا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك فوالله لتخرجنه الينا أو لنخرجن النصارى اليك » فأخرجهم ملك الروم (٣)

الانسياح فى الارض

فعمر حرض العرب على فتح الشام والعراق توسيعا للجامعة العربية والاستعانة بها على الروم والفرس ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما وراءهما الا فى السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة وهو ما يعبرون عنه بالانسياح فى الارض . فكانوا يتطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر فاذا استأذنوه فى فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم كما وقع لعمرو بن العاص لما أراد فتح مصر وكان قد عرفها من أيام الجاهلية فلما فتحت الشام والعراق جاء الى الخليفة عمر ورغبه فى فتحها وقال له « انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى اكثر الارض أموالا واعجز عن القتال والحرب » فلم يجبه عمر ولما ألح عليه أطاعه وهو يتردد وقال له « سر انى مستخير الله فى سيرك وسيأتيك كتابى ان شاء الله تعالى فاذا أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف والا ان دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » فسار

(١) الاغانى ١٨٧ ج ٤ (٢) المعارف ١٩٣ (٣) ابن الاثير ٢٦٢ ج ٢

عمرو بجنده مسرعا خوفا من أن يأتيه كتاب الخليفة بالرجوع . فوصله كتابه فى بلد قرب العريش خارج حدود مصر فلم يفتح الكتاب حتى نزل العريش وهى من مصر ففض الكتاب واذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته ، أما بعد فان أدركك كتابى هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها ، واما اذا أدركك وقد دخلتها أو شيئا فى أرضها فامض واعلم انى ممدك » فمضى حتى فتح مصر

ولما فتح المسلمون الاهواز قال عمر « ليت بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون الينا ولا نصل اليهم » ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر . وكان اذا هم المسلمون بالنزول فى بلد أو انشاء معسكر فى البلاد المفتوحة أوصاهم ان لا يقيموا فى مكان يفصل بينه وبين المدينة (مركز الخلافة) ماء حتى اذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته مما يدل على رغبته فى العصبية العربية على أن يكون مركزها فى بلاد العرب . ومع ذلك فلما لم ير بدا من الانسياح فى الارض أذن لقواده بالفتح ، ولكنه ظل على رأيه فى القرشيين على الخصوص فحصرهم فى المدينة ومنعهم من الخروج وقال « أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم فى البلاد » فاذا جاء الرجل منهم يستأذنه فى الغزو اجابه « قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من غزوك اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك » كان يفعل ذلك بالمهاجرين من قريش فقط . فلما ولى عثمان خلى عنهم فلحق معظمهم بمعاوية فى الشام وانتشروا فى البلاد (١)

فسياسة عمر بن الخطاب فى أوائل دولته كانت تقضى ببقاء العرب محصورين فى جزيرة العرب وما يليها من الشام والعراق وان يختص قريشا بالاقامة فى المدينة لانها مركز الاسلام وهم أساسه ومنشأه ، على انه لم يستطع وقف تيار الفتح فلم ير بدا من الاذن فى الانسياح

فالعصبية التى قام بها الاسلام الجامعة العربية ، ولذلك كان اللفظان مترادفين فى ذلك الحين وخصوصا عند الامم التى خضعت لسلطان المسلمين فكانوا اذا قالوا العرب أرادوا المسلمين وبالعكس ولفظ « طيبوتا » عند السريان يدل على العرب

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٣ (٢) راجع الهلال الثانى من السنة ١٣

والمسلمين على السواء (٢) والفرق بين هذه الجامعة قبل الاسلام وبعده ان العرب كانوا فى الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الانساب فأصبحوا بالاسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب وتركوا ذكر الآباء والاجداد عملا بما يقتضيه روح الاسلام . وكانوا فى جاهليتهم يتفاضلون بالانساب فأصبحوا فى الاسلام يتفاضلون بالتقوى والجهاد فى سبيل الدين، فنشأت فيهم جامعات اسلامية فرعية لم يكن لها ذكر من قبل

طبقات عربية اسلامية

لما قام النبى بالدعوة الاسلامية احتاج الى من يسمع دعوته وينصره فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدقوه ونصروه وهاجر بعضهم الى الحبشة وهاجر الآخرون الى المدينة معه فعرفوا بالمهاجرين وهم أقدم الطبقات الاسلامية . ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم « الانصار » وهم طبقة أخرى والطبقتان معا تسميان « الصحابة » أى الذين صحبوا النبى أو عرفوه . وتفرع من الصحابة عصابات تعرف كل منها بجامعة خاصة لاحوال خاصة كان لها تأثير فى نصرة الاسلام أو نشره . فواقعة بدر كان لها شأن عظيم فى تأييد الاسلام فامتاز الصحابة الذين شهدوها عن سائر المسلمين ونسبوا اليها فيسموا « البدريين » أو « أهل بدر » وكذلك واقعة القادسية التى كانت عنوان فتح العراق وفارس فان الذين شهدوها عرفوا بأهل القادسية . وقد جعل المسلمون لكل من هذه الطبقات أو الجماعات امتيازات خاصة وفضلوا أهل بدر وأهل القادسية بالعطاء على سائر المسلمين

ويقال نحو ذلك فى من شهد فتح مكة أو سواها من الوقائع الاخرى التى كان لها شأن فى الاحزاب الاسلامية، كواقعة الجمل وواقعة صفين فان شيعة على يفضلون من رجالهم الذين شهدوا واقعة الجمل لانهم انتصروا فيها ويسمونهم « أصحاب الجمل » وشيعة بنى أمية يفضلون « أصحاب صفين » لمثل هذا السبب وقد زاد معاوية عطاء هؤلاء عن سائر أصحابه

على أن الصحابة يتفاضلون أيضاً فى السبق الى الهجرة أو الى البيعة ومنهم أصحاب بيعة العقبة وأصحاب الغار . والذين لهم صحبة قبل بيعة الرضوان

يفرقون عمن صاحب بعدها ونحو ذلك مما يطول شرحه . ناهيك بالمناصب التى اقتضتها الاحوال الدينية أو الادارية كالحفاظ والقراء والمؤلفة قلوبهم والعمال والقضاة والتابعين وتابعى التابعين وغيرهم

على ان عصبية النسب لم تذهب بعد الاسلام ذهابا تاما ولكنها تحولت الى وجهة دينية فاصبح أشرف الانساب عندهم أقربها الى قبيلة النبى (قريش) . فالنسب القرشى أشرف الانساب وللقرشيين التقدم فى المناصب والمراتب والعطاء وخصوصا بعد اشتهار الحديث « الائمة من قريش » (١) فاعتقدوا الفضل للقرشيين على الناس كافة فى كل شىء حتى فى أحوال الحياة والولادة فقالوا « لا تحمل لستين الاقرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية » (٢) وانه لا تكون بنت امرأة قرشية أمة (٣) وان القرشى لا يتزندق (٤) وانه لا ينبغى للقرشى ان يستغرق فى شىء من العلم غير الاخبار (٥) وظلت الرياسة فى قريش لا ينازعهم فيها منازع الى عهد غير بعيد

وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والانصار شأن خاص وحزب خاص ولا سيما فى أيام بنى أمية اذ ذهبت دهشة النبوة وعاد الناس الى عصبية الجاهلية فاختصم المهاجرون والانصار وتذكروا ما كان من العدنانية والقحطانية من التفاخر ـ والمهاجرون من العدنانية (مضر) والانصار من القحطانية (الاوس والخزرج) فعادوا الى المنافسة وغلب انحياز كل من الطائفتين الى أحد الاحزاب التى نشأت فى ذلك العهد فكان الانصار مع على ومعظم المهاجرين مع معاوية وعادوا الى المهاجاة والمفاخرة بالاشعار وغيرها

وكان الانصار أهل المدينة من أشجع الناس وهم أهل الشورى، يعقدون الامامة وحكمهم جائز على الامة وهم شيعة على وسائر أهل البيت . فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه فكان رجاله يكرهونهم ويسعون فى اذلالهم وكثيرا ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب ـ يروى ان بعض الانصار استأذنوا للدخول على معاوية فى ابان خلافته فدخل الحاجب وقال « هل تأذن للانصار » وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال « ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد الناس الى أنسابهم »

(١) العقد الفريد ٤٠ ج ٢ (٢) الاغانى ٨٨ ج ١٥ (٣) الاغانى ١١٠ ج ١٤
(٤) الاغانى ٦٠ ج ١٤ (٥) البيان للجاحظ ١٥١ ج ١

سياسة الخلفاء الراشدين

لم يكن للاسلام فى عصر الراشدين دولة سياسية بل هى خلافة دينية أساس أحكامها التقوى والرفق والعدل مما لم يسمع بمثله فى عصر من العصور . ورجل هذا العصر بل رجل الاسلام على الاطلاق « عمر بن الخطاب » ، فان مايروونه من أعماله وأحكامه يندر اجتماعه فى البشر ومناقبه مدونة فى الكتب ومشهورة . وأما أبو بكر فلا يقل عظمة عنه لولا قصر مدة حكمه ويكفيه من الاثر فى الاسلام قتاله أهل الردة اذ رجع الناس عن الاسلام بعد موت النبى فخاف المسلمون ذهاب دولتهم وهى لا تزال فى طفولتها فسمر ابو بكر عن ساعد الجد وقاتل المرتدين وأيد الدين ، وكذلك يقال عن على وعثمان

أبو بكر

وعصر الراشدين هو بالحقيقة عصر الاسلام الذهبى ومناقب الخلفاء الراشدين مشهورة بالزهد والتقوى والعدل . فقد أسلم أبو بكر وعنده من ماله اربعون ألفا وهى ثروة طائلة يومئذ أنفقها كلها فى سبيل الاسلام مع ما اكتسبه من التجارة . وكان له فى خلافته بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين ، ولما مات لم يجدوا فيه غير دينار . وكان منزله فى السنح بضواحى المدينة يغدو اليه على رجليه، ويندر أن يركب فرسه . فاذا جاء المدينة صلى فى الناس فاذا جاء العشاء عاد الى السنح . وكان مع ذلك يغدو كل يوم الى السوق يبيع ويبتاع وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج بنفسه فيها . وكان قبل الخلافة يحلب للحى أغنامهم فلما صار خليفة سمع جارية تقول « الآن لا يحلب لنا منائح دارنا » فقال « بلى لعمرى لأحلبنها لكم وانى لارجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه » . وبعد خلافته بستة أشهر تحول الى المدينة وقال « ما تصلح أمور المسلمين مع التجارة وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شؤونهم » فترك التجارة فصار ينفق من مال المسلمين ما فرضوه له ٦٠٠٠ درهم فى السنة . فلما حضرته الوفاة أوصى بقطعة أرض كانت له أن تباع ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين

عمر بن الخطاب

أما عمر بن الخطاب ففى أيامه فتحت البلاد وكثرت الغنائم وانصبت خزائن

كسرى وقيصر بين يدى رجاله ومع ذلك فانه كان من الزهد والتقشف بما ليس بعده غاية حتى قيل انه كان يقف للخطابة وعليه ازار مرقع بجلد . واذا انفق عطاءه واحتاج الى المال أتى صاحب بيت المال فاستقرضه على أن يؤديه من عطائه . وكان شديد الحرص على أموال المسلمين لاينفقها الافى مصالحهم ويتولى أمورهم بنفسه دينا وسياسيا فيسعى فى نشر الاسلام ويعلم العرب قواعد الدين فيطوف الاسواق ويقرأ القرآن ويحرض الناس على التقوى واذا حرضهم على شىء بدأ بنفسه . ووضع على من يشرب الخمر ثمانين ضربة وكان يبعث أناسا من القراء يعلمون أهل البادية القرآن ثم يبعث من يمتحنهم فمن لم يقرأ شيئا منه عاقبه بالضرب وربما فرط الضارب حتى يقتل المضروب (١) وكان شديدا على عماله وقواده يحاسبهم ويدقق فى استطلاع أحوالهم فمن رأى فيه اعوجاجا قومه لا يبالى من هو حتى خالد بن الوليد القائد الاسلامى الشهير فان عمر نقم عليه لامر يخالف قواعد التقوى فاستقدمه اليه ووبخه وهدده كأنه غلام وخالد لا يجيبه (٢) وقد يضرب عامله بالدرة أو يوبخه وليس فيهم من يرد فى وجهه أو يعترضه وكان شديد العقاب على من يشرب الخمر أو يطمع فى أموال المسلمين . ومع ذلك فقد كان يعامل الناس معاملة الاب لبنيه فيغديهم على موائد يجفن لهم فيها عشرة عشرة واذا غاب قواده تفقد بيوتهم وتعهد أهلهم بما يحتاجون اليه (٣) وكان عادلا فى الناس رفيقا بغير المسلمين . وكانت الدنيا فى أيامه مجمعة على الطاعة والناس يدخلون فى الاسلام أو يبقون تحت راية المسلمين عن رضى وراحة . كأنه كان قابضا على شؤون الدولة واعنة الحكومة بيد من حديد . فلما قتل تزعزعت أركانها ونقض كثير من أهل الامصار وخصوصا خراسان وسجستان (٤) وغيرهما من الاطراف البعيدة

عثمان بن عفان

وكان عثمان مثل سائر الخلفاء الراشدين لولا ضعفه واستسلامه الى بعض ذوى قرابته من بنى أمية حتى نقم عليه سائر المسلمين وخصوصا أهل المدينة لاسباب تقدم بيانها وقتلوه . فاتخذ بنو أمية قتله حجة لطلب الخلافة لانفسهم — على ان

(١) الاغانى ٥٨ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٧٤ ج ٢
(٣) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٤) ابن الاثير ٦٠ ج ٣

عثمان أول خليفة اقتنى المال لنفسه فقد ذكروا انه كان عند خازنه يوم مقتله ١٥٫٠٠٠ دينار و ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم وله ضياع بوادى القرى وحنين وغيرهما قيمتها ١٠٠٫٠٠٠ دينار، فضلا عما خلفه من الخيل والابل وفى أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الاموال (١) وتعودوا الغنى والترف فلما جاءهم على بعده بما كان عليه عمر من الزهد والتقشف اكبروه وساعدهم على التمنع قيام معاوية واطماعهم بالاموال وسيأتى بيان ذلك

على ابن أبى طالب

أما على فحكاياته فى الزهد والتقوى كثيرة وكان شديد التمسك بالاسلام حر القول والفعل لا يعرف الدهاء ولا يركن الى الحيلة فى شأن من الشؤون وانما همه الدين وعمدته فى أعماله الصدق والحق . فمن أمثلة تقشفه وزهده انه تزوج فاطمة بنت النبى وليس له فراش الا جلد كبش كانا ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحهما بالنهار ولم يكن عنده خادم يخدمه . وجاءه مال من اصبهان فى أيام خلافته فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة وكان يلبس قطيفة لا تقيه البرد . ورآه بعضهم يحمل تمرا فى ملحفته قد اشتراه بدرهم فقال له يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك فقال « أبو العيال أحق بحمله » ومن أقواله فى كيف يجب أن يكون المسلمون قوله «خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظمأ عمش العيون من البكاء » (٢) ومن أمثلة عدله أنه رأى درعا له عند رجل فتقاضيا الى شريح القاضى فوقف على بجانب خصمه احتراما للعدل . وكان اذا بعث رجاله فى حرب أوصاهم أن يرفقوا بالناس وأن يكفوا الأذى عن النساء

وكان شديدا فى محاسبة رجاله حرصا على العدل والحق كما كان يفعل عمر . ولو تولى أمور المسلمين فى زمن عمر والناس فى دهشة النبوة وصدق التدين لكان نصيبه من الحكم أطول ولما بدا فى تدبيره ضعف ولكنه تولاها وقد فسدت النيات وطمع العمال فى الاحكام وأطمعهم وادهاهم معاوية بن أبى سفيان فانه جمع الرجال حوله بالدهاء والحيلة والبذل وعلى يضيع الاحزاب بتدقيقه فى محاسبة عماله وقواده والمبالغة فى المحافظة على الدين وأسباب التقوى ففارقه جلة الصحابة حتى ابن عمه

(١) المسعودى ٣٠١ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٣

عبد الله بن عباس وكان عاملا له على البصرة فوشى به ابو الاسود الدؤلى الى على فكتب على الى ابن عباس بذلك ولم يذكر اسم الواشى فأجابه « أما بعد فان الذى بلغك باطل وانى لما تحت يدى لضابط وله حافظ فلا تصدق الظنين والسلام » فكتب اليه على « أما بعد فاعلمنى ما أخذت من الجزية ومن أين أخذت وفيما وضعت » فكتب اليه ابن عباس « أما بعد فقد فهمت تعظيمك مرزاة ما بلغك انى رزئته من أهل هذه البلاد فابعث الى عملك من أحببت فانى ظاعن عنه والسلام » واستدعى أخواله من بنى هلال بن عامر فاجتمعت معه قيس كلها فحمل مالا وقال « هذه أرزاقنا اجتمعت » فتبعه أهل البصرة الى مكة (١) ولم ينتفع على به ولا باحزابه ـ فلم يفعل على بابن عمه غير ما كان عمر يفعله بعماله ولكن الاحوال كانت قد تغيرت وقام معاوية يبتاع الاحزاب بالعطاء ويجتذب القواد بالدهاء

وزد على ذلك ان رجال عمر كانوا مثله غيرة وحمية وكانت لاتزال فيهم الاريحية والانفة وحرية البداوة والوفاء وجاء الاسلام فكمل الاسباب الباعثة عن الاتحاد والنهضة والقوة

على أن سياسة الراشدين على الاجمال ليست مما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وانما هى خلافة دينية توفقت الى رجال يندر اجتماعهم فى عصر والى أحوال يكفى منها الجامعة الاسلامية والحمية الدينية والانفة البدوية والاريحية العربية . فهذه كلها اجتمعت فى عصر واحد وتلاءمت فأتت بالعجائب فانتشر الاسلام وفتح العالم فى بضع عشرة سنة كما هو مشهور (٢) فأهل العلم بطبائع العمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك فى غير ذلك العصر العجيب وان انقلاب تلك الخلافة الدينية الى الملك السياسى لم يكن منه بد ـ سنة الله فى خلقه

انتشار العرب فى الأرض

قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام فى جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم وتأكيد العلائق بين منازلهم فحرضهم على فتح العراق والشام لعلمه بما هنالك من قبائل العرب فاذا انضموا الى عرب الحجاز واليمن

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٣ (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب

زادوا الاسلام قوة . ولكنه منعهم مما وراء ذلك وأمرهم اذا بنوا بلدا فى دار الفتح ان لا يبنوه فى مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية ان يزداد تباعد أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه فى استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبى، وعلى ان يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرار ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز . ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد فى منعهم اعتمادا على الحديث القائل « السكة (المحراث) ما دخلت دار قوم الا دخله الذل» (١) ولان الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب وهو يريد ان يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ولم تكن المدن التى بنوها فى صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط الا حصونا أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبى « ان لا يترك فى جزيرة العرب دينان » (٣) وان لا يأتى الحج أحد من المشركين (٤) فاخرجهم وتخلص من خطرهم اذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لاقلقوا الراحة وربما كانوا عونا لغير المسلمين كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

فكانت السياسة فى صدر الاسلام ان يبقى المسلمون فى بلاد العرب وضواحيها وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى اذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم، فكان عمر وهو فى المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا الى مجاراتهم واذن بانسياحهم فى الارض فتفرق العرب وفتحوا مصر وفارس وأفريقيا وغيرها . ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة فخرجوا وتفرق العرب فى الارض وانتشروا فى مصر والشام والعراق وفارس وما وراءها وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠٫٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حماية مملكتهم الجديدة واستغلالها وسكانها يزيدون على مئة مليون ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب (٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

الاستكثار بالتناسل

كانت العرب فى الجاهلية قليلة العدد بالقياس على ما صارت اليه بعد الاسلام . ذكروا ان أكبر جيش اجتمع فى الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل وهو جيش يوم الصفقة(١) والذين تجندوا للاسلام وقاموا بنصرته كانوا فى صدر الاسلام قليلين كما رأيت ومملكتهم الواسعة تحتاج الى رجال فعمدوا الى الاستكثار بالتناسل وهو من قواعد العصبية العربية من أيام الجاهلية . فان عبد المطلب جد النبى لما ظهرت قريش عليه نذر لله اذا رزقه عشرة من الولدان يبلغون ان يمنعوه ويذبوا عنه ، نحر أحدهم قربانا لله ، فجاءه عشرة أولاد فاشتد أزره بهم

فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم وما وقع فى أيديهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات استكثروا من أمهات الاولاد فضلا عن الزوجات فكثر تسلهم ـ والترف يزيد الدولة فى أولها قوة بكثرة النسل ـ وتسابقوا الى احراز الجوارى حتى ان بعضهم أحصن ثمانين امرأة معا كالمغيرة بن شعبة فقد جمع فى منزله أربع نسوة و٧٦ أمة (٢) فلا غرابة اذا ولد لاحدهم خمسون ولدا أو مئة ولد أو أكثر . ذكروا أنه وقع للارض من صلب المهلب ٣٠٠ ولد (٣) وخلف عبد الرحمن بن الحكم الاموى ١٥٠ ذكرا و٥٠ أنثى (٤) وخلف تميم بن المعز الفاطمى أكثر من مئة ذكر و٦٠ أنثى (٥) وكان لعمر بن الوليد تسعون ولدا منهم ستون يركبون الخيل (٦) وولد لابن سيرين ٣٠ ولدا من امرأة و١١ بنتا (٧) وقس على ذلك مما يطول شرحه، وفى التاريخ أدلة كثيرة على قيام الدولة بعصبية الملك من الاولاد والاخوة والاعمام كالعباسيين والايوبيين وغيرهم

انتشار العرب بالفتح

كان العرب فى الجاهلية محصورين فى جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحى الشام . فلما ظهر الاسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ونهضوا للفتح وأوغلوا فى البلاد وفتحوا الامصار ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانساحوا فى الارض حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف الكنج شرقا وشواطىء

(١) العقد الفريد ٧٨ ج ٣ (٢) الاغانى ١٤٣ ج ١٤ والمعارف ١٠٠ (٣) ابن خلكان ١٤٧ ج ٢ (٤) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٥) ابن خلكان ٩٩ ج ١ (٦) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢ (٧) ابن خلكان ٤٥٣ ج ١

البحر الاتلانتيكى غربا وضفاف نهر لوار شمالا وأواسط افريقيا جنوبا وملأوا الارض فتحا ونصرا واحتلوا مدائن كسرى وقيصر وأقاموا فى المدن واركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف واختلطت أنسابهم بتوالى الاجيال وضعفت عصبيتهم فضاعت سلطتهم. والقبائل التى قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية. واليك أسماء القبائل التى مهدت قواعد الدولة الاسلامية ونشرت الدين الاسلامى بالفتح من أول الاسلام :

من العدنانية		من القحطانية	
مضر	ربيعة	كهلان	حمير
قريش	تغلب بن وائل	الاوس والخزرج	قضاعة وبطونها
كنانة	بكر بن وائل	غسان	كلب
خزاعة	شكر	الازد	سليح
أسد	حنيفة	همدان	تنوخ
هذيل	عجل	خثعم	بهراء
تميم	ذهل	بجيلة	عذرة
غطفان	شيبان	مذحج	وغيرها
سليم	تيم الله	مراد	
هوازن	النمر بن قاسط	زبيد والنخع	
ثقيف	وغيرها	الاشعريون	
سعد بن بكر وعامر		لخم وكندة	

على ان هذه القبائل لم تكن فى أوائل الفتح تنزل القرى وتختلط بالناس بل كانت رابطة ثم اختلطوا وتفرقوا فى الارض وأنفقتهم الدولة الاسلامية العربية فنبا منهم الثغور القصية واكلتهم الاقطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع وضاعت أنسابهم بتوالى الاجيال حتى خرجت الدولة من أيديهم

انتشار العرب بالمهاجرة

على ان انتشار العرب فى الارض لم يكن بالفتح فقط ولكنهم تفرقوا أيضا بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم التماسا لسعة العيش فى البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام فى صدر الاسلام لان أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى (١) وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون بها الى مصر والشام يسمونها أعوام الجلاء (٢) وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام اذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم (٣) خوفا من الذل فى سلطان دولة أعجمية . أما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم فى بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم وغرسوا عيها أعلامهم وجعلوها فيئا لهم

على ان الغالب فى نزوح العرب من أحيائهم وأنجاعهم الى المدن أو اكنافها ان يكون بايعاز بعض الخلفاء أو الامراء وخصوصا بعد رجوع العرب الى عصبية النسب بين قحطان وعدنان أو مضر وقيس فى عهد الدولة الاموية . فكان الامير أو الخليفة اذا تولى بلدا وخاف على سلطانه من أمير آخر ذى عصبية أخرى استقدم جماعة من قبيلته أو من ينتمى اليها بالحلف ونحوه يسكنهم فى ضواحى بلده لاستنصارهم عند الحاجة فيطلق لهم المرعى ويفرض لهم العطاء كما حدث فى ولاية الوليد بن رفاعة على مصر فى خلافة هشام بن عبد الملك الاموى وكان هشام يقرب قبيلة قيس (العدنانية) لانهم نصروه وأيدوا خلافته ولم يكن منهم فى مصر الا بعض البطون ، وقيس قبيلة كبيرة تحتها عدة قبائل وبطون وأفخاذ ، وأول من نبه هشام الى نقلهم ابن الحبحاب فانه وفد عليه فسأله ان ينقل الى مصر منهم أبياتا فأذن له فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر أى ان يقبضوا رواتبهم من حكومة مصر على ان لا ينزلهم فى الفسطاط فأنزلهم فى الحوف الشرقى (الشرقية والدقهلية) ولا سيما فى بلبيس وأمرهم بالزرع (٤) ثم تقاطروا بعد ذلك وتكاثروا فيها

(بنو سليم وبنو هلال) وقد يكون الباعث على استقدامهم وتحضيرهم رغبة

(١) الاغانى ٦ ج ١٣ (٢) الاغانى ٤٧ ج ١١
(٣) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٢ (٤) المقريزى ٨٠ ج ١

الامير أو الخليفة فى التخلص من شرهم كما فعل العزيز بالله الفاطمى ببنى سليم وبنى هلال وهما بطنان من مضر كانوا الى زمن العزيز المذكور فى القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية ، محلاتهم وراء الحجاز مما يلى نجد ، بنو سليم من جهة المدينة، وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف. فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام فيغيرون على الضواحى ويفسدون السابلة وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة . ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم وعاثوا فى البلاد وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم . فلما أفضت خلافة مصر الى العزيز بالله الفاطمى كان القرامطة قد تغلبوا على الشام فانتزعها العزيز منهم وردهم الى قراهم فى البحرين ونقل أشياعهم من بنى هلال وسليم وانزلهم بالصعيد فى العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك وكان لهم اضرار فى البلاد والخلفاء يدارونهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم . فاتفق بعد سنين أن عامل الفاطميين فى افريقية شق عصا الطاعة وبايع للدولة العباسية وقطع اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة والطراز والرايات فعظم الامر على الخليفة بالقاهرة وهو يومئذ المنتصر بالله فأشار عليه وزيره الحسن بن على أن يقرب اليه أحياء هلال وسليم المذكورين ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال افريقية ويرسلهم لاستلام أمورها فاذا فازوا كانت احدى الحسنيين والا فانه يتخلص من شرهم . فبعث الخليفة وزيره الى هذه الاحياء سنة ٤٤١ هـ وحرضهم على الذهاب الى المغرب وتملكه ففرحوا واجازوا النيل وساروا برا الى برقة ففتحوها. ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعا فى الكسب وأصبحت افريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين فاقتسموا البلاد فيما بينهم (١).

وقس على ذلك ما كان من انتقال العرب المسلمين الى الاندلس بعد اتمام فتحها اذ صرف عرب الشام وغيرهم الهمم الى الحلول بها لخصبها وطيب هوائها . فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم وفيهم قبائل من العدنانية والقحطانية (٢) وكل قبيلة كانت تنزل البلد الذى يشبه بلدها باقليمه ومرعاه . ناهيك بما كان ينتقل من القبائل أو البطون فى أثناء الحروب فى عصر الامويين للنجدة أو نحوها

(١) ابن خلدون ١٤ ج ٦ (٢) نفح الطيب ١٣٧ ج ١

العبيد والموالى فى الاسلام

للعبيد والموالى شأن كبير فى الدولة الاسلامية وقد اثروا فى سياستها وجندها وفى سائر أحوالها من العلم والادب والفقه فلا غرو اذا أفردنا للكلام عنهم فصولا خاصة

الرق فى الاسلام

قلنا ان الاسترقاق عند العرب الجاهلية كان اكثره بالاسر أو الشراء وأما فى الاسلام فأكثر الاسترقاق بالاسر وخصوصا فى أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع فى أيديهم من الاسرى . فاذا غلبوا جندا أو فتحوا بلدا أسروا رجاله وسبوا نساءه واطفاله واقتسموا الاسرى والسبايا والغنائم وهى كثيرة ربما زاد عدد الاسرى فى المعركة الواحدة على عشرات الالوف فيختمون أعناقهم ويقتسمونهم على الاسهم وقد يصيب الفارس من العرب مئة أسير ومئة جارية فى واقعة واحدة فيجتمع عند بعضهم بتوالى الايام ألف عبد أو اكثر (١) وهم عند الامراء أكثر مما عند غيرهم وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الراشدين . على أن الخليفة عثمان كان عنده ألف عبد (٢)

والغالب فى الاسرى اذا كانوا كثارا أن يباعوا بالجملة قبل تفريق الاسهم فينادون على الاسير بمئة درهم وأقل أو أكثر وربما اقتضى لبيع أسرى معركة واحدة عدة أشهر . ومن أكثر الفتوح أسرى وغنائم فتوح الاندلس فقد ذكروا انهم ظلوا يبيعون الاسرى والغنائم بعد معركة هناك ستة أشهر (٣) وتكاثرت الاسرى على المسلمين بعد واقعة عمورية حتى نادوا على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة للسرعة (٤) وكثرت الاسرى والغنائم عليهم فى واقعة ارك بالاندلس حتى بيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم (٥)

على انهم كانوا يعدون البلد المفتوح عنوة ملكا للفاتحين بما فيه من الناس والدواب والبساتين والانهار والاشجار وقد تمسك بنو أمية بذلك وبالغوا فيه

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ (٢) الدميرى ٤٩ ج ١ (٣) نفح الطيب ٢١٣ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٩٩ ج ٦ (٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١

كقول سعيد بن العاص « السواد بستان قريش » وقول عمرو بن العاص لصاحب خربتا « ان مصر فتحت عنوة وأهلها عبيدنا ندير عليهم كيف شئنا » (١).

والغالب فى عامة الجند من المسلمين أن يبيعوا أسراهم ويحرزوا أثمانهم لعجزهم عن القيام بمعاشهم فلم يكن يستبقى الاسرى فى حوزته عبيدا الا الامراء حتى يفتديهم أهلهم أو يعتقهم هو لسبب من الاسباب.

ومن مصادر الرقيق فى الاسلام غير الاسر ان بعض العمال وخصوصا فى افريقية وتركستان ومصر كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق (٢) وكان بعض أهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقا من أولادهم (٣) غير ما كان يقع فى أيدى المسلمين من الرقيق الاصلى فى جملة الغنائم

أما أحكام الاسرى فى الاسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء : اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال أو أسرى ، واما المن عليهم بغير فداء ، فان اسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره فى أحد الثلاثة الباقية (٤) فكانوا يتصرفون فى ذلك على ما تقتضيه الاحوال

ومن ملك رقيقا بالاسر أو الشراء أو غير ذلك كان مخيرا فى إستبقائه أو بيعه أو المن عليه بالعتق ومن اعتق عبدا صار مولاه . وللعتق اسباب كثيرة أهمها فى الاسلام اظهار التقوى أو الغيرة على الدين فاذا أسلم العبد واظهر التقوى اطلقه سيده ، فقد اعتق عبد الله بن عمر بن الخطاب على هذه الصورة ألف عبد (٥) واعتق محمد بن سليمان ٧٠٠٠٠ مملوك ومملوكة . وقد يعتقونهم فداء عن يمين أو وفاء لنذر أو التماسا للثواب أو شكرا لله على نعمة أو نحو ذلك . وكان بعض أهل الورع يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله . واقسم عمر بن أبى ربيعة لما أسن ان لا يقول بيت شعر الا اعتق رقبة وقد نظم وبر بقسمه غير مرة (٦)، وكانوا يعتقون العبيد ترغيبا لهم فى الجهاد كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المرى صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك فى واقعة الشعب لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل فصاح فى العبيد « أى عبد قاتل فهو حر » فقاتل العبيد قتالا اعجب

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٢ (٢) المقريزى ٣١٣ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٣ ج ٣
(٤) الماوردى ١٢٥ (٥) ابن خلكان ٢٤٧ ج ١ (٦) الاغانى ٦٤ ج ١

منه الناس وانهزم الاعداء (١) وكثيرا ما كانوا يرغبون العبيد فى نصرة الاسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق كما فعل النبى يوم حصار الطائف اذ قال « كل عبد نزل الى فهو حر » (٢) وكما فعل المسلمون فى بعض البلاد التى فتحوها فكانوا يعدون عبيدها بالعتق اذا سلموا فيدخل بعضهم فى الاسلام على نية ان يرجعوا عنه بعد ذهاب الحرب ولكنهم لما أرادوا ذلك عدهم المسلمون مرتدين فحل حربهم

على ان الاسلام جاء رحمة للارقاء فأوصى النبى بهم خيرا بقوله « لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون واطعموهم مما تأكلون » (٣) وقال « لا يقل أحدكم عبدى وامتى وليقل فتاى وفتاتى »

وفى القرآن «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » والاسلام من الجهة الاخرى يحرض العبيد على التقوى وحسن العبادة (٤) وقد اختص العرب المسلمين بالنجاة من الرق والسبى بقوله « لا سبأ فى الاسلام ولا رق على عربى فى الاسلام » ومن أحكام العبيد عندهم أن يعاملوا معاملة نصف الحر فالعبد اذا أذنب ضرب نصف ما يضرب الحر (٥) واذا أحسن كانت جائزته لمولاه ، والاسرى الذين يقعون فى أيدى العرب بالفتوح من أهل البلاد المفتوحة فيهم النصرانى واليهودى والمجوسى والصابى والسامرى وغيرهم . فهؤلاء اما ان يفتديهم أهلهم أو يبيعهم المسلمون لبعض تجار الرقيق أو يستبقوهم فى خدمتهم لقضاء حاجات المنازل أو رعاية الابل أو الماشية أو لبرى القسى ورمى النبل أو جمع النبال المتساقطة وقت القتال أو لرواية الشعر أو حفظ القرآن أو الحديث أو غير ذلك. فكانت قيمة العبد تختلف باختلاف نوع صناعته ، فالعبد الذى لا يعرف صناعة يساوى مئة دينار فاذا كان راعيا للابل يحسن القيام بها يقدرون قيمته بـ٢٠٠ دينار فاذا كان عارفا بصناعة النبال والقسى يباع باربعمئة دينار فاذا كان يحسن رواية الشعر صارت قيمته ٦٠٠ دينار . تلك أثمان العبيد فى أواسط دولة بنى أمية (١)

(١) ابن الاثير ٧٨ ج ٥ (٢) المعارف ٩٧ (٣) المقريزى ١٣٧ ج ١
(٤) البخارى ٥٩ ج ٢ (٥) الاغانى ١٥٢

وأما القن فهو العبد الذى يشتغل فى الارض وهو خاص بالقرى ويسمى المزارع المقيم « فلاحا فرارا » فاذا أقطعت أرضه أو بيعت لاحد أو دخلت فى ملك أحد بالفتح أو غيره كان الفلاح تبعا لها وصار « عبدا قنا » الا انه لا يرجو أن يباع أو يعتق ولا يستطيع مولاه ذلك لو أراده بل هو قن ما بقى حيا وكذلك أولاده بعده فانهم يكونون عبيدا لمالك الارض أو مقتطعها وقد أشرنا اليه فى كلامنا عن العبيد فى الجاهلية

الموالى فى الاسلام

والباقون فى الاسر اذا اعتنقوا الاسلام نجوا من الرق غالبا اذ يغلب أن يعتقوهم مكافأة لهم ومن اعتق منهم صار مولى ولذلك كان الموالى من المسلمين غير العرب استنكافا من استرقاق المسلم ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربى فاذا قالوا الموالى أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوسا أو ذميين واعتنقوا الاسلام أو كانوا ممن لازم العرب أو التجأوا اليهم ويسمونهم « الحمراء » فاذا قالوا « الحمراء » أرادوا الموالى . والحمراء فى القاموس العجم وهم كل من سوى العرب

وأصبح الموالى فى الاسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية كان لها شأن عظيم فى تاريخ الاسلام ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية لقول النبى « مولى القوم منهم » (٢) وقوله « من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٣) وأهل الرجل عند العرب الموالى والذرارى . ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه لانه لم يعتقه الا حبا به والمولى يعد عتقه منة لمولاه عليه فيترك نسبه الى أهله وينتسب الى مولاه فيقال فلان مولى فلان ولا يقال ابن فلان . أو ينتسب الى قبيلته فيقال مثلا ابن سريج مولى بنى نوفل ومحرز مولى عبد الدار وحكم الوادى مولى الوليد بن عبد الملك وابن عباد مولى بنى مخزوم وقس عليه . ولذلك كانت رابطة المولى بمولاه وثيقة وخصوصا فيمن يعيش من

(١) الاغانى ١٣٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ١١١ ج ٢

(٣) ابن هشام ٧٧ ج ٣ والبيان ١٦٤ ج ١

الموالى فى بيت مواليهم ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه حتى اذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم

وللموالى فضل كبير فى الاسلام لان معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء واكثر التابعين منهم لاشتغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة (١) ومعظم الموالى الذين خدموا العرب فى صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم فى فارس وغيرها واكثرهم غلمان كانوا فى جملة السبى فربوا فى الاسلام ونبغوا فيه أو نبغ أولادهم ـ منهم أربعون غلاما كانوا يتعلمون الانجيل فى عين التمر لما فتحها خالد بن الوليد فغنمهم وبعثهم الى أبى بكر بالمدينة ففرقهم فى أهل البلاد من جملة الغنائم فاعتنقوا الاسلام وأعتقهم مواليهم فنبغ من أولادهم جماعة كانوا عونا كبيرا للمسلمين فى السياسة والحرب والعلم والدين منهم موسى ابن نصير فاتح المغرب والاندلس فان أباه منهم. وحمران مولى عثمان بن عفان (٢) وأيضا محمد بن اسحق صاحب المغازى والسير فان جده يسار منهم (٣) وقس على ذلك سائر مشاهير الموالى الذين أصلهم من السبى فى أثناء الفتح أو بعده

فأبو صفر من سبى دبا فى أيام أبى بكر وحماد الراوية أصل أبيه ديلمى من سبى مكنف بن زيد الخيل (٤) وسائب خاثر أصله من فيء كسرى ، ومروان بن أبى حفصة الشاعر الشهير أصله يهودى من سبى اصطخر (٥) والهروى اللغوى المشهور أسير وقع فى سهم عرب نشأوا فى البادية (٦) وابن الاعرابى سندى الاصل وابو دلامة كوفى أسود كان عبدا لرجل من بنى أسد فأعتقه (٧) وقل نحو ذلك عن سائر حملة العلم فى الاسلام (راجع الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ٤٧)

وقد يكون المولى من أصل رفيع واسترقه الاسر ولم يتوفق له الفداء فان بعض موالى المنصور من أولاد المرازبة (٨) وابو على بن بذيمة الذى يروى عنه وأبو زهير جد المطلب بن زياد أصلهما من أبناء الاكاسرة وقعا فى الاسر يوم المدائن فأهداهما سعد الفاتح الى سمرة بن جنادة الصحابى فأعتقهما ابنه جابر (٩). وانتقى

(١) الجزء الثالث من هذا الكتاب (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١ والمعارف ١٦٨ (٤) المعارف ١٨٣ (٥) الاغانى ٣٦ ج ٩ (٦) ابن خلكان ٥٠١ ج ١ (٧) الاغانى ١٢٠ ج ٩ (٨) الاغانى ٨٢ ج ٢٠ (٩) المعارف ١٠٣

أبو موسى الاشعرى ستين غلاما من أولاد الدهاقين من سبى بيروذ بفارس وفرق بعضهم فى المسلمين غير الذين افتداهم أهلهم (١)

وكان للخلفاء والامراء ثقة كبرى بمواليهم يعهدون اليهم بكل شؤونهم فأكثر حجاب الخلفاء الراشدين من مواليهم لا فرق فى أن يكون أصلهم فارسيا أو ديلميا أو حبشيا أو روميا فموالى أبى بكر أولهم بلال بن رباح كان عبدا حبشيا لرجل من مكة اشتراه ابو بكر بخمس أواق واعتقه . وهو أول من أذن فى المدينة وكان له مقام رفيع فى الاسلام وكذلك عامر بن فهيرة وأبو نافع ومرة بن أبى عثمان وغيرهم (٢) وقس على ذلك موالى عمر وعثمان وعلى وغيرهم من الخلفاء وكبار الصحابة . وكلهم يستهلكون فى سبيل مواليهم لاعتقادهم الفضل لهم عليهم وفى التاريخ شواهد كثيرة من هذا القبيل على اختلاف الاعصر ـ من ذلك ان محمد ابن يزيد المهلبى لما نشبت الفتنة بين الامين والمأمون كان هو من حزب الامين وأراد أن يحفظ له الاهواز من أصحاب طاهر بن الحسين قائد جند المأمون فباغته طاهر بجنده قبل أن يتحصن وضايقه فالتفت المهلبى المذكور الى مواليه وقال لهم « ما رأيكم . . انى أرى من معى قد انهزم ولست آمن خذلانهم ولا أرجو رجعتهم وقد عزمت على النزول والقتال بنفسى حتى يقضى الله بما أحب فمن أراد الانصراف فلينصرف فوالله لان تبقوا أحب الى من أن تموتوا » فقالوا « والله ما انصفناك اذن، تكون قد اعتقتنا من الرق ورفعتنا من الضعة وأغنيتنا بعد القلة ثم نخذلك على هذا الحال فلعن الله الدنيا والعيش بعدك » ثم نزلوا فعرقبوا دوابهم واستقتلوا بين يديه (٣)

على أن المولى لا يزال أحط مقاما من العربى . وكان الموالى فى صدر الأسلام يتولون كثيرا من مصالح الدولة التى تفتقر الى امانة وثقة فضلا عن العلم والدين ولهم الرواتب السنية (٤) لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التى تحتاج الى شرف وعصبية كالقضاء مثلا فانهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم . فان عمر بن عبد العزيز لما أراد ان يولى مكحولا القضاء أبى وقال : « قال النبى لا يقضى بين الناس الا ذو الشرف فى قومه وأنا مولى » (٥)

(١) ابن الاثير ٢٣ ج ٣ (٢) المعارف ٥٨ (٣) ابن الاثير ١٠٦ ج ٦
(٤) الاغانى ١٦٣ ج ١٠ (٥) العقد الفريد ٨ ج ١

سياسة الدولة فى عصر الامويين

من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ

قد رأيت مما تقدم ان سياسة الدولة فى أيام الراشدين انما كان قوامها الجامعة العربية وعمادها العدل والرفق والاريحية ففتحوا العالم وأسسوا الدولة الاسلامية وأخضعوا معظم المعمور فى بضع وعشرين سنة ووجهتهم دينية وسلاحهم التقوى والحق والعمل بالكتاب والسنة وغايتهم نشر الدين والتماس الثواب فى الآخرة وحكومتهم بالانتخاب والشورى، وسترى فى سياسة بنى أمية ما يخالف ذلك من كل الوجوه

انتقال الخلافة الى الأمويين

لما طمع بنو أمية فى الخلافة كانت قد أفضت الى على بن أبى طالب صهر النبى وابن عمه والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها لقرابته من النبى وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته فى الاسلام وفضله فى تأييده . فتصدى له معاوية بن أبى سفيان وكان أبوه واخوته من أشد الناس مقاومة للاسلام عند ظهوره ولم يسلموا الا بعد فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة وانما أقدموا على ذلك مضطرين لما رأوا الاسلام قد تأيد فى جزيرة العرب ولم يبق سبيل الى مقاومته

وكان ابو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة وقد حارب النبى فى عدة أماكن وجاهر بعداوته وطعن فيه. فلما ظفر المسلمون فى غزواتهم واشتد ازرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون . فلقيهم العباس عم النبى فقال له ابو سفيان وقد اسقط بيده « لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيما » فأشار عليه العباس أن يستأمن فلم ير له حيلة فى غير ذلك فاستأمن ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الاسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية وقد تألفهم النبى بالعطاء ليثبتوا فى اسلامهم (١)

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

المنافسة بين أمية وهاشم

والسبب فى طلب معاوية للخلافة متصل بالجاهلية . وذلك أن بنى عبد مناف هم أشرف بطون قريش واكثرهم عددا وقوة وهم فخذان بنو أمية وبنو هاشم ، وكان بنو أمية أكثر عددا من بنى هاشم وأوفر رجالا ، وكان لهم قبل الاسلام شرف معروف انتهى الى حرب بن أمية والد أبى سفيان وجد معاوية . وكان حرب المذكور رئيسهم فى واقعة الفجار قبل الاسلام وله جاه وشوكة فى الفخذين جميعا . فلما جاء الاسلام والنبى من بنى هاشم شق ذلك على بنى أمية وكانوا من أقوى الساعين فى مقاومته فلم يفلحوا . ولكنهم حملوا النبى على الفرار من مكة الى المدينة وقد نصره الانصار هناك وهم من القحطانية حتى استتم له الامر وقد مات عمه أبو طالب وهاجر بنوه مع النبى الى المدينة . ثم لحقهم أخوه حمزة ثم العباس وغيره من بنى عبد المطلب وسائر بنى هاشم فخلا الجو لبنى أمية فى مكة واستغلظت رياستهم فى قريش وزادت سطوتهم بعد واقعة بدر اذ هلك فيها عظماء قريش من سائر البطون . فاستقل أبو سفيان بشرف أمية بمكة والتقدم فى قريش وكان رئيسهم فى واقعة أحد وقائدهم فى واقعة الاحزاب وما بعدها . فلما استفحل أمر المسلمين وفتحوا مكة واستأمن ابو سفيان كما تقدم رأى النبى من حسن السياسة ان يمن على قريش كافة بعد أن ملكهم بالفتح عنوة فمن عليهم وأطلق سبيلهم وقال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وفيهم معاوية فأسلموا جميعا

فلما مات النبى وتولى الخلافة أبو بكر جاء القرشيون ومعظمهم من بنى أمية وشكوا اليه ما وجدوه فى أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين والانصار فقال لهم أبو بكر « لقد جئتم الاسلام متأخرين فأدركوا اخوانكم فى الجهاد » فجاهدوا فى حروب الردة . ولما تولى عمر بن الخطاب أدرك ما فى نفوسهم فخاف بقاءهم فى المدينة فرمى بهم الروم ورغبهم فى الشام فاستعمل يزيد بن أبى سفيان عليها فانتقل معه سائر قريش واستطابوا فاكهة الشام فاقاموا فيها حتى توفى يزيد المذكور فولى عمر مكانه أخاه معاوية . ولما تولى عثمان سنة ٢٣ هـ أقر معاوية على الشام فاتصلت رياسة بنى أمية على قريش فى الاسلام كما كانت فى الجاهلية وبنو هاشم مشتغلون بالنبوة وقد نبذوا الدنيا

معاوية وعلى

وكان بنو أمية ينظرون الى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك . فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بنى أمية ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية . وكان عثمان ضعيفا يؤثر ذوى قرابته فى مصالح الدولة فاغتنم الامويون ضعفه وتولوا الاعمال واستأثروا بالاموال فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه وقتلوه

فاتخذ الامويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ورئيسهم معاوية بن أبى سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش . وكان أهل المدينة قد بايعوا على بن أبى طالب وجمهورهم الانصار فأصبح المسلمون يومئذ حزبين رئيسيين (١) الانصار ويريدون الخلافة لأهل بيت النبى جريا على نصرتهم اياه يوم هجرته (٢) قريش فى الشام ويطلبونها لمعاوية ابن زعيمهم فى الجاهلية . وجمهور الصحابة يرون الحق لعلى فلم ير معاوية سبيلا الى نيل بغيته الا بالدهاء والتدبير وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع فنظر فى الامر نظر رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة فى كل عصر بلا علاقة بالدين وقد ساعده على ذلك ان خصمه عليا كان يعتبر الخلافة منصبا دينيا وهو زاهد فى الدنيا لا مطمع له فى غير الثواب والحسنى . وان رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ونسوا دهشة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم . فاثمرت مساعى معاوية فى اصطناع الاحزاب بقاعدة ذكرها فى حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص فقال معاوية « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » فقال « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين » قال « ان هم شدوا ارخيت واذا أرخوا شددت »

فأول شىء فعله معاوية انه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدهم المؤرخون أدهى رجال العرب ومعاوية ادهاهم جميعا وهم عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ولولاهم لم يستتب له الامر لان ابن العاص احتال فى نجاته من واقعة صفين بعد ان كادت الدائرة تدور عليه اذ ظهرت جيوش على على جيوشه فأشار عليه عمرو بن العاص ان يرفع المصاحف لايقاف الحرب ثم أشار بالتحكيم وخدع أبا موسى الاشعرى نائب على فى ذلك التحكيم فخلع عليا وبايع معاوية .

ونال عمرو فى مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر (١) وزياد بن أبيه رجل لا يعرف له أب فلما رأى معاوية دهاءه قربه منه وادعى أنه أخوه واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبى سفيان فى حديث طويل ذكرنا خلاصته فيما تقدم . واستلحاق زياد أول عمل ردت به اعلام الشريعة الاسلامية علانية(٢) وكان زياد عونا كبيرا لمعاوية فى حفظ العراق وفارس . أما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب الزيوف فى الاسلام وأول من رشى (٣) وهو الذى حرض معاوية على مبايعة ابنه يزيد وجعل الخلافة وراثية فى نسله وساعده على ذلك

فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والاطماع فاطعم ابن العاص مصر واطعم المغيرة فارس وجعل زيادا أخاه وكان يتساهل فى محاسبة عماله ويغضى عن سيئاتهم (٤) ويبالغ فى اكرامهم ، ولو رأوا من على بعض ذلك لكانوا معه ولكن عليا كان دقيقا فى محاسبتهم متصلبا برأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره ـ كذلك كان يفعل أبو بكر وعمر ولكن المسلمين كانوا فى أيامهما لا يزالون فى ابان الحمية الدينية والاريحية العربية ينصاعون لاوامر خليفتهم بكلمة ولذلك عدوا تصرف على ضعفا منه . فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد أن كانوا معه وأولهم المغيرة بن شعبة فهذا جاء عليا يوم بويع ومعاوية واقف له بالمرصاد فأشار عليه أن يحاسن معاوية ولا يعزله عن عمله فى الشام ريثما يستتب له الامر فيعزله اذا شاء . فلم يطعه على فعاد اليه فى اليوم التالى وخادعه وأشار عليه أن يعزل معاوية ويفعل كما يشاء ثم انحاز المغيرة الى معاوية وصار من أكبر انصاره

وقس على ذلك تصرف على مع ابن عمه عبد الله بن عباس وكيف كدره واخرجه من حوزته بتدقيقه كما تقدم . ولما قتل على خلفه ابنه الحسن فرأى نفسه عاجزا عن منازلة معاوية فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها . وسار بنو أمية بعده على خطته وسار العلويون على خطة على وكان الفوز دائما لاهل الدهاء فقضى العلويون معظم أيامهم خائفين شاردين ومات اكثرهم قتلا مع انهم أهل تقوى ودين وحق وأولئك فى الضد من ذلك ـ مما يدلك على ان

(١) المقريزى ٣٠٠ ج ١ ـ (٢) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٣ (٣) المعارف ١٨٩
(٤) ابن الاثير ٢٦٠ ج ٣

السياسة والدين لا يلتحمان الا نادرا وما التحامهما أيام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها . على أننا لا نعد دولة الراشدين حكومة سياسية وانما هى خلافة دينية

رغبة بنى أمية فى السيادة

ان المحور الذى كانت تدور عليه سياسة بنى أمية والغرض الذى كانوا يرمون اليه انما هو احراز الخلافة والرجوع الى السيادة التى كانت لهم فى الجاهلية بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية الى ذلك أو وخامة الاسباب التى تمسكوا بها . وقد فازوا بغايتهم فاتسعت المملكة الاسلامية فى أيامهم واشتدت شوكتها ما لم تبلغ اليه دولة العباسيين بعدها (١) وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد، وكان أشدهم فتكا عبد الملك بن مروان يقول «لا يجتمع فحلان فى اجمة» (٢)

فرغبة بنى أمية فى السلطة على هذه الصورة مع وجود من هو أحق منهم بها جرهم الى ارتكاب أمور آلت الى توجيه المطاعن اليهم . وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة فى أيامهم بشيئين : العصبية القرشية ، واصطناع العصبيات أو الاحزاب الأخرى وهما أساس كل ما ظهر من سياسة بنى أمية كما سترى

العصبية العربية فى عصر الأمويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية فى الجاهلية بين القبائل بحسب الانساب فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الاسلام أو الجامعة الاسلامية وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية بالملك وقبضوا على أزمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة فى سياستهم مع ذهاب مناقب البدو التى ذكرناها . وانما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم « قريش » وايثار

(١) الفخرى ٢٥ (٢) ابن الاثير ٩١ ج ٦

أهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الاسلام وخصوصا أهل البصرة والكوفة والشام لان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم فى قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر ابن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه فى الجاهلية

بدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش حسدا لهم كما ذكرنا والاستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء ـ الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية أو العدنانية ـ وأول خلاف وقع بين المسلمين من هذا القبيل حدث فى أيام عثمان ـ ذلك ان سعيد بن العاص لما ولاه عثمان الكوفة اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة لمجالسته فكانوا يسمرون عنده وفيهم جماعات من كل القبائل . وكان بنو أمية وغيرهم من الصحابة قد أخذوا فى امتلاك العقار وبناء المنازل وبنو أمية أطول باعا يومئذ فى ذلك لقرابتهم من الخليفة . فاتفق فى احدى مسامراتهم عند سعيد بن العاص ان بعضهم ذكر جود طلحة بن عبيد الله أحد كبار الصحابة فقال سعيد « ان من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادا ولو كان لى مثله لاعاشكم الله به عيشا رغدا» والنشاستج ضيعة فى الكوفة كانت لطلحة وهى عظيمة كثيرة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها (١)

فلما قال سعيد ذلك قام غلام من الحضور فقال له « لوددت ان هذا الملطاط لك » والملطاط ما كان للاكاسرة على جانبى الفرات مما يلى الكوفة . فنهض بعض الحاضرين من غير قريش وانتهر الغلام فاعتذر أبوه عنه وقال « غلام فلا تجازوه»

(١) ياقوت ٧٨٣ ج ٤

فقال « كيف يتمنى له سوادنا » أى سواد العراق . فقال سعيد « السواد بستان قريش » وكان الاشتر النخعى حاضرا وهو من اليمنية وكان شديد التعصب لعلى ابن أبى طالب فغضب وقال لسعيد « أتزعم ان السواد الذى افاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك » فقام عبد الرحمن الاسدى صاحب شرطة سعيد فقال للاشتر « أتردون على الامير مقالته » وأغلظ لهم فأشار الاشتر الى رفاقه فوثبوا على الرجل فوطأوه وطأ شديدا حتى غشى عليه ثم جروا برجله ونضحوه بالماء فأفاق فنظر الى سعيد وقال « ان الذين انتخبتهم لمسامرتك قتلونى » فقال سعيد « والله لايسمر عندى أحد أبدا » (١)

فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصا بينهم وبين اليمنية ومنهم الانصار . وثبت الانصار فى نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا فى أول الاسلام اذ جاءهم النبى مهاجرا فرارا من أهله . ولما جرت واقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين على ومعاوية عدوها بين اليمنية « الانصار » وقريش . فلما احتدم القتال فى تلك الواقعة قال رجل يمنى من انصار على « أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالى والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله » وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل المهاب عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله (٢)

القبائل اليمنية والمضرية

ثم صار أكثر اليمنية شيعة على وأنصاره الا الذين تألفهم معاوية بالعطاء لعلمه ان اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعا فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بجدل أم يزيد ابنه واستنصرهم على قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه ولما فاز فى حروبه ورسخت قدمه فى الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم أخواله

(١) ابن الاثير ٧٢ و٩٧ ج ٣ (٢) المسعودى ١٦ ج ٢

فلما مات يزيد وابن الزبير فى مكة يطالب بالخلافة واختلف بنو امية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) ووقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بنى أمية كان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير وانصار بنى أمية بنو كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن اختهم. ونهض أناس من بنى أمية فاعترضوا على صغر سن خالد فاجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير أى بين كلب وقيس وفاز مروان وثبتت قدمه فى الخلافة . ثم توفى مروان ولم يف لخالد فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه وانقسم العرب فى سائر أنحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية أو مضرية ويمنية أو نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما فى الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقيا والاندلس . وفى كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضرى ويمنى تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الامراء أو العمال. فالعامل المضرية يقدم المضرية والعامل اليمنى يقدم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال وله تأثير فى كل شىء من تصاريف أحوالهم حتى فى تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيرا ما كانت الولاية والعزل موقوفين على انحياز أحد هذين الحزبين

فقد رأيت أن قبيلة قيس كانت على عبد الملك بن مروان ولكنها كانت أول نصير لابنه هشام فنصرته فقربها وألحقها بالديوان أى فرض لاهلها الرواتب والجرايات . وفى أيامه نقل كثير من بطونها وافخاذها الى بلاد الاسلام وخصوصا مصر والشام . وفى أيام هشام ارتفع شأن القيسية وصارت سائر المضرية انصارا لبنى أمية ولا سيما لما قتل الوليد بن يزيد وأمه قيسية (١) فقام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يطالب بدمه رغبة فى نصرتهم ليشتد أزره بهم فاجمع المضرية على نصرة مروان وما زالوا كذلك الى آخر أيامه فلما قامت شيعة بنى العباس كانت اليمنية من انصارها

وكان تحت هذين الحزبين الكبيرين أحزاب فرعية تتخاصم وتتحارب. على ان مقام قريش ما زال فى كل حال محفوظا ومفضلا على مقام سائر القبائل شرفا ونفوذا

(١) ابن الاثير ١٥٩ ج ٥

فكانوا اذا خافوا عصيان بعض الولايات على عاملها ولوا عليها عاملا من بنى قريش فيذعنون له ويجمعون على طاعته (١)

على أن قريشا كانوا منقسمين فيما بينهم وأهم انقساماتهم بين أمية وهاشم فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر تبعا لغرضه أو وطنه وكثيرا ماكانوا يتشاجرون فى هذا السبيل فيشغلون أوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة حتى تحتدم نار الخصام وتتحول الى حرب يطير شرارها وتسفك فيها الدماء. وكانت قوة بنى هاشم فى الحجاز والعراق وقوة بنى أمية فى الشام ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور. وكثيرا ما كان الخصام يبدأ بين الشعراء واشتهر بعضهم على الخصوص فى هذه المطاعنات، واشهر مناظراتهم فى هذا السبيل ما كان بين سديف الشاعر الذى ينتسب بولائه الى بنى هاشم فقد كان يتعصب لهم وسياب الشاعر وكان يتعصب لبنى أمية فكان هذان الشاعران يخرجان الى ظاهر مكة يذكران المثالب والمعائب والناس ينقسمون فى التعصب لهما حتى تولد من ذلك عصبتان كبيرتان عرفتا بالسديفية والسيابية ، وتواصل ذلك الى أيام الدولة العباسية وتغير اسماهما الى الخاطين والجزارين(٢) وسديف هذا هو الذى قال شعرا بين يدى السفاح قتل به سليمان بن هشام الاموى

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون فى أيام بنى أمية مقدمين على سائر قبائل العرب فان العرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم الذين دانوا للمسلمين . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك بل كانوا يعتقدون فضل العرب فى اقامة هذا الدين وانهم مادته وأصله ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب أسيادهم ويعدوا أنفسهم من مواليهم بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضا واجبا عليهم عملا بالحديث المأثور « من أبغض العرب أبغضه الله » (٣) وكثيرا ما كانوا يعترفون بفضلهم عليهم فى العقل والحزم وسائر المناقب — فان عبد الله بن المقفع المنشىء الشهير وكان عريقا فى النسب الفارسى ضمه مجلس فى بيت بعض كبراء الفرس بالبصرة وفيه جماعة من أشراف العرب فتصدى هو للكلام فسأل بعض الحضور « أى الامم أعقل » فظنوه

(١) ابن الاثير ١٧٨ ج ٥ (٢) الاغانى ١٦٢ ج ١٤ (٣) العقد الفريد ٤٢ ج ٢

يريد أمته فقالوا «فارس» فقال « كلا . . لانهم وان ملكوا الارض وضمت دولتهم لكنهم لم يستنبطوا شيئا بعقولهم » فقالوا « الروم » فقال « لا » وما زالوا يذكرون له أمم تلك الاعصر واحدة بعد واحدة وهو يقول « لا » حتى سئموا فقالوا « قل أنت » قال « العرب . واذا فاتنى حظى من النسبة اليهم فلا يفوتنى حظى من معرفتهم . ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار اثرت عليها أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك فى ميسوره ومعسوره ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم واعلتهم قلوبهم وألسنتهم فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر على الخير فيهم ولهم »

العرب والموالى

فكان العرب يزدادون بامثال هذه الاقوال افتخارا على سائر الامم وخصوصا على المسلمين منهم فكانوا يترفعون عنهم ويسمونهم الموالى كما تقدم . ومن أقوال أهل العصبية للعرب على العجم « لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذه له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما فى الاثر – ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواحير . وكما قال – عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . على اننا تعرضنا للقتل فيهم فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله أمرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا فى مكاتبتكم »

وكانوا يكرهون ان يصلوا خلف الموالى واذا صلوا خلفهم قالوا اننا نفعل ذلك تواضعا لله . وكان نافع بن جبير التابعى الشهير اذا مرت به جنازة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشى » قال « وا قوماه » واذا قالوا « عربى » قال «وا بلدتاه» واذاقالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » (١) وكانوا يقولون « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : « حمار ، أو كلب ، أو مولى » وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقاب ولا يمشون فى الصف معهم ولا يتقدمونهم فى المواكب وان حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم وان اطعموا المولى لسنه وفضله

(١) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

وعلمه اجلسوه فى طريق الحجاز لئلا يخفى على الناظر اليه انه ليس من العرب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز اذا حضر أحد من العرب ـ وسيأتى الكلام على أحكام الموالى فى هذا العصر

وكان العرب فى أيام هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالى وأهل الذمة ويعدون أنفسهم فوقهم جبلة وخلقة وفضلا وكانوا يسمونهم « الحمراء » كما تقدم وربما أرادوا بالحمراء الموالى على الخصوص . فكان العربى يعد نفسه سيدا على غير العربى ويرى انه خلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون فى صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم وخصوصا المهن والصناعات . ومن أمثالهم « ان الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين » لانها صنائع أهل الذمة (١) وتخاصم عربى ومولى بين يدى عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى « لاكثر الله فينا مثلك » فقال العربى « بل كثر الله فينا مثلك » فقيل له « أيدعو عليك وتدعو له » قال « نعم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (٢)

ولم يكن العرب يعتنون بشىء من العلم غير الشعر والتاريخ لانه لازم للسيادة والفتح واما الحساب والكتابة فقد كانت من صنائع الموالى وأهل الذمة ولذلك كان العمال فى أيام بنى أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين لانهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون (٣)

وكان الامويون فى أيام معاوية يعدون الموالى اتباعا وارقاء وتكاثروا فأدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهم أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم . وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الامراء من رجال بطانته وفيهم الاحنف ابن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما « انى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى) وأراها قد قطعت على السلف وكأنى انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت ان أقتل شطرا وادع شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون ؟ » فقال الاحنف « أرى ان نفسى لا تطيب . . أخى لامى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب » واما سمرة فأشار بقتلهم وطلب ان يتولى ذلك هو بنفسه

(١) البيان والتبيين ١٠٠ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٣) المسعودى ١١٤ ج ٣

فرأى معاوية ان الحزم فى رأى الاحنف فكف عنهم . فاعتبر مقدار استخفاف العرب بسواهم وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطرا منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الاغنام

وكان العرب سكروا بخمرة السيادة والنصر بارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك فى بضعة عشر عاما فتوهموا فى فطرتهم ما ليس فى سواهم من المناقب والسجايا كما توهم الرومان قبلهم ، وكما يتوهم أهل هذا العصر فى بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها بأصل فطرتها عن سائر الامم ـ فتوهم العرب فى أنفسهم الفضل على سائر الامم حتى فى أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون انه لا تحمل فى سن الستين الا قرشية ولا تحمل لخمسين الا عربية كما تقدم وان الفالج لا يصيب أبدانهم ولا يضرب أحدا من أبنائهم الا ان يبذروا بذورهم فى الروميات والصقليات وما أشبههن فيعرض الفالج لمن يلدنه (١) ولذلك كانوا فى أيام بنى أمية شديدى العناية فى حفظ أنسابهم من شوائب العجمة ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء فقالوا « لا يصلح للقضاء الا عربى » (٢) وحرموا منصب الخلافة على ابن الامة ولو كان أبوه قرشيا وكان ذلك من جملة ما احتج به هشام على يزيد بن على بن الحسين اذ قام يطلب الخلافة لنفسه فقال له هشام بن عبد الملك « بلغنى انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة » (٣) مع أن أمه من بنات ملوك فارس . وأول من ولى الخلافة من أبناء الاماء يزيد بن الوليد الاموى سنة ١٠١ هـ وكانوا يسمون العربى من أم أعجمية «الهجين» ولا يزوجون الاعجمى عربية ولو كان أميرا وكانت هى من أحقر القبائل . فان بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من باهلة كانت فى بعض قصور الترك فأبت مع ان باهلة من أحقر قبائل العرب . ولم يكن أثقل على طباعهم من استرقاق العربى (٤)

وكان فضل العرب على سواهم قضية مسلمة فى صدر الاسلام لا تحتاج الى دليل فلما بالغ بنو أمية فى الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت دهشة النبوة أخذ هؤلاء فى التذمر ونصروا آل على والخوارج وغيرهم من أعداء الامويين وهان عليهم الرد على العرب فى مفاخراتهم فنشأ من ذلك طائفة يعرفون بالشعوبية

(١) طبقات الاطباء ١٥٠ ج ١ والاغانى ٨٨ ج ١٥ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١
(٣) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ٢٧٨ (٤) ابن الاثير ٤٤ و ١٣١ ج ٥

لا يعترفون بفضل العرب على سواهم وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب . ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور فى أيام بنى أمية (١) فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الامين والمأمون ظهروا وألفوا الكتب فى مثالب العرب كما سيأتى

آثار بنى أمية فى الاسلام

فالدولة الاموية كانت شديدة الحرص على منزلة العرب كثيرة العناية فى حفظ الانساب فجعلت فى كل ديوان من دواوينها سجلا يقيدون فيه من يولد من ابناء العرب المقيمين فى البلاد المفتوحة (٢) وهى التى جعلت الاسلام دولة وقد كان فى أيام الراشدين دينا فصار على عهد الامويين عصبية وسيفا ثم صار دولة ايدوها بنشر اللغة العربية فى المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالى الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية وهى تعد الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركى أو الافرنجى أو غيرهما من أى أمة كانت وتوالد فيها عد نسله عربيا

وظل العرب فى أيام بنى أمية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم (٣) وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة فى أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار فى الاندية العمومية فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد يجتمع اليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون (٤) كما كانوا يفعلون فى عكاظ . وكان فى المربد حلقات للعلماء أو الشعراء يجتمع عليهم الطلبة أو المريدون ، فى جملتها حلقة كانت لراعى الابل والفرزدق وجلسائهما بأعلى المربد (٥) وقس على ذلك ما كان يقع هناك من المفاخرة والمناضلة كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه فى أيام هذه الدولة وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا فى ممالك الارض

(١) الاغانى ١٢٥ ج ٤ (٢) المقريزى ٩٤ ج ١ (٣) العقد الفريد ٢٥٨ ج ٢
(٤) الاغانى ١٥٣ ج ١٩ (٥) الاغانى ١٦٩ ج ٢٠

العصبية الوطنية فى عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الاسلام جامعة وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها لانهم كانوا لا يستقرون فى وطن لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة . فلما أسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الامصار وابتنوا المدن وأقاموا فيها تحضروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن والدفاع عنها والتعصب لها وهى ما عبرنا عنه بالعصبية الوطنية

تحضر العرب بعد الفتح

وقد تدرج العرب الى الحضارة تدريجا ولم يكن ذلك مقصودا فى بادىء الرأى وانما سيقوا اليه بطبيعة العمران لانهم كانوا فى صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم واذا ساروا للفتح ساقوا معهم أولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون فى أيام جاهليتهم واذا فتحوا بلدا نصبوا خيامهم فى ضواحيه مما يلى المدينة (مركز الخلافة) وقد نهاهم عمر عن الزرع فكأنه نهاهم عن التحضر رغبة منه فى استبقائهم جندا محاربا لا يمنعهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون فى معسكراتهم بضواحى المدن كما يقيم جيوش الاحتلال فى هذه الايام، وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية أو الرابطة . فكان المسلمون فى عصر الراشدين فرقا تقيم كل فرقة فى ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جندا. وكانت عساكر الشام أربعة أجناد تقيم فى ضواحى دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلى جزيرة العرب فى معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم فى معسكر على ضفاف النيل فى سفح المقطم مما يلى بلاد العرب حيث بنيت الفسطاط بعد ذلك

وكان العرب (أو المسلمون) يقيمون فى تلك المعسكرات بأولادهم ونسائهم لا يختلطون بأهل القرى حتى اذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى فى القرى يسوقها الاتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات . فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم وهم الى ذلك الحين أهل بداوة وغزو ، ومركز دولتهم فى المدينة وفيها مقر الخليفة ومرجع المسلمين عند الحاجة

فلما طال مقامهم فى تلك المعسكرات وأفضت الخلافة الى بنى أمية ورغبوا فى الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال أمر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام فى الشام وسائر الامصار وأغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضياع وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالى الاجيال الى مدن عامرة أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التى بناها المسلمون غير المدن القديمة التى استوطنوها فى الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضياع وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال أهل المدن من تجارة وصناعة

تدرجوا الى ذلك فى أعوام متطاولة لاستغنائهم عن الريع لمعاشهم لانهم كانوا فى صدر الاسلام شركاء فيما يرد على بيت المال من الفيء أو الغنائم من العراق وغيره من البلاد المفتوحة ولكل مسلم الحق فى ذلك الفيء حيثما كان مقامه . فأهل المدينة مثلا يتمتعون بفيء العراق وكذلك أهل الشام. فلما بدأوا بالاستيطان فى أواخر عصر الراشدين وأراد أهل كل مصر أن يستقلوا بمصرهم كان ذلك مجحفا بأهل المدينة لان معاشهم من فيء البلاد المفتوحة فشكوا ذلك الى الخليفة اذ ذاك عثمان ابن عفان وطالبوه بفيئهم من الارض بالعراق فاستبدله لهم من أهل العراق بأرض كانت لهؤلاء فى الحجاز أو اليمن أو غيرهما من بلاد العرب (١)

تعصب المدن الاسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين رغبة فى العصبية الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . وأول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذى وقع بين الشام والكوفة فى أيام عثمان بن عفان (٢) ثم حدث الانقسام الوطنى السياسى بعد مقتله وكان أساسه الميل الى أحد طلاب الخلافة يومئذ وهم على ومعاوية وطلحة والزبير فكان أهل الشام مع معاوية لانه أميرهم ومعظمهم من قريش وكان أهل المدينة مع على وهم الانصار وتبعتهم مصر وكان أهل الكوفة مع الزبير وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق الى على فضلا عن أهل المدينة ومصر وظل أهل الشام مع معاوية. ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره فبويع

(١) ابن الاثير ٥٢ ج ٣ وياقوت ٧٨٣ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٣

معاوية وتركت مصر لعمرو بن العاص صارت مصر فى حوزة معاوية . ولما قتل على سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين يطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين بأهل العراق وسافر اليهم فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فأصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية

وقس على ذلك انحياز تلك البلاد الى الخلفاء باختلاف الاحوال فأصبح لكل بلد بتوالى الاعوام استقلال خاص وعوائد خاصة تميزه عن سواه على انها كانت تمتاز بعضها عن بعض فى ذلك من أيام معاوية فقد سأل معاوية ابن الكواء عن أهل الامصار فقال « أهل المدينة أحرص الامة على الشر وأعجزهم عنه ، وأهل الكوفة يردون جميعا ويصدرون شتى ، وأهل مصر أوفى الناس بشر واسرعهم الى ندامة وأهل الشام أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم »

وكان لاهل كل بلد غرض خاص فى السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية وهى غير عصبية النسب اذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرفون بجامعة واحدة كأهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم أخلاط من قبائل شتى . فكان لكل بلد فى عصر بنى أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسبا وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها يقيم كل منها فى حى خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلا مؤلفة من خمسة أقسام تعرف بالاخماس كل خمس لقبيلة وهى الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية . والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة (١) وقس على ذلك سائر البلاد

فاذا تحارب بلدان وقفت كل قبيلة من أهل البلد الواحد أمام ما يقابلها من قبيلتها فى البلد الآخر . ففى واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة فلما انتشب القتال تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ونزلت قبائل مضر الى مضر وربيعة الى ربيعة . وكذلك فى واقعة صفين وهى بين أهل الشام وقائدهم معاوية وأهل العراق وقائدهم على . فلما التحم القتال سأل على عن أهل الشام فعرف مواقفهم فأخذ يستحث من معه من القبائل على اخوانهم فى معسكر عدوه فقال للازد « اكفونا الازد » وقال لخثعم « اكفونا خثعم » وأمر كل قبيلة معه أن تكفيه

(١) ابن الاثير ٣٤ ج ٥

اختها فى عسكر الشام . الا أن تكون قبيلة ليس لها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى فى الشام ليس بالعراق منها أحد (١) ـ فتأمل كيف غلبت الجامعة الوطنية على جامعة النسب وانما غلبت لان الاحوال اقتضتها فرأى الناس فيها ما يسد مطامعهم

على ان أهل البلد الواحد كانوا يختلفون عددا ونسبا باختلاف عصبية الامير أو الخليفة كما تقدم فى كلامنا عن عصبية النسب . ويختلف غرض البلد الواحد باختلاف تلك الاحوال مما لا ضابط له فتنشب الحروب بين البلدين كما تنشب بين القبيلتين . ومن أشهر حوادث الخلاف بين البلاد فى صدر الاسلام خلاف أهل الكوفة والبصرة ومفاخرتهما . ففى أيام على والخوارج كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية والشام أموية والجزيرة خارجية والحجاز سنية (٢) وتقلبت هذه الاحوال كثيرا واختلفت باختلاف الدول . فحدث بتوالى التقلبات السياسية تعدد الجامعات : أولها الجامعة العصبية أو جامعة النسب بين مضر واليمن والثانية جامعة الوطن بين العراق ومصر والشام والثالثة جامعة المذهب بين الفرق الاسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة وربما اجتمعت كل هذه الفرق فى رجلين (٣)

ومما ساعد على نشوء الجامعة الوطنية ان أهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما لان الاسلام لا يستغنى عنهما وفيهما شيعة على ولا سيما المدينة . فكان الامويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بدا من زيارة الحرمين ورعاية أهلهما فيقف ذلك حجر عثرة فى سبيل سلطانهم وخصوصا بعد ان احتمى ابن الزبير بالكعبة واخرج بنى أمية واحزابهم من الحجاز فلم يستطع الامويون التغلب عليه الا بضرب الكعبة بالمنجنق . ولهذا السبب خطر للامويين أن ينقلوا منبر النبى من المدينة الى الشام ليجمعوا عندهم الدين والسياسة . ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء فى واسط لمثل هذه الغاية كما بناها المنصور فى بغداد بعد ذلك تصغيرا للكعبة (٤) والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين فلم يجدهم ذلك نفعا

(١) ابن الاثير ١٢١ و١٤٩ و١٧١ ج ٣ (٢) العقد الفريد ٢٧٧ ج ٣
(٣) ابن خلكان ١٠٠ ج ٢ (٤) المسعودى ١٦٦ ج ٢

اصطناع الاحزاب فى عصر الأمويين

سياسة معاوية

ومما احتاج اليه بنو أمية فى سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الاحزاب كما فعل معاوية بن ابى سفيان فى اكتساب نصرة عمرو بن العاص وزياد ابن أبيه والمغيرة بن شعبة ـ اكتسبها بالدهاء والعطاء ـ ثم صار ذلك بعده قاعدة سار عليها بنو أمية فى تثبيت دعائم ملكهم والعلويون ابناء بنت النبى وأحفادها ينازعونهم عليه . على أنه لم يقم فى بنى أمية رجل مثل معاوية بالدهاء والتعقل مما يعبر عنه أهل هذا الزمان بالسياسة . واذا قسنا أعمال هذا الرجل بأعمال أعاظم رجال السياسة من أهل هذا التمدن وغيره لرأيناه يفوق اكثرهم تعقلا وحكمة ودهاء وخصوصا اذا اعتبرنا موقفه بازاء طلاب الخلافة من أعمال النبى وأبناء عمه وأبناء بنته والمسلمون يعتقدون حقهم فيها وان معاوية طليق لا تحل له الخلافة(١) وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرها ـ ومع هذا غلب عليهم جميعا فقبض على أزمة الملك وجعله ارثا فى نسله ولم يسفك فى سبيل ذلك دما كثيرا ـ وانما كانت عمدته سعة الصدر والدهاء وبذل الاموال

أما سعة الصدر فانه كان يغضى عن مطاعن أهل البيت عليه ولو فعلوا ذلك بين يديه وبدلا من أن ينتقم منهم يبذل لهم الاموال ويقربهم . فربما دخل عليه الرجل منهم وهو فى مجلسه وبين أمرائه فيطعن فيه ويعرض باختلاسه الملك ويفضل عليا عليه فيلين له الجواب ويهبه الاموال فينقلب معه ولو كان من اقرباء على ـ ذكروا ان عقيلا أخا على بن أبى طالب وفد على معاوية وعلى لا يزال حيا فرحب به معاوية وسر بوروده لاختياره اياه على أخيه وأوسعه حلما واحتمالا فقال له معاوية « كيف تركت عليا » فقال « تركته على ما يحب الله ورسوله وألفيتك على ما يكره الله ورسوله » فقال معاوية « لولا انك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جوابا تألم منه » ثم أحب معاوية أن يقطع الحديث مخافة ان يأتى بشىء يسوءه فوثب من مجلسه وأمر له أن ينزل وأوصل اليه مالا عظيما . فلما كان من غد جلس معاوية وبعث

(١) المسعودى ١٢ ج ٢

الى عقيل وقال له « كيف تركت عليا أخاك » قال « تركته خير لنفسه منك وأنت خير لى منه » (١)

. وأخبار معاوية مع صعصعة بن صوحان العبدى وغيره من رجال على ومريديه كثيرة تدل على سعة صدر وحلم . فان لم يكفه الحلم عمد الى المخادعة أو البذل فلا يلتقى به واحد ممن يخاف بطشهم الا رجع راضيا . وقد يأتيه الرجل مستجديا وهو يتعمد خداعه فينخدع له ويطاوعه ويجيزه ـ ذكروا ان ابن الزبير قبل قيامه بالدعوة لنفسه هرب من عبد الرحمن ابن أم الحكم الى معاوية وقد أحرق عبد الرحمن داره بالكوفة فجاء معاوية متظلما وقال له « ان عبد الرحمن أحرق دارى » فقال معاوية « وكم تساوى دارك » قال ١٠٠٫٠٠٠ ، فطلب منه شاهدا فأتاه بشاهد من أصدقائه ، فأمر له معاوية بالمال . فلما انصرف الرجلان قال معاوية لجلسائه «أى الشيخين عندكم أكذب، والله انى لاعرف داره وما هى الا خصائص قصب لكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع »(٢) وكان ذلك وأمثاله مما أسكت ابن الزبير وغيره عن القيام لطلب الخلافة فى أيامه

فأين هذا من تدقيق على فى محاسبة عماله حتى أغضب أكثرهم وخسر نصرتهم وفى جملتهم ابن عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان أكبر نصير له فأغضبه من أجل وشاية لا طائل تحتها كما تقدم . على حين أن معاوية كان يهب لعماله الولايات طعمة لهم واذا وفد أحدهم عليه بالغ فى اكرامه والترحيب به فكان معاوية بن حديج اذا قدم على معاوية فى الشام زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه (٣)

وكان معاوية يحتمل الطعن والنقد على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات وزعماء الاحزاب ولو اطلقوا ألسنتهم عليه . فالاحنف بن قيس التميمى أحد السادة التابعين وأهل النفوذ كان على رأى على وقد نصره فى واقعة صفين. فاتفق أنه وفد على معاوية بعد ان استقر له الامر بالخلافة فلما دخل عليه قال له معاوية « والله يا أحنف ما اذكر يوم صفين الا كانت حزازة فى قلبى الى يوم القيامة» فقال له الاحنف « والله يا معاوية ان القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا وان السيوف التى قاتلناك بها لفى اغمادها وان تدن من الحرب فترا ندن منها شبرا وان

(١) المسعودى ٥٤ ج ٢ (٢) الاغانى ٤٨ ج ١٣ (٣) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٣

تمش اليها نهرول اليها » ثم قام وخرج ولم يكلمه معاوية وكانت اخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه . فقالت « يا أمير المؤمنين من هذا الذى يتهدد ويتوعد» قال « هذا الذى اذا غضب غضب لغضبه مئة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب»(١)

على أن معاوية كان اذا خاف عدوا لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه بما عندهم من آثار أبيه ولغنائه فى بلاد الروم وشدة بأسه فخافه معاوية فأمر ابن الاثال الطبيب أن يحتال فى قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وان يوليه خراج حمص . فدس ابن الاثال اليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات (٢) ونجا معاوية منه . وفعل نحو ذلك بالاشتر النخعى مالك بن الحارث وكان من أشد رجال على بطشا أو هو أشدهم جميعا وقد أبلى معه فى صفين بلاء حسنا . فلما اضطربت أحوال مصر بدسائس معاوية وكانت لا تزال فى حوزة على بعث الاشتر واليا عليها فعلم معاوية انه ان وليها امتنعت عليه فبعث الى المقدم على أهل الخراج فى القلزم — وهى فى طريق الاشتر لا بد من مروره بها عند قدومه الى مصر وقال له « ان الاشتر قد ولى مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت » فخرج حتى أتى القلزم وأقام به فلما جاء الاشتر استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياها فلما شربها مات . وأخذ معاوية يقول لاهل الشام « ان عليا قد وجه الاشتر الى مصر فادعوا الله عليه » فكانوا يدعون عليه كل يوم وأقبل الذى سقاه الى معاوية فأخبره بهلك الاشتر فقام معاوية خطيبا وقال « اما بعد فانه كان لعلى يمينان فقطعت احداهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم (يعنى الاشتر)» (٣) فلما بلغ خبر الاشتر الى عمرو بن العاص قال « ان لله جنودا من العسل » (٤)

عمرو بن العاص

فكان معاوية وأصحابه لا يضيعون فرصة ولا يبالون فى انفاذ أغراضهم ما يرتكبون من القتل أو نحوه . أما على وأصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٧٩ ج ٢
(٤) المقريزى ٣٠٠ ج ١

الدين ومقتضى الاريحية وكانت اريحيتهم هذه مساعدا كبيرا لفوز معاوية عليهم ـ ففى واقعة صفين كانت كفة النصر راجحة لعلى ولو تم له ذلك لقضى على معاوية وأغراضه وذهبت مساعيه أدراج الرياح وذهب أمر بنى أمية بذهابه واستتب الامر لعلى وأهل بيته . وانما منع من فوز على دهاء عمرو بن العاص لان معاوية لما احتدمت المعركة ورأى الضعف فى عسكره وأيقن بالخذلان لجأ الى عمرو بن العاص وكان محاربا معه وقال له « هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكر ولاية مصر » فأشار عمرو عليه يومئذ برفع المصاحف وأن ينادوا « كتاب الله بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ومن لجهاد الروم والترك ومن للكفار » فخدع رجال على بهذه الحيلة وأوقفوا القتال ثم اتفقوا على التحكيم وبه أتم ابن العاص حيلته فخلع عليا وبايع معاوية ـ فلولا عمرو بن العاص لفشل معاوية وذهب أمره ولولا اريحية أبداها على فى تلك المعركة لقتل عمرو قبل تدبير تلك الحيلة ـ وذلك أن عمروا كان قد برز للنزال فبرز له على فلما التقيا عرفه على فشال السيف ليضربه ويتخلص منه فلما أيقن عمرو بالموت كشف عن عورته وقال « مكره أخوك لا بطل » فثارت الاريحية فى نفس على فحول وجهه عنه وقال « قبحت » ونجا عمرو بتلك الحيلة (١) وذهب عمل عمرو هذا مثلا وفيه يقول الشاعر :

ولا خير فى صون الحياة بذلة كما صانها يوما بذلته عمرو

وكذلك كان أصحاب على من حيث الاريحية والتقوى وصدق اللهجة ـ تلك كانت طبيعة الاسلام والمسلمين فى ذلك العصر الذهبى الا من طمع بالدنيا وانحاز الى معاوية . وكانت هذه المناقب فى على على أقوى أحوالها ولو تساهل فيها أو أغضى عن شىء منها لنجا من شرور كثيرة ولذلك قالت قريش « ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكنه لا رأى له فى الحرب » (٢)

فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ثم صارت فى بنى مروان من أمية ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة وهم كثيرون أهمهم أولاد على . على انه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل وكانوا يهابونه ويسكنون الى سياسته ويتوقعون من الجهة الاخرى رجوع الخلافة اليهم بعد موته

(١) المسعودى ١٩ ج ٢ (٢) الاغانى ١٥ ج ١٥

فلما رأوه نقلها الى ابنه يزيد ثار المطالبون بالخلافة فى الحجاز والعراق وغيرهما وكل منهم يزعم انه صاحب الحق بها . فاجتمع سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية فى عرافات كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه احدها لبنى أمية والآخر للعلويين باسم محمد ابن الحنفية والثالث لعبد الله بن الزبير والرابع لنجدة الحرورى من الخوارج ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك الا بنو أمية للعصبية العربية واصطناع الاحزاب . واليك الاسباب التى ساعدتهم على اصطناع الاحزاب غير ما تقدم ذكره من دهاء معاوية وضعف رأى على

بذل المال فى عصر الأمويين

العطاء من بيت المال

العطاء من أكبر العوامل التى ساعدت بنى أمية فى اصطناع الرجال وكسر شوكة أعدائهم ، لان العطاء رواتب الجند أو رواتب المسلمين وكانوا فى صدر الاسلام كلهم جندا ولكل منهم راتب يختلف باختلاف نسبه من النبى أو سابقته فى الاسلام أو غير ذلك مما تراه مفصلا فى كلامنا عن الديوان فى أيام عمر (١) وترى الرواتب فيه للمسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى النساء والاولاد . وأصل هذا العطاء من أموال الفيء وهناك طبقة أخرى من المسلمين الذين لا يستطيعون الحرب فهم من الفقراء ويأخذون أعطيتهم من أموال الصدقة وهى الزكاة ولكل من الصدقة والفيء ديوان خاص وحساب خاص

فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب المسلمين فيجدر بهم ان يتقربوا منه أو يتزلفوا اليه . فاذا قبض عليه رجل حكيم مثل معاوية يعرف كيف يعطى ولمن يعطى أغناه ذلك على سائر الاسباب . فكان معاوية يزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء والغالب انه يبذل الاموال ويضاعف الاعطية حيث يتوسم نفعا وأخوف ماكان يخافه فى خلافته قيام العلويين أو غيرهم من أهل بيت النبى ينازعونه الخلافة فبذل لهم العطاء بسخاء . فبعد ان كان عطاء الحسن والحسين بحسب ديوان

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ١٥٦ (طبعة ثانية)

عمر ٥٠٠٠ر٥ درهم فى السنة جعلها معاوية ١٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم أى انه ضاعفها ٢٠٠ مرة ، وأعطى مثل هذا المبلغ أيضا الى عبد الله بن عباس لانه ابن عم النبى ويخشى منه . وكذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم من كبار أبناء الصحابة أهل النفوذ فى الاسلام ممن يقيمون فى المدينة . فكان من جهة يتألفهم بالاموال ويشغلهم بالرخاء عن النهوض للمطالبة ومن جهة أخرى يتألف بهم أهل المدينة لانهم كانوا ينفقون تلك الاموال فى أهلها للتمتع بملاذ الحياة ومنهم من كان ينفق عطاءه على المغنين والشعراء . واكثرهم سخاء وبذلا من هذا القبيل عبد الله ابن جعفر وهو ابن عم الحسن والحسين فانه كان يفد على معاوية فى الشام فيدفع اليه عطاءه فيعود الى المدينة فيفرقه فى أهلها . وكان معاوية يعرف ذلك فيقربه ويحسن اليه ليستألف أهل المدينة به

ويقال انه قدم على يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة فقال له يزيد « كم كان عطاؤك » فقال « ألف ألف درهم » قال « قد اضعفناها لك » قال « فداك أبى وأمى ما قلتها لاحد قبلك » قال « قد اضعفناها لك ثانية » فقيل ليزيد اتعطى رجلا واحدا ٤٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، فقال « ويحكم انى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيها الا عارية » (١)

وقس على ذلك بذل معاوية فى تألف القبائل فقد كان يفرض للقبائل التى تحارب معه ولو بعدت عن نسبه كاليمن مثلا فانه كان يتألفها بالاموال خوفا من بطشها . وكان يفرض لها ولا يفرض لقيس وهى أقرب اليه لانه لم يكن يخاف بأسها حتى ان أحدها كان يأتى معاوية يطلب منه أن يفرض له فيأبى كما فعل بمسكين الدارمى فانه طلب من معاوية ان يفرض له فأبى فقال شعرا يعاتبه فيه ويذكره بما بينهما من النسب ومن ذلك قوله :

أخاك أخاك ان من لا أخا له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح
وما طالب الحاجات الا مغرر ... وما نال شيئا طالب كجناح

فلم يعبأ به لانه انما كان ينظر الى مصلحة نفسه . فاعتزت اليمن واشتد بأسها واستطالت على الدولة وتضعضعت قيس وسائر عدنان . فبلغ معاوية ان

(١) العقد الفريد ١١٠ ج ١

رجلا من اليمن قال يوما « لهممت أن لا أدع بالشام أحدا من مضر بل هممت أن لا أحل حبوتى حتى أخرج كل نزارى بالشام » فخاف معاوية بأس اليمنية ورأى أن يضربهم بالمضرية ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان وبعث الى مسكين يقول له « لقد فرضنا لك وأنت فى بلدك فاذا شئت أن تقيم بها أو عندنا فافعل فان عطاءك سيأتيك » وصار معاوية يغزى اليمن فى البحر وقيسا فى البر (١) ولولا دهاؤه وحسن أسلوبه لما استطاع التوفيق بينهما

ويقال نحو ذلك فى زيادة العطاء للذين شهدوا الوقائع الهامة ونصروا الامويين كواقعة صفين فان معاوية زاد عطاء أصحابها(٢) كما فعل عمر فيمن شهد القادسية. وسار خلفاء بنى أمية على خطوات معاوية فاعطوا أحزابهم حتى فرضوا الاعطية للشعراء التماسا لقطع ألسنتهم أو ليتقربوا الى قلوب الناس . وكان أهل التقوى يرون ذلك مجحفا بحقوق بيت المال أن يعطوا الناس من مال الفىء فانه مال الله أو مال المسلمين. وكان ذلك من جملة ما غير أصحاب على على معاوية يوم صفين(٣) فلما تولى عمر بن عبد العزيز وتحدى الخلفاء الراشدين منع العطاء عن الشعراء. فلما مات عادوا الى ما كانوا عليه

وكانوا يفرضون لاى من جاءهم ولو كان اعرابيا حتى كان أهل البادية كثيرا ما يبيعون ابلهم ويأوون الى المدن يطلبون الفرض لهم . ومع ذلك فأهل الانفة منهم كانوا يدركون ما وراء ذلك من استعباد النفوس لغرض يعتقدون انه ضد الحق وهو تأييد دعوة القائمين على أهل البيت فتعافه نفوسهم ـ يحكى ان امرأة صها الاشجعى من أهل البادية حرضت زوجها على الذهاب الى المدينة ليبيع ابله ويفترض فى العطاء فاطاعها وساق ابله حتى اذا دنا من المدينة شرعها بحوض ليسقيها فحنت ناقة منها ثم نزعت وتبعتها الابل وطلبها ففاتته فقال لزوجته « هذه الابل لا تعقل وتحن الى أوطانها » ثم قال شعرا :

قالت أنيسة دع بلادك والتمس ... دارا بطيبة ربة الاطام
تكتب عيالك فى العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الاقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا ... بذوى عنيزة أو بقف بشام

(١) الاغانى ٦٩ ج ١٨ (٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ١٥٠ ج ٣

اذ هن عن حسبى مداود كلما نزل الظلام بعصبة أغنام
ان المدينة لا مدينة فالزمى حقف السناد وقبة الارحام
يجلب لك اللبن القريض وينتزع بالعيس عن يمن اليك وشام
وتجاورى النفر الذين بنبلهم أرمى العدو واذا نهضت مرام
الباذلين اذا طلبت بلادهم والمانعى ظهرى من الغرام (١)

ومن أقوال عبد الملك بن مروان « انعم الناس عيشا من له ما يكفيه وزوجة ترضيه ولا يعرف أبوابنا الخيبة فتؤذيه » (٢)

وكان هم بنى أمية أهل المدينة لانهم شيعة على وفيهم الانصار ونخبة القرشيين فكان عامل بنى أمية فيها اذا اجتمع اليه مال الصدقة من الاطراف ادان من أراد من قريش منه وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به ويختلفون اليه ويدارونه . فاذا غضب على أحد منهم استخرج المال منه وما زال هذا شأنهم الى أيام الرشيد فكلمه عبد الله بن مصعب فى صكوك بقيت من ذلك فحرقت (٣)

وكانوا اذا عصاهم أحد من المسلمين قطعوا عطاءه ولو كان العاصون بلدا برمتها كما فعل الوليد لما ثار عليه زيد بن على فقطع عطاء أهل الحرمين جميعا (٤) وحرم الوليد آل حزم من العطاء لان قتلة عثمان دخلوا اليه من دارهم فى المدينة وقبض أموالهم وضياعهم وظلوا كذلك الى أيام المنصور فافرج عنهم (٥). وكثيرا ما كان الانصار يمكثون بلا عطاء (٦) ولا ذنب لهم الا انهم ينصرون أهل البيت . وقطع عبد الملك بن مروان أعطية آل سفيان مع انهم أمويون مثله ـ وانما فعل ذلك لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية (٧)

فلاغرو اذا اضطر الناس الى مسايرتهم والاذعان لهم وهم يعلمون انهم يخالفون الحق باذعانهم وقد يصرحون بذلك فيما بينهم . كما حدث لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فاقعده فى قبة حمراء وأقبل الناس يسلمون على معاوية بالخلافة ثم على ابنه يزيد بولاية العهد حتى جاء رجل منهم فسلم على الاثنين ثم رجع الى

(١) الاغانى ١٤٧ ج ١٦ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ١٠ (٣) الاغانى ١٠٥ ج ١٣ (٤) الاغانى ١١١ ج ٦ (٥) العقد الفريد ٤١ ج ٣ (٦) الاغانى ٦٢ ج ١٠ (٧) العقد الفريد ١٣٢ ج ١

معاوية فقال « يا أمير المؤمنين أعلم انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لاضعتها » وكان الاحنف بن قيس التميمي حاضرا فقال له معاوية «ما بالك لا تقول يا أبابحر» فقال « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت » فقال معاوية « جزاك الله على الطاعة خيرا » وأمر له بمال . فلما خرج لقيه ذلك الرجل فقال له « يا أبا بحر انى لأعلم ان شر من خلق الله هذا وابنه ولكنهم استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال فليس يطمع فى استخراجها الا بما سمعت » (١)

تدقيق على وبخل ابن الزبير

ومما ساعد الامويين على اصطناع الرجال بالاموال ان مناظريهم أهل البيت وعبد الله بن الزبير كانوا قليلى العطاء اما عن امساك أو عن ورع حتى قالوا «وما رؤى فى الناس أبخل من أهل البيت ولا من عبد الله بن الزبير » (٢) وكثيرا ما كان امساكهم سببا فى فشلهم وانحياز الناس الى بنى أمية ـ فمن أمثلة ذلك ان مصقلة بن هبيرة الشيبانى كان عاملا لعلى على ازدشير خره فرأى أسرى كان بعض رجال لعلى قد أسرهم فاشتراهم منه شفقة عليهم وهم ٥٠٠ انسان بخمسمائة ألف وأطلق سراحهم . فطالبه على بالمال فأدى نحو النصف وطمع بالباقى فالح عليه أصحاب على فقال مصقلة « أما والله لو كان ابن هند (يعنى معاوية) ماطالبنى بها ولو كان ابن عفان لوهبها لى » فقالوا « ان عليا لا يترك شيئا » فهرب مصقلة من ليلته ولحق بمعاوية (٣)

ومن أمثلة بخل ابن الزبير الذى أفسد عليه أمره ان أخاه مصعبا لما قتل المختار ابن ابى عبيد فى العراق واخضع العراق لاخيه وقد ساعده على ذلك وجوه أهل العراق فجاء بهم حتى أتى أخاه فى مكة وكان لائذا بالكعبة وقال له «يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا لتعطيهم من هذا المال » فقال عبد الله « جئتنى بعبيد أهل العراق لاعطيهم مال الله ؟ والله لا فعلت » فلما علموا ذلك وسمعوا منه جفاء انصرفوا من عنده وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب (٤) وكان ذلك سببا فى ذهاب دولة ابن الزبير

وقس على ذلك بخل العلويين فى فرض العطاء الا لاهل التقوى أو من فى

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) الأغانى ١٠٥ ج ١٣
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٣ (٤) العقد الفريد ١١٩ ج ١

معناهم . على حين ان بنى أمية كانوا يفرضون للرجل ولاهله وأولاده فقد فرض عبد الملك لعامر الشعبى (وما هو من رجال الحرب) الفين فى العطاء وجعل عشرين من ولده وأهل بيته فى الفين الفين من أجل حديث حدثه اياه(١). وكانوا يفرضون للشعراء أعطية معينة يقبضونها فى أوقاتها غير الجوائز فمنهم من عطاؤه ألفان أو أكثر أو أقل . واذا مدحوهم زادوا أعطيتهم ترغيبا لهم فى مدحهم ، وكذلك كان يفعل عمالهم فى سائر انحاء المملكة الاموية . وأهل التقى من الخلفاء لا يرون للشعراء حقا فى بيت المال (٢) فعمر بن عبد العزيز كان اذا أحرجه شاعر ولم ير مناصا منه اعطاه من ماله الخاص (٣)

على ان غير الاتقياء منهم كانوا يقطعون عطاء الشاعر اذا حاد عما يريدونه كما فعل عبد الملك بن مروان بابن قيس الرقيات لما مدحه وكان قد مدح مصعب ابن الزبير بأعظم من مدحه فقال له عبد الملك « والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء »(٤) وكان عمر بن الخطاب يحرض القراء على التماس الرزق من عند أنفسهم وألا يكونوا عالة على الناس (٥) فكيف الشعراء

الاستكثار من الاموال فى عصر الأمويين

وبذل الاموال لاصطناع الاحزاب جر بنى أمية الى خرق كثير من القواعد التى وضعها الخلفاء الراشدون لاقتضاء الاموال وانفاقها . فقد كانت الاموال التى ترد على بيت المال تعد ملكا للمسلمين وليس الخليفة أو عامله الا حافظا لها لينفقها فى مصالحهم وتدبير شؤونهم وله منها راتب معين يتناوله مثل سائر المسلمين وقد رأيت ان أبا بكر توفى وليس فى بيت ماله غير دينار وان عمر كان اذا احتاج الى المال فوق راتبه استقرضه من بيت المال حتى يؤديه من عطائه . وكان عمر يرى انه لا ينبغى ان يبقى فى بيت المال شىء ونهى عن اختزان المال وقد أشرنا الى غرابة هذا الرأى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . ونهى عمر أيضا عن الزرع « حرم على المسلمين اقتناء الضياع لان أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع من بيت المال

(١) الاغانى ١٧١ ج ٩ (٢) الاغانى ٩٩ ج ١٠ (٣) الاغانى ١١٨ ج ١٧
(٤) الفرج بعد الشدة ١٢٣ ج ٢ والاغانى ١٥٩ ج ٤ (٥) العقد الفريد ٢٣٦ ج ١

ـ أراد بذلك ان يبقوا جندا على أهبة الرحيل وان تبقى البلاد التى فتحوها فيئا يؤخذ من خراجها وجزية أهلها للانفاق على المسلمين. ووضعوا لكل من الخراج والجزية والصدقة احكاما لجمعها وتفريقها على مقتضى الشرع (١)

عمال بنى أمية

فلما اضطر بنى أمية الى اصطناع الرجال وجمع الاحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن أغضوا عن كثير من تلك الاحكام وتوفقوا الى عمال اشداء لا يبالون بالدين ولا أحكامه فى سبيل أغراضهم مثل زياد بن أبيه عامل معاوية وعبيد الله ابن زياد عامل ابنه يزيد والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان وخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم. فكان الخلفاء يكتبون الى عمالهم بجمع الاموال وحشدها والعمال لا يبالون كيف يجمعونها فقد كتب معاوية الى زياد يقول « اصطف لى الصفراء والبيضاء » فكتب زياد الى عماله بذلك وأوصاهم ان يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهبا ولا فضة (٢) وكان العمال من الجهة الاخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الاموال وليس ثمة من يحاسبهم وقد اطلق الخلفاء أيديهم فى الاعمال ترغيبا لهم فى البقاء على ولائهم. فكان العمال يختزنون لانفسهم الاموال الطائلة حتى بلغت غلة أحدهم ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم فى السنة وزادت ثروته على ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (٣) وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة حتى كتب أمية بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان يقول « ان خراج خراسان لا يفى بمطبخى » (٤) فلما رأى الخلفاء استئثار العمال بالاموال عمدوا الى مصادرتهم فكانوا اذا علموا بمال عند أحدهم انفذوا اليه من يقبض أمواله ويتولى العمل مكانه والكل طامعون بالكسب لانفسهم

وكان العمال لا يرون حرجا فى ابتزاز الاموال من أهل البلاد التى فتحوها عنوة لاعتقادهم انها فيىء لهم كما تقدم. وكقول عامل بنى أمية فى العراق «السواد بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه » . وقد سأل صاحب اخنا بمصر

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ٢٠٢ (طبعة ثانية) (٢) العقد الفريد ١٨ ج ١ وابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ (٣) الاغانى ٦٢ ج ١٩ وابن خلكان ٣٦١ ج ٢ (٤) الاغانى ٥٦ ج ١٣

عمرو بن العاص أن يخبره بما عليه من الجزية فأجابه « لو اعطيتنى من الارض الى السقف ما اخبرتك ما عليك انما انتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » (١) ومن قال ذلك يعد مصر فتحت عنوة . وقال غيره « الصغد بستان أمير المؤمنين »

الاسلام والجزية

فكان العمال يبذلون الجهد فى جمع الاموال بأية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة أو الصدقة والعشور . وأهمها فى أول الاسلام الجزية لكثرة أهل الذمة فكان عمال بنى أمية يشددون فى تحصيلها فأخذ أهل الذمة يدخلون فى الاسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لان العمال عدوا اسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبة فى الاسلام فطالبوهم بالجزية بعد اسلامهم . وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف (٢) واقتدى به غيره من عمال بنى أمية فى افريقية وخراسان وما وراء النهر فارتد الناس عن الاسلام وهم يودون البقاء فيه وخصوصا أهل خراسان وما وراء النهر فانهم ظلوا الى أواخر أيام بنى أمية لا يمنعهم عن الاسلام الا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد اسلامهم فبعث اليهم رجلا اسمه أبو الصيداء فقال الرجل « اخرج اليهم على شريطة ان من أسلم لا تؤخذ منه الجزية » فقال اشرس « نعم » فشخص الى سمرقند ودعا اهلها الى الاسلام على أن توضع الجزية عنهم . فسارع الناس الى الاسلام وقل الخراج فكتب عاملها الى اشرس « ان الخراج قد انكسر » فأجابه « ان فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغنى ان أهل الصغد واشباههم لم يسلموا رغبة فى الاسلام وانما اسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه » ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد وكتب العمال بذلك الى اشرس فأجابهم « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه » فأعادوا الجزية على من أسلم فامتنعوا واعتزلوا فى سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند وكانت بسبب ذلك فتنة ارتد عن الاسلام بسببها أهل الصغد وبخارا واستجاش الترك . وما زالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ فأعلن سنة ١٢١ هـ انه وضع

(١) المقريزى ٧٧ ج ١ (٢) راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ٢١

الجزية عمن اسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فلم يمض اسبوع حتى اتاه ٣٠٫٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية (١)

ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب (٢) والاستئثار بالفيء . ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك الا عمر بن عبد العزيز فانه لم ينفق من بيت المال درهما على نفسه ولا أخذ منه شيئا (٣) وأمر أهله بذلك فلم يلق سامعا . وهو الذى كتب الى عماله لما ولى الخلافة « ضعوا الجزية عمن أسلم ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ولم تطل مدة حكمه (٤) . وأراد يزيد بن الوليد أن يتشبه به فتبعه . وكان فى جملة ضرائبهم ان يأخذ الخليفة لنفسه نصف دية المعاهد فأبطلها عمر بن عبد العزيز (٥)

الصدقة والرشوة

واضطر الامويون للاستكثار من الاموال ان يمدوا أيديهم الى اموال الصدقة وهى الزكاة تؤخذ من اغنياء المسلمين وتنفق فى فقرائهم خلافا لسائر أموال الدولة كالفيء والغنيمة والجزية فانها تفرق فى المقاتلة والجند . فكان بنو أمية كثيرا ما يعطون جوائز الشعراء ونحوهم من أموال الصدقة (٦) وحقها ان تعطى من مال الخليفة الخاص أو من مال الفيء ونحوه باعتبار ان تلك الجائزة مما ينفع المسلمين فى تأييد دولتهم . أو لعل الخليفة اعتبر الشعراء من فقراء المسلمين فأعطاهم من الصدقة وهو خلاف المألوف لانه انما اجازهم لانهم مدحوه فعليه ان يجيزهم من ماله الخاص . وكانوا أيضا كثيرا ما يعطون ارزاق المسلمين من مال الصدقة والمحاربون يستنكفون من ذلك ويعدونه حطة فى مقامهم كما اتفق لاهل المدينة وقد جاءهم الخليفة عبد الملك حاجا وأمر للناس بالعطاء فخرجت البدر مكتوب عليها « الصدقة » فأبى أهل المدينة قبولها وعدوا ذلك اهانة لهم تعمدها عبد الملك لان أهل المدينة من انصار أهل البيت وقالوا « انما عطاؤنا من الفيء » فضرب عبد الملك مثلا كشف لهم به عما بينهما من التضاغن من عهد مقتل عثمان ويوم الحرة

(١) ابن الاثير ٢٦١ ج ٤ و٦٨ و١١١ ج ٥ (٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ (٤) المقريزى ٧٨ ج ١ (٥) الاغانى ١٣ ج ١٥ (٦) الاغانى ١٥٦ ج ١١

وكانوا كثيرا ما يعمدون اذا أعوزهم المال الى بيع الولايات بالرشوة وخصوصا فى أيام ضعفهم وفساد دولتهم . فان الوليد بن يزيد لما تولى الخلافة زاد اعطيات الناس ترغيبا لهم فى طاعته فلم يجد مالا يكفيه ولم يكن عنده من العمال الاشداء من يوافيه بالاموال حالا فكان من جملة ما استعان به على جمع الاموال انه باع ولاية خراسان واعمالها ليوسف بن عمر وصارت الولايات فى أيامه بالرشى للخليفة وأصحابه (١) وكانت الولايات تعطى فى أيام أسلافه جزاء على خدمة كما اعطى معاوية عمرو بن العاص مصر مكافأة لنصرته على على فاقتدى به خلفاؤه . فكانوا اذا التمس أحدهم الاحزاب اطمع رؤساءها بالولايات وصار ذلك مشهورا حتى أصبح الامير اذا دعى لنصرة أحد الخلفاء اشترط مالا أو ولاية معينة . ومما يحكى ان عبد الملك بن مروان فى أثناء محاربته مصعب بن الزبير فى العراق بعث الى أهل الكوفة والبصرة يدعوهم الى نفسه ويمنيهم فأجابوه وشرطوا عليه شروطا وسألوه الولايات . ومن غريب الاتفاق ان اربعين رجلا منهم سألوه ولاية اصبهان . فقال عبد الملك لمن حضره « ويحكم ما اصبهان هذه ؟ » تعجبا ممن يطلبها (٢)

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الامويون الخلافة لانفسهم وهم يعلمون أن أهل البيت أحق بها منهم وان حجة أهل البيت فى طلبها مبنية على أساس صحيح كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ولكن العصبية كانت مع الامويين والقوة غالبة . أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت وتذكير الامويين بما يرتكبونه فى سبيل التغلب من الظلم والقسوة والتعدى ويعظونهم ويذكرونهم بتقوى الله . وكان معاوية لحلمه ودهائه يغضى عن أقوالهم ويقطع ألسنتهم بالعطاء والمحاسنة والحلم. فتعودوا ذلك وبالغوا فيه حتى اذا افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان عمد الى الشدة والعنف فحج سنة ٧٥ هـ بعد مقتل ابن الزبير ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت خطب فيهم خطابا قال فيه :

(١) ابن الاثير ١٢٥ و١٢٦ و١٣٢ ج ٥ (٢) الاغانى ١٦٢ ج ١٧

« أما بعد فانى لست بالخليفة المستضعف (يعنى عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعنى معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يعنى يزيدا) الا وانى لا اداوى هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم بى قناتكم وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم . وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم . والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه » فهو أول من نهى عن المعروف (١) فعظم ذلك على اعداء بنى أمية حتى تحسروا على أيام معاوية وقالوا قول ابن الزبير فيه لما جاءه نعيه « يرحم الله معاوية انا كنا لنخدعه فيتخادع لنا »

الاستهانة بالقرآن والحرمين

اما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف أحكام الدين ؛ وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك اقتداء بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ولا نظنه مقتديا بذلك لانه صرح باستهانة الدين منذ ولى الخلافة وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا ـ ذكروا انه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعدا والمصحف فى حجره فأطبقه وقال « هذا آخر العهد بك ، أو هذا فراق بينى وبينك » (٢) فلا غرو بعد ذلك اذا أباح لعامله الحجاج ان يضرب الكعبة بالمنجنيق وأن يقتل ابن الزبير ويجتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة (٣) والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا فى جوارها فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثا وهدموا الكعبة وهى بيت الله عندهم ، وأوقدوا النيران بين احجارها وأستارها (٤) مما لم يحدث مثله فى الاسلام . ودخلوا المدينة وهى أحد الحرمين وقاتلوا اهلها وسفكوا دماءهم لم يغلق لها باب الا احرق ما فيه حتى ان الاقباط والانباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من ارجلهن بسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت ارجلهم (٥)

ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبرا وانما أرادوا

(١) ابن الاثير ١٩٠ و٢٥١ ج ٤ (٢) ابو الفداء ٢٠٥ ج ١ وسراج الملوك ٩٦
(٣) العقد الفريد ٢٥٦ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٣٦ ج ٥ (٥) ابن خلكان ٢٧٤ ج ٢

بذلك تحقير أمر على وشيعته تأييدا لسلطانهم . ولهذا السبب أيضا لعنوه على المنابر وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه . وأول من قتل صبرا فى هذا السبيل حجر بن عدى الكندى فى أيام معاوية (١) وظلوا يلعنون عليا على المنابر الى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك

الخلافة والنبوة

وتوفق بنو أمية الى عمال أشداء زادوهم استبداداً وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف أحكام الدين . وأول من تجرأ على ذلك الحجاج ابن يوسف عامل عبد الملك فانه سمى الخليفة « خليفة الله » وعظم أمر الخلافة حتى فضلها على النبوة فكان يقول « ما قامت السموات والارض الا بالخلافة وان الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والانبياء والمرسلين لان الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه الى الارض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلا » واذا جاجه أحد فى ذلك قال « أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته » وكان عبد الملك اذا سمع ذلك اعجب به (٢) واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الاشداء كخالد القسرى عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج ، وخطب الناس فى مكة مرة فقال « أيها الناس أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أو رسوله اليهم » يعرض ان هشاما خير من النبى (٣) واقتدى بالعمال سائر المملقين من وجوه الدولة وفيهم جماعة كبيرة انما أسلموا رغبة فى الدنيا فزادوا الامور فسادا . وكانوا يملقون العمال من هذا القبيل ويجرئونهم على خرق حرمة الدين ـ ذكروا ان خالدا القسرى كان قليل العناية فى حفظ القرآن فاذا تلا آية أخطأ فيها وألحن فى نطقها فوقف مرة للخطابة فقال وأخطأ ثم ارتج عليه وفشل فنهض صديق له من تغلب فقال « خفض عليك أيها الامير ولا يهولنك فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن وانما يحفظه الحمقى من الرجال » فقال خالد « صدقت يرحمك الله » (٤)

فلا غرو بعد ذلك اذا قيل لنا ان الوليد بن يزيد سكير بنى مروان رمى القرآن

(١) المسعودى ٣٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ١٨ ج ٣ والمسعودى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٤ و١٣٠ ج ٥ والاغانى ٦٠ ج ١٩ (٤) الاغانى ٦٣ ج ١٩

بالنشاب وهو فى مجونه وسكره . فقد ذكروا انه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » فأمر بالمصحف فعلقوه وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقنى الوليد (١)

فلم يكن يهم بنى أمية نشر الاسلام وانما كان همهم الفتح والتغلب وحشد الاموال فتوقف نشر الاسلام على عهدهم فى الاطراف البعيدة. كالسند وتركستان مع رغبة أهلهما فيه وانما نفرهم منه شدة بنى أمية وجشعهم فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعا لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الورع وسار على خطوات سميه ابن الخطاب كتب الى ملوك السند وغيرهم يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانت سيرته قد بلغتهم فاسلموا وتسموا بأسماء العرب . فلما قتل عمر المذكور سنة ١٠١ هـ وعاد بنو أمية الى سابق سيرتهم ارتد أولئك عن الاسلام (٢)

وقس على ذلك ما ارتكبه الامويون من قتل أبناء على وصلبهم والمثلة بهم غير من قتلوه من التابعين وأهل الصلاح صبرا واكثرهم اقداما على ذلك عاملهم الحجاج ابن يوسف

الفتك والبطش فى عصر الأمويين

كان المسلمون فى أيام الراشدين يرون الطاعة للامام واجبة لا يحتاجون فى سياسة شؤونهم الى حيلة أو عنف ولا يحيدون عن الحق فى أعمالهم أو أقوالهم . اذا أذنب أحدهم اعترف بذنبه واذعن لما يفرضه الخليفة عليه من القصاص ونحوه فلم تكن الاحكام تحتاج الى بحث أو نقض أو حيلة ولا تنفيذها يفتقر الى شدة أو عنف . وربما اقتصر القصاص على التوبيخ أو اللوم واذا أخطأ الخليفة حكم على

(١) الاغانى ١٢٥ ج ٦ والمسعودى ١٣٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٧٣ ج ٤ و ٢٦ ج ٥

نفسه كما يحكم على رعيته . ولم يكن عندهم سجن يحبس فيه الناس وأول من وضع السجن معاوية وهو أيضا وضع الحرس (١) لقلة الحاجة الى ذلك فى عصر الراشدين فكان عمر بن الخطاب يأمر القائد من كبار الصحابة أن يأتيه فيأتى صاغرا مع علمه انه لو امتنع عن المجىء لعجز الخليفة عن استقدامه . وقد يأمر بجلد الرجل منهم فيذعن مطيعا . وكان عمر لا يتغاضى عن الذنب الصغير خوفا من الذنب الكبير ولذلك اشتهر بالحزم والصرامة

فلما تولى الخلافة معاوية وسلم الاعمال الى دهاته فى العراق وفارس ومصر وغيرها والمسلمون لا يزالون فى أريحيتهم وانفتهم وقد اطلق معاوية ألسنتهم بحلمه وسعة صدره خاف العمال أن يجر ذلك الى استفحال الامر فعمدوا الى الشدة . وأول من توخى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق ـ زعم انه يفعل ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب فى اقامة السياسات بالصرامة والحزم ولكنه أسرف وتجاوز الحد . وهو أول من شدد أمر السلطة وأكد الملك لمعاوية فجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة (٢) وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد فى خلافة يزيد بن معاوية وفى أيامه قام الحسين بن على يطالب بالخلافة وقد نقض بيعة يزيد وحمل على العراق فكتب يزيد الى ابن زياد « احبس على التهمة وخذ بالظنة غير أن لا تقتل الا من قاتلك (٣)

ولما أفضت ولاية العراق الى الحجاج بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة أراد الحجاج أن يتشبه بزياد وابنه بالشدة والعنف فبالغ فى ذلك حتى أهلك ودمر (٤) ولم يكن الحجاج أشد وطأة من زياد أو ابنه ولكن زيادا كان يزجره حلم معاوية وابن زياد يزجره أمر يزيد أن لا يقاتل الا من قاتله . واما الحجاج فقد اعانته شدة عبد الملك على المبالغة فى الشدة فأكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين . ومن أقوال الخوارج فيهم « ان بنى أمية

(١) المقريزى ١٨٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٢٨ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٨ ج ٤
(٤) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ والبيان للجاحظ ١٧٥ ج ١ والعقد الفريد ٣ ج ٣

فرقة بطشهم بطش جبارين يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب » (١)

بسر بن ارطاة وقتل الاطفال

على ان سياسة بنى أمية كانت من أول أمرها مبنية على الشدة والحزم على ما تقتضيه سياسة الممالك فى ذلك العصر ، ثم تجاوزوا الحدود ولم يبالوا بالفتك والقتل فى سبيل تأييد دعوتهم والتغلب على اعدائهم . فكانوا يطلقون ايدى عمالهم فى الاحكام يقتلون ويصلبون على ما يتراءى لهم بدون مشورة الخليفة مع ان ذلك لم يكن جائزا فى أيام الراشدين لان الخليفة منهم كان وهو مقيم فى المدينة يدير شؤون الرعايا فى اطراف المملكة وهذا الذى أراد عمر بن عبد العزيز ان يرجع اليه فى أيام خلافته فلم يفسح له الاجل (٢) فلما مات كتب خليفته يزيد بن عبد الملك الى عماله أن يعودوا الى ماكانوا عليه قبلا من الشدة والبطش (٣)

فكان الخلفاء من بنى أمية يرون فى اطلاق أيدى عمالهم أو قوادهم تشجيعا لهم وتنفيذا لاغراضهم . وربما خرضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى فى أيام معاوية فانه ارسل بسر بن ارطاة بعد تحكيم الحكمين وعلى بن ابى طالب يومئذ حى وارسل معه جيشا . ويقال انه أوصاهم أن يسيروا فى الارض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة على ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان . فسار بسر على وجهه حتى انتهى الى المدينة فقتل فيها أناسا من أصحاب على وهدم دورهم ومضى الى مكة وغيرها يقتل ويهدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل على وابن عمه وكان غائبا فرارا من القتل فوجد بسر ابنين له صبيين اسماهما عبد الرحمن وقثم فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه (٤). وذكروا ان الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية فلما أراد بسر قتلهما قال الكنانى « تقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما » فقتله وقتلهما معه فصاحت امرأة من كنانة « يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين والله ما كانوا يقتلون فى الجاهلية ولا الاسلام، والله يا ابن ارطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » وقالت

(١) البيان ١٩٥ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٥ (٣) العقد الفريد ٢٦٥ ج ٢
(٤) الاغانى ٤٤ ج ١٥

أم الصبيين شعرا فى رثائهما كانت تنشده فى المواسم مطلعه :

يا من أحس بابنى اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

على اننا لا نظن معاوية كان راضيا عن ذلك العمل الفظيع لانه يخالف دهاءه وحلمه ونظنه اطلق يد بسر ولم يعين له حدودا وكان بسر سفاكا للدماء فلم يستثن طفلا ولا شيخا . ويؤيد ذلك ما أراد فعله باولاد زياد بن أبيه بعد موت على اذ خاف معاوية زيادا وكان عامله على فارس فأمر بسر ان يستقدمه اليه فامسك بسر أولاد زياد وكتب اليه « اما تأتى حالا أو أقتل أولادك » فلما بلغ معاوية ذلك منع بسرا من قتلهم (١)

فاذا كان هذا حال العمال فى أيام معاوية مع حلمه وطول اناته فكيف فى أيام عبد الملك مع شدته وفتكه . فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرا ولو كانوا ١٢٠,٠٠٠ وهل يستبعد أن يكون فى حبسه عند موته ٥٠,٠٠٠ رجل و٣٠,٠٠٠ امرأة (٢) وكان عبد الملك أشد وطأة منه واجرأ على الغدر والفتك بل هو اول من غدر فى الاسلام بعد ان اعطى الامان — وذلك ان عمرو بن سعيد الاشدق أحد امراء عبد الملك طمع بالملك لنفسه فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ هـ لحرب مصعب بن الزبير فى العراق وجاء الى الشام ووضع يده عليها . فبلغ عبد الملك ذلك وهو فى الطريق فرجع حالا الى دمشق وقاتل عمرا أياما فلم يقدر عليه فخاف على سلطانه فاحتال فى عقد الصلح فرضى عمرو وكتبا بينهما كتابا فيه أمان عبد الملك له . فاطمأن خاطر عمرو المذكور . وخرج الى الخليفة حتى أوطأ فرسه أطناب عبد الملك ، ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق

وبعد دخوله باربعة أيام ارسل الى عمرو فأجابه انه آت العشية واتاه فى مئة من مواليه ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بنى مروان وقد بقى مواليه خارجا . فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ثم أمر أحد الغلمان ان يأخذ سيفه وقال له « اتطمع ان تجلس معى متقلدا سيفك » فاعطاه السيف . ثم قال عبد الملك « يا أبا أمية (عمرو) انك حينما خلعتنى آليت بيمين ان أناملأت عينى منك وأنا مالك لك ان أجعلك فى جامعة » فقال له الحضور من

(١) ابن الاثير ١٩٥ و٢١١ ج ٣ (٢) المسعودى ١١٣ ج ٢ والكشكول ٣٢

بنى مروان « ثم تطلقه يا أمير المؤمنين » قال « نعم، وما عسيت أن أصنع بابى أمية» فقال بنو مروان لعمرو « ابر قسم أمير المؤمنين » فقال « قد ابر الله قسمك يا أمير المؤمنين » فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال « يا غلام قم فاجمعه فيها » فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو « اذكرك الله يا أمير المؤمنين ان تخرجنى فيها على رؤوس الناس » فقال « أمكر يا أبا أمية عند الموت لا والله ما كنا لنخرجك فى جامعة على رؤوس الناس» ثم جذبه جذبة فوقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته فقال عمرو « اذكر الله يا امير المؤمنين كسر عظم منى فلا تركب ما هو أعظم من ذلك » فقال عبد الملك « والله لو اعلم انك تبقى على لو ابقيت عليك وتصلح قريش لاطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدة قط على ما نحن عليه الا اخرج احدهما صاحبه » فلما رأى انه يريد قتله قال « أغدر يا ابن الزرقاء » ثم قتله عبد الملك (١)

وترى مما دار بينهما ان الذى جر عبد الملك الى هذا الغدر كثرة الطامعين بالسلطة ولا رادع لهم من عند أنفسهم كما كانوا فى عصر الدين والتقوى فأصبح القوى يأكل الضعيف ومن سبق الى قتل صاحبه ملك ـ وهى سياسة الفتك ـ وقد نفعتهم هذه السياسة فى تأييد سلطانهم ثم صارت سنة فيمن ملك بعدهم من بنى العباس وغيرهم . وآخر حادثة جرت من هذا القبيل فتك محمد على باشا بالمماليك ـ وقد عمد بنو أمية الى ذلك استعجالا للنصر وتخلصا من أسباب النزاع فاذا خرج عليهم خارج جعلوا همهم قتله لعلمهم انه اذا قتل تفرق أصحابه واذا لم يتفرقوا استرضوهم بالاموال أو نحوها

خزانة الرؤوس

وكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهابا لاحزابهم فيقطعون رأس الرجل ويطوفون به من بلد الى بلد أو يصلبون الجثة حيث تزدحم الاقدام ـ كانوا يفعلون ذلك على الخصوص برؤساء الاحزاب ولا سيما العلويين فكان العامل الاموى يقتل الخارج على الدولة ويبعث برأسه الى الخليفة فى الشام ليطاف به فى الاسواق . وأول رأس حمل من بلد الى بلد رأس عمر بن الحمق الخزاعى (٢) أحد قتلة عثمان واول رأس طيف به فى الاسواق رأس محمد بن ابى بكر (٣)

(١) ابن الاثير ١٤٦ ج ٤ (٢) المعارف ١٨٧ (٣) العقد الفريد ٣٩ ج ١

وأول رأس حمل الى الخلفاء رأسا هانىء وابن عقيل من أشياع الحسين فى الكوفة ثم رأس الحسين بن على أرسله ابن زياد من الكوفة الى يزيد بن معاوية فى الشام وكذلك فعل المختار برؤوس قتلة الحسين فانه أرسلها الى محمد بن الحنفية (١) وهكذا فعل الحجاج برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أصحابه فانه أرسلها من مكة الى عبد الملك بن مروان فى الشام . وكذلك فعل عبد الملك برأس مصعب بن الزبير فانه سيره من الكوفة الى الشام فنصب فيها (٢)

ومن غريب ما يحكى انهم لما جاءوا الى عبد الملك برأس مصعب بن الزبير وهو جالس فى طاق بالكوفة كان ابن عمير اللخمى حاضرا عنده فلما رأى الرأس بين يدى عبد الملك ارتعد . فقال له عبد الملك « مالك » قال « أعيذ بالله يا أمير المؤمنين كنت فى هذا الطاق بهذا الموضع مع عبيد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين ابن على بين يديه فى هذا المكان ثم كنت مع المختار بن ابى عبيد الثقفى فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت فيه رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك » فتشاءم عبد الملك من ذلك وقام فأمر بهدم ذلك الطاق (٣)

وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سنة فى عصر بنى أمية ومن جاء بعدهم من بنى العباس وصار للرؤوس فى دار الخلافة خزانة يحفظونها فيها كل رأس فى سفط خاص (٤) وجرت العادة أيضا بصلب الجثث أو الرؤوس . لكنهم لم يكونوا ينصبون الا رؤوس الخوارج (٥) ويطوفون بها على رمح وكان بنو أمية يعدون العلويين خوارج فكانوا اذا قتلوا احدهم صلبوه

ومن هذا القبيل تشديدهم فى العذاب قبل القتل ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لارهاب أعدائه واخضاعهم بالعنف . فمن ضروب التعذيب انه كان يأتى بالقصب الفارسى فيشقه ويشده على الرجل وهو عار ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت (٦) فعل ذلك ببعض الذين حاربوه مع ابن الاشعث ارهابا لسواهم . وكان الخوارج أيضا يفعلون نحو ذلك

---

(١) ابن الاثير ١١٩ ج ٤ (٢) ابن الاثير ١٦٢ ج ٤ (٣) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١
(٤) الفخرى ٢٤٨ ج ٢ (٥) العقد الفريد ٢٧٢ ج ٢ (٦) المعارف ١١٥

بمن ظفروا به من اعدائهم حتى لقد يضعون الاطفال فى القدور وهى تفور(١) اما اشتفاء أو انتقاما أو ارهابا

الموالى وأحكامهم فى عصر الأمويين

تكاثر الموالى

أفضت الخلافة الى الامويين فى أواسط القرن الاول للهجرة وعدد الموالى آخذ فى الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالاسر أو الاهداء . لان العمال كثيرا ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الابيض والاسود الى بلاط الخليفة هدية أو بدلا من الخراج أو نحوه (٢) والخليفة يفرق ذلك فى أهل بطانته أو قواده وهؤلاء يفرقونه فيمن حولهم أو يبيعونه فينتقل الى الناس على اختلاف طبقاتهم فمن انجب من أولئك الارقاء أو اعتق لسبب من الاسباب صار مولى وذلك كثير وعادى يومئذ ـ غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد وغيره . فتزايد عددَ الموالى فى عصر الامويين زيادة عظيمة وصاروا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم فاستخدمهم العرب فى مصالحهم الصناعية أو الزراعية أو الدينية أو العلمية واشتغلوا هم بالرياسة والسياسة ولذلك كان أكثر القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب من الموالى

وقد يثرى المولى فيبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من مواليه وهؤلاء اذا استطاع أحدهم أو بعض أولاده اقتناء العبيد واعتاقهم صاروا مواليه وهكذا حتى يتفق أحيانا أن يكون الرجل مولى مولى أو مولى مولى مولى أو أكثر ـ فعبد الله بن وهب الفقيه المالكى الشهير كان مولى يزيد بن رمانة وهذا مولى يزيد بن انس الفهرى . وكذلك حماد بن سامة والليث بن سعد وابو اسامة وغيرهم . وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان وسليمان مولى عبيد الله بن ابى بكرة وعبيد الله من موالى النبى (٣) . وأغرب من ذلك ان عبيد الله هذا ادعى انه عربى من ثقيف وادعى سليمان القهرمان انه عربى من تميم وادعى ابن مناذر انه عربى من بنى جبير بن

(١) المسعودى ١٢٣ ج ٢ (٢) المسعودى ٣٥٤ ج ٢ (٣) الاغانى ٩ ج ١٧

يربوع فيكون ابن مناذر مولى مولى مولى ودعيا مولى دعى مولى دعى . وقد بلغت نسبة الولاء عندهم الى خمس درجات فداود بن خالد بن دينار واخوته من أهل الحديث وكلهم من موالى آل حنين وآل حنين موالى مثقب ومثقب مولى مسحل ومسحل مولى شماس وشماس مولى العباس بن عبد المطلب (١) فهو مولى مولى مولى مولى مولى . وقس على ذلك مما يدل على تكاثر الموالى فى ذلك العصر وفيهم الفارسى والفرغانى والتركى والديلمى والخراسانى والرومى والبربرى والسندى وغيرهم يشتغلون بما يحتاج اليه العرب من المهن والصنائع والآداب

ناهيك بالموالى المحاربين فقد كان فى كل قبيلة من العرب عدد كبير منهم ربما زاد على عددها فاذا خرجت للحرب خرجوا معها وحاربوا فى سبيل نصرتها . اختلف عدد الموالى بالنسبة الى مواليهم باختلاف الاعصر ففى أيام على كانت نسبة الموالى الاحرار ممن يخرجون الى الحرب كنسبة واحد الى خمسة (٢) ثم تكاثر الموالى فى عصر الامويين حتى زاد عددهم على عدد الاحرار . وبنو أمية مع ذلك يحتقرونهم ويضطهدونهم وهم يصبرون على ذلك أو يفرون من سلطانهم الى أطراف المملكة . وممن فر من جور بنى أمية ميمون جد ابراهيم الموصلى المغنى المشهور (٣)

نقمة الموالى على العرب

فلما تكاثر الموالى ورأوا ما كان فيه الامويون من التعصب للعرب على سواهم ولا سيما الموالى حتى كانوا يستخدمونهم فى الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاء ولا شيئا من الغنائم أو الفيء عظم ذلك عليهم ورأوا فى نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بنى أمية وأصبحوا عونا لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج . فكل من قام لمحاربة الامويين استعان عليهم بالموالى والعبيد وهم الفئة المظلومة . واشهر من حاربهم بالموالى والعبيد المختار بن ابى عبيد الذى قام فى العراق للمطالبة بدم الحسين سنة ٦٦ هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية — فالمختار المذكور اطمع موالى العراق بالغنيمة واركبهم على الدواب وكانوا ناقمين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم فجاءوه منطوعين وجاءه عدد كبير من أباق العبيد وفيهم من ترك الاسلام غيظا من بنى أمية . فكان عدد الموالى فى جند المختار

(١) المعارف ١٩٧ (٢) ابن الاثير ١٧٣ ج ٣ (٣) الاغانى ٢ ج ٥

أضعاف عدد الاحرار (١) وقد أبلوا فى الحرب معه أكثر من بلاء الاحرار لنقمتهم على أسيادهم . ولذلك كان اكثر القتلى فى تلك الحرب من الموالى فقد بلغ عدد قتلاهم فى معركة سنة ٦٧هـ ٦٠٠٠ ليس فيهم من العرب الاحرار الا ٧٠٠ وسائرهم من الموالى (٢) وفاز المختار بالانتقام للحسين فوزا حسنا وقتل قتلته . ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار بمواليهم وعبيدهم بعثوا اليه يقولون « انك آذيتنا بموالينا فحملتهم على الدواب واعطيتهم فيئنا » فأجابهم « ان أنا تركت مواليكم وجعلت فيئكم لكم تقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير وتعطوننى على الوفاء عهد الله وميثاقه وما اطمئن اليه من الايمان ؟ » فلم يرضوا . والمختار أول من جند الموالى وفاز بهم فجرأهم ذلك على الدولة واستخفوا بها ونصروا أعداءها وأصبح الخلفاء العقلاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه . وأول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية فانه جعل لكل واحد ١٥ درهما فعبد الملك جعلها ٢٠ ثم أبلغها سليمان الى ٢٥ وجعلها هشام ٣٠ (٣) على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم لان العمال كانوا يستخدمونهم غالبا بلا عطاء ولا رزق (٤)

والمولى اذا آنس من مولاه رضاء ومحاسنة استهلك فى نصرته وكان لسيده ثقه فيه حتى خلفاء بنى أمية فقد كانوا يقربون جماعة من مواليهم يعهدون اليهم بمهامهم ويرفعون منزلتهم ويستشيرونهم فى أمورهم والموالى يخلصون لهم ويستميتون فى الدفاع عنهم كما كان موالى بنى هاشم يستميتون فى نصرة مواليهم وكانت تقوم المفاخرات بين الحزبين وأشهرها مفاخرات سديف وسياب وقد تقدم ذكرها

وقد يكون المولى من أصل رفيع أو يرتقى الى أعلى المراتب حتى فى أيام بنى أمية رغم اضطهادهم وتعصبهم عليهم وأعظم موالى العراق وأشهرهم فيروز مولى أهل الخشخاش فانه ولى الولايات وخرج مع ابن الاشعث على الحجاج فقال الحجاج « من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم » فقال فيروز « من جاءنى برأس الحجاج فله ١٠٠ر٠٠٠ درهم » فلما غلب ابن الاشعث هرب فيروز الى خراسان فقبض عليه ابن المهلب هناك وبعث به الى الحجاج فقتله بعد أن عذبه بسل القصب المشقوق على جسمه (٥)

(١) ابن الاثير ١٢١ ج ٤ (٢) ابن الاثير ١٣٦ ج ٤ (٣) العقد الفريد ٢٤٩ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٥) المعارف ١١٥

زواج الموالى بالعربيات

على أن الموالى فى أيام بنى أمية كانوا على الاجمال أعداء الدولة يقومون عليها مع القائمين انتقاما لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم فازداد الامويون تحقيرا لهم . فبعد أن قال النبى « مولى القوم منهم » منعوا زواجهم بالعربيات كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام (١) فاذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره الى الوالى طلقها منه كما حدث لاعراب بنى سليم فى الروحاء فانهم جاءوا الروحاء فخطب اليهم بعض مواليها احدى بناتهم فزوجوه فوشى بعضهم الى والى المدينة بذلك ففرق الوالى بين الزوجين وضرب المولى مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه فقال محمد بن بشير الخارجى فى ذلك بعد مدح عمل الوالى واسمه أبو الوليد :

حمى حدبا لحوم بنات قوم ... وهم تحت التراب أبو الوليد
وفى المثنين للمولى نكال ... وفى سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالى من مزيد
فأى الحق انصف للموالى ... من اصهار العبيد الى العبيد (٢)

وكثيرا ما كونوا يفعلون مثل ذلك بالموالى ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى فان عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى فتزوج عربية فضربه بلال بن أبى بردة بالسياط (٣)

على أن ذلك المنع كان شائعا قبل الاسلام وظل العرب يستنكفون منه رغم ماكان من نص الحديث المذكور وغيره . فسلمان الفارسى نصر المسلمين فى حروبهم من أيام النبى . وله فضل كبير فى الاسلام فخطب الى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لانه لم ير فى زواجه بها بأسا . أما ابنه عبد الله فلما بلغه ذلك غضب وشكاه الى عمرو بن العاص فقال له « هنيئا لك يا أبا عبد الله ان أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال « لا والله لاتزوجت اليه أبدا » (٤)

فتزويج المولى بالعربية بالغ الامويون فى تقبيحه تعصبا للعرب على سواهم وهو

(١) المسعودى ١٩٦ ج ١ (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١٤ (٣) المعارف ١٦٧
(٤) العقد الفريد ١٣٢ ج ٣

عندهم أقبح من زواج العربى بغير العربية . ولكن ذلك لم يكن محرما فى الدين ولا اعتبره أهل التقوى . فعلى بن الحسين بن على المعروف بزين العابدين وهو أحد الائمة الاثنى عشر ومن سادات التابعين كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس فلما توفى أبوه زوجها بشريد مولى أبيه وأعتق جارية له وتزوجها فكتب اليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك . فكتب اليه زين العابدين « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة وقد أعتق رسول الله صفية بنت حى بن اخطب وتزوجها وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش »

فالاسلام يرفع منزلة المولى وأما الامويون فرأوا تحقيره باعتبار انه غير عربى وشاع ذلك فى أيامهم وأصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالى . ومن أشعارهم فى رجل من بنى عبد القيس بالبحرين زوج ابنته من أحد الموالى قول ابى بجير يؤنب آل عبد القيس لتزويجهم الموالى ومنهم الزارع والتاجر قال :

أمن قلة صرتم الى أن قبلتم ... دعارة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومى وأسود فاحم ... وأبيض جعد من سراة الاحامر
شكولهم شتى وكل نسيبكم ... لقد جئتم فى الناس احدى المناكر
متى قال انى منكم فمصدق ... وان كان زنجيا غليظ المشافر
أكلهم وافى النساء جدوده ... وكلهم أوفى بصدق المعاذر
وكلهم قد كان فى أولية ... له نسبة معروفة فى العشائر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم ... فجدعا ورغما للانوف الصواغر
فهلا أتيتم عفة وتكرما ... وهلا وجلتم من مقالة شاعر
تعيبون أمرا ظاهرا فى بناتكم ... وفخركم قد جاز كل مفاخر
متى شاء منكم مغرم كان جده ... عمارة عبس خير تلك العمائر
وحصن بن بدر أو زرارة دارم ... وزبان زبان الرئيس بن جابر
فقد صرت لا أدرى وان كنت ناسيا ... لعل تجارا من هلال بن عامر
وعل رجال الترك من آل مذحج ... وعل تميما عصبة من يحامر
وعل رجال العجم من آل عالج ... وعل البوادى بدلت بالحواضر
زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من اولاد عمرو بن عامر

بنو الاصفر الاملاك اكرم منكم وأولى بقربان ملوك الاكاسر
أأطمع فى صهرى دعيا مجاهرا ولم تر شرا من دعى مجاهر
ويشتم لؤما عرضه وعشيره ويمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

وغرس هذا الاعتقاد فى أذهان الناس حتى ان الموالى انفسهم كانوا يستنكفون من تزويج المولى بالعربية ـ ذكروا ان ابنا لنصيب المغنى الشهير وهو مولى أحب بنت مولاه وكان مولاه قد مات فخطبها من أخيه فأجابه الى طلبه فعرف نصيب بذلك فجمع وجوه الحى فلما حضروا أقبل نصيب الى أخى مولاه وقال له «أزوجت ابنى هذا من ابنة أخيك» قال «نعم» فقال نصيب لعبيد له سود «خذوا برجل ابنى هذا فجروه فاضربوه ضربا مبرحا» ففعلوا ثم قال لاخى مولاه «لولا انى اكره أذاك لاحقتك به» ثم نظر الى شاب من اشراف الحى فزوجه الفتاة وأنفق على العقد من جيبه (٢)

ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب امرأة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل ما لم يستشر مولاه فاذا أحب رجل ان يخطب فتاة من بنات الموالى لا يذهب الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها من مواليها فان رضى مولاها زوجت والا فلا . وان زوجها الاب أو الاخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها عد ذلك سفاحا (٣)

وجملة القول ان تعصب بنى أمية للعرب جرهم الى تحقير غير العرب وخصوصا الموالى فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين فى اخراج الدولة من أيديهم

اهل الذمة وأحكامهم فى عصر الأمويين

عهود أهل الذمة فى أول الاسلام

الذمة فى اللغة العهد والامان والضمان وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين . قيل لهم ذلك لانهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم واكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن «أهل

(١) العقد الفريد ٢٣٢ ج ٣ (٢) الاغانى ١٣٦ ج ١ (٣) العقد الفريد ٧٣ ج ٢

الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس التوراة والانجيل وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرا . وفى الحديث النبوى أقوال كثيرة بمحاسنة أهل الذمة وخصوصا قبط مصر فقد رووا عن النبى انه قال « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » اشارة الى ان أم اسماعيل أبى العرب منهم وقال « الله الله فى أهل الذمة أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فان لهم نسبا وصهرا »

وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشا للفتح أوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرا ولا سيما النصارى ورهبانهم . واذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية فى مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم . ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الاحوال وعلى مقتضى التراضى بين المسلمين وأهل الكتاب ولكل صلح شروط تختلف باختلاف البلاد ولكنها فى كل حال تقضى على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم واذا عرض للمسلمين مايمنع حمايتهم جاز لاهل الذمة الامساك عن الدفع (١)

وفى تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لاهل الذمة عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم فى مقابل ما يؤدونه من الجزية ككتاب النبى الى صاحب ايلة (فى العقبة) والى أهل اذرح فى اثناء غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة وهاك كتاب النبى الى صاحب ايلة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذه امنة من الله ومحمد رسول الله ليحيى بن روبة وأهل ايلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » (٢)

وهاك كتابه الى أهل اذرح وأهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمد رسول الله الى بنى حبيبة وأهل مقنا سلم انتم فانه أنزل على انكم راجعون الى قريتكم فاذا جاءكم كتابى هذا فانكم آمنون

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٦٩ و ٢١٠ طبعة ثانية (٢) ابن هشام ٤٠ ج ٣

ولكم ذمة الله وذمة رسوله وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به . لا شريك لكم فى قريتكم الا رسول الله ولا ظلم عليكم ولاعدوان وان رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فانّ لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول اللهوان عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخيلكم وربع ما صارت عركم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثريتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة فان سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر فى بنى حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له ومن اطلعهم بشر فهو شر له وليس عليكم امير الا من أنفسكم أو أهل بيت رسول الله . وكتب على بن ابى طالب فى السنة التاسعة» (١)

واقتدى بالنبى قواده فى اثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس وكتبوا العهود لاهل الذمة على نحو ما تقدم فى مقابل الجزية ـ منها عهد خالد بن الوليد الذى كتبه لاهل الشام وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما اعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية » (٢)

واليك صورة عهد أبى عبيدة الى أهل بعلبك :

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم وأهل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة فان مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ساروا الى حيث أرادوا ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ولتجارهم ان يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التى صالحنا عليها وعلى من أقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيدا » (٣)

وقس عليه عهود سائر الفاتحين مثل عمرو بن العاص وسعد بن ابى وقاص وغيرهما فى مصر والعراق وفلسطين وفارس وافريقية والاندلس وغيرها على انهم كانوا يشترطون فى الجزية أن يؤديها أهل الذمة عن يد وهم صاغرون

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٦٠ (٢) البلاذرى ١٢١ (٣) البلاذرى ١٣٠

أما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقا باختلاف البلاد والاحوال التى فتحت بها ، فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق

العهدة النبوية

وبين أيدى الناس نسخ من عهد يقولون ان النبى كتبه الى النصارى ورهبانهم يسمونه العهدة النبوية والنسخ المذكورة تختلف نصا وتتفق مغزى . ويقولون ان العهد المذكور كتب بخط على بن أبى طالب ووضع فى مسجد النبى فى السنة الثانية للهجرة وحملت منه نسخ الى الاديار ومن ذلك نسخة كانت محفوظة فى دير طورسينا فنقلها السلطان سليم الفاتح العثمانى الى الاستانة فى أوائل القرن السادس عشر للميلاد بعد ان عرضها على مجلس شرعى فنقلوها الى اللغة التركية وأبقوا النسخة التركية فى الدير وصورة الاصل العربى مع عهود برعاية حقوقهم الواردة فى نص ذلك العهد وحملوا النسخة العربية الاصلية الى الاستانة (١) — واليك نص العهدة النبوية نقلا عن كتاب منشئات سلاطين لافريدون بك بعد البسملة (٢)

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله الى كافة الناس اجمعين رسوله مبشرا ونذيرا ومؤتمنا على وديعة الله فى خلقه لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما كتبه لاهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الارض ومغاربها قريبها وبعيدها فصيحها وعجمها معروفها ومجهولها جعل لهم عهدا فمن نكث العهد الذى فيه وخالفه الى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثا ولميثاقه ناقضا وبدينه مستهزئا وللعنته مستوجبا سلطانا كان أم غيره من المسلمين — وان احتمى راهب أو سائح فى جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة فانا أكون من ورائهم اذب عنهم من كل غيرة لهم بنفسى وأعوانى وأهل وملتى وأتباعى لانهم رعيتى وأهل ذمتى وأنا اعزل عنهم الاذى فى المؤن التى يحمل أهل العهد من القيام بالخراج الا ما طابت له نفوسهم وليس عليهم جبر ولا اكراه على شىء من ذلك ولا بغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سائح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم

(١) الهلالان ١٥ و١٧ من السنة السابعة (٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة)

ولا يدخل شيء من مال كنائسهم فى بناء مساجد المسلمين ولا فى بناء منازلهم فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وعهد رسوله ولا يحمل على الرهبان والاساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة وانا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر فى المشرق أو المغرب والجنوب والشمال وهم فى ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه وكذلك من يتفرد بالعبادة فى الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه لا خراج ولا عشر ولا يشاطرون لكونه برسم افواههم ولا يعاونون عند ادراك الغلة ولا يلزمون بخروج فى حرب وقيام بجبرية ولا من اصحاب الخراج وذوى الاموال والعقارات والتجارات مما هو اكثر من اثنى عشر درهما بالجملة فى كل عام ولا يكلف أحد منهم شططا ولا يجادلون الا بالتى هى أحسن ويحفظونهم تحت جناح الرحمة يكف عنهم اذية المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا — وان صارت النصرانية عند المسلمين فعليها برضاها ويمكنها من الصلاة فى بيعها ولا يحال بينها وبين هوى دينها ومن خان عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ويعاونون على مرمة بيعهم ومواضعهم وتكون تلك مقبولة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح بل المسلمون يذبون عنهم ولا يخالف هذا العهد أبدا الى حين تقوم الساعة وتنقضى الدنيا » اه

والغالب فى اعتقادنا ان النبى اذا كان قد اعطى عهدا للنصارى والرهبان عموما فهو غير هذا العهد أو لعله كان مختصرا وطولوه أو تنوسى وضاع اصله فكتبوه من عندهم أو ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند أنفسهم لغرض سياسى اذ لم يذكر خبر هذا العهد أحد من مؤرخى الفتوح أو غيرهم من كتاب المسلمين فى الازمنة الاولى فضلا عما فى عبارته وألفاظه مما لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وخصوصا فى السنة الثانية للهجرة

عهد عمر

ويذكرون أيضا عهدا يعرف بعهد عمر بن الخطاب لاهل الشام أشار اليه غير واحد من مؤرخى المسلمين وقد أورده بعضهم بنصه منهم ابو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ أورده فى كتاب «سراج الملوك» نقلا عن عبد الرحمن بن غنم الاشعرى المتوفى سنة ٧٨ واليك صورة العهد المذكور برواية ابن غنم قال :

« كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة (كذا) انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا تحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار . وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان أراد وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور . وأن نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع اصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شىء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم) فلما أتيت عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم وضمنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) فكتب اليه عمر (ان امض ما سألوه وألحق فيه حرفين أشترطهما عليهم مع ما شرطوه على انفسهم ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده » اهـ(١)

ويلحق بالعهد المذكور أحكام تتعلق بالكنائس وضعها عمر أيضا وذلك انه أمر بهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع من ان تحدث كنيسة بعد الاسلام

(١) سراج الملوك ٢٨٣

وامر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه (١)

وترى فى نص هذا العهد ضغطا على النصارى وتصغيرا لهم خلافا لما جاء فى سائر عهود الامان أو كتب الصلح فى صدر الاسلام وخلافا لما هو معروف من عدل عمر بن الخطاب ورفقه بأهل الذمة كما يستدل من سيرة حياته فانها تدل على صدق لهجته فى الفكر والقول والفعل فكان اذا أساء مسلم الى مسيحى اقتص له منه ولو كان المسلم من كبار الصحابة كما اقتص لذلك القبطى من عمرو بن العاص وابنه وقال لعمرو « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا » (٢)

فترى لاول وهلة تناقضا بين هذه المناقب ونص هذا العهد فيتبادر الى الذهن انه موضوع بعد عصر عمر بأزمان كما قلنا عن نص العهدة النبوية ولكن حاله يختلف عن حالها بما يرجح صحته فلننظر اولا فى صحة نسبته الى عمر ثم فى سبب التناقض الظاهر بينه وبين مناقبه

نسبة هذا العهد الى عمر

الارجح فى اعتقادنا ان عمر كتب عهدا لنصارى الشام ان لم يكن هذا هو بنصه فهو بمعناه على الاقل وسبب هذا الترجيح :

١ ـ ان العهد المذكور وارد فى كتب المسلمين بنصه الاصلى بطريق الاسناد فالطرطوشى وان كان من أهل القرن السادس للهجرة فانه أورد نص العهد بطريق الاسناد الى الراوى الاصلى على عادة المؤرخين المحققين فى أوائل الاسلام مما يدل على انه نقله من كتاب قديم

٢ ـ ان « سراج الملوك » الذى أورد نص هذا العهد هو من كتب الادب والسياسة المهمة وليس من كتب الفكاهة ومؤلفه من أكبر علماء الاندلس صحب أبا الوليد الباجى وأخذ عنه مسائل الخلاف وأجاز له وقرأ الفرائض والحساب والادب وجاء بغداد ومصر وتفقه على أبى بكر الشاشى وعلى أبى احمد الجرجانى وأتى الشام وسكنها ودرس بها وكان اماما فقيها عالما عاملا زاهدا ورعا . وكان مع ذلك متعصبا على النصارى يرى تحقيرهم واتفق انه دخل على الافضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بمصر وبجانب الافضل رجل نصرانى فوعظ الافضل حتى بكى ثم أنشد :

(١) سراج الملوك ٢٨٦ (٢) الجزء الاول من هذا الكتاب ٦٨ طبعة ثانية

يا ذا الذى طاعتـه قربة وحقـه مفـترض واجب
ان الذى شرفت من أجله يزعم هـــذا انه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الفضل من موضعه (١) ولعل تعصبه هذا حمله على اثبات هذا العهد فى كتابه مع رغبة اكثر الذين سبقوه فى اغفاله لما توهموا فيه من المغايرة لمناقب الخلفاء الراشدين . ولا يقال ان الطرطوشى وضع هذا العهد من عند نفسه لان من كان فى منزلته من الزهد والتقوى ينزه نفسه عن الكذب

٣ ـ ان اكثر مواد هذا العهد واردة فى كتب الفقه من أحكام أهل الذمة كما وردت فى هذا العهد بمعناها الحرفى تقريبا (٢) واكثر هذه الاحكام كتب قبل زمن الطرطوشى . ناهيك بما جاء من ذلك فى كتب السياسة والادارة وبعضها أشار الى هذا العهد اشارة صريحـة وأورد بعض نصه . فقـد جاء فى كتاب الاحـكام السلطانية للماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (أى قبل الطرطوشى بخمس وسبعين سنة) بباب الجزية والخراج قوله : « واذا صولحوا (النصارى) على ضيافة من مر بهم من المسلمـين قدرت عليهم ثلاثة أيام لا يزادون عليهـا كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة وتبيت دوابهم من غير شعير وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن ـ الى أن قال ـ ويشترط عليهم فى عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب أما المستحق فستة شروط (١) ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيـه ولا تحريف له (٢) ان لا يذكروا رسـول الله « صلعم » بتكذيب لـه ولا ازدراء (٣) ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه (٤) ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح (٥) ان لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه (٦) ان لا يعينوا أهل الحرب ولا يأووا اغيناءهم . فهـذه الستة الحقوق ملتزمة فتلزم بغير شرط وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم . وأما المستحب فستة أشياء (١) تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وسد الزنار (٢) ان لا يعلو على المسلمين فى الابنية . . (٣) ان لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم (٤) ان لا يجاهروهم بشرب الخمور ولا باظهار صلبانهم (٥) ان يخفوا دفن موتاهم (٦) ان يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا الخ »(٣)

(١) ابن خلكان ٤٧٩ ج ١ (٢) الهداية ٥٧٤ (٣) الماوردى ١٣٨

فقول الماوردى هذا يكاد يكون نص عهد عمر حرفيا بعد الترتيب والتبويب . فالعهد المذكور كان معروفا قبل كتاب سراج الملوك . ويؤيد ذلك ان ابن الاثير أشار اليه اشارة تدل على اعترافه بفحواه ونسبته الى عمر كقوله فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ (وأخرج توقيع الخليفة بالزام أهل الذمة بالغيار ولبس ما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (١)

٤ ـ ان الخلفاء الاولين فى القرون الاولى للاسلام كانوا اذا أرادوا تجديد عهود أهل الذمة ولا سيما النصارى فرضوا عليهم مثل فحوى هذا العهد من تغيير الزى ونحوه مما يدل على اتصال هذا العهد بالقرن الاول وأقدمهم عمر بن عبد العزيز الخليفة التقى المشهور باقتفائه آثار سميه وجده لامه عمر بن الخطاب وهو أول خليفة أموى أراد رد النصارى الى ما شرطه عليهم عمر وكانوا قد اغفلوا أكثر شروطه وخصوصا من حيث اللباس وتشبهوا بالمسلمين بلبس العمامة فأمرهم ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشىء من الاسلام. وقس على ذلك سائر الخلفاء الذين اضطهدوا النصارى فانهم كانوا يرجعون الى فحوى عهد عمر كما سترى

عهد عمر ومناقبه

أما ما يظهر من التناقض بين هذا العهد ومناقب عمر ففيه نظر ولا بد فى بيانه من المقابلة بين مناقب عمر وفحوى ذلك العهد :

«مناقب عمر بن الخطاب» : أظهر مناقب عمر العدل مع الصرامة وحرية الضمير والشدة . والتقوى مع الغيرة الشديدة على الاسلام والرغبة فى تأييده ونشره . فقد كان عادلا حتى لا يبالى أن يحكم على ابنه أو على نفسه فهو مثال للعدل مجسم لا يزال المسلمون الى اليوم يتمثلون بأحكامه ويحاولون الاقتداء به ولم يستطع أحد منهم أن يدرك شأوه . وكانت غيرته على الاسلام لا مثيل لها فلا يعمل عملا أو يقول قولا الا وهو ينظر من ورائه الى نشر الاسلام ورفع مناره وجمع كلمة العرب فى نصرته . فالعدل يقضى عليه ان ينصف أهل الذمة ويحاسنهم ولكن رغبته فى نشر الاسلام كانت تظهر من خلال ذلك الانصاف . فقد اطلق حرية الدين فى مملكته وأبقى أهل الذمة على ما كانوا عليه من أمر دينهم وطقوسهم

(١) ابن الاثير ٧٦ ج ١٠

وقسسهم وكنائسهم ولكنه منعهم من احداث كنائس جديدة لكى تنحصر النصرانية فيتغلب الاسلام عليها ثم يمحوها. والعدل قضى عليه أن يحسن الى نصارى العرب مكافأة لنصرتهم المسلمين فى العراق ففرض عليهم الصدقة بدلا من الجزية ولكن رغبته فى جمع كلمة العرب تحت لواء الاسلام قضت بالاشتراط عليهم ان لاينصروا أولادهم (١)

« فحوى عهد عمر » : وفحوى العهد المذكور يرجع الى أربعة شروط أولية وهى (١) ألا يحدث النصارى معبدا (٢) أن ينزلوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام (٣) ألا يأووا فى كنائسهم جاسوسا ولا يكتموا غشا للمسلمين (٤) ألا يقلدوا المسلمين بشىء من اللباس أو الركوب أو تعلم القرآن أو نقش اسمهم بالعربية على آختامهم . وانه بغير هذه الشروط لا يكون لهم أمان على أنفسهم وذراريهم وأموالهم

فالشرط الاول ينطبق على رغبة عمر فى تأييد الاسلام ونشره كما تقدم . والشرط الثانى تستلزمه حال المسلمين فى بلاد الفتح فقد كانوا غرباء بين أهل الذمة والعرب أهل ضيافة ولم يكن أهل تلك البلاد يألفون تلك العادة فجعلها عمر شرطا واجبا عليهم رحمة بالمسلمين فى اسفارهم للحرب أو غيرها. أما الشرطان الثالث والرابع فلابد فى تطبيقهما على أخلاق عمر من مقدمة صغيرة :

نصارى الشام وقيصر الروم

أول ما يلاحظ فى هذا العهد أن عمر أخذه على نصارى الشام دون سائر أهل الذمة فى الشام ودون نصارى سائر الامصار . فهو لا يسرى على قبط مصر أو نبط العراق ولا على صابئة حران ولا مجوس فارس ولا على اليهود فى بلد من البلاد . فلا بد لذلك من سبب متصل بما يحواه ذلك العهد من الشدة والا فلماذا لم يجعله عاما على سائر بلاد الاسلام ولماذا لم يدخل فيه اليهود والصابئة وغيرهم من أهل الذمة . وزد على ذلك انهم ينسبون الى عمر عهدا (٢) آخر لاهل الذمة كافة . وليس فيه ضغط ولا تضييق وانما مرجعه الى التسامح والرعاية والحماية ويشبه العهدة النبوية باكثر نصوصه . ورأينا فيه مثل رأينا فى تلك العهد : لان

(١) المعارف ١٩٣ والبلاذرى ١٨٣ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٢ (٢) قاموس الادارة والقضاء (مادة بطركخانة) نقلا عن منشئات سلاطين

عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام ولم يذكره أحد من كتاب المسلمين القدماء ولكنه يوافق روح ذلك العصر بفحواه لشابهته اكثر عهود الصلح التى كتبت يومئذ وذكرنا بعضها فيما تقدم . فمن المعقول ان يعطى عمر لاهل الذمة عهدا بهذا المعنى لانه ينطبق على عدله ورفقه فى معاملتهم وهو عام لهم يشمل كل طوائفهم

أما العهد الذى نحن فى صدده فقد أعطى لنصارى الشام على الخصوص وكأنه اختصهم بالتضييق . فهو لم يفعل ذلك الا لسبب دعاه اليه . والغالب فى اعتقادنا انه اشترط هذه الشروط صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى أهلها النصارى اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهى أقوى الجامعات فى الشرق من أقدم ازمانه الى هذا اليوم . فكل طائفة من الطوائف الشرقية تفضل ان يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان ظالما على ان تخضع لحاكم من غير دينها ولو كان عادلا . وفى التواريخ شواهد كثيرة تؤيد هذا القول حتى فى عصرنا الحاضر مع ما داخل نفوس المشارقة من التسامح الدينى . فان كل طائفة من أهله تفضل أن يحكمها ابن دينها لا تبالى بعدله أو ظلمه . النصرانى يفضل حاكما مسيحيا والمسلم يفضل حاكما مسلما فكيف بتلك العصور والدين مرتبط بالسياسة

ونصارى الشام أذعنوا للجزية ودخلوا فى سلطان المسلمين وظلوا على ماكانوا فيه من حيث الدين وطقوسه يقيمون الصلاة فى كنائسهم كما كانوا يقيمونها قبل الاسلام يأتيهم القسس والاساقفة من القسطنطينية أو انطاكية ولسانهم لسان دولة الروم ومعتقدهم مثل معتقدها . وقد بينا فى غير هذا المكان ان الفتح الاسلامى كان فى صدر الاسلام احتلالا عسكريا ولم يكن المسلمون يتعرضون للمسيحيين فى شىء من طقوسهم الدينية ولا احوالهم الشخصية ولا احكامهم القضائية وكانوا يعترفون لصاحب القسطنطينية بسيادته فى ذلك على نصارى الشام . فاذا حدث ما يمس هذه السيادة احتج ملك الروم على الخليفة وخصوصا من حيث الكنائس . وكان الخلفاء يراعون عهودهم فى هذا الشأن حتى اذا استفحل أمر بنى أمية خرقوا حرمة تلك العهود كما خرقوا سواها مما أقره الراشدون

ذكروا ان الوليد بن عبد الملك سمع صوت ناقوس فقال ما هذا ؟ قيل « بيعة » فأمر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده فتسابق الناس يهدمون فرفع النصارى أمرهم الى قيصر القسطنطينية فكتب الى الوليد ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك فان

يكونوا أصابوا فقد أخطأت وان تكن أصبت فقد أخطأوا »(١) ولم يجد اعتراضه نفعا . ولكن ذلك يدل على أن نصارى الشام كانوا فى صدر الاسلام تحت حماية الروم أو هم يعدون قيصر الروم حاميا لكنائسهم كما يعتقدون الآن فى بعض دول أوربا . فضلا عما غرس فى قلوبهم من حب دولة الروم بواسطة كهنتهم وتعاليمهم . وهب انهم كانوا ناقمين على تلك الدولة من بعض الوجوه الدينية فأصبحوا بعد دخولهم فى سلطة العرب يفضلون بقاء القديم على قدمه وذلك عادى فى الامم التى تعودت الرضوخ لسواها فانها لا تستقر على حال ولا يهون اخضاعها الا بطريق الدين . ناهيك بما كان يجدده الكهنة والاساقفة من أسباب الميل الى قيصر القسطنطينية والفتح يومئذ حديث والقيصر يرجو استرجاع تلك البلاد الى سلطانه على أن يستعين على ذلك بأهل مذهبه المقيمين بجوار المسلمين فيتخذهم عيونا له عليهم

وكان بعض نصارى الشام لا يدخرون وسعا فى هذا السبيل فينقلون أخبار المسلمين الى الروم واذا جاء جواسيس الروم آووهم فى منازلهم وأعانوهم فى استطلاع الاخبار . فربما دخل النصرانى بين المسلمين وهو فى مثل لباسهم وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم وحفظ شيئا من القرآن ليوهم المسلمين انه منهم . والشام لم يتم فتحها بعد وعمر لا يزال يخاف انتقاضها لبعدها عن مركز الخلافة . فخوفا من مثل ذلك اشترط على أهلها ان لا يتشبهوا بالمسلمين فى شىء من اللباس أو الركوب وغيره وان لا يأووا أحدا من جواسيس الروم ولا يكتموا غشا للمسلمين

ولنحو هذا السبب أيضا أوصى عمر ان لا يستعملوا أهل الكتاب لانهم أهل رشى ولان بعضهم أولياء بعض . ويقال ان أصل هذا المنع منقول عن النبى فى حديث جرى له يوم خروجه الى بدر (٢) على ان هذه الوصية لم يمكن العمل بها لاضطرار المسلمين الى من يعرف الحساب والكتابة وخصوصا فى أول الاسلام اذ كانت الدواوين لا تزال بلغاتها الاصلية

فالارجح عندنا ان عمر كتب عهدا لنصارى الشام (أو استكتبهم عهدا) ان لم يكن هذا نصه فهو فحواه ولا يستبعد وقوع بعض التغيير فى نصه بعد ذلك .

(١) المسعودى ١١٣ ج ٢ (٢) سراج الملوك ٢٨٤

ان السبب فيما حواه من الشدة خوفه من نصارى الشام لانهم أقرب نصارى الشرق الى كنيسة القسطنطينية . أما القبط فقد كانوا أعداء تلك الكنيسة وهم الذين واطأوا المسلمين على الروم وسهلوا لهم الفتح . وانه لم يفعل ذلك للتضييق على النصارى تعصبا للدين أو كرها للنصرانية. ثم اطلق المسلمون هذا العهد على سائر أهل الذمة

الامويون وأهل الذمم

كذلك كانت أحكام أهل الذمة لما أفضت الخلافة الى بنى أمية وكانوا لايخافون الروم على الشام لان مقر خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطىء وتغلبوا على أهلها وصاروا يغزون الروم فى البحر . على انهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية فى جملة مساعيهم فى حشد الاموال لاصطناع الاحزاب والتمتع باسباب الدنيا فزادوا الجزية والخراج وشددوا فى تحصيلهما وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم . واما من بقى على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ويحتقرونهم لانهم ليسوا عربا ولا مسلمين . ولا غرابة فى ذلك بعد ما علمت من احتقار بنى أمية لغير العرب من المسلمين . وكانوا يعدون الناس ثلاث درجات أولها العرب ثم الموالى ثم أهل الذمة . ويؤيد ذلك رأى معاوية فى أهل مصر قال « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى والثلث الذين هم لا ناس فالمسالمة » يعنى القبط (١)

ولما رأى القبط ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف فى تحصيلها عمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة والرهبان لا جزية عليهم فأدرك عمال بنى أمية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان وازدادوا غيظا منهم حتى أراد بعضهم اقتضاءها من الاموات فضلا عن الاحياء بأن يجعلوا جزية الموتى على احيائهم (٢) وأمثال هذه الحوادث كثيرة فى عهد بنى أمية ذكرنا كثيرا منها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب صفحة ٢١ مع الطرق التى كان يتخذها عمال بنى أمية لابتزاز الاموال من أهل الذمة

فعل الامويون ذلك واغضوا عن شروط عمر حتى اذا افضت الخلافة الى

(١) المقريزى ٥٠ ج ١ (٢) المقريزى ٢٩٥ ج ١

حفيده ومريده عمر بن عبد العزيز كان من جملة ما قلده فيه انه كتب الى عماله باحياء ذلك العهد كقوله « وأمروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ولا تتركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين ولا تستخدموا أحدا من أهل الذمة » (١) ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الاذان.

ونظرا لاهتمام بنى أمية بجمع الاموال للاسباب التى قدمناها وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم فى جمعها من سواهم لاقتدارهم فى الحساب والكتابة وأعمال الخراج استخدموهم فى هذا السبيل رغم ارادتهم ولم يكن يهمهم ذلك من وجه دينى لنشر الاسلام أو حصر النصرانية ولولا ذلك ما ولوا خالدا القسرى العراقين وأمه نصرانية رومية كان يراعى جانبها ويكرم النصارى من أجلها فاعتز النصارى فى أيامه . وأراد خالد أمه على الاسلام فلم تسلم فابتنى لها بيعة فى ظهر القبلة بالمسجد الجامع فى الكوفة فكان المؤذن اذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس(٢) وكان خالد يولى النصارى والمجوس على المسلمين عكس وصية عمر بن عبدالعزيز ويطلق أيديهم فى الحكومة فيستبدون بالمسلمين . وعمر بن ابى ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب فى عنقها (٣) وكان النصارى فى أيام بنى أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد. وكان الاخطل الشاعر النصرانى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن وهو سكران وفى صدره صليب ولا يعترضه أحد ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون به فى هجو الانصار (٤)

على ان الخلفاء من بنى أمية كانوا اذا قربوا نصرانيا أو يهوديا طلبوا اليه ان يدخل فى الاسلام فلا يمنعه من الرفض مانع الا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج اليه فينتقم منه كما أصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانيا فدخل على بعض خلفاء بنى أمية فقال له « اسلم يا شمعلة » قال « لا والله لا اسلم أبدا ولا اسلم الا طائعا اذا شئت » فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأطعمها . أما الاخطل فان عبد الملك قال له مرة « ألا تسلم فنفرض لك فى الفيء

(١) العقد الفريد ٢٦٢ ج ٢ وابن الاثير ٣١ ج ٥ (٢) الاغانى ٥٩ ج ١٩ (٣) الاغانى ٣٢ ج ١ (٤) الاغانى ٧٤ و١٧٨ ج ٧

ونعطيك عشرة آلاف ، قال « كيف بالخمر » قال « وما تصنع بها وان أولها لمر وآخرها لسكر » فقال « اما اذا قلت ذلك فان بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كلعقة من الفرات بالاصبع » فضحك

أما عمال بنى أمية فكانوا يضايقون على النصارى فى استخراج الاموال فمن سهل لهم استخراجها اكرموه . وفى خطط المقريزى فصول فى انتقاض القبط فلتراجع هناك (١)

الخلاصة

وجملة القول ان الدولة الاموية دولة عربية أساس سياستها طلب السلطة والتغلب فاستعان أصحابها على ذلك بالعصبية القرشية واصطناع الاحزاب . فجرتهم تلك العصبية الى انقسام العرب الى قبائلها كما كانت فى الجاهلية وانقسمت أيضا الى عصبيات وطنية . وبالغوا فى التعصب للعرب وامتهان غير العرب من الموالى وأهل الذمة . وأعوزهم اصطناع الاحزاب الاستكثار من الاموال لانفاقها فى اجتذاب قلوب الرجال . والاستكثار منها بعثهم على الظلم فى تحصيلها والخروج بذلك عما يقتضيه العدل ومدوا أيديهم الى أموال الصدقة وغيرها واستأثروا بالفيء ورأوا أعداءهم العلويين يطلبون الخلافة بالحق وسلاحهم الدين والتقوى واذا جادلوهم غلبوهم فاستخفوا بالدين تحقيرا لاهله وعمدوا الى الدهاء والحيلة والاغضاء عن الاريحية وبالغوا فى الشدة والعنف واشتهر ذلك عنهم ولم ينكره أحد من المؤرخين حتى أهلهم من أعقابهم . فابو الفرج صاحب الاغانى أموى (٢) واكثر ما يعرف من مساوىء بنى أمية مقتبس من كتابه

والفضل فى ثبات دولتهم لثلاثة من خلفائهم اشتهروا بالدهاء والسياسة والتدبير حكم كل منهم نحو عشرين سنة وهم : معاوية بن ابى سفيان (حكم من سنة ٤١ - ٦٠ هـ) وعبد الملك بن مروان (من ٦٥ - ٨٦ هـ) وهشام بن عبدالملك (من سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان المنصور العباسى لما افضت الخلافة اليه يتتبع هشام بسياسته (٣) واما عمر بن عبد العزيز فقد كان أحسنهم تدينا ولكنه جاء

(١) المقريزى ٧٩ و٣٠٢ و٤٩٣ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٢٩ ج ٨ (٣) المسعودى ١٣٢ ج ٢

فى غير أوانه فلم يطل مقامه . ولولا هؤلاء السواس لذهبت الدولة من أيديهم عاجلا لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء أهل الترف واللهو والقصف . وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤ هـ فقد كان مغرما بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود . وكان يحب الطرب والمنادمة على الشراب فجرى عماله على مثاله واظهروا الشرب وفى أيامه ظهر الغناء فى مكة والمدينة واستعملت الملاهى ولم يكن المسلمون يعرفونها قبل ذلك (١)

ومنهم يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٠٥ هـ ويسمونه خليع بنى أمية فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار فى طريق غير طريقه فشغف بجاريتين اسم احداهما سلامة والأخرى حبابة فقطع معهما زمانه . وغنت يوما حبابة :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فاهوى يزيد ليطير فقالت « يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة» فقال «والله لاطيرن» فقالت « على من تدع الامة » قال « عليك » وقبل يدها . وخرج يوما ليتنزه فى ناحية الاردن ومعه حبابة وبينما هما فى الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت . فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر اليها ويبكى فكلموه فى أمرها حتى اذن بدفنها وعاد الى قصره كئيبا حزينا وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزنا بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى وبقى يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس أشار عليه أخوه مسلمة بذلك مخافة أن يظهر منه ما يسفهه عند الناس (٢) ولم يحكم الا اربع سنوات

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ وكان خليعا سكيرا همه الصيد وشرب الخمر حتى جعل الخمر فى برك يغوص فيها ويشرب(٣)وأول شىء فعله لما ولى الخلافة انه بعث الى المغنين فى المدينة ومكة وأشخصهم اليه واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادمهم وبالغ فى التهتك والمسكر ولكنه لم يحكم الا سنة واحدة

على ان العرب اعظموا تهتك بنى أمية من أيام يزيد بن معاوية واستغربوا

(١) المسعودى ٦٨ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٥ (٣) الاغانى ٩٨ ج ٣

البيعة له فكيف بعد الذى شاهدوه من يزيد والوليد وغيرهما حتى قال بعض الشعراء يخاطبهم :

ان البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ان الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بايديكم بطونكم فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

فأين هؤلاء من دهاة بنى أمية الذين ذكرناهم ولم يكن فيهم من يمس الخمر أو يتماجن أو يتخالع حتى هشام بن عبد الملك مع انه جاء فى أواخر الدولة فكان لا يشرب الخمر ولا يسقى أحدا فى حضرته مسكرا وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه (١)

فلما انغمس بنو أمية بالترف والقصف مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالى واساءتهم الى أهل الذمة وسائر أهل القرى بما كانوا يسومونهم اياه من نهب غلتهم فى اثناء السفر — اذ كان جند المسلمين فى أواخر أيام بنى أمية اذا مروا بقرية غصبوا من يمرون بهم أموالهم (٢) — فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ولم يمض الا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها

(١) الاغانى ١٦٧ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٤٦ ج ٥

العصر الفارسى الاول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢ هـ الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ

دعونا هذا العصر فارسيا مع انه داخل فى عصر الدولة العباسية لان تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها ودياناتها فهى فارسية من حيث سياستها وادارتها لان الفرس نصروها وأيدوها ثم هم نظموا حكومتها واداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وكتابها وحجابها . وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بنى أمية على غير العرب واحتقار الموالى واكثرهم من الفرس فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة من الشيعة والخوارج . على انهم كانوا اكثر رغبة فى نصرة الشيعة لما رأوه فى دعوتهم من قوة الحجة يومئذ لانهم يدعون الى بيعة صهر النبى أو ابناء بنت النبى . فكان العلويون يبثون دعايتهم فى العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد البعيدة عن مركز الخلافة الاموية والفرس يبايعونهم وينصرونهم على أمل التخلص من ظلم بنى أمية

ثم قام بنو العباس لطلب الخلافة وفازوا بها على يد ابى مسلم الخراسانى واستعانوا بانقسام العرب يومئذ ونقمة اليمنية على بنى أمية ولم يبق من العرب من ينصر الامويين الا مضر فاستعان ابو مسلم باليمنية على الامويين حتى فاز بمشروعه واليك البيان

انتقال الخلافة الى العباسيين

الشيعة العلوية

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا وآل على بن أبى طالب يطالبون بالخلافة ويسعون فى ادراكها . وأول من طلبها بعد على ابنه الحسن ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ فغضب اشياع العلويين فى الكوفة من تنازله وهاجوا ـ وأمير الكوفة يومئذ زياد بن ابيه الداهية الشهير فشدد فى اخماد الثورة وقتل جماعة من اشياع على فيهم حجر بن عدى وأصحابه . فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل

انتخاب الامة يقع على واحد من أبناء على فترجع الخلافة الى أهل البيت ولم يخطر لهم ان يبايع معاوية لابنه . فلما علموا ببيعته نقموا عليه وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة ـ ومن قول عبد الله بن هشام السلولى فى ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الارانب غافلينا (١)

وكان اوجه العلويين يومئذ الحسين بن على فلما مات معاوية سنة ٦٠ هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين ان يبايعه . على ان اكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) . وكان الحسين فى المدينة فلما طلبوا منه ان يبايع يزيد فر الى مكة واكثر شيعته فى الكوفة فكتبوا اليه وحرضوه على القدوم اليهم لينصروه فأطاعهم ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته . وبعث اليه أمير الكوفة يومئذ عبد الله بن زياد جندا حاربه فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة فى كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ يطالبون بدمه وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلا منهم . فتغلب ابن زياد عليه . فنهض المختار بن أبى عبيد الثقفى وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الاموال فى أثناء تلك الفوضى واختلال الاحوال . وكان المختار عالى الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ويدعو الى بيعة محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه . فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل اكثر قتلة الحسين . ولكن محمد بن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة فبعث الى المختار يتبرأ منه . فحول المختار دعوته الى عبد الله بن الزبير وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين لان أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم وأقام عبد الله فى مكة يدعو الى نفسه . على ان المختار لم يخلص النية فى دعوته لاحد لانه انما كان يريدها لنفسه . فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هـ

(١) المسعودى ٥٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٥٢ ج ٣

أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين الى فرقتين احداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد على من فاطمة بنت النبى والاخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية وهى الفرقة الكيسانية . واكثرهما ظهورا وتصديا الفرقة الاولى فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده فى أعقابه حتى صار الائمة ١٢ اماما وهم : على والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضا ومحمد التقى وعلى النقى وحسن العسكرى ومحمد المهدى . وتفرع من الشيعة العلوية أيضا فرق أخر بايعت غير واحد من أعقاب على كالزيدية نسبة الى زيد ابن على بن الحسين والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وفرق أخر لا محل لذكرها

وكان بنو أمية اذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم فى قتله فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم فلاقى العلويون فى أيام بنى أمية ضنكا شديدا وكادوا يهلكون جوعا وأصبح هم أحدهم قوت عياله حتى تولى خالد القسرى عامل بنى أمية المتوفى سنة ١٢٦ هـ فأعطاهم الاموال ورفق بهم فعادوا الى طلب الخلافة(١) وخالد هذا غريب الاخلاق فمع كونه من عمال بنى أمية فقد كان ينصر العلويين ويستعمل أهل الذمة كما تقدم .

الشيعة العباسية

وكان فى جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبى بنو العباس عم النبى لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والامويون فى ابان دولتهم وايما كانوا يدعون الى أنفسهم سرا . وكان العلويون والعباسيون فى أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لانهم من بنى هاشم وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ـ والمضطهدون يتقاربون فى أى حال

وظل العباسيون يتسترون فى دعوتهم وهم مقيمون فى الحميمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بنى أمية فهموا بالنهوض . واتفق فى أثناء ذلك ان الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده الى ابنه أبى هاشم

(١) ابن الاثير ١٢٩ ج ٥

وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بنى أمية من المدينة الى الشام فيمر فى أثناء الطريق بالحميمة . ففى بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورياسة مع علمه بطمعه فى الخلافة فدس اليه فى أثناء رجوعه الى المدينة رجلا سمه فى لبن . فشعز أبو هاشم بالسم وهو فى بعض الطريق فعرج الى الحميمة وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس فنزل عنده . ولما أحس بدنو الاجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله فأوصى الى محمد المذكور بالخلافة بعده . وكان معه جماعة من شيعته سلمهم اليه وأوصاه بهم . فلما مات ابو هاشم تهوس محمد بالخلافة وايقن بالنجاح لانه اكتسب حزب الكيسانية جميعا فأخذ فى بث الدعاة سرا . ثم توفى وقد اوصى بالخلافة بعده الى ابنه ابراهيم وعرف بالامام

فأخذ ابراهيم الامام فى بث دعاته وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها اكثر من سائر أهل الامصار ولان الشيعة الكيسانية اكثرهم فى خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مرارا . فبعث اليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع ابى هاشم واوصاهم ان يطلبوا بيعة الناس باسم «آل محمد» أى أهل النبى ولم يعين العلويين ولا العباسيين. وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الاموية فهان عليهم ان يبايعوا لآل محمد وهم يحسبون الامر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين . وتوفق ابراهيم الامام فى اثناء ذلك الى ابى مسلم الخراسانى القائد العجيب فأتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور

بيعة المنصور للعلويين ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بنى أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم وتداولوا فى قرب انحلال دولة الامويين و فيمن يخلفهم من أهل البيت . وكان فى جملة الحضور ابو العباس السفاح واخوه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو ابو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس . فأجمع رأيهم على مبايعة اوجه العلويين يومئذ وهو محمد ابن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن على الملقب بالنفس الزكية . فبايعوه لتقدمه فيهم ولما علموه له من الفضل عليهم وبايعه ابو جعفر المنصور فى جملتهم(١)

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الاثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧

ولعل هذه المبايعة هي التي اسكتت العلويين عن طلب الخلافة في اثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها كأنهم اتفقوا ان تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت . لان العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام ابراهيم أو غيره من بني العباس

اما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة الى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين . وفي جملتهم ابو سلمة الخلال المثرى الفارسي الشهير وكان يقيم في حمام اعين بضواحي الكوفة وكان شديد التمسك بدعوة العلويين وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها . فلما سمع بانتقال البيعة الى بني العباس كظم وتربص ليرى ما يقول الناس . ثم علم ان ابراهيم الامام عين أبا مسلم وارسله الى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد أطاعه النقباء فاطاعه ابو سلمة في جملتهم وهو يتوقع ان تكون البيعة شورى بين الشيعيين (١) ولما بلغه ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قتل ابراهيم الامام اضمر الرجوع الى الدعوة العلوية (٢) ثم جاءه اخوة الامام وفيهم ابو العباس السفاح واخوته وسائر أهل بيته وقد انتقلت البيعة الى ابي العباس المذكور فانزلهم ابو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة فسكت فبقيت لآل العباس . وكان ابو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الامويين في خراسان وفارس والعراق فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس فسكت العلويون خوفا على انفسهم من ذلك التيار العظيم وهم يتوقعون مع ذلك ان تكون الخلافة شورى بين الرهطين

وعلم العباسيون بما كان يضمره ابو سلمة من نقل الخلافة الى العلويين فشكوه الى ابي مسلم سرا . فدس اليه رجلا قتله بالكوفة غيلة وأشاعوا ان بعض الخوارج قتله وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا في اخلاصهم حتى تم الامر لهم

اما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم ابو جعفر المنصور فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة ابي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ جاءوا اليه في الكوفة يطالبونه

(١) الفرج بعد الشدة ١٢٠ ج ٢ (٢) المسعودي ١٥٠ ج ٢ .

ببيعتهم فاسترضاهم ابو العباس بالاموال وقطع لهم القطائع . وكان فى جملة القادمين اليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فاكرم السفاح وفادته وعرض عليه مايرضاه من المال وقال له «احتكم على» فقال عبد الله « بألف ألف درهم فانى لم أرها قط » ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح فاستقرضه له من رجل صيرفى اسمه ابن ابى مقرن ودفعه اليه . واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح ان بعض الناس جاءه بالجواهر التى كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر اليها ويبكى فسأله عن السبب فقال « هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط » فجاء به ثم أمر الصيرفى ان يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وامر ابو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة وهو يتوجس مما فى ضميره فبث عليه العيون فآنس عنده طمعا فزاده عطاء فعاد عبد الله الى المدينة مثقلا بالاموال ففرقها فى أهله وكانوا أهل فاقة فلما رأوا تلك الاموال سروا

واما عبد الله فما زال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المبايعة عليه والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر اهله بالاموال كما رأيت . فلما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ خلفه أخوه ابو جعفر المنصور وكان رجلا شديد البطش لا يبالى بما يرتكبه فى سبيل تأييد سلطانه . فكان همه قبل كل شىء ان يتحقق ما فى نفس بنى الحسن فى المدينة لان لهم فى عنقه بيعة فبث عليهم العيون وأراد اختبارهم فبعث بعطاء أهل المدينة على جارى العادة من قبل وكتب الى عامله فيها « اعط الناس فى أيديهم ولا تبعث الى أحد بعطائه وتفقد بنى هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور وتحفظ بمحمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك فلم يتخلف عن العطاء الا محمد وابراهيم المذكوران فكتب اليه بذلك فتحقق المنصور انهما ينويان القيام عليه وقد سكتا فى اثناء خلافة أخيه لانه كان يكرمهما ويغدق عليهما والمنصور لايرى ذلك فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج فبثوا الدعاة فى خراسان وغيرها يدعون شيعتهم الى بيعتهم . فعلم ابو جعفر بذلك فبعث من يقبض على كتبهم فى الطريق واحتال فى استطلاع اسرارهم وأراد استقدام ابنى عبد الله وكتب اليه يستقدمه بهما فانكر عبد الله انه يعرف مقرهما فأصبح هم

(١) العقد الفريد ٢٧ ج ٣

المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين وخصوصا بنى الحسن وهم يقيمون فى المدينة فبعث الى عامله فيها ان يقبض عليهم جميعا ثم أمره ان ينقلهم الى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والاغلال فى ارجلهم واعناقهم وقد حملهم على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما. فجاءوا ببنى الحسن وعدتهم بضعة عشر رجلا فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا الا بضعة قليلة

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع فى الفخ فبعث المنصور الى عامله فى المدينة يشدد فى طلبه فلم ير محمدا بدا من القيام فظهر بالدعوة فبايعه أهل المدينة بعد ان استفتوا امامهم مالك بن أنس فأفتاهم بالخروج معه فقالوا « ان فى اعناقنا بيعة لابى جعفر » فقال « انكم بايعتموه مكرهين وان بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لانها انعقدت قبلها » (١) وكان ابو حنيفة أيضا على هذا الرأى يقول بفضل محمد هذا ويحتج الى حقه فحفظ لهما المنصور هذا القول فتأدت اليهما المحنة بسبب ذلك . فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هـ أصبح من اكبر المضطهدين لهما فضرب مالكا على الفتيا فى طلاق المكره وحبس ابا حنيفة على القضاء كما هو مشهور

وكان لنكث المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم فى أذهان العلويين لانها جاءتهم بغتة وكانوا يظنون أن ذلك لا يصدر من أهل البيت كما صدر من بنى أمية فتحسروا على أيام بنى أمية وتمنوا رجوعها ـ ذكروا عن محمد بن عبد الله فى اثناء قيامه على المنصور انه سمع شاعرا يرثى بنى أمية فبكى فقال له عمه « أتبكى على بنى أمية وانت تريد ببنى العباس ما تريد » فقال له « يا عم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا فما بنو العباس الا أقل خوفا لله منهم وان الحجة على بنى العباس اوجب منها عليهم . ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لابى جعفر » (٢)

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤ (٢) الاغانى ١٠٦ ج ١٠

سياسة العباسيين فى تأييد سلطانهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم ان بنى العباس قاموا يدعون الى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين الاول ان يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على أحزابهم . والثانى ان يأمنوا جانب العلويين فى مسابقتهم الى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم ان الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت فى عصر الراشدين وكما أرادها بنو على . وان العلويين انما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم فى دعوتهم على شرف نسبهم وصدق تدينهم وان معاوية لم يغلب الا بالدهاء والحيلة وان عبد الملك لم يستطع استبقاءها الا بالفتك وشدة البطش . فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين بمبايعة ابى هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على العباسى كما تقدم ثم افضت بعده الى ابنه ابراهيم الامام وتوفق هذا الى أبى مسلم الخراسانى ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على نقبائه ودعاته واوصاه وصية هى محور سياسة العباسيين فى تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت أحفظ وصيتى انظر الى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين اظهرهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم . واما مضر فانهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وايما غلام بلغ خمسة اشبار واتهمته فاقتله . . » (١)

فخرج ابو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية وقد عمل بها وعول عليها فكان يقتل كل من اتهمه أو شك فيه فبلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل هذه الدعوة ٦٠٠٫٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٢) بدون حرب فى بضع سنين وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبى سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها ابو مسلم بسيفه وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لابى مسلم امير آل محمد . فحالما استشار السفاح ابا مسلم بشأنه واتهمه

(١) ابن الاثير ١٦٥ ج ٥ (٢) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٢

بنقل الخلافة الى العلويين أشار أبو مسلم بقتله فقتلوه وقتلوا عماله على الاطراف. وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير وهو من اكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة تلك الدعوة . فبعد قتل ابى سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثلما بلغه عن ابى سلمة فأحضره اليه وقال له « أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله » قال « نعم » قال « فانى قد اتهمتك » فخاف سليمان وقال « أناشدك الله » قال « لا تناشدنى فأنت منطو على غش الامام » وأمر بضرب عنقه (١) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الامراء والقواد . قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله(٢) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى احدهم الى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط . وثار من ذلك بعض الامراء من شيعة بنى العباس وصاح فى رجاله « ما على هذا اتبعنا آل محمد ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠٫٠٠٠ رجل فوجه اليهم ابو مسلم جندا فقتلهم وقتلهم

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وامثاله مهد ابو مسلم الخلافة لبنى العباس فساعدهم اولا على اخراجها من بنى أمية الى أهل البيت ولم يكتف ببيعة ابى العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولكنه حرضهم على قتل من بقى من بنى أمية بالاغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء . ويقال انه هو الذى أوعز الى سديف الشاعر مولى بنى هاشم ان يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان السفاح قد أمنه واكرمه وأمن سائر بنى أمية ـ فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام فانشد سديف قوله :

لا يغرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فثأر السفاح وأمر بسليمان فقتل ودخل شاعر آخر فقال شعرا آخر وكان

(١) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٥ (٢) ابن الاثير ١٨٣ ج ٥

عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى أمية فقتلهم وبسطوا النطوع على جثثهم فأكلوا الطعام وهم يسمعون انين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك وان الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح وهو مشهور بكرهه لبنى أمية وشدة نقمته عليهم ولكن لا خلاف فى انهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هـ وهم آمنون كما قتل الامراء المماليك بمصر فى أوائل القرن الماضى

والغالب ان ابا مسلم أوعز الى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم فأشار الى سديف ان يحرضهم على ذلك بشعره . ولم يقل سديف ذلك حبا ببنى العباس بل كرها لبنى أمية وانتقاما لآل على لانه من الشيعة العلوية وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين . فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين وهجاهم باشعار بلغ خبرها المنصور فكتب الى عامله ان يأخذ سديفا فيدفنه حيا ففعل (٢)

وبعد ان قتل العباسيون من كان فى قبضتهم من الامويين عمدوا الى استئصال شأفتهم من سائر البلاد . ولم ينج منهم الا قليلون أهمهم عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام ففر الى المغرب وأسس دولة بنى أمية بالاندلس كما سيأتى . وتولى استئصال شأفة الامويين من بنى العباس عبد الله بن على فبالغ فى ذلك حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم انتقاما لما فعلوه قبلا بالائمة من آل على وخصوصا زيد بن زين العابدين . فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل فضربه ثمانين سوطا ثم احرقه (٣)

وبعد ان تخلص المنصور من الامويين لم يدخر ابو مسلم وسعا فى تخليص الدولة من اقربائه آل العباس انفسهم وفى جملتهم عبد الله بن على المتقدم ذكره وقد طمع بالخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه واستولى على ما فى عسكره من الغنائم والاسلحة . فأراد المنصور ان يوجه همه الى بنى الحسن منافسيه فى الخلافة فاشتغل خاطره بأبى مسلم وأصبح خائفا منه على سلطانه بعد ما بلغ اليه من النفوذ والشهرة والدالة . ولم يكن همه الا قتله ليفرغ للعلويين فاتهمه بأنه ينوى اخراج الملك منهم فاستحق القتل عملا بوصية الامام

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣
(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

وكان المنصور قد خاف ابا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبى العباس ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك . فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ولكنه استخدمه فى حرب عمه عبد الله بن على فضرب عدويه أحدهما بالآخر فإنهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله . فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن على احتال المنصور فى استقدامه اليه من خراسان فى حديث طويل وادخله عليه دخول الزائر الامين وقد اكمن له اناسا بالسلاح وراء الستر فأخذ سيفه منه وحادثه وتدرج من العتاب الى التوبيخ حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هـ فأمر به فلفوه بالبساط ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم فى قتله ولم يقل انه قتله فقال له أحدهم « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط فلما رأى ابا مسلم فيه وتحقق موته قال « عد هذا اليوم اول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من ابى مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فما عتم ان ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل على فحارب محمد بن عبد الله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها منهم عمه عبدالله وكان أبو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور فى استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرا ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته وكان واليا على الكوفة . فتجاهل وبعث اليه وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطانته فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم اخرج من كان فى حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه وقال «يا ابن العم انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من اهله ولا ارى سواك مساعدا لى على حمل ثقله فهل انت فى موضع ظنى بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى » فقال له عيسى « أنا عبد امير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه » فقال المنصور « ان عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه

(١) المسعودى ١٦٧ ج ٢

يبيح دمه وفى قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . واضمر المنصور ان ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبدالله ألزمه القصاص وسلمه الى اعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معا . أما عيسى فكأنه شك فى نية المنصور والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام فاستشار بعض ذوى مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله فى بيت جعل اساسه على الملح (١)

وأمثلة ما اتاه المنصور من الدهاء والفتك فى تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطى الامان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بنى أمية على واسط لما بويع السفاح وارسل أخاه المنصور لمحاربته فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة فى أمان بنى العباس فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة اربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضى به فبعثه الى ابى جعفر فأنفذه ابو جعفر الى ابى العباس فأمره بامضائه . وكان رأى أبى جعفر فى بادىء الامر ان يفى بما أعطاه ولكن ابا مسلم (وكان لا يزال حيا) أشار على السفاح ان يقتله قائلا « ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى ابى جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٢) لانه اتهمه ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت . وشاع نكث الامان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس . فلما قام محمد ابن عبد الله العلوى فى المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الامان ويعده خيرا فأجابه محمد « أى أمان تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبى مسلم » (٣)

وظل المنصور وابو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على انهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون الا فيمن نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك . اما احكامهم فيما خلا ذلك ففى نهاية العدل والرفق كما سيأتى . اما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين فكل من

(١) المستطرف ٦٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٧ ج ٥ (٢) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٥

يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لاحد كانت حياته فى خطر فاذا دعى للمثول بين يدى الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الاندلس وقد فر من العراق فالشام الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله وخصوصا مولى له اسمه بدر سعى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية فلما استتب له الامر سلبه كل نعمة وسجنه ثم اقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك فى رؤساء الاحزاب الذين نصروه وسيأتى الكلام على ذلك

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا اعوزهم الاستدلال به . فالامين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الامين وكاد يذهب بدولته كتب الامين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم انه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أو دع » (١) وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الامر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباه وأمره ان يسمه ففعل (٢)

سياسة الدولة العباسية فى معاملة الرعية

الموالى الفرس

قد رأيت ان الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا وفيهم الموالى وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دولة بنى أمية فنصروا أهل البيت انتقاما منها والجمهور الأعم منهم الفرس

الفرس والعرب قبل الاسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان وقد انشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الاحكام من قديم الزمان. وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان

(١) المسعودى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

والرومان ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء وترجموا العلم والفلسفة وكان لهم شأن كبير فى التاريخ القديم واشتهر فيهم فضلا عن الأسر المالكة والدهاقين والاساورة بيوتات شريفة اشهرها سبعة كان الشرف فيها . وعلى اطلال اصطخر عاصمة الفرس القدماء وغيرها من بقايا مدنهم القديمة نقوش كتابية مثل التى خلفها الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم

وكان فى مملكة فارس قبائل كثيرة من العرب يقيمون على حدودها بين النهرين فى العراق والجزيرة وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس وهم المناذرة فى الحيرة . وكثيرا ما كان الفرس يتعلمون لغة العرب وينظمون الشعر العربى حتى ملوكهم فانهم لم يكونوا يستنكفون من ذلك ـ حكى ان بهرام بن يزدجرد بن سابور نشأ بين العرب بالحيرة وتعلم العربية ونظم فيها شعرا(١) وكانوا يستخدمون العرب فى دواوينهم للكتابة أو الترجمة بينهم وبين من يفد على ملك الفرس من عرب الحجاز أو اليمن أو نجد وخصوصا بعد ان دخلت اليمن فى حوزتهم على عهد كسرى انوشروان

واشهر كتاب العرب فى دواوين الفرس آل عدى بن زيد من المضرية وكان عدى وابوه وجده من مهرة الكتاب على قلة من يحسن الكتابة من العرب فى ذلك العهد وكانوا يخدمون الفرس فى دواوينهم . فجده حماد بن زيد بن ايوب كان كاتبا عند النعمان فى الحيرة وتقرب من الفرس وولد له زيد فأوصى به الى دهقان كان صديقا له وهو من أهل الدولة فرباه الدهقان وعلمه الفارسية فنبغ فى اللسانين فتقدم الدهقان الى كسرى ان يوليه البريد . ولم يكن ينال هذا المنصب الا ابناء المرازبة فتقدم زيد فى الدولة حتى صار كسرى يستشيره فى مهامه وولد لزيد ابنه عدى وتثقف وتعلم مثل ابناء الاساورة واتقن ألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة فقربه كسرى وجعله كاتبا فى ديوانه بالمدائن وصار من اصحاب السطوة والكلمة النافذة وكسرى يأذن له مع الخاصة ويبعث به بالمهمات الكبرى الى ملك الروم وغيره . واذا فسد العرب على الفرس وتمردوا توسط عدى فى اصلاحهم واذا مات ملك العرب فى الحيرة لا يولى كسرى من يخلفه الا بمشورة عدى . فشق ذلك على ملوك الحيرة حسدا منه لانهم يمنية وعدى مضرى فوشى به بعضهم

(١) المسعودى ١١٣ ج ١

الى كسرى حتى قتل وتولى بعده ابنه زيد بن عدى فى المكاتبة عن كسرى الى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك . وكانت لكسرى وظائف يؤديها اليه العرب كل عام فكان زيد يتولى ذلك وغيره (١)

وجملة القول ان العرب كانوا يخدمون الفرس فى أيام دولتهم قبل الاسلام كما خدم الفرس العرب فى أيام دولتهم بعد الاسلام على ان الفرس بلغ من ضخامة سلطانهم وسعة ملكهم قبل الاسلام حتى كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيدا لهم أى انهم أصيبوا بما أصاب العرب بعد ذلك وبما يصاب به غيرهم من الامم التى تتوفق الى السيادة فيغلب عليها الغرور وترتفع عن سواها

فلما ظهر الاسلام وقامت دولة الخلفاء مقام دولة الاكاسرة كان ذلك شديدا على الفرس وخصوصا بعد ما لاقوه من ضغط بنى أمية واحتقارهم فكانوا ينتقصون فيحاربهم الامويون ويبالغون فى اهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمجانيق ويقتلون أهاليها حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الاساورة الذين كانوا يأوون الى اصطخر (٢) فلا لوم عليهم بعد ذلك اذا نصروا كل قائم على الدولة الاموية . على انهم لم يفوزوا الا بطلبها للعباسيين كما رأيت وكانوا يعدون ذلك فوزا لانفسهم تخلصا من عصبية العرب عليهم وطمعا فى الرجوع الى ماكانوا عليه من السلطة والشوكة

استخدام الموالى الفرس

فلما قبض العباسيون على أزمة الملك جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم فى العراق فاقاموا أولا فى الكوفة ثم فى الهاشمية حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة . وقربوا الموالى الفرس وخصوصا أهل خراسان فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ولا سيما الذين حاربوا مع أبى مسلم فى طلب الخلافة لهم . وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة فانه كان من قواد جند أبى مسلم وشهد معه الوقائع وابلى بلاء حسنا فى نصرة أهل البيت وكان أبوه برمك من مجوس بلخ وكان يخدم بيتا من بيوت النار هناك اسمه النوبهار اشتهر هو وبنوه بسدانته وكان برمك عظيم المقدار عند الفرس . فاسلم خالد ودخل فى

(١) الاغانى ٢٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٩ ج ٣

جند أبى مسلم وكان عاقلا حازما فلم يجعل للعباسيين محلا للشك فى صداقته كما فعل ابو مسلم . فقدمه ابو العباس وولاه الوزارة ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل أبى مسلم فى محاربة الاكراد وكانوا قد تغلبوا على فارس(١) وتوالت الوزارة فى اعقابه الى يحيى ابنه فجعفر ابن ابنه وهو الذى نكب البرامكة على عهده لسبب سنذكره

وكذلك فعل العباسيون فى استخدام الموالى فى مهماتهم . وأول من استخدمهم لذلك المنصور فانه استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب فاقتدى به الخلفاء بعده حتى سقطت دولة العرب كما سيجىء . ولما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لمواليه (٢) وأوصى باكرامهم . ومن أقواله فى وصيته لابنه المهدى « وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك . . وأوصيك بأهل خراسان فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » (٣)

ولا غرو اذا أكرم العباسيون أهل خراسان بعد ان آثروهم على أهلهم وابنائهم وقتلوا من خالفهم ـ ولكن العرب كانوا يستغربون ذلك لاول وهلة فكانوا اذا جاءوا مجلس الخليفة رأوا الخراسانيين يذهبون ويجيئون ويدخلون على الخليفة كأنهم من أهله والعرب يقفون ببابه لايؤذن لهم الا بمشقة ـ ذكروا ان ابا نخيلة الشاعر العربى وفد على ابى جعفر المنصور ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له وهو يرى الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به فيرون شيخا اعرابيا جلفا فيعبثون به فسأله صديق له رآه فى تلك الحال « كيف ترى ما انت فيه من هذه الدولة » فقال :

اكثر خلق الله بى لا يدرى ... من أى خلق الله حين يلقى
وحلة تنشر ثم تطوى ... وطيلسان يشترى فيغلى
لعبد عبد أو لمولى مولى ... يا ويح بيت المال ماذا يلقى (٤)

وكان المهدى بن المنصور اذا أراد الشورى جمع خاصته للمداولة وأول من يتكلم منهم الموالى (٥) وقس على ذلك فى سائر الاحوال . فأصبحت بطانة الخليفة

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١ (٢) الفخرى ٢١٠ (٣) ابن الاثير ٧ ج ٦
(٤) الاغانى ١٤٨ ج ١٨ (٥) العقد الفريد ٥٣ ج ١

ورجال دولته وخاصة حكومته من الموالى الفرس وهم نظموا الحكومة ودواوينها ورتبوا أحوالها ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب كأنها دولتهم لان الغالب فى هذه المناصب ان تنتقل من الرجل الى بعض أولاده مثل منصب الخلافة فاشتهر بعض البيوتات بالوزارة أو الولاية كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم

وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء يولون ويعزلون واذا تولاها احدهم ولى الاعمال رجالا من اصحابه أو مريديه . فتغيرت الاحوال على أهل البلاد واطمأنت خواطرهم وتفرغوا للعمل فى التجارة أو الصناعة أو الزراعة ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بنى أمية واستبدادهم وأطلقت حرية العمل وحرية الدين وذهبت عصبية العرب ورتع الناس فى بحبوحة الامن

ولما استبد الاتراك فى الدولة وضعفت شوكة الفرس بعد المأمون كما سيأتى ظل الموالى من اصحاب النفوذ فى دولة الخلفاء يعتمد عليهم الخليفة فى أموره الخاصة والعامة من الكتابة الى القيادة ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ولكنهم أصبحوا أخلاطا منهم ومن سواهم وانما تجمعهم كلمة الموالى ويتفانون فى خدمة الخليفة أو الامير

اهل الذمة فى الدولة العباسية

لما أخذ الموالى الفرس فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة فى العراق والشام وكانوا أهل معرفة فى الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة وقربوهم واكرموهم . فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا الى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم بما آنسوه من تسامحهم واطلاق حرية الدين لهم فاستخدمهم العباسيون فى دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم

فالجهابذة (الصيارف) اكثرهم من اليهود . والكتاب فيهم جماعة كبيرة من النصارى . وكثيرا ما كان النصارى يتقلدون ديوان الجيش وربما عظمت منزلة صاحب هذا الديوان وهو نصرانى حتى يتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين

الى تقبيل يده . وممن تقلدوا ديوان الجيش من النصارى فى الدولة العباسية ملك ابن الوليد قلده اياه المعتضد بالله واسرائيل النصرانى قلده اياه الناصر لدين الله . وقد أدرك بعضهم رتبة الوزارة فتقلد خلافتها ابو العلاء صاعد بن ثابت فى أيام المتقى بالله (١)

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح فى الدين الى الدولة الفاطمية بمصر وكان لاهل الذمة فيها شأن عظيم فتقلد الوزارة أو الكتابة (وهى كالوزارة فى مصر) غير واحد منهم وقويت شوكتهم فى الدولة فاستوزر العزيز بالله الفاطمى رجلا نصرانيا اسمه عيسى بن نسطوروس وآخر يهوديا اسمه منشا فعز النصارى واليهود فى أيامهما (٢) ومن نافذى الكلمة فى الدولة الفاطمية من أهل الذمة فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب برجوان صاحب النفوذ الاعظم فى أيام الحاكم بأمر الله . فكان فهد هذا يوقع عن برجوان ويخاطب بالرئيس وله نفوذ عظيم وارتفع شأن النصارى فى أيامه حتى كادت الدولة تكون فى أيديهم (٣) على ان الكتابيين ـ أهل الذمة ـ كانوا فى أيام الحاكم هم أهل الدولة وكذلك فى أيام الحافظ (٤) وكتاب الجيش فى أكثر الاحايين من اليهود

ناهيك بمن كان الخلفاء والامراء يستخدمونهم من أطباء أهل الذمة وحكمائهم وتراجمتهم وكتابهم وخصوصا نصارى الشام فانهم خدموا التمدن الاسلامى فى نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية على ما فصلناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب وبينا ما كان من محاسنة الخلفاء لهم وتقديمهم ورعاية جانبهم واكرامهم وفيهم النصرانى واليهودى والمجوسى والسامرى والصابى وغيرهم والكل راتعون فى بحبوحة السكينة والطمأنينة يتكسبون من خزائن الخلفاء والامراء

وكان الخلفاء فى صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم. فالهادى كان يستدعى اليه الاسقف تيموثاوس فى أكثر الايام ويحاوره فى الدين ويبحث معه ويناظره ويطرح عليه كثيرا من المشكلات وله معه مباحث طويلة ضمنها كتابا

(١) تاريخ الوزراء ٩٥ والفرج ١٤٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٣٢ ج ٩ والسيوطى ١٧ ج ٢ (٣) المقريزى ٤ و٣١ ج ٢ (٤) المقريزى ٤٠٦ ج ١

ألفه الاسقف المذكور فى هذا الموضوع وكذلك كان يفعل معه هرون الرشيد(١) وغيره واغضوا عن بعض ما فى عهد عمر بن الخطاب من التضييق على النصارى كمنعهم من احداث الكنائس (٢) أو الاحتفال بالاعياد أو منعهم من خدمة الدولة وسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم حتى أصبح النصارى يهدون الخلفاء أيقونات بعض القديسين فيقبلونها منهم وكثيرا ما كان الاساقفة يطلبون من الخلفاء أن يثبتوهم فى مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم أو منازعيهم

اضطهاد أهل الذمة فى العصر العباسى

على أن ذلك لم يمنع تضييق بعض الخلفاء على النصارى بمقتضى عهد عمر وهدم كنائسهم ـ فان الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب أو لغير سبب كما فعل هرون الرشيد والمتوكل من خلفاء بنى العباس . فالمتوكل المتوفى سنة ٢٤٧ هـ كان شديد الوطأة على النصارى ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم لانه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ونهى أن يستعان بهم فى الاعمال أو أن يظهروا الصلبان فى شعانينهم وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين فى مؤخر السرج وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (٣)

ولا يستغرب هذا التضييق من المتوكل فانه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب . وكان شديد التعصب على الشيعة فاضطهدهم وعذبهم ولاقى أهل الذمة منه الشدائد (٤) على انه لم يرتكب هذا الشطط بغير سبب دعا اليه فقد حمله عليه انتصار النصارى لاعداء الدولة ـ وذلك أن أهل حمص المسلمين وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ هـ فاعانهم النصارى عليه فكتب العامل الى المتوكل فأمره باخراج النصارى وهدم كنائسهم وكان هذا من أسباب نقمته عليهم (٥)

(١) تاريخ المشارقة «خط» ١٤٣ (٢) المقريزى ٥١١ ج ٢ (٣) ابن خلدون ٢٧٥ ج ٣ وابن الاثير ٢٠ ج ٧ والمقريزى ٤٩٤ ج ٢ (٤) تاريخ المشارقة «خط» ١٤٦
(٥) ابن الاثير ٢٩ ج ٧

ويقال نحو ذلك فيما صدر فى أيام الرشيد من الاوامر بهدم الكنائس فى الثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (١) — فعل الرشيد ذلك على أثر رجوعه من حرب الروم فى هرقلة فالظاهر أن نصارى الثغور (الحدود بين مملكة الروم ومملكة الاسلام) ساعدوا أبناء طائفتهم الروم فى تجسس أحوال المسلمين واستخدموا الكنائس لهذه الغاية فأمر الرشيد بالتضييق عليهم انتقاما منهم وخصص أمره هذا بأهل الثغور على الحدود وشدد على الخصوص فى مخالفتهم هيئة المسلمين فى لباسهم دفعا لتنكرهم وتجسس أحوال المسلمين — والا فالرشيد من أحسن خلفاء بنى العباس عدلا ورفقا بأهل الذمة وكان أحد عمال أخيه الهادى قد هدم بعض الكنائس بمصر فلما أفضت الخلافة اليه أمر باعادة بنيانها (٢)

وهكذا يقال فى اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم . وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام فى طقوسهم وكنائسهم فى أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى فى مصالح الدولة فى أيامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بأمر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فأمر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فأمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه وقبض على ما فى الكنائس واخله فى الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف (٣) مما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله أعظم ما أصابهم من الاضطهاد فى ابان التمدن الاسلامى . ولا جناح على التمدن به لان مرتكبه أتاه عن حمق أو جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة فى اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان فى القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم فى بلاده وكان فى جملة ما هدمه من

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٦ (٢) المقريزى ٥١١ ج ٢ (٣) المقريزى ٤٩٥ ج ٢

الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون (١)

وربما كان السبب الذى حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفا فعظمه تعصبه وحمقه فأمر بالهدم والقتل . على انه كثيرا ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أمورا مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير أو منعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج أو المسير فى الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وأبواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التى تدل على اختلال فى عقله . على اننا قلما نراه أتى أمرا الا لسبب وان كان ضعيفا ـ فالسبب فى منعه الناس من أكل الملوخيا مثلا ان معاوية بن أبى سفيان عدو الشيعة كان يحبها والدولة الفاطمية شيعية . ومنعهم من أكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة أم المؤمنين ومنعهم من أكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان على بن أبى طالب كان يكرهه (٢) وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف أو بلا سبب فأمر ببناء تلك الكنائس (٣) وخير النصارى فى الرجوع الى دينهم فارتد كثير منهم ـ وقد تقدم ان ذلك كان فى أيام ابنه الظاهر . ومن أعماله الغريبة انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها وألزم الناس باغلاق الاسواق نهارا وفتحها ليلا فظل الناس على ذلك دهرا طويلا (٤) فمن كانت هذه اعماله لا يستغرب منه اضطهاد ولا يعد اضطهاده عارا على الدولة أو الامة

على ان أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد انما كان فى دور الانحطاط أو التقهقر فى الاجيال الاسلامية الوسطى وخصوصا بعد الحروب الصليبية لانها كانت سببا كبيرا فى اثارة التعصب بين الامتين . فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين

(١) المقريزى ٣٥٥ ج ١ (٢) المقريزى ٣٤١ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٨٦ ج ٩
(٤) السيوطى ١٧ ج ٢

عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الافرنج سرا فبالغ أمراء المسلمين فى الفتك بهم . فنصارى « قارا » مثلا بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين فى أثناء تلك الحرب ويبيعونهم خفية من الافرنج فلما مر بها السلطان الملك الظاهر فى اثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم واتخذ صبيانهم مماليك فتربوا بين الاتراك فى الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء (١) كما فعل العثمانيون بتجنيد الانكشارية بعد ذلك بزمن غير بعيد

وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة فى بلادهم حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها فى أذى الاخرى ولما كانت الحكومة اسلامية فالنصارى هم المغلوبون . فاذا احترقت حارة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود باحراقها فتأمر الحكومة باحراقهم أو احراق كنائسهم (٢) وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة لان الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين فى بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها . وكثيرا ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا (٣) واذا دخلوا بلدا اسلاميا بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم فى الجوامع (٤) ولما تغلب نصارى الاندلس على المسلمين اجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ولما غلبوهم فى آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم (٥)

تعصب العامة على النصارى

قلنا ان الخلفاء والامراء قدموا النصارى فى مصالح الدولة وأغدقوا عليهم الاموال واكرموهم ورفعوا منزلتهم وانهم فعلوا ذلك لاحتياجهم اليهم فى ابان ذلك التمدن لنقل العلوم أو الطبابة أو الحساب أو الكتابة أو غيرها مما تحتاج اليه الدولة فى تنظيم شؤونها لاشتغال المسلمين يومئذ بالرياسة . وكان أولو الامر من الجهة الاخرى يقدمون المسلمين فى المعاملات الرسمية على سواهم من أهل الذمة كما كان الامويون يقدمون العرب على غير العرب فنشأ التحاسد بين عامة المسلمين

(١) أبو الفداء ٤ ج ٤ (٢) المقريزى ٨ ج ٢ وأبو الفداء ١١٧ ج ٤ وسراج الملوك ١٨٩ (٣) ابن الاثير ٢٩ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٦٢ ج ٨ (٥) نفح الطيب ١٢٦٩ ج ٢

عامة المسيحيين . وذلك طبيعى فى كل مملكة يتنازع العمل فيها ملتان أو طائفتان ولا يزال ذلك جاريا على نحو هذا الشكل الى يومنا هذا

نشأ هذا التحاسد أولا بين العامة ونحوهم من أهل المهن العلمية أو الحرف الصناعية الذين يحومون حول الخلفاء والامراء للارتزاق بما يعوزهم من أسباب المدنية أو يرضيهم من عوامل الرخاء والترف كالشعر والغناء والكتابة والحساب وغيرها . وأما أهل الطبقة العليا (الشرفاء) والاغنياء ورجال الدولة فقلما كانوا يتعصبون أو يتباغضون وانما كانوا ينظرون الى الرجال من حيث هم بقطع النظر عن مذاهبهم ، فالشريف الرضى الذى كتب الى الخليفة القادر بالله :

عطفا أمير المؤمنين فاننا ... فى دوحة العلياء لا تتفرق
مابيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فانني ... أنا عاطل منها وانت مطوق

رثى ابا اسحق الصابى بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أرأيت من حملوا على الاعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادى

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة فعابه بعضهم لكونه شريفا يرثى صابئا فقال له « انما رثيت فضله » (١)

وأما العامة ومن جرى مجراهم او استعان بهم على بعض المصالح او المناصب فكانوا يظهرون التعصب على النصارى ويسعون فى أذيتهم لدى ولاة الامور فاذا كان صاحب الامر حازما لا يصغى للوشاية ـ ذكروا ان رجلا نصرانيا من أهل بغداد اتهمه بعض المسلمين سنة ٢٨٤هـ انه شتم النبى فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بالقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله يومئذ وطالبوه باقامة الحد عليه وكأنه اعتقد براءة الرجل فلم يجب طلبهم (٢) واتصل الامر بالخليفة وكان له شأن كبير . والحكم صاحب الاندلس فى أوائل القرن الثالث للهجرة صلب أحد عماله لانه ظلم ابناء أهل الذمة (٣)

فلما اقتربت الدولة من الشيخوخة أخذ هذا التعصب يسرى من العامة الى الخاصة لرغبة الناس يومئذ فى التقرب من رجال الدولة بالتزلف والتملق التماسا

(١) ابن خلكان ١٣ ج ١ و٢ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١٩٢ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٥٧ ج ٦

للكسب فينتحلون الاسباب المساعدة على ذلك ويتسابقون الى دس الدسائس واختلاق الوشايات . واسهل وسائل التزلف فى الدولة الاسلامية التدين لاشتراك الدين والسياسة فى مصالحها فكان بعضهم يستعينون فى اظهار التدين والغيرة على الاسلام بالطعن فى الاديان الاخرى فاذا كان صاحب الامر ضعيفا انطلى عليه ذلك واضطهد أهل تلك الاديان . ولذلك كان التعصب على أهل الذمة ولا سيما النصارى يتقدم بتقدم الدولة الاسلامية نحو الشيخوخة . وقد اشتد فى الاجيال الاسلامية الوسطى على أثر الحروب الصليبية فأصبح الحكام وأرباب المناصب العلمية وغيرها يجاهرون باحتقار غير المسلمين ويبالغون فى اضطهادهم ويعاملونهم معاملة الاعداء . وتمكنت العداوة بين الفئتين وكل منهما يحاول أذية الآخر حتى أصبح النصارى يودون التخلص من دولتهم بأية وسيلة كانت . فلما جاء التتر لفتح بغداد سنة ٦٥٦ هـ كان هوى أهل الذمة معهم . وتعاظم هذا التباغض على الخصوص قبيل النهضة الاخيرة أى منذ قرن وبعض القرن حتى فى المعاملات الرسمية ولا سيما فى البلاد البعيدة عن المدينة ـ فقد أطلعنا صديق عالم على صورة رخصة من جانب الشرع الشريف فى ديار بكر بدفن رجل مسيحى توفى فيها ننشرها لغرابة عبارتها وهى :

« من جانب الشرع الشريف فى ديار بكر

« الى مطران طائفة كفرة السريان أيها المكروه بالنظر والمعتقد ان يعقوب الكافر من طائفتكم المكروهة حيث إن الملعون قد فطس وهلك فلاجل ادخال جثته الكريهة ضمن الارض قد صدر الاسترحام من مرشد محلته وجرى أخذ الخراج وان تكن الارض لا تقبل جثته الخبيثة فلكى لا تكون سببا لفساد الهواء قد أعطيناه الرخصة بعنوان الشرع الشريف ان تدفن ضمن مدينتكم المخصوصة بموجب مذهبكم الباطل الى زمرة جهنم اقتضى اعطاء هذه الرخصة لكى لا يكون مانع من طرف أحد فى ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٢٠٣ » انتهى

فأى مسلم أو مسيحى من أهل هذا العصر يطلع على هذا ولاينكره أو يستغربه ولولا ثقتنا بصدق الناقل لانكرناه نحن أيضا . وقد هون علينا تصديقه ان صديقا آخر مقيما فى القاهرة أكد لنا وجود رخص كثيرة فى بعض البطركخانات بمصر فى مثل هذه العبارة . وقد أخذ هذا التعصب فى الزوال من بدء هذه النهضة ومتى نضجت نرجو ان يزول تماما باذن الله

تحاسد النصارى

على انك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الاذى فى ابان التمدن الاسلامى لرأيت سببه فى كثير من الاحوال وشاية بعض طوائف النصرانية بالبعض الا خر كالنساطرة واليعاقبة فى العراق . وكثيرا ما كان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين كما كان عيسى بن شهلا الطبيب لما تولى الطبابة ونال منصبا فى دار الخلافة فاغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والاساقفة يأخذ أموالهم لنفسه حتى انه كتب الى مطران نصيبين كتابا يلتمس منه فيه من آلات البيعة أشياء عظيمة المقدار ويهدده ومن أقواله له «ألست تعلم ان أمر الملك بيدى ان شئت أمرضته وان شئت عافيته» فبعث المطران بالكتاب الى الربيع حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه

واعتبر ما اجراه بختيشوع بن جبرائيل الطبيب مع حنين بن اسحق المترجم الشهير لما رأى من منزلته عند الخليفة المتوكل فحسده عليها وعمل على الكيد به من طريق الدين وذلك انه اصطنع ايقونة (صورة) للسيدة العذراء وفى حجرها السيد المسيح . وأوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة فى وقت عينه له وذهب الى مجلس الخليفة فى الميعاد المضروب وكان هو المستقبل للايقونة من يد الخادم والحامل لها وهو الذى وضعها بين يدى المتوكل فاستحسنها المتوكل جدا وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مرارا كثيرة فقال له المتوكل « لم تقبلها ؟ »فقال له « يا مولانا اذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل » فقال له المتوكل « وكل النصارى يفعلون كذلك ؟» فقال « نعم يا أمير المؤمنين وأفضل منى لانى أنا قصرت حيث أنا بين يديك . ومع تفضيلنا معشر النصارى فانى اعرف رجلا فى خدمتك وأفضالك وأرزاقك جارية عليه من النصارى يتهاون بها ويبصق عليها وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل » فقال له المتوكل « من هذا الذى هذه صفته » فقال له « حنين المترجم » فقال المتوكل « اوجه أحضره فان كان الامر على ما وصفت نكلت به وخلدته فى المطبق مع ما أتقدم به فى أمره من التضييق عليه وتجديد العذاب » فقال « أنا أحب ان يؤخر مولاى أمير المؤمنين أمره الى ان اخرج وأقيم ساعة ثم تأمر

باحضاره ، فقال « انى افعل ذلك » وخرج بختيشوع توا الى حنين وأخبره « ان الخليفة أهديت اليه ايقونة كذا وقد استحسنها وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه احتقرنا وقال لنا هذا ربكم وأمه مصوران وقد سألنى أمير المؤمنين عن رأيى فيها فقلت له مثلها يكون فى الحمامات والكنائس وغيرها مما لا نبالى به فطلب الى ان أبصق عليها فبصقت فاذا دعا بك افعل مثل فعلى ، فصدقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه ووجه الى ثيودوسيوس الجاثليق يومئذ فأحضره فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبلها ولم يزل يقبلها ويبكى طويلا ثم أخذها بيده وقام قائما فدعا لامير المؤمنين وأطنب فى دعائه فدعاه الى الجلوس والايقونة فى حجره فطلب الجاثليق اليه أن يتركها له ثم سأله الخليفة عما يستحق الذى يبصق عليها فقال « اذا كان مسيحيا عارفا فانى أحرمه دخول الكنيسة ومن القربان وأمنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيق عليه ، فأعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال وأمر بنقض منازله وحبسه ولم ينج من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه (١)

فاذا كان هذا فعل المتوكل فى هذه الحال وهو كما وصفناه من شدة وطأته على النصارى وغيرهم من أهل الذمة فكيف فى غيره من الخلفاء المعتدلين . وقد رأيت من حديث حنين هذا ان الخلفاء كانوا يفرضون على النصارى صدق التدين فى النصرانية فضلا عن اعفائهم من الاسلام الا من أراده باختياره . وكانوا أيضا يشاركون النصارى فى احتفالاتهم بالاعياد الكبرى كالميلاد والشعانين ويخرجون معهم الى اماكن النزهة كأنهم أمة واحدة (٢) ولم يكن ذلك مقصورا على العراق والشام فان المصريين كانوا يحتفلون بأعياد النصارى السنوية كما يحتفل بها النصارى أنفسهم وكان الخليفة يفرق فى الناس الهدايا فى عيد الميلاد والغطاس ويفرح المصريون جميعهم معا (٣)

(١) طبقات الاطباء ١٩٤ ج ١ (٢) ابن الاثير ١١٣ ج ٨ والفرج ١٥٦ ج ٢
(٣) المقريزى ٤٩٤ ج ١

وكانت الحكومة اذا أنشأت معهدا خيريا كان حظ أهل الذمة منه مثل حظ المسلمين وخصوصا المستشفيات ودور المرضى فانها كانت تبنى لمعالجة المسلم والذمى فاذا لم يكن فيها ما يكفى الاثنين قدموا المسلم (١).

على ان المسلمين فى ابان تمدنهم أطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونحلهم فلم يسمع انهم أكرهوا طائفة من الطوائف على الاسلام تعصبا للدين حتى فى أيام بنى أمية مع ضغطهم على غير العرب فى طلب المال فقد رأيت ما كان من خالد القسرى وغيره . وأما بنو العباس فكانوا أقرب الى الاعتدال وحرية الدين ولذلك تعددت البدع الدينية فى أيامهم من المجوس وغيرهم . ناهيك بالفرق الاسلامية وتعدادها . وكان اكثر الخلفاء تسامحا فى الدين المأمون فكان هو نفسه شيعيا وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيا ووزيره احمد بن ابى داود معتزليا (٢) يكفيك من تسامحه فى الدين انتصاره للمعتزلة فى القول بخلق القرآن — وأول من قال بذلك رجل يهودى اسمه لبيد الاعصم الذى يقال انه سحر النبى . فكان لبيد يقول ان التوراة مخلوقة ثم قال بخلق القرآن وعنه أخذ طالوت ابن اخته وأخذه ابان بن سمعان عن طالوت وأخذه الجعد بن درهم عن ابان فى أيام هشام بن عبد الملك الاموى وأظهر مقالته فى خلق القرآن وانكار ما فيه وان فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على مثلها وأحسن منها (٣) فغضب عليه هشام وبعث به الى خالد القسرى أمير العراقين وأمره بقتله فحبسه ولم يقتله فألح عليه فاخرجه يوم الاضحى وبعد ان صلى قال « اريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا » ثم ذبحه (٤) . ولما تولى مروان بن محمد كان يقول بخلق القرآن مثل الجعد (٥) حتى اذا تولى المأمون فنصر المعتزلة — ولعله أخذ الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه — وتبعه الواثق بالله فقال مثل قوله فعظم ذلك على عامة المسلمين وانكروه وسموا الواثق كافرا (٦) كما سموا المأمون أمير الكافرين (٧) وكان

(١) طبقات الاطباء ٢٢١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٢٣ ج ٢ (٣) المقريزى ٣٤٦ ج ٢ (٤) ابن الاثير ١٢٣ ج ٥ و٢٨ ج ٧ (٥) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٥ (٦) ابن الاثير ٨ ج ٧ (٧) ابن الاثير ١٣١ ج ٦

ما كان من المحنة فى ذلك أيام المتوكل . وانقسم المسلمون الى حزبين والخلفاء ضد المعتزلة وقد شددوا النكير على القائلين بخلق القرآن وتناشدت الشعراء ذلك طعنا فيهم وتكفيرا لهم كقول ابى خلف المعافرى

لا والذى رفع السما ٠ بلا عمـــاد للنظر
ما قال خلق فى القرا ن بخلقـه الا كفـر
لـكن كلام منزل من عند خلاق البشر (١)

وبالجملة فقد كانت الافكار من حيث الدين مطلقة الحرية فى تلك العصور لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه فربما اجتمع عدة اخوة فى بيت واحد وكل منهم على مذهب . فأولاد أبى الجعد ستة كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان (٢)

فسياسة الدولة العباسية فى معاملة الرعايا من المسلمين وأهل الذمة انما هى المحاسنة والعدل والرفق . وقد أتينا بأمثلة من عدل الخلفاء الاولين من بنى العباس ورفقهم فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) وكانوا يحاسنون الفرس وسائر أهل النفوذ من الموالى على الخصوص ولا سيما بعد ان صارت الحكومة اليهم وقبضوا على جندها ومالها فكان الخلفاء يقدمونهم ويكرمونهم ويطلقون أيديهم فى شؤون الدولة فاذا داخلهم شك فى اخلاصهم ولو على سبيل الوشاية فتكوا بهم فتكا ذريعا كما اتفق للبرامكة وغيرهم من وزراء العصر العباسى الاول

العصبية العربية فى العصر العباسى

سياسة التقسيم

على ان المنصور كان همه منصرفا الى العرب لانهم أهل عصبية اذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما أرادوه لما يعلمه من جرأتهم فى طلب الحق وتقبيح الظلم جهارا ولا يحملون ضيما وهو كما علمت بما ارتكبه فى تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الابية . وقد زاده حذرا منهم ما كان يسمعه من

(١) نفح الطيب ١٥٨ ج ٣ (٢) المعارف ١٥٦ (٣) الجزء الثانى ٧٣ «طبعة ثالثة»

أقوالهم الدالة على اباءة الضيم ولو كان فيه ما يسوءه كما اتفق له وهو فى بعض حجاته وكان يطوف بالكعبة ليلا اذ سمع قائلا يقول « اللهم أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع » فخرج المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فطلب ان يؤمنه حتى يقول الحق فأمنه فقال له « ان الذى حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين » فقال المنصور « ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى » فقال الرجل « لان الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجابا معهم الاسلحة وأمرتهم ألا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعارى ولا الضعيف والفقير وما أحد الا وله من هذا المال حق الخ »

فهذا وأمثاله نبه المنصور لجرأة العرب فجعل يفكر فى اذلالهم ويستنبط له الحيل وكان للعرب ديوان خاص لهم فيه الرواتب على أنسابهم ومراتبهم وفيهم اليمنية والمضرية . فلما فرغ المنصور من تأييد دولته بمقاتلة العلويين والخوارج وغيرهم وقد بنى بغداد وحصنها وأنشأ فيها منازل الجند نظر الى من حوله منهم على الاجمال فاذا هم ثلاث فرق كبرى : اليمنية والمضرية والخراسانية ، فاتفق سنة ١٥١ هـ أن بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب وهو قصره فى بغداد فأوجس خيفة من تكرار ذلك لعلمه ان دولته انما قامت بالجند فاذا اجتمعوا عليه أخرجوها من يده وهو يعلم أيضا أن لكل من هذه الفرق هوى مع بعض دعاة الخلافة العلويين أو غيرهم فليس أهون عليهم من ردها الى دولة جديدة

وكان كبير بنى العباس يومئذ قثم بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخهم وله الحرمة والتقدم عندهم فاستشاره المنصور فى ذلك قائلا « أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا وقد خفت ان تجتمع كلمة هؤلاء فيخرج هذا الامر من أيدينا فماذا ترى ؟ » قال « يا أمير المؤمنين عندى رأى ان أظهرته لك فسد وان تركته أمضيته وصلحت خلافتك وهابك جندك » قال له « أفتمضى فى خلافتى شيئا لا أعلمه ؟ » قال له « ان كنت عندك متهما فلا تشاورنى فان كنت مأمونا عليها فدعنى أفعل رأيى » فقال له المنصور « فامضه » فانصرف قثم الى منزله فدعا غلاما له فقال « اذا كان الغد فتقدمنى واجلس فى دار أمير المؤمنين

فاذا رأيتنى قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فانهض وخذ بعنان بغلتى واستحلفنى بحق رسول الله وبحق العباس وبحق أمير المؤمنين الا ما وقفت لك وسمعت مسألتك واجبتك عنها فانى سأنتهرك عند ذلك واغلظ لك فلا تخف وعاود المسألة فانى سأضربك فعاود وقل لى أى الحيين أشرف اليمن أم مضر فاذا اجبتك فاترك البغلة وانت حر » ففعل الغلام كما أمره وفعل قثم به ما قاله الى أن قال « مضر أشرف لان منها رسول الله (صلعم) وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله » فامتعضت اليمن من قوله لانه لم يذكر لهم شيئا وقال بعض قوادهم « ليس الامر كذلك مطلقا بغير فضيلة لليمن » ثم قال لغلام له قم الى بغلة الشيخ فاكبحها ففعل حتى كاد يعقبها فامتعضت مضر وقالوا « يفعل هذا بشيخنا » فأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها فنفر الحيان ودخل قثم على المنصور . وافترق الجند العربى من ذلك الحين فصارت مضر فرقة واليمن فرقة والخراسانية فرقة وقال قثم للمنصور « قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزابا كل حزب منهم يخاف ان يحدث حدثا فتضربه بالآخر » (١)

وكان المهدى بن المنصور قد جاء من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنأوه بمقدمه فاجازهم وكساهم وفعل المنصور بهم مثل ذلك فقال قثم للمنصور « وقد بقى عليك بالتدبير بقية وهى ان تعبر بابنك «المهدى» فتنزله فى ذلك الجانب من بغداد وتحول معه قطعة من جيشك فيصير ذلك بلدا وهذا بلدا فان فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء وان فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك وان فسد عليك بعض القبائل ضربتهم بالقبائل الاخرى » فقبل رأيه واستقام ملكه وبنى المهدي بلدا سماه الرصافة ـ فاستعان المهدى فى استبقاء دولته بسياسة التقسيم

وما زال شأن العرب يضعف فى الدولة العباسية تدريجا وحزب الفرس يقوى حتى اصبحت الدولة فى أيام الرشيد بين عاملين كبيرين احدهما فارسى والآخر عربى كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بطانة الخليفة أيضا حزبين احدهما ينتمى الى الفرس والآخر الى العرب مرجعهما الى ابنى الرشيد الامين والمأمون لان الاول امه عربية هاشمية (زبيدة) وأم الثانى أمة فارسية يقال ان

(١) ابن الاثير ٢٨٥ ج ٥

الرشيد اشتراها لتلد له لان امرأته زبيدة ابطأت فى الحمل فولدت له عبد الله المأمون ثم حملت زبيدة فولدت محمدا الامين (١) فوقع بين الوالدتين من التحاسد مثل الذى وقع بين سارة وهاجر امرأتى ابراهيم الخليل . وسرى هذا التحاسد فى البطانة ومنه الى سائر رجال الدولة وهوى بنى هاشم وسائر العرب مع الامين وهوى سائر رجال الدولة من الفرس وغيرهم مع المأمون . وكان زعيم الحزب العربى آل الربيع بن يونس

والربيع يتصل نسبه بكيسان مولى الحرث مولى عثمان بن عفان فجده مولى مولى . ودخل الربيع فى جملة موالى المنصور فولاه حجابته ثم جعله وزيره وكان المنصور شديد الميل اليه حسن الاعتماد عليه فسأله يوما عما يتمناه منه فقال « ان تحب ابنى الفضل » فقال المنصور « كيف اخترت له المحبة دون كل شىء » فقال « لانك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته » ومات الربيع فى أيام الهادى سنة ١٧٠ هـ ولما تولى الرشيد الخلافة واستوزر البرامكة سقط فى يد الفضل بن الربيع لخروج الوزارة من يده فرام التشبه بهم ومعارضتهم ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم فكان فى نفسه منهم احن وشحناء فسعى بهم عند الرشيد وكان سعيه من جملة اسباب نكبتهم

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الامين

وكان المأمون فضلا عن نسبه الفارسى من أمه قد ربى فى حجر جعفر بن يحيى البرمكى وهو الذى سعى له فى ولاية العهد (٢) ورباه على حب الفرس . والفضل ابن الربيع سعى فى تأييد بيعة الامين . ولما توفى الرشيد بعد مقتل البرامكة كان الفضل بن الربيع هو الذى حمل الامين على نقض بيعة المأمون (٣) واختلف الاخوان على البيعة وكان المأمون عند اخواله بخراسان والامين فى أهله ببغداد وانتشب القتال بين الفريقين ـ وهو قتال بين الفرس والعرب لان العرب فى معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الامين (٤) . وقد نصر الخراسانيون ابن اختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل . وكان الامين يحرض جنده فى بغداد بمشورة الفضل بن الربيع . وكان العرب من الجند العباسى قد انهكتهم الحضارة والترف

(١) المسعودى ٢١١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٩٤ ج ٦ (٣) ابن الاثير ٨٩ ج ٦
(٤) المقريزى ١٧٨ ج ١

وتبددوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعاً . فلما ضاق الحال بالامين ولم يبق عنده مال للتجنيد استنجد رعاع أهل بغداد وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة. وأمر بعض قواده أن يتتبعوا أصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم فلم يزده ذلك الا ضعفا . وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون وسيأتى تفصيل ذلك . فأخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها الى المأمون كما أخرجوها قبلا من بني أمية وسلموها الى أجداده

فاستفحل أمر الفرس فى أيام المأمون وازداد العرب ضعفا حتى كثيرا ما كانوا يتعرضون له فى الشوارع يشكون اغضاءه عنهم ومن أقوالهم « يا أمير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان » (١)

فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وقد جمع ما جمعه من الاتراك والفراعنة كانت الضربة القاضية على العرب فى الدولة العباسية لانه كتب الى عماله فى الاطراف باسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك وانحط شأن العرب من ذلك الحين (٢) ومنعوا من الولايات . وآخر من ولى مصر منهم عنبسة بن اسحق صرف عنها سنة ٢٤٢هـ (٣) فتمكن الفرس من الدولة وزادت رغبتهم فى نزعها من العرب على الاطلاق فقام مرداويج فى اصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة الى الفرس ويبطل دولة العرب (٤) فلم يفلح على أن النفوذ تحول بالتدريج الى الخدم كما سترى

الشعوبية والعرب

وفى أيام المأمون ومن جاء بعده تظاهر الشعوبية بالطعن على العرب وكان المأمون يقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة وكان شديد التعصب على العرب وأبو عبيدة الراوية الشهير وعلان الشعوبى . وألف الشعوبية الكتب فى ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الامم

والشعوبية يقولون بالمساواة بين بنى الانسان ولذلك سموهم أيضا « أهل

(١) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٢) المقريزى ٩٤ و ٣١١ و ٣١٣ ج ١ وابن خلدون ١٤ ج ١ (٣) المقريزى ٢٩٤ ج ٢ (٤) الفخرى ٢٥٣

التسوية » ومن أقوالهم فى الرد على العرب ان النبى نفسه ساوى بين المسلمين على اختلاف مللهم بقوله « المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على سواهم » وقوله فى خطبة حجة الوداع « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » وما جاء فى القرآن « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » . والشعوبية ينوبون بدفاعهم عن كل أمم الارض فى ذلك العهد الا العرب فاذا افتخروا بملوكهم ذكروا الفراعنة والنماردة والعمالقة والاكاسرة والقياصرة وافتخروا بسليمان الحكيم والاسكندر الكبير وبملوك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا الانبياء من آدم الى أيامهم وانهم جميعا من غير العرب الا أربعة هم هود وصالح واسماعيل ومحمد . واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع لعبة الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب وفخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم وعلوم الهند والفرس وغيرهم . وبلغ من جسارة بعض الشعوبية فى بعض ردوده ان قال « فما الذى تفخر به العرب على العجم فانما هى كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضا ويغير بعضها على بعض فرجالها موثقون فى حلق الأسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل » (١) واستشهدوا على ذلك بأبيات من اقوال العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض وقالوا «لايفلح العربى ان لم يكن معه نبى ينصره » (٢) وعيروهم باستلحاق الادعياء ونظموا الاشعار طعنا فيهم . وممن نظم المطاعن عليهم الحسن بن هانىء وبشار بن برد وغيرهما على ان بشارا كان تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء

وقام المتعصبون للعرب فألفوا الكتب فى الرد على الشعوبية . ومن أشهر ما ألف فى ذلك كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة وقد رد الشعوبية عليه فى مناظرات يطول شرحها . وفى كل حال فان السياسة وطبيعة العمران قضت بذهاب دولة العرب

(١) العقد الفريد ٦٩ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٧

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

قد رأيت ان الخلفاء العباسيين قربوا الموالى الفرس وولوهم المناصب الكبرى فاتخذوا منهم الوزراء والعمال فاعتز الفرس وتاقت نفوسهم الى الاستبداد بالدولة والرجوع الى ما كانوا فيه على عهد الاكاسرة . وهم يعلمون ان ذلك لا يتيسر لهم فى الاسلام الا بصبغة دينية تحت راية الخلافة الاسلامية . وربما كان ذلك الامل فى جملة ما حملهم على التشيع لاهل البيت فى أيام بنى أمية ونصرتهم فى طلب الخلافة

فلما انتقلت البيعة من العلويين الى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد ان قتل ابامسلم وغيره من شيعته لم ير الفرس بدا من الرضوخ لسلطانه خوفا من بأسه . على انهم ظلوا على مذهب الشيعة وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون بها على الدولة أو ينشئون لانفسهم دولة شيعية

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه فيستخدمون الفرس فى اكبر مصالح الدولة على حذر . فاذا رأوا من احدهم ميلا الى التشيع عزلوه أو قتلوه ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم والخلفاء يثنون عليهم العيون فى منازلهم كما فعل المهدى بوزيره يعقوب بن داود واصله من موالى العرب وكان فى بادىء أمره كاتبا عند ابراهيم بن عبد الله العلوى الحسنى اخى محمد بن عبد الله الذى قام فى المدينة وقتله المنصور . وكان يعقوب قد خرج مع محمد هذا على المنصور ثم رجع فى جملة الراجعين وكتم ميله واتصل بالمهدى فاستخدمه واحبه كثيرا ووثق به حتى آخاه واعلن ذلك فى الدواوين . فقال سلم الخاسر فى ذلك :

قل للامام الذى جاءت خلافته تهدى اليه بحق غير مردود
نعم القرين على التقوى اعنت به اخوك فى الله يعقوب بن داود

واحرز يعقوب المذكور نفوذا عظيما حتى غلب على امور المهدى وسهل له الاسراف والاشتغال عن مصالح الدولة وتفرغ هو للعمل والعرب لا يعجبهم ذلك

فجعلوا يعرضون به بالاشعار ونحوها والمهدى يسمع أقوالهم ولا يبالى بها ـ روى ان المهدى حج مرة فمر بمكان عليه كتابة قرأها فاذا هى :

لله درك يا مهدى من رجل لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال المهدى لمن معه اكتبوا تحته « على رغم أنف الكاتب لهذا وتعسا لجده »

فلما لم يجد أعداؤه حيلة فى تغيير قلب المهدى عليه تحولوا الى الوشاية من جهة لا بد للخليفة أن يتنبه لها فقالوا له « ان يعقوب يميل الى العلوية وانه كان معهم عند قيامهم على أبيه » فاشتغل خاطره وكان يعقوب يكتم ذلك عنه فأراد ان يمتحنه فدعا به يوما وهو فى مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية جميلة ثم أظهر المهدى انه مسرور منه فاهداه المجلس بما فيه والجارية أيضا ثم تقدم اليه بمهمة طلب قضاءها ـ وهى أن رجلا من العلوية يريد المهدى أن يتخلص منه فأوصى يعقوب أن يقتله فوعده بذلك بعد أن أقسم الايمان وذهب الى منزله واستقدم ذلك العلوى وكلمه فرآه لبيبا وتوسل الرجل اليه أن يحجب دمه فحن له يعقوب وعفى عنه وأوصاه بالفرار وساعده بالمال . وكانت الجارية فى بعض جوانب البيت تسمع ما جرى فنقلت الحكاية كما جرت . فبعث المهدى حتى قبض على الرجل وخبأه وأتى بيعقوب فاعترف له بما فعله فحبسه بالمطبق عدة سنين ولم يخرج الا فى السنة السادسة من خلافة الرشيد شفع به يحيى بن خالد البرمكى لانهما من طينة واحدة ومذهب واحد وكان يعقوب قد عجز فخيره الرشيد بالاقامة حيث يشاء فاختار مكة فسيروه اليها وتوفى فيها سنة ١٨٧ هـ وهى السنة التى نكب فيها البرامكة

الوزراء البرامكة

مرتبتهم فى الدولة

لما توفى المهدى والهادى وافضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة لان خالدا جدهم من قواد أبى مسلم وقد جاهد فى نصرة العباسيين جهادا حسنا فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور فى الحروب كما تقدم . وكان خالد كبير العقل واسع الصدر لم يبلغ أحد من ولده مبلغه فى الجود والرأى والبأس والعلم واشتهر ابنه يحيى بموفور العقل وسداد الرأى وكان مقربا من المهدى يعول على

رأيه . وولد ليحيى سنة ١٤٨ هـ غلامه الفضل قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام وربى الطفلان معا فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة وفى ذلك يقول سلم الخاسر (١)

أصبح الفضل والخليفة هرو ن رضيعى لبان خير النساء

ولما ترعرع هرون عهد المهدى الى يحيى بتربيته فشب الرشيد فى حجره وكان يدعوه « يا أبت » فلما مات المهدى سنة ١٦٩ هـ فى جرجان كان اكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس . وخاف الرشيد اختلال الامر اذا علم الناس بموت أبيه وهم فى تلك الحال فاستشار يحيى فأشار عليه برأى كان فيه الصواب حتى رجعوا الى بغداد وقد هاج الناس وفيها الخيزران أم الهادى والرشيد فبعثت الى الربيع ويحيى لتشاورهما فأجابها الربيع ولم يجبها يحيى وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان فى أيام أبيه ووبخ الربيع

وأول شىء خطر للهادى بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ويحول الارث الى ابنه لتبقى الخلافة فى نسله كما كان يفعل معظم الخلفاء فى مثل هذه الحال . فأعلن الهادى عزمه لبعض خاصته فوافقوه وخلعوا هرون وبايعوا جعفر بن الهادى وتنقصوا من الرشيد فى مجلس الجماعة . فأمر الهادى أن لا يسار بين يديه بالحربة على جارى العادة فى المسير بين يدى ولى العهد فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ورضى هو بذلك ولكن يحيى لم يرض بل حرضه على التمسك بحقه فى ذلك فوشى بعضهم الى الهادى أن يحيى يفسد الرشيد عليه فبعث الهادى الى يحيى فقال له « يا يحيى مالى ولك » قال « ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته » فقال « لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على » فقال « من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرنى المهدى معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك » فطابت نفس الهادى بهذا القول . فاغتنم يحيى رضاه وقال « يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة » قال « صدقت » وصرفه

فلما لقى الهادى القواد الذى خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع فبعث الى

(١) ابن الاثير ٢٧٧ ج ٥

يحيى فحبسه فكتب اليه يحيى وهو فى الحبس « ان عندى نصيحة » فأحضره وسأله عما عنده فقال يحيى « يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان الامر الذى لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله (يعنى موت الهادى) أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ » قال « ما أظن ذلك » قال « يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك . والله ان هذا الامر لو لم يعقده المهدى لاخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ولكنى أرى ان تقر الامر على أخيك فاذا بلغ أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل الهادى قوله وعمل به (١)

وتوفى الهادى ولم يملك الا سنة وأفضت الخلافة الى الرشيد ويحيى أول من بشره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم فعرف الرشيد فضله فى ذلك وقال له « يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الامر » ودفع اليه خاتمه وجعل اصدار الامور وايرادها اليه وكان يعظمه فاذا ذكره قال « أبى » وفى هذه الوزارة يقول الشاعر :

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هرون أشرق نورها
يمين أمين الله هرون ذو الندى ... فهرون واليها ويحيى وزيرها

وخلف يحيى أولادا أحمنهم الفضل فى جوده ونزاهته وجعفر فى كتابته وفصاحة لسانه ومحمد فى بعد همته وموسى فى شجاعته وبأسه . وقد تولوا أرفع المناصب وتصرفوا فى الدولة وخصوصا جعفر والفضل . فضلا عما اشتهروا به من الجود والسخاء وكان أبوهم يحيى جوادا مثلهم فشق الناس من اسمهم فعلا للسخاء فقالوا « برمك الرجل » أى جاد وسخا

وأراد الرشيد اكرام يحيى فولى ابنيه الفضل وجعفر أعظم الاعمال فقسم المملكة بينهما فجعل جعفر عاملا على الغرب كله من الانبار الى افريقية وقلد الفضل الشرق كله من شيروان الى أقصى بلاد الترك . فشخص الفضل الى خراسان سنة ١٧٦ هـ فجعلها مركز عمله وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتاب

(١) ابن الاثير ٣٩ ج ٦

لكنه لم يقم فيها الا قليلا فاستخلف على عمله وشخص الى العراق سنة ١٧٩ هـ فأكرمه الرشيد ثم ولاه الوزارة ورأى بعد قليل ان ينقلها الى جعفر فخاطب أباهما قائلا « قد أحببت أن انقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت اليه » فكتب يحيى الى الفضل « قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » فأجابه الفضل «قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولاغربت عنى رتبة طلعت عليه » (١)

وتمكن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه حتى اتخذ الرشيد ثوبا له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة. وتصرف جعفر فى المملكة تصرفا مطلقا لم يكن يمضى أمرا الا أمضاه الرشيد ولو كان فيه هبة نصف مملكته أو تزويج بعض بناته . وفى حكايته مع عبد الملك بن صالح الهاشمى ما يمثل ذلك الاطلاق أحسن تمثيل : كان الرشيد متغيرا على عبد الملك لانه من بنى عمه وله طمع بالخلافة فاتفق أن عبد الملك المذكور كان مرة فى مجلس شراب بمنزل جعفر فلما أراد الانصراف قال له جعفر « اذكر حوائجك » فشكا اليه ان الرشيد متغير عليه فقال له « قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ما عنده منك» فقال « وعلى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم دينا » قال « تقضى عنك وانها لحاضرة ولكن كونها من أمير المؤمنين أشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك » قال « وابراهيم ابنى أحب أن أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة » قال « قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته » قال « واوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه » قال « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » وخرج عبد الملك والحضور يعجبون من اقدام جعفر على ذلك من عند نفسه وخافوا أن يغضب الرشيد من هذه الجسارة فما عتم ان علموا بامضاء الرشيد كل ذلك وهو يقول « احسن احسن » (٢)

ناهيك بما كان من اطلاق يده فى خزائن الدولة وفى رقاب الناس . ومع ذلك فان الرشيد حالما أوجس منه على سلطانه نكبه ونكب سائر أهله نكبتهم المشهورة واختلف المؤرخون فى سببها وهو ما نذكره

(١) الفخرى ١٨٦ (٢) ابن خلكان ١٦ ج ١

نكبة البرامكة

الرشيد والشيعة

كان البرامكة من الشيعة وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خراسان وفارس . فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بابى سلمة ثم بابى مسلم وسواه ممن يريد الخلافة للعلويين رأى من الحكمة وسداد الرأى ان يغضى عن ذلك الامر واخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور . وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من ايثار آل على لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصا فى خلافة الرشيد لانه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم (١) وكان يكره الشيعة منذ صباه وهم يخافونه من قبل الخلافة . فلما تولى الخلافة أمر باخراج الطالبيين جميعا من بغداد الى المدينة (٢)

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون اليه بهجائهم وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب وهم لا يجسرون على الظهور فى حياته . فلما مات ودفن فى طوس قال دعبل بن على يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعا بقتل العلويين من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد واشار الى اجتماع القبرين فى طوس قبر الرشيد وقبر الرضا قال :

وليس حى من الاحياء نعلمه ... من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء فى دمائهم ... كما تشارك ايسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بارض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا ... ولا أرى لبنى العباس من عذر
اربع بطوس على القبر الذكى اذا ... ما كنت تربع من دير الى وطر
قبران فى طوس خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ماينفع الرجس من قرب الزكى ولا ... على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر (٣)

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ويعدون عمله حراما (٤)

---

(١) العقد الفريد ١٤٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٤٧ ج ٦ (٣) الاغانى ٥٧ ج ١٨
(٤) الاغانى ٧٦ ج ٢٠

ويكظمون . على انهمّ كانوا يساعدون تلك الشيعة سرا بما يبلغ اليه امكانهم وكان كبارهم يجتمعون الى جعفر وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الاعلى عند الرشيد ويذكرون أعمال الرشيد وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك اليه ولكن حساده فى بلاط الخليفة واكثرهم من العرب أو من ينتمى اليهم كانوا يسعون به الى الرشيد وأشدهم غيظا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الامين لانه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها . وقد اضطغنت عليه مذ كانوا فى الكعبة وقد جاءوها لتعليق كتابى العهد للامين والمأمون فلما حلف الامين اليمين على جارى العادة وهم بالخروج من الكعبة رده جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذلك الله » وطلب اليه ان يحلف على ذلك ثلاثا فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه وكانت من جملة من حرض الرشيد على الايقاع به (١) فضلا عما بينهما من العداوة الجنسية وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب وخصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيبانى فان البرامكة اضعفوا نفوذهم فى الدولة وأغروا الرشيد بهم (٢) غير حسادهم من الفرس حتى عمهم محمد بن خالد فانه كان من جملة حسادهم والساعين فى أذاهم (٣)

هؤلاء جميعا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطورا من حيث استبداده بالدولة وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالاموال والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره وقد غلب عليه ما غرس فى نفسه من افضال يحيى عليه وآثار أبنائه فى تنظيم دولته واحياء معالمها وان يكن ساءه ما يبديه جعفر أحيانا من نصرة العلويين أو استنصارهم فان جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعيا (٤) فكان الرشيد صابرا على ذلك يترقب الفرص

الشيعة العلوية بخراسان

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم قبل قيام العباسيين من شيعة على وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لابى مسلم أو خوفا منه . فلما رأوا ما حل به من القتل غدرا غضبوا وتعاقدوا على الاخذ بثاره ثم رأوا المنصور فتك

(١) المسعودى ١٩٥ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٥٧ ج ٦ وابن خلكان ١٧٩ ج ٢
(٣) ابن الاثير ٧١ ج ٦ (٤) السيوطى ١٠ ج ٢

بالراوندية اخوانهم وهم من أصحاب أبى مسلم ثم بنى بغداد وتحصن فيها فتربصوا واذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم وفر من بقى من ولد على الى أطراف المملكة الاسلامية فى خراسان والمغرب وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سرا فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاما من المنصور لقتله أبى مسلم وعملا بتعاقدهم عليه

فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان لانها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم رهبة فى قلوب الناس منذ نقلوا الخلافة من بنى أمية الى بنى العباس . وكان داعية الشيعة هناك فى أيام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذى حاربه المنصور وقتله . فظهر يحيى هذا فى الديلم سنة ١٧٦ هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد فسرح اليه الفضل بن يحيى فاستنزله الفضل من بلاد الديلم بالحسنى على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فكتب له أمانا أمضاه الرشيد وجلة بنى هاشم وجاء الفضل ومعه يحيى الى بغداد فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقا سنية

ثم خطر له أن يحبسه خوفا منه ولعل بعض الاعداء الشيعة حرضوه على حبسه لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعهد الامان الذى بيده . فاستشار الفقهاء فى الامان فقال بعضهم الامان صحيح، فحاجه الرشيد فقال الآخر وهو أبو البخترى القاضى هذا أمان منتقض من وجه كذا فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل فدفعه الى جعفر فحبسه وهو يرى انه مظلوم لانه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الامان فحدثته نفسه أن يطلقه بما له من النفوذ والدالة ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه . فبعث الى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه فتوسل الرجل اليه وقال « اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون غدا خصمك محمد (صلعم) فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا » فرق له جعفر وقال « اذهب حيث شئت من بلاد الله » قال « وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ » فوجه معه من أداه الى مأمنه (١)

الرشيد وجعفر

وكان حساد جعفر يراقبون حركاته وخصوصا الفضل بن الربيع لانه كان

(١) ابن خلدون ٨ ج ٤ وابن الاثير ٥٠ و ٧٠ ج ٦

يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه اليها أولئك العجم وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله فرفع الخبر الى الرشيد فانكره ولكنه انتهز الفضل وأظهر ان جعفر انما فعله بأمره. ثم بعث الى جعفر فدعاه الى الطعام معه وجعل يلقمه ويحادثه ثم سأله عن يحيى فقال « هو بحاله فى الحبس » فقال « بحياتى ؟ » ففطن جعفر فقال « لا وحياتك » وقص عليه أمره وقال « قد علمت انه لا مكروه عنده » فقال الرشيد « نعم ما فعلت ما غدوت ما فى نفسى » وقد كظم غيظه وعزم على الايقاع به من ذلك الحين . ولما قام جعفر عنه قال فى نفسه « قتلنى الله ان لم اقتلك » ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الاموال للناس على اختلاف طبقاتهم حتى بنى هاشم انفسهم

وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر لما فى نفس الرشيد عليه فأظهر انه يريد ان يوليه خراسان فأخذ الخاتم ودفعه الى أبيه يحيى وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوما (١) فهو اما ولاه اياها تمويها أو ولاه ثم خافه

وكان فى جملة حساد البرامكة على بن عيسى بن ماهان فسعى بموسى بن يحيى أخى جعفر واتهمه فى أمر خراسان واعلم الرشيد انه يكاتبهم ليسير اليهم ويحرضهم على خلع الطاعة فصدق الرشيد الوشاية فحبسه ثم اطلقه ولكنه تغير على البرامكة جميعا وظهر ذلك فى بعض معاملاته . فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن فعرض الرشيد فى بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه . وكان يحى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان فأوصى الرشيد مسرورا خادمه ألا يقوموا له فشعر يحيى بهذا التغير وتناقل الناس خبر ذلك ولبثوا يتوقعون شرا يصيب البرامكة وليس من يجرأ على اخبارهم به . على انهم كانوا يعرضون فى أثناء الغناء بما يخافونه عليهم — ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحيانا :

ما يريد الناس منا ما تنام الناس عنا
انمـــا همهم ان يظهروا ماقد دفنا

وكان الرشيد يستعظم الاقدام على ذلك الامر ويخاف أنصار البرامكة اذا هو فتك بهم فأراد ان يستطلع افكار خاصته فى هذا الشأن ليرى وقعه فى قلوبهم،

(١) ابن الاثير ٦١ ج ٦

والمغنون احسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس فى حال سكرهم وطربهم والسكر يبعث صاحبه على الافشاء بما فى ضميره والتصريح بما يجول فى خاطره . فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصلى مرة « بأى شىء يتحدث الناس » فقال « يتحدثون بانك تقبض على البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة » فأظهر الرشيد الغضب وصاح به « ما انت وذاك ويلك » فأمسك (١)

وكان للرشيد عيون على البرامكة فى منازلهم ودواوينهم يحصون عليهم انفاسهم فلا يخلو ان تبدر منهم بادرة تلميحا أو تصريحا والوشاة يعظمونها له

وكان فى جملة جواسيس الرشيد خادمان خزريان رباهما واهداهما الى جعفر فكانا ينقلان اليه كل ما يدور فى مجالس جعفر يوميا . وكان لجعفر مجلس أنس يعقده فى منزله مرة فى الاسبوع يحضره ارباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس يلبسون أثوابا لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم . ففى أحد هذه المجالس دار الكلام على ابى مسلم وبطشه وكيف استطاع وحده ان ينقل الدولة الاسلامية من عائلة الى عائلة . فقال جعفر « لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به لانه لم يدركه الا بقتل ٦٠٠٫٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرا ، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم الى قوم بغير سفك دم » (٢) وكان الغلامان الخزريان يسمعان قوله فنقلاه الى الرشيد وافهماه انه يعرض بنقل الدولة من العباسيين الى الفرس أو العلويين فازداد خوف الرشيد منه

فلما كانت السنة التى نكبوا فيها (سنة ١٨٧ هـ) كان الرشيد قادما من الحج وقد صمم على الفتك بجعفر فاظهر رضاءه عنه وولاه كورة خراسان ، أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان . فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر وفيهم نخبة أصحاب جعفر وبقى هو ببغداد يتأهب للحاق بهم

وكان له صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى قد علم ما فى نفس الرشيد على جعفر وأهله فأراد ان يتوسط فى اصلاح ما بينهما فجاء جعفر فى أثناء تأهبه للخروج الى خراسان وخلا به وحادثه فى شؤون شتى حتى تطرق الى الموضوع الذى جاء من أجله فقال له « يا سيدى انت عازم على الخروج الى بلدة

(١) الاغانى ١١٣ ج ٥ (٢) زينة المجالس « فارسى »

كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة المملكة فلو صبرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده » فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول فى نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال « والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك الا بفضلى ولا قامت هذه الدولة الا بنا أما كفى انى تركته لا يهتم بشىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت أمواله مالا وما زلت للامور الجليلة ادبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته.واخترته لولدى وعقبى بعدى وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ؟ والله لئن سألنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه » كأنه يهدده بذهاب خراسان . فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد لانه صار متهما عندهما

فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله اليه فصمم على الفتك به. ولعله كان ينوى القبض عليه وحبسه فقط فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله وأكبر الاقدام على ذلك فاستشار زبيدة امرأته وصرح بما يجول فى خاطره قائلا « انى خائف ان تمكن هؤلاء من خراسان ان يخرج الامر من يدى » فحرضته على سرعة الفتك به ويقال انها ذكرت له أمورا ارتكبها جعفر فى بيت الرشيد(١) تتعلق بالعباسة اخته . فاغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه وهم فى عسكره بالنهروان وهو فى بغداد وبعث خادمه مسرورا ليأتيه برأسه فذهب اليه وقتله كما هو مشهور . ووجه الرشيد من أحاط بابيه يحيى وسائر أولاده وباخيه الفضل ليلا فحبسهم وقبض ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك وأرسل الى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم واسبابهم ولم يتعرض لمحمد بن خالد لانه كان من جملة الساعين بهم وأسند الوزارة بعدهم الى الفضل بن الربيع عدوهم . ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان اذا ذكرهم بكى (٢) وقد أصاب جعفر من الرشيد كما اصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز اذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله (٣)

فالرشيد قتك بالبرامكة لانه خافهم على سلطانه عملا بسياسة العباسيين فى تأييد دولتهم اذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله . وهى غير سياستهم فى معاملة رعاياهم فانها

(١) الاتليدى ١١٣ (٢) الاغانى ٧٤ ج ١٧ (٣) المسعودى ١١٩ ج ١

كانت مؤسسة غالبا على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية ويستدعيه الحق مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ولا سيما الرشيد فقد كان اذا وعظته بكى واذا استعطفته عفا واذا استجديته سخا حتى جرى خبره مجرى الامثال . أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم (١) ولا فيمن يدعو اليهم أو ينصرهم

الامين والمأمون

أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية وتعاقدوا على الاخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة وتربصوا يترقبون الفرص . وتوجهت آمالهم الى المأمون لان أمه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية ـ ولم تكن الشيعة يومئذ مذهبا دينيا كما هي اليوم وانما كانت حزبا سياسيا يراد به جماعة الفرس أو غيرهم من انصار العلويين. فتمكن حب الفرس ومذهبهم من نفس المأمون منذ نعومة اظفاره وكان يحيى بن خالد قد اختار الفضل بن سهل السرخسي لخدمة المأمون . والفضل أصله من مجوس خراسان أسلم على يد المأمون (٢) سنة ١٩٠ هـ وتشيع طمعا بنصرة الفرس في خراسان وكان هماما فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل في المأمون نجابة وتعقلا فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب منه . وكان المأمون يجله ويقدمه ولم يكن الفضل طامعا بأقل من الوزارة ـ يحكى ان مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه بالفضل واكرامه اياه نقل ذلك للفضل وقال له «لا استبعد ان يحصل لك منه ١٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم» فاغتاظ الفضل وقال «والله ما صحبته لاكتسب منه مالا قل أو جل ولكني صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب» (٣)

وكان الرشيد لما بايع لاولاده بولاية العهد جعل للامين العراق والشام الى

(١) الفخري ١٧ (٢) ابن خلكان ٤١٣ ج١ وابن الاثير ٧٩ ج٦ (٣) الفخري ٢٠٣

آخر المغرب وهو الخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق (١) على ان يتولى الخلافة بعد أخيه الامين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب الشيعة وفى جملتهم الفضل بن سهل . وأراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ ان يسير الى خراسان فأمر ابنه المأمون ان يبقى فى بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد مريضا فخاف الفضل ان يموت الرشيد فى الطريق فيذهب سعيه هدرا فجاء الى المأمون وقال له « لست تدرى ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك وان احسن ما يصنعه بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم وزبيدة وأموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين ان تسير معه » فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع اولا ثم أجاب ـ ولا بد لامتناعه من سبب كان يجول فى خاطره وهو يتوقع قرب أجله ويرى لاولاده عليه رقباء (٢) يحصون أنفاسه ويستطيلون بقاءه

فسار المأمون مع أبيه والفضل معهما واهتم الفضل فى أثناء الطريق بتأييد أمر المأمون فأخذ له البيعة على كل من فى عسكر الرشيد من القواد وغيرهم وأقر له الرشيد وهو فى طوس والامين فى بغداد وله عيون مع الرشيد أشدهم غيرة عليه الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الامين اشتداد المرض على أبيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان فى ذلك العسكر والمأمون غائب فى مرو وحرضهم على اللحاق بالامين . فأطاعوه رغبة منهم فى الرجوع الى اهلهم وأولادهم فى بغداد وأغفلوا العهود التى أخذت عليهم للمأمون وحملوا ما كان فى عسكر الرشيد الى الامين وتمت البيعة له ثم حسن الفضل بن الربيع للامين ان يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد ففعل

الفضل بن سهل وعلى الرضا

فلما بلغ المأمون موت أبيه ورجوع رجاله الى أخيه بالاموال والاحمال وقد نكثوا عهده خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم فى الامر وأظهر لهم ضعفه وانه لا يقوى على أخيه فنشطوه ووعدوه خيرا . وقال له الفضل بن سهل

(١) ابن الاثير ٦٩ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٨٣ ج ٦

« انت نازل فى اخوالك وبيعتك فى أعناقهم أصبر وأنا أضمن لك الخلافة » فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له « قد صبرت وجعلت الامر اليك فقم به » وسماه ذا الرياستين أى رياسة السيف ورياسة القلم

فبذل الفضل جهده فى نصرة المأمون لانه انما يعمل لنفسه ووطنه وامته واستمال الناس وضبط الثغور . وتعاظمت العداوة بين الاخوين وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان وابطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وقد حملوا رأسه الى المأمون فى خراسان . فلما تحقق المأمون صدق ما عاهده الفضل عليه أصبح آلة بيده لا يخالفه فى شىء . فاستبد الفضل فى الدولة وولى أخاه الحسن بن سهل كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن على أن يكون مقامه فى بغداد . ثم اغتنم هذه الفرصة لنقل الخلافة الى العلويين . وكان داعيتهم يومئذ فى خراسان على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المعروف بعلى الرضا فبذل الفضل جهده فى تحريض المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد بعده أى أن يخرج الخلافة من بنى العباس الى العلويين . وربما جعل تلك البيعة شرطا لمساعدته فى استرجاع الخلافة له أو انه حسن له ذلك ولم يشترطه . فأجابه المأمون الى طلبه اما وفاء لوعده أو مجاراة له للمكر به أو انه فعله عن حسن ظن فى العلويين لانه رضع حب الشيعة من طفولته وكان يظهر التشيع(١) فبايع لعلى الرضا سنة ٢٠١ هـ وجعله الخليفة بعده ولقبه « الرضا من آل محمد » وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة وكتب بذلك الى الآفاق

فلما بلغ ذلك الخبر الى بغداد ضج الهاشميون وأتباعهم وأعظموا الامر وامتنعوا عن البيعة لعلى المذكور وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس وقد تحققوا أن تلك البيعة انما هى دسيسة من الفضل بن سهل فانكروا ولاية أخيه الحسن بن سهل على بغداد . واقروا أخيرا على خلع المأمون وبيعة عمه ابراهيم بن المهدى فبايعوه ولقبوه « المبارك » وبعث الهاشميون الى المأمون يهددونه بالقتل اذا بقى على عزمه

(١) المسعودى ٣٢٤ ج ٢

وكان الفضل بن سهل يخفى هذه الاخبار عن المأمون لئلا يخاف فيندم وينكث البيعة فيخلع عليا فيذهب سعيه عبثا . وكان على الرضا مطلعا على ما حدث فى بغداد وأبت نفسه أن يحدث ذلك بسببه ولا يطلع المأمون عليه فجاءه بنفسه وأخبره بما صار اليه حال بغداد وانهم بايعوا ابراهيم بن المهدى . فاستغرب المأمون الخبر ولم يصدقه وقال « بل هم ولوه عليهم فى أثناء غيابى كذلك أخبرنى الفضل » فقال له « ان الفضل قد كذبك » فأدرك المأمون دسيسة الفضل وانه انما نصره لهذا الغرض وشك فيه فحل قتله عنده فدس اليه اناسا قتلوه فى الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به (١)

وفكر فى بيعة على الرضا فاعظم أن يرجع عنها وخاف اذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه فعمد الى سياسة الفتك فدس اليه من أطعمه عنبا مسموما فمات (٢) فذهبت الاسباب التى أغضبت أهل بغداد فخلعوا ابراهيم بن المهدى وعادوا الى بيعة المأمون . فهرب ابراهيم والفضل بن الربيع وسائر الذين كانوا مع الامين فى تلك الثورة وجاء المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ واستقر بها . ودفعا للشبهة فيما اشتهر به من حب آل أبى طالب اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد (٣)

فاضطرب أمر الشيعة فى بغداد مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم الى آخر خلافة الواثق فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم لانه كان قد ربى من حداثته بين جماعة أهل عصبية عربية يكرهون الفرس أو الشيعة . منهم على بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة وعمرو بن فرخ الرخجى وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة الذى كان يتقرب الى الرشيد بهجو العلويين وهو من موالى بنى أمية . وكانوا يخوفون المتوكل من الشيعة على الاجمال ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين . فأثرت أقوالهم فيه وشب على كره الشيعة وكره الخلفاء الذين كانوا ينصرون الشيعة قبله وهم المأمون

(١) ابن الاثير ١٤٣ ج ٦ والفخرى ١٩٩ والاغانى ٣١ ج ٩ وابن خلكان ٤١٤ ج ١
(٢) ابن الاثير ١٤٤ ج ٦ والفخرى ١٩٩ (٣) ابن الاثير ١٥٦ ج ٦

والمعتصم والواثق (١) كما اثرت تربية البرامكة فى المأمون وحببوا اليه الشيعة وأهلها

فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن على وهدم ما حوله من المبانى ومنع الناس من اتيانه وبالغ فى بغضه عليا وأهل بيته حتى جعله سخرية ـ ذكروا انه كان فى جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة كان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبها بالامام على ويرقص ويقول « قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين » (يعنى عليا) والمتوكل يشرب ويضحك (٢) وغلبت السنة فى الدولة من ذلك الحين وقوامها الاتراك كما سيأتى . وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها وبخلافة المتوكل ينقضى العصر الفارسى الاول

الاسرار فى الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الاسرار والتكتم فيما ينوونه وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ولا سيما فيما يحتاجون اليه لتثبيت دعائم دولتهم كما رأيت من تصرف الخلفاء مع قوادهم ووزرائهم من أول دولتهم وخصوصا المنصور مع اعمامه وابى مسلم وغيرهم وتصرف الرشيد مع البرامكة والمأمون مع الفضل بن سهل وعلى الرضا وطاهر بن الحسين . وكانوا يرون كتمان مشروعاتهم شرطا من شروط نجاحها كما فعل قثم بن العباس فى التفريق بين فرق الجند بحيلة لم يشأ أن يطلع المنصور عليها . وكانوا يستعينون على ذلك بالعيون والارصاد وكل منهم يتجسس على صاحبه . فيبث الخليفة العيون على قواده ووزرائه ووزراؤه يقيمون الارصاد عليه . فربما كان خادم الرجل أو جاريته عينا عليه وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو اخوته أو يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم كما فعل الامين والمأمون بابيهم الرشيد فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسرورا الخادم ورقيب الامين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وكانوا يحصون انفاسه (٣) كما تقدم

ولما تولى المأمون الخلافة واتى بغداد كان يتجسس على ابراهيم بن المهدى فالزمه رجلا ينقل اليه كل ما يسمعه من لفظه جدا أو هزلا (٤) وهكذا كان

(١) ابن الاثير ٢٢ ج ٧ (٢) أبو الفداء ٤٠ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٨٣ ج ٦
(٤) الاغانى ٨٢ ج ٢٠

سائر الخلفاء وخصوصا فى أواخر الدولة لان التجسس يكثر اذا مالت الدولة الى السقوط وتدانت من الهرم كما سيجيء. وكان للوزراء عيون على الخلفاء وللخلفاء عيون على العمال هم أصحاب البريد أو اصحاب الاخبار غير ما كانوا يبثونه من الخدم والجوارى والمغنيات لهذه الاغراض ـ كانوا يفعلون ذلك خوفا على سلطانهم فبالغوا فى التكتم الى ما يفوق الوصف . فكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر وكان يغتفر كل شيء الا القدح فى الملك وافشاء السر والتعريض بالحريم (١)

وبمحافظتهم على الاسرار والتكتم فى اعمالهم اشكل على الناس كثير من الحوادث التى جرت فى أيامهم ولم يفهموا أسبابها . فنكبة البرامكة مثلا تكهن المؤرخون فى تدوينها رجما بالغيب وذهبوا فى أسبابها كل مذهب . وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك وانما قتل مسموما بدسيسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاة العهد الى طبيبه أو صاحب داره (٢)

اختلاط الانساب بعد الاسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية فى حفظ انسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولودا من أبوين عربيين فاذا كان أبوه غير عربى سموه المذرع أو كانت أمه أعجمية سموه الهجين . واذا كانت أمه أمة استعبدوه فاذا انجب اعترفوا به والا ظل عبدا والعرب لا تورث الهجين وهو من قبيل احتقارهم غير العرب كما تقدم .

أبناء الاماء

ولما جاء الاسلام وغلب العرب على أمم الشرق من فارس والترك وغيرهما وكثرت السبايا فى أثناء الفتوح اتخذوا من النساء اظئارا ودايات ومراضع واقتنوا الجوارى للفراش وكانوا فى بادىء الرأى يكرهون التزوج بهن ويحتقرون أبناءهن وخصوصا فى الحجاز مركز الجامعة العربية حتى نشأ فى المدينة ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من الاماء وهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وفاقوا أهل المدينة فقها وعلما وورعا فرغب الناس فى السرارى (٣)

(١) المسعودى ٢٢٥ ج ٢ وطبقات الاطباء ١٧١ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٨٢ ج ١
(٣) العقد الفريد ٢٢٩ ج ٣

على أن بنى أمية ظلوا يحتقرون أبناء الاماء تعصبا للعرب على العجم فبلغ عبد الملك يوما ان على بن الحسين تزوج جارية له واعتقها فكتب اليه يؤنبه فأجابه على « ان الله رفع بالاسلام الخسيسة واتم النقيصة وأكرم به من اللؤم فلا عار على مسلم وهذا رسول الله (صلعم) قد تزوج امته وامرأة عبده » فلما تلا عبد الملك جوابه قال « ان على بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس » على ان العرب أصبحوا بعد الاسلام يرفعون من شأن الهجناء اعتمادا على أن النسب ليس من قبيل الأم وانما النسب للآباء عملا بقول الشاعر :

لا تشتمن امرءا من أن تكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء
فانما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللاحساب آباء

أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بنى الاماء الى أواخر دولتهم وكانوا لا يستخلفونهم وقالوا لا تصلح لهم العرب . ولذلك لما قام زيد بن على بن الحسين يطالب بالخلافة فى أيام هشام بن عبد الملك عيره هشام بقوله « انت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن امة » قال « يا أمير المؤمنين ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات وقد كانت أم اسماعيل أمة لام اسحق فلم يمنعه ذلك ان بعثه الله نبيا وجعله للعرب أبا فاخرج من صلبه خير البشر محمدا » (١) فالعلويون كانوا أقرب للاختلاط بغير العرب استنكافا من شدة تعصب بنى أمية للعرب ولذلك كان الموالى اكثرهم من شيعة العلويين

وكان العرب فى صدر الاسلام بهذا الاعتبار طائفتين وفيهم من يحقر أبناء الاماء وفيهم من لا يجعل لنسب الام قيمة ـ ذكروا ان عبد الملك بن مروان سابق ولديه سليمان ومسلمة فسبق سليمان فقال عبد الملك :

ألم انهكم أن تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المرآن هذا ابن حرة ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه ... وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركه خالاته فنزعنه ... ألا ان عرق السوء لا بد يدرك

وهاك ما قاله حاتم الطائى :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا

(١) المسعودى ١٣٠ ج ٢

فما زادها فينا السباء مذلة ولاكلفت خبزا ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاوجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية اذا لقى الابطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
كريم اذا اعتز اللئيم تخاله اذاماسرى ليل الدجى قمرا بدرا (١)

على ان طبيعة العمران غلبت على ما أراده الامويون من حفظ النسب العربى وقضى الاختلاط بالاعاجم باختلاط الانساب حتى فى الخلفاء من بنى أمية فبايعوا فى أواخر دولتهم لابناء الاماء . وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد ابن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ ولكن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى سباها قتيبة ببلاد الصغد وارسلها الى الحجاج فقدمها الحجاج الى الوليد بن عبد الملك فاولدها يزيد (٢) ويقال ان بنى أمية حظروا مبايعة بنى الاماء ليس لاستهانة بهم ولكنهم كانوا يرون زوال دولتهم على يد ابن امة فلما تولى يزيد المذكور ظنوه الذى يذهب ملكهم على يده فلم يلبث سبعة أشهر حتى مات ووثب مكانه مروان بن محمد وأمه أمة كردية فذهب ملكهم على يده

الخلفاء الهجناء

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالى وقد ضعفت فى ايامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط فأصبحوا لا يعتدون بالام على الاطلاق وكان اكثر خلفائهم من بنى الاماء من ابراهيم الامام فما بعده وفيهم الاماء من الفرس والترك والروم والاكراد والبربر والاحباش والزنج وغيرهم واليك اسماء بعض خلفاء بنى العباس من أبناء الاماء :

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
ابراهيم الامام	بربرية	المأمون	فارسية
المنصور	بربرية	المنتصر بالله	حبشية رومية
الرشيد	حرشية	المستعين بالله	صقلبية
ابراهيم بن المهدى	زنيجة	المعتز	جارية ؟

(١) العقد الفريد ٢٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٤ و١٤٧ ج ٥

اسم الخليفة	جنس أمه	اسم الخليفة	جنس أمه
المهتدى	رومية	المستضىء	ارمنية
المقتدر	تركية	الناصر	تركية
المكتفى	تركية		

وقس على ذلك الخلفاء من الدول الاخرى . فان المستنصر بالله الفاطمى امه امة سودانية وعبد الرحمن الداخل الاموى أمه بربرية. ناهيك بابناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة حتى فى صدر الاسلام فان محمد بن الحنفية أمه جارية سندية سوداء

فاذا كان هذا حال اختلاط النسب فى الخلفاء فكيف فى سائر طبقات الناس. فالنسب العربى لم يكن خالصا الا فى الجاهلية وصدر الاسلام الى أواسط الدولة الاموية وظل بعد ذلك محفوظا من حيث الآباء فقط اما من حيث الامهات فانه اختلط اختلاطا عظيما . ونحن نعلم الآن ان الولد يرث من أمه كما يرث من أبيه وربما كان من حيث الاخلاق أقرب الى أمه مما الى أبيه . فالعرب بعد القرن الثانى للهجرة قل فيهم الدم العربى الخالص الا فى البادية أو حيث لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم . فضلا عما أثر فيهم من طبائع الاقاليم التى نزلوها وعادات أهلها

فالعرب الحضر فى القرن الثالث للهجرة هم غير العرب فى صدر الاسلام فكيف فى حضر هذه الايام وقد توالى فيهم الاختلاط والتزاوج ناهيك بمن يتعرب وينتسب الى البلاد فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلا يعدون من العرب وهم بالحقيقة اخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والارمن والكرج وغيرهم ولكن الرجل اذا نزل بعض هذه البلاد عد فى بادىء الرأى غريبا . فاذا قطنها وتناسل فيها كان أولاده مولدين فاذا توالت عليهم الاجيال سموا عربا

العصر التركى الاول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ الى تسلط الديلم سنة ٣٣٤ هـ

نريد بهذا العصر المدة التى استبد فيها الاتراك بالدولة العباسية وهم الاجناد تمييزا له عن العصر العباسى الفارسى الذى استبد فيه الفرس وهم الوزراء وليس بين العصرين حد فاصل ينتهى اليه الواحد ويبتدىء منه الآخر بل هما تعاصرا مدة كان الاول فى أواخره والآخر فى أوائله

الاتراك القدماء

الترك أمة قديمة جدا مؤلفة من قبائل وبطون وافخاذ كانت مواطنهم على جبال الالطاى أو جبال الذهب فى أواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا. وهم يذهبون فى أصل اجتماعهم مثل مذهب الرومانيين فى مؤسس دولتهم (روملس) فيعتقدون ان برتزينا أول قوادهم رضع من ثدى الذئبة فلما شب قادهم فى الحروب والغزو بخيامهم وانعامهم لانهم أهل بادية فحاربوا الامم المجاورة لهم وخصوصا سكان الصين . وخلف برتزينا غير واحد من ابنائه وكانوا قد شاهدوا مدن الصين وعمرانها فاحب بعضهم ان يبنى المدن فمنعه بعض امرائه ومن نصائحه فى هذا الشأن قوله « نحن يا مولاى أقل من عشر أهل الصين عددا وقوتنا انما هى باطلاق حريتنا ، اذا رأينا فى انفسنا قوة على الحرب هجمنا والا رجعنا الى البادية وأهل المدن محبوسون داخل الاسوار كانهم فى قفص » فاعجبه رأى الرجل وعدل عن التحضر . وتلك كانت حال العرب فى صدر الاسلام فان بداوتهم كانت من أهم اسباب تغلبهم

وما زال الاتراك أهل بادية وغزو وخيام يزدادون قوة وعددا حتى اجتمع منهم نحو ٤٠٠٫٠٠٠ رجل حاربوا أهل الصين والفرس والرومان خمسين سنة وظفروا فى معظم حروبهم وقد عقدوا مع الرومان فى أيام بوستنيان صلحا وظلت العلائق حسنة بينهم وبين خلفائه وتبودلت السفارات بين الامتين غير مرة . وفى أيام خاقان ديزابول أرسل اليه الرومانيون فى جبال الذهب وفدا عقدوا معه محالفة

على محاربة الفرس فى زمن كسرى انو شروان فلم يقووا عليه. وكانوا قد انتشروا فى بلاد تركستان واقام بعضهم فى المدن

الاتراك بعد الاسلام

ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب فى أنحاء العالم وطئت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان فى أيام بنى أمية . ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج وكانوا يحملون فى جملة الجزية أولادا من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم فى الغالب من السبى أو الاسرى على جارى العادة فى تلك الاعصر . فضلا عمن كان يقع منهم فى ايدى المسلمين فى اثناء الحروب بالاسر أو السبى ويعبرون عنهم بالمماليك ويفرقونهم فى بلاط الخلفاء ومنازل الامراء . فأخذوا يدينون بالاسلام مثل سواهم من الامم التى خضعت للعرب فى ذلك العهد ومنهم العبيد والموالى كما تقدم

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التى دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة فى رمى النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات فى ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعى وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها فى ابان التمدن الاسلامى . واشتهر ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركى يشتغل بالعلم الطبيعى ذكروه مع الاستغراب كما فعل ابن الاثير لما أشار الى معرفة قتلمش علم النجوم فقال « ومن العجب ان هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع انه تركى ويعلم غيره من علوم القوم » ويعرف الاتراك فى تاريخ الاسلام باسماء كثيرة تختلف باختلاف اصولهم وفروعهم . وقبائلهم كثيرة مثل قبائل العرب

الجندى التركى فى الدولة العباسية

المعتصم والاتراك

أول من استخدم الاتراك فى الجندية من الخلفاء المنصور العباسى ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها فى الدولة وانما كان الشأن الاكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس فى أيام الرشيد

وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلط الفرس انصار المأمون واخواله واستبدوا فى الدولة ، كانت الحضارة قد اضرت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون فى ذلك قبل ان تفضى الخلافة اليه وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التى ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المأمون الى الفرس . وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم فى العراق أو يبعث فى طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمال وصحة فالبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزى عن سائر الجنود(١). واكثر الاتراك الذين اجتمعوا عنده ينسبون الى فرغانة واشروسنة

فلما افضت الخلافة اليه كان الاتراك عونا له وتكاثروا حتى ضاقت بغداد عنهم وصاروا يؤذون العوام فى الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثير وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلا فى قارعة الطريق . فاتفق ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له « يا ابا اسحق » فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال « يا شيخ مالك » قال « لا جزاك الله عن الجوار خيرا جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وارملت نساءنا وقتلت رجالنا » والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم ير راكبا الى مثل ذلك اليوم فخرج فصلى بالناس العيد ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكرا لاجناده حتى أتى سامرا فاتخذها معسكرا فأعجبته وسماها سر من رأى واختط فيها الخطط وأقطع اتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم فى بلادهم وافرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار . فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع

(١) المسعودى ٢٤٦ ج ٢

الرزق . وما زالت سامرا قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١ هـ الى أيام المعتمد فعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ هـ وهو أول من عاد اليها منذ بنيت سامرا (١) .

وكان المعتصم ينظم المماليك فرقا عليهم القواد منهم مثل نظام الجند فى ذلك الزمن . ولم يكتف بجمع المماليك الاتراك بالشراء أو المهاداة ولكنه رغب امراء الاتراك وأولاد ملوكهم بالقدوم اليه والاقامة فى ظله . وممن جاء منهم على هذه الصورة جف بن بلتكين من أولاد ملوك فرغانة وكانوا قد وصفوه له بالشجاعة والتقدم فى الحروب فوجه المعتصم اليه من احضره واحضر غيره من أبناء الامراء فبالغ المعتصم فى اكرامهم . ولما بنى سر من رأى (أو سامرا) أقطعهم فيها القطائع وظلت قطائع جف تعرف باسمه هناك عدة قرون (٢)

وكان اكثر الاتراك لما جمعهم المعتصم اليه يدينون بالمجوسية أو الوثنية على ما كانوا عليه فى بلادهم وفيهم جماعة قد دخلوا الاسلام . أما غير المسلمين فلما صاروا من جند الخليفة وتربوا فى ظل المسلمين اسلموا وفيهم من اظهر ذلك تزلفا من الخلفاء كالافشين وكان مجوسيا واظهر الاسلام طمعا بالكسب من الغنائم بالحروب (٣)

وكان المعتصم شديد الرغبة فى استبقاء اتراكه على فطرتهم ويخاف تحضرهم واختلاطهم بالامم الاخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم فابتاع لهم الجوارى التركيات فأزوجهم منهن ومنعهم ان يتزوجوا أو يصاهروا أحدا من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض واجرى للجوارى ارزاقا قائمة واثبت أسماءهن فى الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم أن يطلق امرأته أو يفارقها (٤)

الجند التركى ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الاتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة وخصوصا بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمى وفتحوا عمودية ونصروا الاسلام فتحول النفوذ اليهم . وبعد ان كانت أمور الدولة فى قبضة الوزراء الفرس أصبحت فى أيدى القواد الاتراك أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقواد . واشتهر من الوزراء فى اثناء تلك المدة جماعة من كبار الرجال كابن وهب وابن

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٧ (٢) ابن خلكان ٤١ ج ٢ (٣) الجزء الثانى ١٤٣
(٤) اليعقوبى تقويم البلدان ٣٣

الفرات وعلى بن عيسى وابن مقلة وغيرهم . وكانوا يسابقون الاتراك الى النفوذ وابتزاز الاموال بالمصادرات ونحوها من المظالم كما سيجىء

وكانت الدولة قد تجاوزت طور الشباب وأخذت فى التقهقر وانغمس الخلفاء فى الترف والقصف وعجزوا عن القيام بشؤون الحكومة فأصبحوا لا يبلغون منصب الخلافة الا بالجند (الاتراك) وهؤلاء لا يعملون عملا الا بالمال فمن استطاع استخدام الجند ملك ولا عصبية هناك ولا جنسية ولا جامعة دينية ولا وطنية . فأصبح الاتراك محور تلك الحركة وهم أهل شجاعة وحرب كما تقدم فأصبح البطش والفتك أكبر عوامل السيادة

وكانت جنود الدولة العباسية فى أوائلها العرب من مضر واليمن والفرس ـ ونريد بالفرس سكان ما بين العراق واطراف خراسان شرقا الى نهر جيحون (الاندوس) ويدخل فى ذلك أهل خوزستان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وقوهستان وخراسان وغيرها ـ وقد قام هؤلاء بنصرة المسلمين انتقاما من بنى أمية أو رغبة فى الملك ومعظمهم من الجنود الاحرار بلا بيع ولا عتق وانما سموا الموالى اشارة الى انهم ليسوا عربا على اصطلاح ذلك العصر . واختار الخلفاء جماعة منهم قدموهم فى مصالح الدولة فنبغ منهم الوزراء والامراء والعلماء وولاهم الخلفاء الولايات فاستقلوا بها وانشأوا الدول المستقلة تحت رعاية الخلافة العباسية كما سيأتى

فلما تولى المعتصم واقتنى الاتراك بالترغيب أو الشراء أصبح الجند العباسى اكثره من المماليك واخلد الخلفاء بعده الى نصرتهم واختصوا بعضهم بالخدمة فى بلاطهم وجعلوا من بطانتهم فى جملة الخدم أو الحرس وتقدم بعضهم فى مناصب الدولة حتى قادوا الجند واستبدوا فى الاحكام . فانتقلت سياسة الدولة من أيدى الموالى الفرس واكثرهم من الشيعة الى الجند الاتراك واكثرهم من السنة وتمكن هذا المذهب منهم منذ جاهر الخلفاء العباسيون باضطهاد الشيعة وأولهم المتوكل على الله . ورسخ الاتراك فى مذهب السنة من ذلك الحين ولا يزالون عليه الى اليوم

أما استبدادهم فى بلاط الخلفاء فابتدأ فى أيام المتوكل لانه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢ هـ وكان ما كان من كرهه الشيعة واستبداده فيهم زاد فى تقديم الاتراك

ورعايتهم فزاد طمعهم فى الدولة . ثم اغراهم ابنه المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل أمر الاتراك استفحالا عظيما ـ ومما يحكى عن استبدادهم فى الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه واحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى فى الخلافة » وكان فى المجلس بعض الظرفاء فقال « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته » فقالوا له « فكم تقول انه يعيش وكم يملك » قال «مهما أراد الاتراك» فلم يبق فى المجلس الا من ضحك (١)

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه واقاموه فى الشمس بالدار فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده (٢) . والمستكفى سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات فى الحبس (٣) وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفى رجله قبقاب خشب (٤) ـ فلا غرو اذا أصبح الخلفاء آلة فى أيدى الاتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب (٥) وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم (٦)

فلما تقدم الاتراك فى الدولة العباسية وعلم اخوانهم فى بلادهم بذلك تقاطروا مئات وألوفا يطلبون الارتزاق بالجندية ورغبوا فى الاسلام وجعلوا يدخلون فيه بالالوف وعشرات الالوف . فقد اسلم منهم سنة ٣٥٠ هـ ٢٠٠٫٠٠٠ خركاه دفعة واحدة والخركاه الخيمة ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس فعدد الذين اسلموا فى هذه الدفعة نحو مليون نفس . واسلم سنة ٤٣٥ هـ ١٠٫٠٠٠ خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة وضحوا عشرين ألف رأس غنم (٧)

وكان الجند الاتراك يومئذ اشبه شىء بالفرق التى كانت عند الرومان ويسمونها Praetorian أو هم كالباشبوزق فى الدولة العثمانية يستخدمهم من شاء بالمال .

(١) الفخرى ٢٢٠ (٢) ابن الاثير ٧٧ ج ٧ (٣) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨
(٤) ابن الاثير ١٧٣ ج ٨ (٥) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩ (٦) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨
(٧) ابن الاثير ٢١٠ ج ٨ و٢١٦ ج ٩

فكل من وصلت يده الى السلطة اقتنى الغلمان الاتراك اما بالشراء أو بالاجرة . وتألفت منهم الفرق بتوالى الاعوام وكل منها تنسب الى صاحبها كالساجية نسبة الى أبى الساج والصلاحية الى صلاح الدين وقس على ذلك الاسدية والنظامية وأمثالهما . وكثيرا ما كانت الحروب تشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على الاموال . ولما استولى الديلم على بغداد فى أيام بنى بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالى . وما من دولة قامت فى ذلك العصر الا استخدمت الاتراك فى جندها سواء كانت شيعية أو سنية . فكانوا يحملون الى بغداد أو غيرها من المدائن الاسلامية تباعا وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبرا

وكان للامراء والقواد عناية كبيرة فى تدريب جنودهم الاتراك على الحركات العسكرية فضلا عن تعليمهم الفرائض الدينية . على انهم كانوا يعلمونهم هذه الفرائض وهم احداث ـ فاذا جاء التاجر بمملوك للبيع عرضه على الامير أو السلطان فاذا أعجبه اشتراه وأنزله فى الطبقة التى يمائلها من مماليكه وسلمه الى الطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن . وكان فى دولة المماليك المصرية لكل طائفة من الغلمان فقيه يحضر اليها كل يوم ويعلمها القرآن والخط والتمرين بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات . فاذا شب المملوك علمه الفقيه شيئا من الفقه فاذا صار الى سن البلوغ أخذوا فى تعليمه فنون الحرب من رمى النشاب ولعب الرمح ونحو ذلك . واذا ركب الاتراك لرمى النشاب أو اللعب بالرمح لا يجسر جندى ولا أمير ان يحدثهم أو يدنوا منهم . فاذا اتقن فنون الحرب تنقل فى أطوار الخدمة رتبة بعد رتبة حتى يصير من الامراء ولا يصل الى هذه الرتبة الا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وقد ينبغ منهم الفقهاء والادباء والشعراء والحساب (١)

على ان أهل البلاد كانوا يهابون الاتراك ويخافون بطشهم فاذا جاءوا بلدا خافهم أهله اذ كثيرا ما كانوا ينزلون فى دور الناس (٢) ويتعرضون للحرم والغلمان فأصبح عامة بغداد يكرهونهم كرها شديدا

(١) المقريزى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٦٤ ج ٩

الخدم ونفوذهم فى الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين فى الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ولم يكن له شأن كبير – وأول من قرب الخدم واستكثر منهم الامين بن الرشيد فانه لما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه وعين منهم جماعة سماهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية . ولم يقرب الامين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكا فى الترف والقصف . ومن أقوال الشعراء فى عصره يصفون انقطاعه عن اللهو بالغلمان ويسمون بعضهم قولهم :

ألا يا أيها المثوى بطوس ... عزيبا ما تفادى بالنفوس
لقد أبقيت للخصيان هقلا ... يحمل منهم شؤم البسوس .
فاما نوفل فالشأن فيه ... وفى بدر فيا لك من جليس
وما للمعصمى شىء لديه ... اذا ذكروا بذى سهم خسيس
وما حسن الصغير أخس حالا ... لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر ... يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ ... سوى التقطيب والوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيما ... فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس ... لعز على المقيم بدار طوس (١)

وكان لهوه من أعظم أسباب سقوطه

سبب نفوذهم

ولم يكن للخدم شأن فى أيام المأمون ولا المعتصم ولا الواثق فلما استبد الاتراك وعلت كلمتهم فى أيام المتوكل فما بعده وصاروا يولون الخلفاء ويعزلونهم أو يقتلونهم كان فى جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم ان يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم فى القصور ليزيدوهم ضعفا . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يميلون الى حبس اولادهم واقاربهم (٢) خوفا من تواطئهم مع بعض الاتراك على خلعهم أو قتلهم . ولا عشير لهم فى اثناء الحجر الا الخدم والخصيان فألفوا أخلاقهم وتحققوا

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الفخرى ٢٩٧

بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما آنسوه من غيرتهم عليهم وخصوصا الخصيان اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفانى فى خدمة اسيادهم ولا مطمع لهم بالملك لاولادهم وأهلهم . فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة اليهم بالغوا فى تقريب الخدم بالعطايا والاكرام التماسا لحمايتهم اذا أراد الاتراك الفتك بهم . فعمدوا الى الاستكثار من الخدم وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم فى أمورهم ـ والملوك يجعلون الكبار كبارا ـ فازداد الخدم نفوذا وسطوة حتى أصبح الاتراك يخافونهم وقد ارتقى كثيرون منهم فى العصر التركى من الخدمة فى المنازل الى قيادة الجند أو الامارة على الاقاليم

فرق الخدم وطبقاتهم

ولما تكاثر الخدم فى دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقا تعرف بأسماء خاصة وفيهم الرومى والتركى والحبشى والارمنى والسندى والبربرى والصقلبى فى فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجوارى

والمراد فى الاصل بالخدم الغلمان أو العبيد أو المماليك الذين يقيمون فى دور الخلفاء أو الامراء للخدمة فيما يحتاجون اليه من مهام المنازل . فكانوا يتاعون الغلمان وفيهم الحائك والسائس والحجام والخباز وغيرهم . ثم صاروا يستكثرون منهم للاستعانة بهم فى حماية تلك المنازل أيام الشدة على قدر ما يستطيعون بذله من المال فى ابتياعهم . واثمانهم تتفاوت من مئة دينار الى ألف دينار أو أقل أو اكثر . وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الامراء الى خمسمائة غلام أو ألف أو اكثر . فغلمان بغا الشرابى أحد قواد الاتراك بلغ عددهم ٥٠٠ وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠

أما فى دور الخلفاء فكان الغلمان فرقا تعرف بأسماء خاصة كفرق الغلمان الاصاغر والغلمان الحجرية والرجال المصافية والركابية وغيرها . والفرق بين فرق الجند التركى وفرق الغلمان ان الاجناد عساكر الدولة ينتظمون فى خدمة المملكة ويتقاضون رواتبهم من بيت المال وفيهم المبتاع والمأجور . وأما الغلمان فهم مختصون بالامير أو الخليفة لخدمته الشخصية أو حماية داره وهم ملكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وقد تتحول فرق الغلمان الى فرق من الجند أو يعملون معا فى خدمة

الدولة على ما تقتضيه الاحوال . وقد يبتاع الخليفة العبيد ليتقوى بهم على اعدائه مما لا ضابط له . وكثيرا ما تستبد بعض فرق الخدم بالخليفة أو الامير حتى تغلب على أمره وتفعل ما تشاؤه فيضطر الخلفاء أحيانا الى الفتك بهم غيلة بمساعدة فرق أخرى (١)

وكان فى دور الخلفاء صنف من الخدم الخصيان يغلب استخدامهم فى دور النساء وكانوا يستكثرون منهم أيضا واكثرهم من الطواشية السود . وكان أهل بغداد يسخرون بهم ويهزأون باشكالهم ويتعرضون لهم فى الطرق وينادونهم بعبارات التهكم كقولهم « يا عقيق صب ماء واطرح دقيق .. يا عاق يا طويل الساق » وهم يشكونهم الى الخلفاء . وأصاب الناس فى أيام المعتضد شدة بسبب ذلك فان بعض أهل بغداد تعرضوا لبعض الطواشية السود سنة ٢٨٤ هـ فاجتمعوا وكلموا المعتضد بما يلحقهم من ذلك فامر المعتضد بجماعة من العامة ضربوا بالسياط (٢) على ان الخصيان كثيرا ما كانوا يرتقون فى الدولة الى مصاف الامراء

القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقربهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة ٢٩٥ هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١٫٠٠٠ خادم من الروم والسودان (٣) وكثير من المال والجوهر فتمكن من الحكم ٢٥ سنة رد فيها رسوم الخلافة الى ما كانت عليه . وكان يقدم الخدم ويستعين بهم وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها . وفى أيامه نبغ مؤنس الخادم فقدمه وكان يستشيره فى أموره فتصرف مؤنس فى مصالح الدولة كما يشاء وتولى رياسة الجيش وامارة الامراء وبيوت الاموال واستبد فى كل شىء لكنه على الاجمال خدم الخليفة المقتدر خدمات ذات بال . ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى ادت الى حروب انتهت بقتل المقتدر وحملوا رأسه الى مؤنس فلما رأى رأس مولاه بكى ولطم وجهه

فالخلفاء انما لجأوا الى تحكيم الخدم والخصيان استبقاء لحياتهم أو احياء لنفوذهم ودفع استبداد جند الاتراك . ولم يكن ذلك خاصا بالدولة العباسية بل شمل معظم الدول الاسلامية المعاصرة . ولا هو من مخترعات الاسلام لانه كان شائعا فى معظم

(١) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨ (٢) المسعودى ٣٤٠ ج ٢ (٣) الفخرى ٢٣٤

الدول القديمة فاسطفان المعتق (المولى) استبد فى شؤون الدولة الرومانية من قتل وتنصيب وعزل وكذلك سليمان الخصى وغيرهما

اما فى الاسلام فاشتهر من الخدم فى مناصب الدولة جماعة كبيرة تولوا القيادة أو الامارة أو بيت المال أو غير ذلك من المناصب الكبرى . فبدر غلام المعتضد تولى قيادة الجند ونقش اسمه على التراس والاعلام وأبلى فى خدمة مولاه بلاء حسنا حتى قتل فى سبيل نصرته سنة ٢٨٩ هـ (١) وبجكم أصله من الغلمان وارتقى حتى صار امير الامراء وهى أعلى رتب الدولة العباسية (٢) وجوهر قائد جند الفاطميين الذى فتح لهم مصر وبنى القاهرة فى أواسط القرن الرابع للهجرة كان مملوكا روميا وبلغ من تعظيمهم أمره واكرامه انه لما أقلع من المغرب قادما الى مصر لفتحها ترجل أولاد الخليفة المعز واهله ومشوا بين يديه (٣) وكان قبله كافور الاخشيدى وهو خصى اسود ارتقى بمصر حتى استقل بأحكامها سنة ٣٥٥ هـ ويانس الصقلى الخصى اصله خادم مؤنس الخادم تقدم مع ذلك فى اعمال الدولة وعظمت منزلته حتى ولى الولايات وتداخل فى السياسة . وبرجوان الاستاذ كان خصيا ابيض ارتقى فى الدولة الفاطمية الى رتبة الوزارة ووزر للعزيز بالله والحاكم وتلقب بأمين الدولة وهو اول من لقب بذلك فى الدولة الفاطمية (٤) وقراقوش الطواشى وزير صلاح الدين الايوبى بلغ أرقى مناصب الحكومة فى الدولة الايوبية. وعميد الملك أحد كبار القواد الاتراك كان من الخصيان وكذلك شقير الخادم صاحب البريد فى مصر والشام أيام بنى طولون . ومؤتمن الخلافة فى الدولة الفاطمية كان خادما خصيا وقس على ذلك تقدم الصقالبة فى دولة بنى أمية بالاندلس وتقدم الخصيان فى دول السلاجقة وبنى بويه وسائر دول الاسلام فى تلك العصور

تأثير النساء فى سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير فى أعمال الرجل مهما يكن نوعها وفى أى عصر كان وأية أمة كانت وان اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الامم وآدابها. اما الدولة

(١) ابن الاثير ٢٠٥ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٣٣ ج ٨ (٣) المقريزى ٣٧٧ ج ١
(٤) ابن الاثير ٤٩ ج ٩

اذا كانت ملكية مطلقة فللمرأة شأن كبير فى سياستها حتى فى الاسلام مع شيوع الطعن فى آرائهن وقولهم ان مشاورتهن فى الامور مجلبة للعجز ومدعاة الى الفساد. وما من عظيم من عظماء الاسلام الا ونهى عن مشورتهن وادخالهن فى الامور — قال المنصور فى وصيته لابنه المهدى « اياك ان تدخل النساء فى امرك » وقال النخعى « من اقتراب الساعة طاعة النساء » وقال ابو بكر « ذل من أسند أمره الى امرأة » . ولعلى اقوال كثيرة فى النهى عن مشورة النساء ومع ذلك فقد أثرت المرأة فى سياسة الدولة تأثيرا عظيما

أمهات الخلفاء

وتأثير النساء فى الدولة من قبيل تأثير الام فى الاسلام وقد بينا ذلك فى باب الامومة ويعظم اثره على الخصوص فى تأثير امهات الخلفاء على اولادهن ولا سيما فى أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم الى الخدم

على ان العباسيين حتى فى صدر الدولة كانوا يصغون الى النساء فأحرزت المرأة نفوذا كبيرا وخصوصا أمهات الخلفاء وأول من استبد منهن الخيزران أم الهادى والرشيد وهى حرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها اولادها ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته . وكانت فى ايام زوجها المهدى صاحبة الامر والنهى وهو يطاوعها فلما تولى ابنها الهادى أرادت الاستبداد بالامور دونه وأن تسلك به مسلك أبيه فلم يمض أربعة اشهر حتى اثال الناس اليها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فساءه ذلك وكلمته يوما فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا فقالت « لا بد من اجابتى اليه فانى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » فغضب الهادى وقال « ويلى على ابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها والله لا أقضيها لك » قالت « اذن والله لا أسألك حاجة » قال « لا أبالى » وقامت مغضبة فصاح بها « مكانك . . والله انا نفى من قرابتى من رسول الله لئن بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ اياك واياك لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى » فانصرفت وهى لا تعقل ولم تنطق عنده بعدها ثم انه قال لاصحابه « أيما خير أنا أم انتم وأمى أم أمهاتكم » قالوا « لا بل انت وامك خير »

قال « فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت » قالوا « لا نحب ذلك » قال « فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها » فلماسمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدتها عليه حتى اذا علمت انه يريد خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالغم والجلوس على وجهه (١) فقتلوه

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران فى الاحكام واحتشدت الاموال فبلغت غلتها فى العام ١٦٠ مليون درهم أى نحو نصف خراج المملكة العباسية فى ذلك العهد ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء (٢) أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر وهى تركية سطوة غريبة على رجال الدولة فى خلافة ابنها وكانت تتصرف فى الاحكام دونه بالاشتراك مع الحجاب والخدم وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفا من ذكرها (٣)

ويقال نحو ذلك فى أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١ هـ وكانت صقلبية الاصل فأطلق المستعين يدها فى أمور الدولة ويد اثنين من قواد الاتراك أتامش وشاهك الخادم فكانت الاموال التى ترد الى بيت المال من النواحى يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة (٤)

على أن تسلط النساء فى الدولة العباسية كان على معظمه فى أيام المقتدر لتسلط الخدم والحجاب . وقد اشتهر من النساء فى ذلك العهد السيدة أم المقتدر والخالة وأم موسى الهاشمية القهرمانة فهؤلاء كن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب والكتاب ونحوهم ويمشين الامور كما يردن ويريد هؤلاء . وكان لام موسى المذكورة دهاء ونفوذ حتى تكفلت مرة بالخلافة لاحد العباسيين من أصهارها وأخذت تبذل الاموال للقواد وغيرهم فوشى بها بعضهم الى المقتدر فقبض عليها وأخذ منها أموالا عظيمة . وقس على ذلك نفوذ نساء القصور فى الدولة العباسية وهو من قبيل نفوذ الموالى فى هذه الدولة لان اكثر أولئك النساء من غير العرب

(١) ابن الاثير ٤١ ج ٦ (٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب ١٢٦ (٣) تاريخ الوزراء ٦٧ (٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

فساد الأحكام فى الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبى فى أيام خلفائها الاولين وخصوصا الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولا سيما البرامكة . فاتسع سلطانها فى أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور فى ذلك العهد فبلغت الهند شرقا والبحر الاتلانتيكى غربا وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالا وبحر فارس وبلاد النوبة جنوبا . وقد بينا اقسامها وجغرافيتها فى الجزء الثانى (١) . فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركى فى الحكومة أصبحت الاحكام فوضى وخصوصا بعد المتوكل لانهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل . فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة وهم اصحابها المسئولون عنها والاحكام تصدر بأسمائهم وان كانوا مدفوعين الى اجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ فى بلاطهم من الوزراء أو القواد أو الخدم أو الموالى أو النساء أو غيرهم — أو على الاجمال بالوزراء والقواد . فأقدرهم على ارضاء الخليفة أو أشدهم دهاء ومكرا يفضى النفوذ اليه فاذا ملك قياد الحكومة بذل جهده فى حشد الاموال اذ لا يأمن ان يستبدل هذا الخليفة بآخر لايرضاه أو لعل بعض اعدائه يغلبه بدسائسه وسعايته فيعزله فاذا لم يكن له مال عاش ذليلا مهانا . على ان القواد كانوا يحاولون الاستئثار بالنفوذ فى بلاط الخليفة بالتهديد أو بالوشاية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال والاشخاص

ويقال بالاجمال ان النفوذ أصبح ضائعا بين الوزراء والقواد وكلاهما لايرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير ما يكتسبونه من المال فى أثناء نفوذ كلمتهم . فأصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذى يتولى أمور الدولة ولا يدرى ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أى طريق كان ولا يبالى بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملا بالقاعدة التى وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهى قوله « ان تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » (٢) وانتبه

(١) الجزء الثانى ٣٦ (٢) تاريخ الوزراء ١١٩

الخلفاء الى مطامعهم فأصبحوا اذا عزلوا وزيرا صادروه واخذوا أمواله وقد فصلنا ذلك بباب المصادرة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (١) ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية واصبحت بتوالى الايام المصدر الرئيسى لتحصيل المال. فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى أنشأوا للمصادرة ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة (٢) فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

أنواع المصادرة ومقاديرها

قال الوزير ابن الفرات « تأملت ما صار الى السلطان من مالى فوجدته ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهرى (ابن الجصاص) فكان مثل ذلك » فكأنه لم يخسر شيئا لانهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة . واذا صودر احدهم على مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجلا أجلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله أو جمعه برد جاهه وتغيير زيه وانزاله فى دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ليستطيع التمحل فى جمع الاموال من الناس (٣)

وتعددت اسباب المصادرة وجهاتها حتى اصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وهاك قائمة بما قبضه ابن الفرات من المصادرة على ايام الراضى بالله ننشرها بنصها حرفيا انموذجا لانواع المصادرات ومقاديرها (٤)

دينار	
٧٫٣٠٠	من احمد بن محمد البسطامى عن النصف مما بقى عليه من مصادرته لسنة ٣٠٠ هـ
١١٫٠٠٠	من على بن الحسين الباذبينى الكاتب عما تولاه بالموصل
٣٠٫٠٠٠	من محمد بن عبد الله الشافعى عما تصرف فيه لعلى بن عيسى
٨٠٫٠٠٠	من محمد بن على بن مقتلة عما تصرف فيه
١٠٠٫٠٠٠	من محمد بن الحسين المعروف بأبى طاهر
١٣٫٠٠٠	من الحسن بن ابى عيسى الناقد عما ذكر انه وديعة لعلى بن عيسى
٤٫٠٠٠	ومنه أيضا عن نفسه

(١) الجزء الثانى ١٥٨ (٢) تاريخ الوزراء ٣٠٦ (٣) الفرج بعد الشدة ٥١ ج١
(٤) تاريخ الوزراء ٢٢٤

دينار	
٢٠٫٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المادرائى
٣٦٫٣٦٠	« عبد الواحد بن عبيد الله بقية مصادرة والده
١٠٫٠٠٠	« أحمد بن يحيى عن مصلحة وجبت
٦٫٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد الجهبذ عن صلحة
٤٫٠٠٠	« محمد بن عبد السلام عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم المادرائى
٤٠٫٠٠٠	« عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله عن صلحه
١٠٫٠٠٠	« محمد بن عبد الله بن الحرث عن صلحه
٢٥٠٫٠٠٠	« محمد بن أحمد عما تصرف فيه بالموصل وغيرها
١٥٫٠٠٠	« ابراهيم المادرائى عن الباقى عليه
٣٫٠٠٠	« أبى عمر بن الصباح عن الباقى على ابن العباس احمد
٧٫٠٠٠	« على بن محمد بن الحوارى وقتل
٧٫٠٠٠	« هرون بن أحمد الهمذانى
٢٫٠٠٠	« عبد الله بن زيد بن ابراهيم
١٥٫٠٠٠	« عبد الله بن زيد صلحا عن نفسه
٦٠٫٠٠٠	« على بن مأمون الاسكافى وقتل
٧٠٫٠٠٠	« يحيى بن عبد الله عما تصرف فيه مع حامد
١٫٣٠٠٫٠٠٠	« حامد بن عباس وقتل
١٥٠٫٠٠٠	« محمد بن حمدون الواسطى
٤٢٫٠٠٠	« على بن عيسى
١٠٫٠٠٠	« ابراهيم جهبذ حامد بن عباس
١٫٢٠٠٫٠٠٠	« الحسن المادرائى
١٫٠٠٠٫٠٠٠	ومنه أيضا
١٫٠٠٠٫٠٠٠	من محمد المادرائى
١٠٫٠٠٠	ومنه أيضا بخط آخر

درهم	
٢٠٫٠٠٠	من أبى الفضل محمد بن احمد بن بسطام
٥٠٠٫٠٠٠	« على بن الحسن الباذبينى صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل
١٠٠٫٠٠٠	« أبى عمر بن الصباح عن ضمانة الباقى من مصادرة أبى ياسر
١٠٠٫٠٠٠	« عبيد الله بن احمد اليعقوبى
١٠٠٫٠٠٠	« الحسن بن ابراهيم الخرائطى صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠٫٠٠٠	« الحسين بن على بن نصير
٢٫٠٠٠	« على بن محمد بن احمد السمان عن ورثة قرقر
١٠٫٠٠٠	« أبى بكر الجرجانى من ضياع بن عيسى
٢٣٠٫٠٠٠	« الحسين بن سعد القطربلى
١٫٥٠٠٫٠٠٠	« محمد بن احمد ...
٣٫٠٠٠٫٠٠٠	« أبى الحسن بن بسطام
٥٠٫٠٠٠	« احمد بن محمد بن حامد بن عباس
٢٣٠٫٠٠٠	« سليمان بن الحسين بن مخلد

ابتزاز الاموال

فالوزير يتولى الوزارة عاما أو عامين ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير فضلا عن الضياع والمبانى وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم . وكان الوزير لا يولى عاملا على ولاية ما لم يقبض منه مالا على سبيل الرشوة يسمونه « مرافق الوزراء » . ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة ان الخاقانى وزير المقتدر بالله ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة (١) واذا لم يكن للعامل أو الناظر ما يفى المبلغ المتفق عليه مع الوزير دفع بعضه معجلا وأجل البعض الآخر الى مدة معينة أو غير معينة والخلفاء يعلمون ذلك ولا ينكرونه أو يرون فيه غرابة أو ظلما

والعامل الذى يتولى عمله بالرشوة وهو لا يزال مدينا ببعضها يهون عليه ابتزاز أموال الرعية — أو هو يطلب الولاية لهذه الغاية . فيأخذ العمال فى حشد الاموال اما بالتلاعب فى جباية الحكومة فينفقون دينارا فى بعض مصالحها فيقيدونه عليها

(١) الجزء الثانى ١٥٤ (طبعة ثالثة)

عشرة دنانير أو باستخراج أموال الرعية بالرشوة أو بضرب الضرائب الفادحة على الباعة وأهل الاسواق فى المدن (١) أو بسلب الفلاحين فى القرى بعض غلاتهم وقد يقاسمونهم اياها فان بعض العمال كان يبعث رجاله الى البيدر فيقسمونه كما يشاءون واذا تكلم الاكار (الفلاح) شتموه وحلقوا لحيته وضربوه (٢) وقد لا يرضيهم ذلك فيغتصبون الضياع برمتها

ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة ضيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه واذا استحق عليها الخراج أداه صاحبها الاول مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها اذ يدون خراجها باسمه فى الديوان فيبطل حق مالكها فى ملكيتها (٣) فيضطر المالك الى دفع الخراج أعواما ريثما يتوفق الى من ينصفه ممن يفضى النفوذ اليهم من أهل العدالة أو يهتدى الى وساطة أو حيلة

ناهيك بما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الارض مضاعفا أو مكررا على انهم قد يرون لهم نفعا من ترك خراج بعض الارضين فيتركونه لاصحابها على أن يخدموهم فى مصلحة لهم وربما بلغ مقدار الخراج المتروك مالا كثيرا جدا . فقد كان لرجل يدعى أبا زنبور فى وزارة ابن الفرات ضياع مساحتها مئة فرسخ بمئة فرسخ لم يأخذ منه من حقوق بيت المال درهما (٤) وكثيرا ماكانوا يتركون أمثال هذه الضياع بلا خراج لاهل الوساطة أو الدالة أو النفوذ عند الخليفة أو غيره

الجاسوسية وفتوى اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الاموال أن يقسط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالا على وجه القرض على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحى (٥) فتقع الخسارة على الرعية . فتضايق أهل الاسواق فى المدن والفلاحون فى القرى والرساتيق وضاقت أبواب الرزق على الناس وأصبحت الحقوق فوضى من استطاع حيلة فى اختلاس المال سرا أو جهرا استخدمها وكثر العيارون والشطار فى المدن وتعدد اللصوص فى القرى وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء أو القواد بارزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم

(١) ابن الاثير ١٢٩ و٢٠٣ ج١٢ (٢) تاريخ الوزراء ٩٢ (٣) الاغانى ٤٧ ج٢٠
(٤) تاريخ الوزراء ٩٤ (٥) تاريخ الوزراء ٢٦٢

أموالهم وأمتعتهم واذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك . وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار انها حق لهم لان أصحابها لم يؤدوا زكاتها لبيت المال وقد منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فى حاجة اليها بسبب فقرهم فاذا أخذوا تلك الاموال وان كره التجار أخذها كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم فقراء يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الاموال أو كرهوا (١) لان الزكاة صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق فى فقرائهم وكان لها شأن كبير فى أول الاسلام ثم أهملت باواسط الدولة العباسية فاتخذ اللصوص ذلك حجة لسلب أموال التجار

وزد على ذلك ما نجم عن فساد الاحكام من الضيق المالى وغلاء الاسعار فى المدن وما انتشب من الفتن بين الاحزاب ولاسيما السنة والشيعة وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة وانتشرت الجاسوسية فى قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتاب . وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون اليه أخبارهم فتسابق اسافل الناس الى السعاية بافاضلهم يرفعون الى الخليفة أو الى صاحب النفوذ فى دولته كتبا يختلقون بها المطاعن على الابرياء للانتفاع باذاهم . واكثر ما تكون وشايتهم بأهل الدولة فى حال اعتزالهم أو فيمن يخافونهم اذا ألقيت مقاليد الاحكام اليهم وقد يجتمع عند الخليفة أو الوزير صناديق مملوءة بتلك الكتب فاذا تكاثرت أو ذهبت الحاجة اليها احرقوها (٢)

فلما فسدت الاحكام فى دار الخلافة واستبد الوزراء والقواد فى شؤون الدولة رأى العمال فى الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد فى ولاياتهم فأخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها التغلب من الخارج ففتحها كما أصاب مصر لما فتحها الفاطميون

تشعب المملكة العباسية

لما أصبحت الدولة العباسية فيما تقدم من فساد الامور والفوضى فى سلطتها وأحكامها بين الفرس والاتراك أو بين الوزراء والاجناد أو بين الخدم والنساء

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٦ ج ٢ (٢) تاريخ الوزراء ٧٢

وذهبت هيبة الخلفاء بما أصابهم من التضييق والاحتقار هان على عمالهم فى أطراف المملكة أن ينفصلوا عنهم باحكامهم الادارية والسياسية وان يستأثروا بجباية اعمالهم وهو الاستقلال . وكان اسبقهم اليه ابعدهم عن مركز الخلافة . واسبق عمال العباسيين الى ذلك ابراهيم بن الاغلب فى شمال افريقيا استقل سنة ١٨٤ هـ ولا يعد استقلاله من نتائج فساد الدولة لانه حدث فى عصر الرشيد والدولة العباسية فى معظم سطوتها وانما ساعده على ذلك بعده عن مركز الخلافة . واما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالاسبق اليه الفرس ثم الاتراك فالاكراد مثل توالبهم فى التغلب على الخلفاء . وتدرج كل من هذه الامم من العمالة الى الامارة الى الملك أو السلطنة . فأول من استقل من الفرس العمال فأنشأوا الامارات الصغرى ثم الدول الكبرى وكذلك فعل الاتراك والاكراد. فنقدم الكلام عن الفروع الفارسية ثم نذكر الفروع التركية والكردية. أما العربية فسيأتى ذكرها فى الكلام على العصر العربى الثانى

الدول الفارسية فى ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة الى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافا بالسلطة العباسية ثم استبد الاتراك فى الخلفاء بعد المعتصم واغلوا أيديهم وكسروا شوكتهم فكان للفرس على الاجمال حظ كبير من ذلك . فلما رأوا ذهاب نفوذهم فى دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بامارتهم

على ان الذين استقلوا من القواد أو الامراء ما زالوا يعترفون للعباسيين بالسطلة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم . فتفرعت المملكة العباسية الى امارات مستقلة عملا بسنة الارتقاء . واليك أهم الفروع الفارسية باعتبار تاريخ استقلالها واسماء مؤسسيها :

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١	الطاهرية	خرسان	٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ	طاهر بن الحسين
٢	الصفارية	فارس	٢٥٤ ـ ٢٩٠	يعقوب بن الليث

	الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
٣	السامانية	ما وراء النهر	٢٦١ - ٣٨٩	نصر بن احمد
٤	الساجية	أذربيجان	٢٦٦ - ٣١٨	أبو الساج
٥	الزيارية	جرجان	٣١٦ - ٤٣٤	مرداويج بن زيار

فانظر كيف تفرعت بلاد فارس الى أمارات فارسية . فانتعشت الشيعة ونالوا بعض ما كانوا يؤملونه من مساعيهم فى نصرة العلويين من أن يعيدوا دولة الفرس الضخمة كما كانت قبل الاسلام . ولكن تلك الامارات لم تمكث طويلا كما ترى فى الجدول حتى قامت دولة آل بويه وهى أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت فى الشرق فى عهد ذلك التمدن بظل الدولة العباسية

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ويرتفع نسبهم الى ملوك الفرس القدماء وانما سموا ديلم لانهم سكنوا بلاد الديلم . وكان العلويون يسعون فى نشر دعوتهم هناك من أيام الرشيد وآخر من نجح فى ذلك الحسن بن على الاطروش من نسل الحسين فدعا الديلم الى مذهبه فى أواخر القرن الثالث فأجابوه

وجد آل بويه الاقرب الذى أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع كان له ثلاثة أولاد : على ويلقب عماد الدولة وحسن ويلقب ركن الدولة واحمد ويلقب معز الدولة . وكان بويه رقيق الحال فانتظم أولاده بالجندية لانها كانت يومئذ بابا من أبواب الرزق الواسعة وكان عماد الدولة فى خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ثم اتسعت أحواله فكتب الى الخليفة العباسى وهو يومئذ الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أن يقاطعه على أعمال فارس بمال يحمله الى دار الخلافة على جارى عادتهم مع الدولة العباسية فى ذلك العهد فأجابه الراضى وبعث اليه بالخلعة . وأخوه حسن ركن الدولة تملك خوارزم وجاء الاخوان واتحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة فى شيراز وساروا غربا حتى أتوا بغداد فى أيام المستكفى سنة ٣٣٤ هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقبهم الالقاب المذكورة وجعل معز الدولة أمير الامراء واستبدوا فى المملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا

نفوذ الاتراك والخلافة العباسية لا تزال فى بغداد . ولما أفضت أمارة الامراء الى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب فى الاسلام . وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ ـ ٤٤٧ هـ

الدول التركية فى ظل العباسيين

الدول الصغرى

لما قويت شوكة الاتراك فى الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم طمع بعضهم فى الولايات كما طمع الفرس فاستقلوا بها فنبت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس كما نبتت الفروع الفارسية فى بلاد الفرس . واليك الفروع التركية فى العصر العباسى حسب سنى نشأتها وأسماء مؤسسيها وبلادها :

	اسم الدولة	مقرها	مدة تأسيسها	مؤسسها
١	الطولونية	مصر	٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ	احمد بن طولون
٢	الايلكية	تركستان	٣٢٠ ـ ٥٦٠	عبد الكريم ستق
٣	الاخشيدية	مصر	٣٢٣ ـ ٣٥٨	محمد الاخشيد
٤	الغزنوية	أفغانستان والهند	٣٥١ ـ ٥٨٢	البتكين

وتدرج الاتراك فى الولايات الاسلامية كما تدرج الفرس قبلهم أى من الامارة الى السلطة وهم أول من سموا سلاطين فى الاسلام وأولهم سلاطين الدولة الغزنوية التى منها السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند وناشر الاسلام فيه

الدولة السلجوقية وفروعها

على ان هذه الامارات نشأت فروعا للمملكة العباسية أى كان امراؤها أو سلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها أو قواد بعض الامارات الاخرى العصبية واختلاف المذهب بين السنة والشيعة

وكانت السنة قد تقوت بظهور الامارات التركية . فلما قامت دولة آل بويه فى أواسط القرن الرابع للهجرة بالعراق وفارس وعاصرتها الدولة الفاطمية بمصر عظم أمر الشيعة فى العالم الاسلامى وتضعضعت السنة فتشتت شمل المملكة العباسية . ثم ظهرت الدولة التركية الكبرى فى أواسط القرن الخامس وتعرف

بالدولة السلجوقية نسبة الى جدها سلجوق فجاءت فى حال الحاجة اليها لانها لمت شعث المملكة العباسية ونصرت مذهبها (السنة) بعد ان كادت تضمحل بين يدى الشيعة فى مصر والشام والعراق وفارس وخراسان . وكانت الدولة الفاطمية قد نشرت سلطتها على المغرب وأوشكت ان تستولى على المشرق كله فجاء السلجوقيون من اقاصى الشرق فاستولوا على المملكة العباسية وجمعوا شملها. وبعد أن كانت ولايات مستقلة يملكها أمراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب جعلوها مملكة واحدة يحكمونها تحت رعاية الخليفة العباسى

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن يكاك أمير تركى كان فى خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها وعلم انه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الاسلام فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غربا فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا فى الفتح ونشر السلطة حتى اكتسحوا المملكة العباسية وامتد سلطانهم من أفغانستان الى البحر الابيض . وأصبح العالم الاسلامى تتنازعه ثلاث دول اسلامية أكبرها دولة السلاجقة فى المشرق ثم الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب والثالثة دولة بنى أمية فى الاندلس . فشأن الدولة السلجوقية غير شؤون الدول التركية الصغرى التى تقدمتها لان هذه أمارات نشأت فى حجر الدولة العباسية وتفرعت من مملكتها وأما الدولة السلجوقية فقد نشأت مستقلة وجاءت من الخارج بقوة وجند وفتحت تلك المملكة . والدولة الايلكية نشأت مستقلة أيضا لكنها قلما أثرت فى المملكة الاسلامية

وللسلاجقة منزلة عظمى فى تاريخ الاسلام وفى أيامهم تكاثر نزوح الاتراك الى المملكة الاسلامية فى فارس والعراق والشام للسكنى والارتزاق فى ظل أبناء جلدتهم والسلاجقة أول من أنشأوا المدارس فى المملكة الاسلامية بأرقى ما بلغت اليه فى عهد ذلك التمدن على يد نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى فى أواسط القرن الخامس وقد فصلنا ذلك وعللناه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ١٩٤ ونظام الملك فارسى الاصل من أولاد الدهاقين ولكنه انشأ ما انشأه من المدارس والتكايا والرباطات والمساجد والمارستانات باسم سلطانه ملك شاه

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وعرفت باسم واحد ولكنها تمتاز

بعضها عن بعض بأماكن حكمها واكبر هذه الدول السلاجقة العظام وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعا . واليك الدول السلجوقية ومقدار حكمها :

١ ـ السلاجقة العظام	حكموا من سنة	٤٢٩ ـ ٥٥٢ هـ
٢ ـ سلاجقة كرمان	« « «	٤٣٣ ـ ٥٨٣
٣ ـ سلاجقة سوريا	« « «	٤٨٧ ـ ٥١١
٤ ـ سلاجقة العراق وكردستان	« « «	٥١١ ـ ٥٩٠
٥ ـ سلاجقة بلاد الروم (آسيا الصغرى)	« « «	٤٧٠ ـ ٧٠٠

فحكمت الدولة السلجوقية على الاجمال نحوا من ثلاثة قرون وبلغ اتساع مملكتهم من حدود الصين الى آخر حدود الشام

انتقال المملكة السلجوقية الى الاتابكة

وكان السلاجقة فى أيام سلطتهم يولون الاعمال أو الولايات قوادا من مماليكهم يسمونهم الاتابكة واحدهم أتابك وهو لفظ تركى معناه « الاب الامير » واستعملوه اولا بمعنى وزير ثم صار بمعنى الملك . وأخذ الاتابكة يستقلون بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم الا الفرع الرومى فى آسيا الصغرى فانه ظل فى حوزة السلاجقة حتى أتى العثمانيون فى أواخر القرن السابع ـ واليك تفرع المملكة السلجوقية الكبرى الى مماليكهم الاتابكة وغيرهم وسنى حكم كل دولة منها :

١ ـ الدولة البورية	فى دمشق	من سنة	٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ
٢ ـ « الزنكية	« الجزيرة والشام	«	٥٢١ ـ ٦٤٨
٣ ـ « البكتيجينية	« اربلاء وغيرها	«	٥٣٩ ـ ٦٣٠
٤ ـ « الارتقية	« ديار بكر وماردين	«	٤٩٥ ـ ٧١٢
٥ ـ دولة الشاهات	« ارمينيا	«	٤٩٣ ـ ٦٠٤
٦ ـ اتابكة اذربيجان	« اذربيجان	«	٥٣١ ـ ٦٢٢
٧ ـ الدولة السلغرية	« فارس	«	٥٤٣ ـ ٦٨٦
٨ ـ « الهزارسبية	« لورستان	«	٥٤٣ ـ ٧٤٠
٩ ـ « الخوارزمية	« خوارزم	«	٤٧٠ ـ ٦٢٨
١٠ ـ « القطلغية	« كرمان	«	٦١٩ ـ ٧٠٣

وما زالت هذه الممالك فى حوزة الاتابكة وغيرهم من مماليك الدولة السلجوقية وقوادها حتى جاء المغول فاكتسحوها كلها واستولوا عليها

سلاجقة الروم

اما الفرع السلجوقى الذى ظل سائدا دون سائر الفروع فهو سلاجقة آسيا الصغرى وهى بلاد الروم فى اصطلاح تلك الايام . على ان مملكتهم هناك تفرعت الى عدة فروع يحكم كلا منها عائلة سلجوقية صغيرة وهاك أسماءها مع أسماء العائلات السلجوقية التى كانت تتولاها :

اسم الامارة	اسم العائلة
١ ـ ميسيا	آل كراسى
٢ ـ بيسيديا	« حميد
٣ ـ فريجيا	« كرميان
٤ ـ ليسيا	« تاكة
٥ ـ ليديا	« سروخان وأيدين
٦ ـ كاريا	« منتشا
٧ ـ بفلاغونيا	« قزل احمدلى
٨ ـ ليكونيا	« قرمان (١)

وما زالت هذه الامارات فى سلطة الامراء السلاجقة حتى أتى العثمانيون فاستولوا عليها وأنشأوا الدولة العثمانية فى أوائل القرن الثامن للهجرة

الدول الكردية فى ظل العباسيين

الدول الصغرى

الاكراد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخشونة وجفاء يقيمون فى الخيام وينقسمون الى قبائل وعشائر وبطون وهم أقل قبولا للحضارة من الفرس والترك

(١) Lane Pooleis Moh. Dynasties

وغيرهما من الامم الشرقية التى دانت للاسلام فى ابان التمدن الاسلامى . وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة فى معظم ذلك التمدن . وكانت الدول تستعين بهم فى الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالاعراب ومقامهم على الاكثر فى كردستان وارمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ولا يزال سوادهم هناك الى الآن

ونظرا لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية فى أعمالها الا قليلا فلم ينبغ فيهم أحد من رجال الامارة المستقلة أو أهل السياسة والتدبير الا بعد دهر طويل من عهد ذلك التمدن . وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة فى الاسلام حسنوية بن حسين البرزكانى زعيم بعض قبائل الاكراد فى كردستان فى أواسط القرن الرابع للهجرة وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها دينور وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها . وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة . ولم يطل عمرها كثيرا فحكمت من سنة ٣٤٨ ـ ٤٠٦ هـ ثم استقل من الاكراد أبو على بن مروان فى ديار بكر سنة ٣٨٠ هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين وبايع خلفه للفاطميين حينا من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩ هـ

الدولة الايوبية

على أن الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر فى الاسلام الا على عهد الدولة الايوبية من سنة ٥٦٤ ـ ٦٤٨ ومؤسسها السلطان صلاح الدين الايوبى . وهو من أعظم رجال الاسلام تعقلا وسياسة وبسالة وتدبيرا أنشأ دولته على انقاض الدولة الفاطمية بمصر وبايع فيها للعباسيين وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا وانقذ بيت المقدس من أيديهم وماثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن الاكراد فى أيام دولته وتولوا الامارات والولايات فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ولما مات اقتسم مملكته اخوته وأولاده وأولاد اخوته ولذلك لم يطل حكمها . فغلبهم على معظمها مماليكهم الاتراك كما غلب الاتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم فكان للمماليك بمصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك كما سيجىء

« ملاحظة » ومما يحسن التنبيه اليه فى هذا المقام ان الاسلام أثر فى أمم المشرق تأثيرا خاصا وساقها الى التمدن تدريجا فتسابقت الى انشاء الدول وتأسيس

المماليك باعتبار أسبقيتها فى الاسلام وقربها من العالم الاسلامى . فاول من أسلم من تلك الامم العرب وأسسوا الدولة الاسلامية العربية فاحتك بهم أولا الفرس وهم أقرب امم المشرق الى جزيرة العرب فكانوا أسبق الاعاجم الى انشاء الدول. ثم جاء الاتراك من وراء بلاد فارس فلما انتشر الاسلام بينهم أسسوا الدول ونظموا الحكومات ثم ظهر الاكراد وهم أقرب من الاتراك الى العالم الاسلامى يومئذ لكنهم تمدنوا بعدهم لان الاتراك أقرب منهم الى سياسة الدول. وامتد الاسلام فى تركستان وما وراءها من بلاد التتر أو المغول فنهض هؤلاء واغاروا على بلاد الاسلام للنهب والقتل لكنهم ما لبثوا ان احتكوا بالعالم الاسلامى حتى اخلدوا الى النظام وانشأوا الدول . ويقال نحو ذلك عن تأثير الاسلام فى المغرب ، خصوصا قبائل البربر فى شمالى افريقيا كما تقدم

الخلافة والسلطة

أو الدين والسياسة

لما ظهر الاسلام كان النبى رئيس المسلمين فى أمور الدنيا والدين وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وامامهم وقائدهم . وكان اذا ولى أحد اصحابه بعض الاطراف خوله السلطتين السياسية والدينية واوصاه ان يحكم بالعدل وان يعلم الناس القرآن . ولكنه ما لبث ان فصل بين المنصبين فيمن كان يوليهم أمور الرعية فبعث فى السنة الثامنة للهجرة ابا زيد الانصارى وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما « ان أجاب القوم الى شهادة الحق واطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وابو زيد على الصلاة واخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن »

على أن ذلك لم يكن قاعدة عامة لان الامير كثيرا ما كان يتولى الخراج والحرب والصلاة معا كما تولاها يزيد بن المهلب فى العراق من قبل سليمان بن عبد الملك(١) ويقال بالاجمال ان مصالح الدولة الاسلامية بعد ان كانت محصورة فى النبى سياسيا ودينيا تفرعت فى أيام الخلفاء الى عشرات من المناصب الا الخلافة فانها ما زالت

(١) ابن الاثير ١٠ ج ٥

حتى الآن تشمل الرياسة فى أمور الدين والدنيا

والخلافة فى الاصل منصب دينى تولاه الخلفاء الراشدون لاتمام العمل الذى بدأ به النبى وهو نشر الاسلام والجهاد فى سبيله وكانوا يتولون أمور المسلمين السياسية أيضا لما يقتضيه الجهاد من الحرب وأسبابها كادارة الجند وتنظيمه لحماية البلاد ويدخل فى ذلك ولاية الاعمال وجباية الخراج . على انهم كانوا يفعلون ذلك بصفة دينية أى ان كل ما يعملونه فالى الدين ينتهى الغرض منه فكانوا يجندون الرجال ويفتحون البلاد فى سبيل الدين . فلما انتشر الاسلام وتوطدت دعائمه وذهبت الحاجة الى الجهاد جاز للرياسة الدينية ان تستقل عن السيادة السياسية أو تنقسم الرياسة الى الخلافة والسلطة كما حدث فى النصرانية وغيرها

ولكن الارتباط بين الدين والسياسة فى الاسلام يختلف عما فى النصرانية لان النصرانية انتشرت أولا فى عامة الناس ثم انتقلت الى رجال الدولة . وأما الاسلام فانه ظهر أولا فى رجال الدولة وانتقل منهم الى العامة لان أقدم أهل الاسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمراؤهم وقد نشروا الاسلام فى الارض وجاهدوا فى سبيل نصرته بأنفسهم . فلما تأيد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الامراء فى السلطة الدنيوية كان منصب الخلافة من اكبر أسباب تغلبهم لتأثير الدين على أذهان الناس فى تلك الايام فقد كانوا لا يجتمعون الا تحت رايته وخصوصا فى الشرق ولا يزالون على ذلك حتى الآن

على ان أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حدا فاصلا بين الخلافة والسلطة فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة خالفوه وابوا مبايعته فلما قتل على وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية لم ير المسلمون بدا من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك لكنهم استنكفوا من أن يسموه « خليفة » أو يعترفوا له بسلطة دينية فسموه « ملكا » وهو يأبى الا أن يجمع الرياستين لعلمه أن الرياسة الدنيوية وحدها لا تفيده شيئا ـ ذكروا أن سعد بن أبى وقاص دخل على معاوية بعد ان استقر الامر له وقال « السلام عليك أيها الملك » فضحك معاوية وقال « ما عليك لو قلت يا أمير المؤمنين » فقال « تقولها جذلان ضاحكا ؟ والله ما أحب انى وليتها بما وليتها به »

فيظهر من ذلك انهم كانوا ينزهون الخلافة عن السياسة والدهاء ويعتقدون ان

بنى أمية نقلوا الاسلام من الدين الى العصبية والسيف ثم الى الملك البحت

الخلافة لازمة للسلطة المطلقة

وفى اعتقادنا ان الحكم المطلق لا يتأيد ويتسع نطاقه ويطول مكثه الا بالدين أو ما يقوم مقامه . فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها الا وفى سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين بان تجعل لملوكها مزية على سائر الناس . واذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى وهى أفضل الحكومات وأطولها عمرا والا فانها تنحل سريعا ويكفى لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده . واذا تدبرت تاريخ الدول الاسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا فى طول بقائها واتساع نطاقها ـ اعتبر ذلك فى الدول التى نشأت فى أثناء التمدن الاسلامى من الفرس والترك والكرد والجركس كالبويهيين والسلاجقة والايوبيين وغيرهم من الدول الضخمة فان بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة السياسة ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية . وانظر الى الدول العربية التى جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والامويين فى الاندلس مع ما طرأ عليها من أسباب السقوط فقد صبرت وطال جهادها . واذا نظرت الى الدول الاعجمية رأيت أطولها عمرا وأوسعها ملكا الدولة التى جمعت بين السلطتين وهى الدولة العثمانية . وبنو أمية فى الشام لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرياسة الدينية ما استطاعوا الى الحكم سبيلا فانهم انما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما فى الخلافة من الصبغة الدينية وتوفقوا الى أعوان عرفوا أن العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة وسموا الخليفة « خليفة الله » وقالوا « خليفة الرجل فى أهله أفضل من رسوله فى حاجته » كما تقدم ـ والعلماء ينكرون ذلك ولا يصدقونه وأما العامة فكانوا يساقون به الى الطاعة بالارهاب رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من الشكوك

فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس وهم من عائلة النبى ومن أولى الناس بخلافته كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح (١) وغرس فى أذهان الناس بتوالى الازمان ان الخليفة العباسى

(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٥

اذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات (١)

وكان الخلفاء لا يأنفون من ذلك التفخيم حتى الرشيد مع تعقله وانتشار العلم فى عصره فقد ذكروا انه كان يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده حتى قال فيه بعض الشعراء « فكأنه بعد الرسول رسول » (٢) فكيف يكون حال الخلفاء فى عصر الانحطاط اذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ويكثر المتزلفون والمتملقون ويكتفى أولو الامر بالكلام دون الاعمال ـ واذا شاخت الدولة تمسك اهلها بالعرض وتركوا الجوهر ـ فلا غرو اذا سموا الخليفة فى أيام المتوكل «ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » (٣) أو قالوا قول ابن هانىء للمعز الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار (٤)

الخلفاء والفقهاء

ويدل ذلك على ما كان للخلافة من المنزلة المقدسة عند عامة الناس والاصل فى هذا التقديس انما هو للدين وتعظيم الخلافة فرع منه . ولذلك كان بين الخلفاء الاولين وعلماء الدين الاسلامى كالحفاظ والمحدثين والفقهاء علاقة متبادلة وكل منهم يتقوى بالآخر ـ ومعنى ذلك ان الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية فهو امير الناس فى السلم وقائدهم فى الحرب وامامهم فى الصلاة وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبى فى أول الاسلام . فلما اتسعت الفتوح ومست الحاجة الى تقسيم الاعمال بمقتضى سنة العمران عمد الخليفة الى انابة من يتولى تلك الاعمال عنه . فالوالى انما هو نائب الخليفة فى العمل الذى يتولاه والقاضى نائبه فى القضاء وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة . وقس على ذلك سائر المناصب الادارية والسياسية والقضائية وكذلك فى المهن الدينية فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون اعمالهم بالنيابة عن الخليفة . فكما يحتاج الخليفة الى نصرة العمال والقواد والقضاة فى تأييد سلطته الدنيوية فهو يفتقر أيضا الى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية . ولذلك رأيت الخلفاء يقربون أهل العلم ولا سيما فى أوائل الاسلام (وهم يومئذ الحفاظ أو القراء) وكان اليهم المرجع فى حل المشكلات الدينية أو القضائية أو الفقهية وهى أساس الاحكام

(١) الفخرى ١٢٥ (٢) الاغانى ١٨ ج ١٢ (٣) المسعودى ٢٨٠ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٢٤٥ ج ٨

السياسية فى الدولة الاسلامية . ونظرا لتهوس العامة بالدين على الاجمال كان للفقهاء تأثير شديد فى الدولة فلا يقطعون بأمر هام الا باستفتائهم حتى فى تنصيب الخلفاء فاذا انكر الفقهاء بيعة أحدهم انكرها الناس . ولذلك كان الخلفاء يجلون العلماء ويقربونهم ويعولون على مشوراتهم فى عصر الراشدين والدولة على سذاجتها لم يلابسها غش ولا دهاء فاذا نهوا الخليفة أو الامير عن عمل انتهى وأخذ بنصيحتهم

فلما طمع بنو أمية بالخلافة والتمسوها من طريق الدهاء والبطش كان فى جملة ما أهملوه من قواعد الراشدين الاخذ بأقوال أهل العلم لانهم لو أطاعوهم ماتيسر لهم الملك . فقاسى العلماء فى أوائل دولة الامويين عذابا شديدا من المقاومة والضغط فاضطر بعضهم للافتاء بما يرضى أهل الدولة وأبى البعض الآخر الا الحق فاضطهدوهم وضيقوا عليهم ـ بدأوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بنى أمية وقد أخذوا يمهدون السبيل لسلطانهم بجمع الاموال والاستئثار بالنفوذ . وفى حكاية أبى ذر الغفارى مع معاوية بن ابى سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة أهل العلم على الخلفاء وانكار الامويين ذلك . وقد فصلناها فى بعض ما تقدم من هذا الكتاب (١)

فلما استتب الامر لبنى أمية حبست الافكار وتقيدت الالسنة ولم يتقدم من العلماء فى مناصب الدولة الا المتملقون . وبعد ان كان الخليفة لا يعمل عملا الا بمشورة فقهاء المدينة أغفل بنو أمية المدينة وفقهاءها الا عمر بن عبد العزيز فانه عاد الى مشورتهم . فظل الاحرار من الفقهاء فى زوايا الاهمال معظم أيام بنى أمية . فلما تسلط العباسيون وأظهروا أنهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين فى عهد الامويين ظهر أهل الافكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد وقربهم الخلفاء واكرموهم فعادوا الى جرأتهم فى خطاب من يؤانسون منه اصغاء كما فعل ذلك الرجل بالمنصور وهو يطوف وكما فعل سفيان الثورى لما استدعاه الرشيد الى بغداد ليكرمه ويقربه فكتب اليه سفيان كتابا قال فيه : « أما بعد فانى كتبت اليك أعلمك انى صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته فى غير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت

(١) الجزء الثانى صفحة ١٦

الى تشهدنى على نفسك. فأما أنا فانى قد شهدت عليك أنا واخوانى الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غدا بين يدى الله الحكم العدل . يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ..؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعنى العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الايتام والارامل أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ » (١)

ودخل سفيان المذكور على المهدى مرة ولم يسلم بالامارة فلم يغضب عليه المهدى بل استعطفه (٢) وكان اكثر الخلفاء الاولين من بنى العباس اذا لقوا فقيها أو زاهدا طلبوا اليه ان يعظهم فاذا وعظهم بكوا حتى تخضل لحاهم . وأشهر المتعظين من الخلفاء المنصور والرشيد والمعتصم والواثق ولهم حكايات مشهورة

فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة مثل توسط الامراء والقواد فى تأييد السيادة الدنيوية وقد يغنى الفقهاء على الواسطتين جميعا لان عامة المسلمين ينقادون الى فقائهم ويستسلمون اليهم كما ينقاد عامة النصارى الى كهنتهم . فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون الى الفقهاء للاستعانة بهم على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم وكذلك كان يفعل السلاطين والامراء لنفس هذا السبب أو لسبب آخر . والنفع متبادل بين الفئتين لان الفقهاء كانوا يكتسبون بتقربهم من الخلفاء مالا وجاها ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم اعظم وأبقى . فرسخ احترام الفقهاء فى قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضا. حتى ان كثيرا ما كانوا يضطرون الى مسايرة بعض الناس فى بعض اعتقاداتهم الدينية ولو كان ذلك الاعتقاد مخالفا لما فى نفوسهم أو مناقضا للواقع كما فعل المهدى اذ جاءه رجل بنعل زعم انها نعل النبى فقبلها المهدى منه وأجازه عليها مع اعتقاده كذبه وانما خاف ان كذبه ان يحمل العامة قوله على الفتور فى الدين (٣)

ولم يكن للخلفاء بد من اظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية لئلا يفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لايعتقد ذلك. ذكروا ان الوليد بن يزيد الاموى مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك كان اذا حضرت الصلاة يطرح ماعليه

(١) الدميرى ١٨٨ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢١٠ ج ١ (٣) كتاب الاذكياء ٩

من الثياب المصبغة والمطيبة ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلى فيها أحسن الصلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب (١)

الدول الاسلامية والخلافة

فلهذا السبب كان الامراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالادارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين اذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فاذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو انشاء امارة لنفسه بعث الى الخليفة فى بغداد يبايعه ويطلب منه ان يعطيه تقليدا أو عهدا بولاية ذلك البلد أو أن يلقبه ويخلع عليه واذا أبى الخليفة ان يجيبه غضب وعد ذلك تحقيرا له وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته

فالامارة أو الممالك التى استقلت عن الدولة العباسية فى فارس وخراسان وتركستان وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كان أصحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعثون اليه بمال معين فى العام مع انهم فى أمن من سطوته . وانما يريدون ان يرضى العامة عن سلطانهم

وكذلك كان شأن الاجناد الاتراك وأمرائهم فقد كانوا مع استبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلعا لا يجسرون على استبقاء منصب الخلافة خاليا يوما واحدا لاعتقادهم انه بدون الخليفة لا تستصلح العامة . حتى الملوك أو السلاطين الذين تسلطوا على بغداد وقبضوا على كل شىء فيها وأصبح الخليفة آلة فى أيديهم مثل آل بويه وآل سلجوق فقد كانوا يحاربون الخليفة ويجردون عليه الجيوش حتى اذا ظفروا به وغلبوه بايعوه وأكرموه ورفعوا مقامه وتبركوا به . فعضد الدولة البويهى ملك بغداد واستبد بها وهو شيعى على غير مذهب الخليفة . وكان يغالى فى التشيع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها فلم يكن ثمة باعث دينى يدعوه الى طاعة خليفة بغداد ومع ذلك فانه بايعه وعظم شأنه وأعاد من أمر الخلافة ما قد نسى وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته واكرمه غاية الاكرام (٢)

وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يعرفون حاجة الامراء المسلمين الى رضاهم فاذا

(١) الاغانى ١٤١ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٥٧ ج ٨

ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد فيضطر الى استرضائهم لان خروجهم يغضب العامة (١) ويجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ ـ ولذلك لم يكن من سبيل الى نزع سلطته أو الاعتراض عليها الا من وجه دينى فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين فيلبسون الصوف ويدعون الى المعروف أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف (٢) أو نحو ذلك مما يحرك عواطف العامة . واذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه باظهار الورع والدين ليستميل القواد (٣) ولما رأى أبو مسلم الخراسانى أهل اليمن فى مكة قال « أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة » يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للممالك الاسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها . وقد يستاء بعض الامراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته الا اذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين فى القاهرة . ولما تغلب السلطان صلاح الدين الايوبى على مصر وذهبت الدولة الفاطمية منها فأول شىء فعله انه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسى فى بغداد وطلب المنشور منه والخلع عليه . وكانت الخلافة العباسية فى غاية الانحطاط والضعف وهو فى غنى عن بيعتها ولكنه علم انه اذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى الناس

وكذلك فعل السلاطين المماليك الذين ملكوا مصر بعد الدولة الايوبية فانهم بايعوا للعباسيين وكانت الخلع تأتيهم من بغداد الى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله توقف شأن الخلافة فاضطربت أحوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم فى ايجاد خليفة يبايعونه (٤) ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحدا ليحكموا العامة به (٥) على انهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا فى بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم الى القاهرة وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالا عظيما وبالغوا فى احترامهم واكرامهم (٦) مع علمهم ان اولئك الخلفاء

(١) ابن الاثير ٢١٣ ج ٩ (٢) ابن الاثير ٢٠٨ ج ٨ (٣) كتاب الاذكياء ٢٧
(٤) أبو الفداء ٢٢٢ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١١٩ ج ٩ (٦) المقريزى ٣٠١ ج ٢

لا يغنون عنهم شيئا ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الاسلام بالاطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسى بالقاهرة ويطلبون التقليد منه أو المنشور لاثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك (١) فما الذى بعث اولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة طريد شريد لا ينفع ولايشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك فى أذهان العامة ؟ ولا تنكر ان بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تدينا ولكن الاكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها

الخلافة فى غير قريش

ومما يستحق النظر والاعتبار ان ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم مع ما بلغوا اليه من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثانى بعد تضعضعه بفتوح المغول ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربى بويع بالخلافة السلطان سليم العثمانى

على ان الذين قويت شوكتهم فى عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين أو القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية أو الخلافة انتحلوا لانفسهم نسبا فى قريش كما فعل ابو مسلم الخراسانى لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسبا فى بنى العباس فقال انه ابن سليط ابن عبد الله بن عباس (٢)

وأما الملوك أو السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم فى أواخر العصر العباسى ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة أخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الدينى من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . وأول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسى فى أيامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولدا ذكرا فيجعله ولى عهده فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب (٣) ولم يتوفق الى مراده

(١) ابن خلدون ٥٤٣ ج ٣ (٢) الفخرى ١٢٣ (٣) ابن الاثير ٢٨٣ ج ٨

ولما أفضت السلطة الى السلاجقة تقدموا فى هذا الطريق خطوة أخرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة أيضا ولكن على ان يتزوج السلطان طغرلبك السلجوقى أبنة الخليفة وهو يومئذ القائم بأمر الله فخطبها اليه ووسط قاضى الرى فى ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شىء فى يده فأخذ فى استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فأبى السلطان الا أن يجاب . وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول ـ فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة فى المذهب (١) اذ يكفى من الخليفة تنازلا أن يتزوج بنات الملوك لا أن يزوجهم بناته ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرلبك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه فى السنة التالية قبل الارض بين يديها وهى جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل أياما يحضر على هذه الصورة وينصرف . على أنه لم يتوفق لاتمام ما أراده لانه توفى فى تلك السنة . أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣ هـ

(١) ابن الاثير ٨ ج ١٠

العصر العربى الثانى

الامارات العربية والعنصر العربى

نريد بالعصر العربى الثانى العصر الذى جدد فيه العرب سطوتهم وأعادوا سلطانهم ونفوذهم فى الدولة بعد ان غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم. فقد رأيت ان شوكة العرب ضعفت بذهاب الدولة الاموية وتغلب الفرس فى الدولة العباسية حتى غلب الامين فانكسرت تلك الشوكة وتضعضع شأن العرب ثم جاء المعتصم فقطع أعطيتهم ومنعهم من مصالح الدولة فذلوا ونقموا على العباسيين ولبثوا يترقبون الفرص لاسترجاع سلطانهم وأصبحوا ينصرون كل من يخرج على تلك الدولة فى العراق أو الشام أو مصر حتى الاكراد والاعراب والقرامطة فلم ينفعهم ذلك الا قليلا لتغلب الاتراك فى مصالح الحكومة

على ان بعض القبائل العربية تمكنت بأسباب مختلفة من انشاء امارات صغيرة فيما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الاتراك فى القرن الرابع للهجرة ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلدوهم فاستقل آل حمدان من بنى تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ - ٣٩٤ هـ وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعرفت بالدولة الحمدانية أشهر أمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظمه فيه أبو الطيب المتنبى

ونشأ فى حلب فى ذلك القرن أيضا دولة عربية أخرى اسمها المرداسية نسبة الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب من المضرية فحكم فى حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ - ٤٧٢ هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بنى عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ - ٤٨٩ هـ وظهرت فى أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة الى مزيد الشيبانى من قبيلة أسد وقد أنشأوا مدينة الحلة فى العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ - ٥٤٥ هـ

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب فى العصر العباسى الاول وفى بلاد غير عربية فالاولى ان تعدا من الدول الاعجمية وهما الدولة الدلفية التى أنشأها

أبو دلف العجلى فى كردستان والعلوية التى أنشأها الحسن بن زيد فى طبرستان واذا أضفنا الى ما تقدم دولة الاغالبة التى استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ودولة الادارسة الآتى ذكرها بلغ عدد الدول العربية الصغرى فى النهضة العربية الثانية ثمانى دول هذا بيانها مع أسماء مؤسيسها ومدة حكم كل منها ننشرها بحسب تاريخ تأسيسها :

الدولة	مقرها	مدة حكمها	مؤسسها
١ ـ الادريسية	مراكش	١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ	ادريس بن عبد الله
٢ ـ الاغلبية	تونس وغيرها	١٨٤ ـ ٢٨٩	ابراهيم بن الاغلب
٣ ـ الدلفية	كردستان	٢١٠ ـ ٢٨٥	أبو دلف العجلى
٤ ـ العلوية	طبرستان	٢٥٠ ـ ٣١٦	الحسن بن زيد
٥ ـ الحمدانية	حلب والموصل	٣١٧ ـ ٣٩٤	بنو حمدان
٦ ـ المزيدية	الحلة	٤٠٣ ـ ٥٤٥	مزيد الشيبانى
٧ ـ العقيلية	الموصل	٣٨٦ ـ ٤٨٩	بنو عقيل
٨ ـ المرداسية	حلب	٤١٤ ـ ٤٧٢	صالح بن مرداس

غير الامارات العربية الصغرى التى ظهرت فى بلاد اليمن كالزيادية فى زبيد واليعفورية فى صنعاء وغيرهما

على ان هذه الدول قلما اثرت فى احياء سطوة العنصر العربى أو ارجاع شوكة العرب لانها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم الا العلوية والادارسة . ولا حرج عليهم فان الفرس والترك والديلم كانوا قد استبدوا باكثر امارات المملكة العباسية ورسخ فى أذهان الناس ان الدولة العباسية باقية الى رجوع المسيح فبات الشرق كله تحت سيطرة العباسيين يخطب لهم ويضرب النقود باسمهم فاتجهت آمال العرب نحو الغرب

وكان الامويون أصحاب العصبية العربية واكبر أعداء الفرس ومن جاورهم من الاعاجم قد أنشأوا دولة عربية فى الاندلس من سنة ١٣٨ هـ سيأتى الكلام عليها . فالعرب الذين كانوا يطمعون باحياء العنصر العربى ويكبرون ذهاب دولة العرب فى ظل العباسيين كانوا ينزحون الى الغرب فينزلون فى الاندلس أو يقيمون

فى افريقيا بظل السيادة العربية بعيدين عن سلطة الدولة العباسية

واكثر العرب نفورا من تلك الدولة وأشدهم بغضا لها شيعة العلويين لا سيما بعد أن قضى على آمالهم فى الشرق بما توخاه العباسيون من التفرد بالخلافة هناك. وكان بعض أصحاب هذه الدعوة قد فروا من وجه العباسيين نحو الغرب فى أوائل دولتهم فأنشأوا هناك دولة علوية عرفت بالدولة الادريسية نسبة الى ادريس بن عبد الله حكمت من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ولم يطمع أمراؤها بلقب الخلافة

وبقى فى الشرق جماعة من العلويين كانوا لا يزالون يؤملون الفوز بشيعتهم الموالى الفرس فلما رأوا العباسيين غلبوهم على ما فى أيديهم بعد فتنة الامين والمأمون واستبداد رجال الاتراك فى الدولة ومقاومتهم العنصرين الفارسى والعربى جميعا يئسوا من نصرة الموالى فنزح بعضهم الى المغرب تدريجا وظل البعض الآخر فى المشرق يترصدون ضعفا يبدو لهم من الدولة العباسية فيغتنمون الفرصة للوثوب عليها لا يبالون بمن ينتنصرون أو على من يعولون . فكانوا يقومون تارة بالفرس أو الخراسانيين وطورا بالاكراد أو الديلم أو غيرهم من الامم الناقمة على الاتراك أو الفئات المظلومة من فساد الاحكام واستبداد الخدم ولم يفز أحد منهم بانشاء دولة غير الحسن بن على فى طبرستان صاحب الدولة العلوية التى ذكرناها ولم يطل عمرها . وكثيرا ما كانت تلك الفئات المظلومة تنتحل الدعوة العلوية للوثوب على الدولة كما فعل صاحب الزنج فى العراق فانه أقلق راحة الدولة العباسية وأجنادها وعمالها بضعة عشر عاما بما جمعه من آباق العبيد والزنوج الذين كانوا يكسحون السباخ فى ضواحى البصرة والكوفة واستنهض سائر السودان فتركوا اسيادهم وقاموا معه فحارب الدولة فى وقائع كثيرة قتل فيها نحو ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ (١) وكانوا يفعلون ذلك باسم الدعوة العلوية وزعيمهم دعى اسمه على بن محمد زعم انه من نسل الحسين وانتهت تلك الثورة بقتل الدعى وتبديد رجاله

على ان الشيعة العلوية لم يكن لها شأن يذكر إلا بعد ظهور الدولة البويهية الشيعية فى الشرق واستيلائها على بغداد واستبدادها فى الخلافة . وكان الشيعة قد أنشأوا خلافة علوية فى بلاد المغرب فاشتد أزرهم بذلك وحملوا على المشرق يلتمسون افتتاح المملكة العباسية فجاءوا مصر وفتحوها فى أواسط القرن الرابع للهجرة

(١) الفخرى ٢٢٧

وأقاموا فيها وكانت دولتهم ضخمة عرفت بالدولة الفاطمية هي اكبر دول الشيعة وسيأتي ذكرها

وجاءت الدولة الفاطمية مزاحمة للدولة العباسية وقد قام بنصرتها العرب والبربر وهؤلاء ينتحلون لانفسهم نسبا في العرب . وكانت الآمال عالقة باحياء العنصر العربي على يدها كما كان في صدر الاسلام فبايعها معظم العالم العربي يومئذ حتى في العراق وما بين النهرين فان أهل الكوفة والموصل بايعوها مدة مع قربهم من بغداد عاصمة العلويين (١) على أنهم لم يستطيعوا احياء ذلك العنصر لذهاب دولة آل بويه من المشرق وظهور الدولة السلجوقية التركية هناك وانتصارها للعباسيين وانتحالها مذهبها ودفاعها عنها فظلت الموازنة محفوظة بين الشرق والغرب الاول سني والثاني شيعي

فلما تغلب الاكراد على الدولة الفاطمية واستخرجوا مصر من حوزتها على يد صلاح الدين الايوبي أعادوا البيعة العباسية اليها سنة ٥٦٧هـ وكان العنصر العربي قد ضعف بمصر قبل انقضاء تلك الدولة بمن استبد في الاحكام من الاتراك والارمن وغيرهم كما سيجيء فعاد العنصر العربي الى الضياع الا امارات صغيرة ظهرت في جزيرة العرب ولا يزال بعضها باقيا الى الآن

فالعصر العربي الثاني عبارة عن احياء العنصر العربي في المغرب بعد انحلاله في المشرق وأكبر العوامل في احيائه الدولتان الاموية بالاندلس والفاطمية بمصر وكان قيامهما نهضة عربية لم يطل مكثها ولا كان لها تأثير يذكر ولم يقم للعرب قائمة في الدولة الاسلامية من ذلك الحين ـ الا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية كقيام الوهابية في نجد والدراويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية على انشاء دولة اسلامية كبرى في أوائل القرن التاسع عشر أراد أن يستعين على انشائها بعصبية اسلامية وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب والعصبية التركية للدولة العثمانية فاختار عصبية العرب فحامت الآمال حوله وخصوصا بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل فأحيا العنصر العربي ونشط العصبية العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع أو نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادته في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من أغراض دول

(١) ابن الاثير ٩٢ ج ٩

الافرنج فى المملكة الاسلامية ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التى نحن فيها أما ماتتناقله الجرائد من أخبار اليمن ونجد وتمرد بعض رؤساء القبائل فلا نتوقع له نتيجة تذكر لاسباب عمرانية سياسية لا محل لها هنا

فالنهضة العربية فى العصر العربى الثانى الذى نحن فى صدده قلما أثرت فى احياء العنصر العربى . وقد تقلبت على كل من الدولتين الاموية فى الاندلس والفاطمية بمصر أحوال مختلفة فى سياستها وشؤون حكومتها لابأس من الاتيان على خلاصتها وان كانتا بالحقيقة مقلدتين للدولة العباسية فى اكثر أحوالهما

سياسة بنى أمية فى الأندلس

من سنة ١٣٨ - ٤٢٢ هـ

اقتدت هذه الدولة فى سياستها بالدولة العباسية مثل سائر الدول التى عاصرتها أو نشأت بعدها . فمؤسسها عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان كان شديدا مثل جده عبد الملك نجا من مذبحة أهله فى مجلس السفاح سنة ١٣٢هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر لم يدخر وسعا فى انقاذه وحمايته فى أثناء ذلك الفرار والمسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الامويين . فلما وصل به الى المغرب سعى له فى جمع الاحزاب فقطع بوغاز جبل طارق الى الاندلس وفيها من موالى بنى أمية نحو خمسمائة رجل فأخبرهم بقدوم مولاه وحرضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية - وجمعها صعب فى ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهدوا له الدولة واستقدموه اليهم فدخل الاندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨هـ ولذلك سموه الداخل

حكمها أولا باسم الدولة العباسية وخطب بها للمنصور نحو سنة ولم يجسر فى بادىء الرأى على انشاء خلافة أخرى مع وجود الخلافة العباسية لان النبى واحد وخليفته واحد . وكان لعبد الرحمن ابن عم يقال له عبدالملك بن عمير بن مروان شديد العصبية للامويين واسع الامل فى ارجاع خلافتهم وكان يسمونه شهاب آل مروان لشجاعته وسرعة فتكه وقد حارب فى نصرة ابن عمه حروبا ثبتت له بها الدولة فحرضه على قطع الخطبة العباسية ولما آنس منه ترددا صاح فيه « اقطعها

والا قتلت نفسى ، فقطعها ولكنه لم يجسر أن يسمى نفسه خليفة فكانوا يسمون أمويى الاندلس فى أوائل دولتهم الامراء ثم سموها الخلفاء

واتفق فى أثناء ذلك ان المنصور العباسى أهان مالك بن أنس امام المدينة لما علمته من افتائه بخلع المنصور لانه كان قد بايع للعلويين فاغتنم الامويون نقمة مالك عليه وقربوه منهم وأكرموه فانتفع كل منهما بصاحبه . فالامويون رأوا فيه اماما كبيرا ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ويطعن فى خلافة بنى العباس . ورأى مالك فى الامويين ملجأ كبيرا وتعزية لما ذاقه من شدة بنى العباس . فشاع مذهب مالك فى الاندلس من ذلك الحين وكانوا قبلا على مذهب الاوزاعى مثل اهل الشام . وقد نقلوا الفتوى الى رأى مالك فى أيام الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل (١)

وكان عبد الرحمن هذا يقلد سياسة المنصور العباسى فى تأييد دولته وكانا متشابهين من عدة أوجه : منها ان والدة كل منهما بربرية وكان عبد الرحمن مثل المنصور من حيث الشدة والعزم وضبط الامور . واتفقا بأن كلا منهما قتل ابن أخيه فقتل المنصور ابن أخيه السفاح وقتل عبد الرحمن ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية (٢) وقد اقتدى عبد الرحمن بالمنصور فى سياسة الفتك والغدر لتأييد سلطانه بقتل الذين ساعدوه على تأييده فسخط على بدر مولاه لفرط دلاله عليه ولم يرع حق خدمته وصدق مناصحته فأخذ ماله وسلبه نعمته ونفاه سنة ١٥٦ هـ الى مكان بقى فيه الى أن هلك كما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى بعد بلائه فى انشاء دولته (٣) . وقتل عبد الرحمن أيضا أبا الصباح بن يحى رئيس العرب اليمانية وكان قد ساعده على القيام وله فضل عليه (٤) ففعل به مثل مافعل بنو العباس بأبى سلمة وابن كثير وغيرهما . وقام اليمانية رجال ابى الصباح يطلبون بثأره فأوقع عبد الرحمن بهم وأكثر القتل فيهم واستوحش من العرب قاطبة وعلم انهم يصحبونه على غل وحقد فانحرف عنهم الى اتخاذ المماليك ليتقوى بهم على أعدائه فبعث الى كبراء مملكته يبتاع مواليهم فاقتنى موالى الناس من كل ناحية واعتضد بالبربر فوجه اليهم فى بر العدوة على شواطىء افريقيا واستوفدهم فجاءه منهم كثيرون فأكرم وفادتهم وأحسن اليهم

(١) نفح الطيب ٧٩٩ ج ٨ (٢) نفح الطيب ٧١٥ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٥ ج ٦
(٤) نفح الطيب ٧٠٦ ج ٢

وقربهم فرغبوا فى خدمته فاستكثر منهم ومن العبيد حتى بلغ جنده من هؤلاء نحو ٤٠٫٠٠٠ رجل غلب بهم على أهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت دعائمها كما تأيدت الدولة العباسية بالخراسانيين

الصقالبة

ثم عمد الامويون بعده الى استخدام الخصيان الصقالبة وهم غلمان كان النخاسون يحملونهم من شمالى أوربا يتجرون ببيعهم فى أنحاء العالم وكان الاتجار بهم رائجا. والسبب فى رواجه ان قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا فى أوائل أدوارهم شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ثم اخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو أواسط أوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب التى فى طريقهم كالكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى من الجانبين . وكان من عادات أهل تلك الاعصر أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقيا ومنها الى الشام ومصر فلما وقعت هذه البلاد فى أيدى المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود — ولا يزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء أمامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث الى أن يحطوا رحالهم فى فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسرى . وغلب على أولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم «سكلاف» فعربها العرب «صقلب» ومنها «صقلبى وصقالبة» وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الابيض على الاجمال

على أن عبد الرحمن الداخل قلما رغب فى الصقالبة وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) فانه استكثر من اقتناء المماليك وارتبط الحيول ببابه وتشبه بالجبابرة . وهو أول من جند الاجناد المرتزقين بالاندلس فجعل المماليك من المرتزقة فبلغت عدتهم ٥٠٠٠ مملوك وكانوا يسمونهم

الحرس لعجمة ألسنتهم ثم تدرج الامويون باستخدام الصقالبة حتى تكاثروا فى أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسى بالاتراك قبله . واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه فى أوربا عن سائر ممالك الاسلام فى آسيا وافريقيا ولم يكونوا يطمعون فى التغلب على الممالك الاخرى فقطعوا علائقهم معها ومنعوا أهل دولتهم من الحج الى الحرمين (١) مخافة ان يقع احد منهم فى ايدى العباسيين فلم يحج سائر ايامهم احد من اهل دولتهم وما ابيح لهم الحج الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوع مملكة الاندلس الى ملوك الطوائف غير العرب

ملوك الطوائف بالاندلس

وبلغت الاندلس ابان مجدها فى ايام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وكان عاقلا كريما توفرت الثروة فى خلافته وكانت ايامه مثل ايام هرون الرشيد فى بغداد من حيث الرغد والرخاء . وخلفه ابنه الحكم وكان محبا للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد وبلغت مملكة الاندلس فى ايام هذين الخليفتين الى اوج مجدها سطوة وابهة وثروة واخذ شأن الخلافة بعدهما بالانحطاط فاستبد اهل الدولة وجندها فى الاحكام وهم موالى الامويين من البربر والصقالبة كما استبد الفرس والاتراك فى الدولة العباسية

وكان العرب فى مقدمة رجال الدولة واهل العصبية ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة لان الامويين اهل عصبية للعرب كما تقدم فلما استبد الصقالبة والبربر فى المناصب والاعمال اخذت شوكة العرب بالضعف تدريجيا حتى غلب ابن ابى عامر وزير الحكم بن الناصر على امور الدولة فى ايام هشام بن الحكم فى اواخر القرن الرابع للهجرة ومكر باهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض ومنع الوزراء من الوصول الى الخليفة وهو عربى الاصل من اليمنية فأصبح يخاف الجند على نفسه فعمل على تفريق جموعهم فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة وأخرجهم من القصر ثم فتك بالجند الصقالبة وأخر رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم واستقدم اليه رجالا من برابرة افريقية وزناتة وقدمهم واستعان بهم . فانكسرت

(١) ابن خلدون ٢٣٨ ج ١

شوكة العرب فى الاندلس من ذلك الحين

وما زالت الدولة هناك آخذة فى الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر و غيرهم بأسرع مما حدث فى الدولة العباسية لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بنى أمية ولان العباسيين ارسخ قدما فى الخلافة لقرابتهم من النبى. فانقسمت مملكة الاندلس فى أوائل القرن الخامس للهجرة الى امارات تولاها أصحاب الاطراف والرؤساء وفيهم العرب والبربر والموالى فتغلب كل انسان على مافى يده فصاروا دولا صغيرة متفرقة ولذلك سموا ملوك الطوائف . وهاك اشهرهم مع اسماء اماراتهم :

اسم الدولة	اسم المملكة	مدة الحكم
بنو حمود	مالقة والجزيرة	٤٠٧ – ٤٤٩هـ
« عباد	اشبيلية	٤١٤ – ٤٨٤
« زيرى	غرناطة	٤٠٣ – ٤٨٣
« جهور	قرطبة	٤٢٢ – ٤٦١
« ذو النون	طليطلة	٤٢٧ – ٤٧٨
« عامر	بلنسية	٤١٢ – ٤٧٨
« هود وتوجب	سرقوسة	٤١٠ – ٥٣٦

ولم تطل سيادة هذه الدول كما رأيت فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين وظل الانقسام متتابعا بين تلك الممالك والخصام متواليا والافرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم ويسترجعون مملكتهم امارة بعد امارة وبلدا بعد بلد حتى غلبوا على المسلمين واخرجوهم من الاندلس . وآخر مدينة افتتحها الافرنج من تلك المملكة غرناطة وكانت فى حوزة بنى نصر نسبة الى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩هـ توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكا آخرهم ابو عبد الله محمد بن على فاستخرجها الافرنج من يده سنة ٨٩٧هـ وفر ابو عبد الله وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالاندلس

الدولة الفاطمية

من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ

الشيعة فى المغرب

قد علمت حال الشيعة فى أيام بنى امية بالشام وما قاسوه من القتل والصلب ثم ماكان من حالهم فى الدولة العباسية وخصوصا فى أيام المنصور والرشيد والمتوكل من الاضطهاد والقتل فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية فهاموا على وجوههم شرقا وغربا كما تقدم . وكان فيمن جاء منهم نحو الغرب ادريس ابن عبد الله بن الحسن المثنى أخو محمد بن عبد الله الذى بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهى يومئذ فى حوزة العباسيين فاستخفى فى مكان أتاه اليه بعض الشيعة سرا ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب فى أيام الرشيد فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه فانشأ دولة فى مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ على ان هؤلاء لم يسموا انفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت النبى لان أصحابها ينتسبون اليها وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدى . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور فى المشرق على يد بنى بويه فى أواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها فى المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون فى التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها فاشار بعضهم على معز الدولة البويهى ان ينقل الخلافة الى العبيديين أو لغيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلا «ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك» فرجع معز الدولة عن عزمه (١)

(١) ابن الاثير ١٧٧ ج ٨

على ان الشيعة اعتزت فى الشرق بهذه الدولة وأحيا البويهيون كثيرا من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء تذكار مقتل الحسين (١) وحملوا الخليفة على أن يخطب لعضد الدولة فى بغداد أى أن يذكر اسمه فى الخطبة فخطب له وهو أول من خطب له فيها . فوقع التحاسد بين الاتراك والديلم هناك ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة . فحمل الاتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الاعياد عكس احتفال الشيعة (٢) تكاية بهم

الشيعة فى مصر

على أن ظهور الشيعة فى الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها وكانت قصبتها قبلا المهدية بافريقيا وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن على وللمؤرخين فى انتسابهم اليه أقوال متناقضة فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب فى اعتقادنا صحة انتسابهم اليه وان السبب فى وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيرا لشأنهم (٣)

والمصريون كانوا يحبون عليا من صدر الاسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن قلما كان لهم شأن فى الشيعة العلوية لان العلويين استنصروا أولا أهل العراق وفارس كما تقدم . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله من بنى حسن وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية كان فى جملتهم على بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بأمر دعوته (٤) بعض رجال الشيعة لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب أحوال الخلفاء فى بغداد فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل ابى طالب الى العراق فأخرجهم سنة ٢٣٦هـ ولما قدموا العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقى فى مصر على رأى العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون فى اظهاره الكره للشيعة تزلفا من الخليفة — يحكى أن رجلا من الجند اقتراف ذنبا أوجب جلده فأمر

(١) ابن الاثير ٢١٦ ج ٨
(٢) ابن الاثير ٦٥ ج ٩
(٣) المقريزى ٣٤٩ ج ١
(٤) المقريزى ٣٣٨ ج ٢

يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده فاقسم الرجل عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد المتوكل ذلك الخبر فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندى المذكور مائة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار فقبض عليه وأرسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧هـ كتب الى عامله بمصر ان لا يضمن علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطراف مصر وأن يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد. واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمه فيه بغير ان يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذابا شديدا بسبب ذلك

ولما استقل احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤هـ اضطهد الشيعة لانه تركى ولانه على رأى الخليفة العباسى فاقتص آثار العلويين وحاربهم مرارا . حتى اذا ضعف امر بنى طولون بمصر واختلت احوال الدولة العباسية فى بغداد وتغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع للهجرة اخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى . فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨هـ بقيادة جوهر الصقلى كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر على اهون سبيل وخطب فيها للعلويين واقام شعارهم وازال شعار العباسيين وبنى مدينة القاهرة وانتقل اليها مولاه المعز لدين الله وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء وجملة خلفائهم منذ انشأوا دولتهم فى افريقيا الى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ وانتقلت مصر منهم الى الاكراد الايوبيين

سياسة الدولة الفاطمية

ان الفاطميين من جملة الدول الاسلامية التى قلدت الدول العباسية فى نظام حكومتها وسائر شؤونها الا مايتعلق منها بالدين فانهم أبدوا كل مايوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير

العزيز بالله الفاطمى كتابا يتضمن الفقه على ماسمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نحو نصف حجم صحيح البخارى وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها فى نشر هذا الفقه بين المسلمين حتى كان الوزير المشار اليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاء والادباء . وجعله مرجع القضاء فى الفتوى وأفتى الناس به ودرسوه فى الجامع العتيق (جامع عمرو) وعمل الخلفاء على ترغيب الناس فى حفظه بالبذل والعطاء فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلا من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه ارزاقا تكفيهم فضلا عما كان يصلهم من مال العزيز بالله فى الصلات السنوية وامرهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر وكان يخلع عليهم فى عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيبا لهم فى نشر فقه الشيعة وتعاليمهم واجلسوا اناسا فى قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس لان بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين كما قدمنا . وتعقبوا من يطالع غير ذلك الكتاب وشددوا فى عقابه فاتفق انهم عثروا على رجل وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك فضربوه وطافوا به فى المدينة . وكان يعقوب الوزير المذكور يهوديا وأسلم وخدم الدولة الفاطمية خدما جزيلة فى تأييد دعوتهم كما رأيت فلا عجب اذا عاده العزيز فى مرضه وقال له « وددت لو انك تباع فأبتاعك بملكى » (١)

وتمشى سائر الخلفاء الفاطميين على هذه الخطة فى نشر مذهب الشيعة فأنشأ العزيز والحاكم دور الكتب للمطالعة والنسخ (٢) لنشر كتبهم ولما تولى الخليفة الظاهر سنة ٤١١ هـ اخرج من كان فى مصر من الفقهاء المالكية وغيرهم . وشددوا الاوامر على الناس ان يحفظوا كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير وجعلوا لمن حفظ ذلك مالا (٣) ومن مقتضيات فقه الدولة الفاطمية فى المواريث توريث ذوى الارحام فالبنت عندهم اذا انفردت استحقت المال بأجمعه (٤) تأييدا لحقهم فى وراثة الخلافة لانهم ينتسبون الى فاطمة بنت النبى وهى منفردة بالارث

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٩
(٢) الجزء الثالث من هذا الكتاب ٢٠٠
(٣) المقريزى ٣٥٥ ج ١
(٤) المقريزى ١١١ ج ١

ادوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية فى ثلاث أدوار تشبه الادوار التى مرت بها الدولة العباسية فقد رأيت أن نفوذ الكلمة فى الدولة العباسية كان فى أوائلها مشتركا بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ فى أولها مشتركا بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم أشداء مساكنهم فى شمالى أفريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية فى المغرب كما نصرها الفرس فى المشرق وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل ، وقد قاسى المسلمون فى اخضاعهم عذابا شديدا لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتى عشرة مرة وثبوا فيها كلها على المسلمين ولم يثبت اسلامهم الا فى أيام موسى بن نصير فى أواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بنى أمية لتعصبهم على غير العرب كان البربر فى جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين نكاية فيهم — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللبربر فضل كبير فى نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك فى نشره باواسط آسيا الى الهند والصين . لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ماوراء بلادهم فى افريقية الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما كانت الدولة الفاطمية فى المغرب كان البربر من انصارها . لاسيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا بساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدى اول خلفائهم فى اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك فى خلافة ابنه القائم بأمر الله (سنة ٣٢٢ هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٤ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم فى تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفى ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفى العزيز

بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشترطوا ان يتولى امورهم بن عمار الكتامى (من البربر) فولاه الوساطة وهى كالوزارة عندهم . فاستبد فى امورالدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبيرمنهم اسمه برجوان وكان صقليا وقد تاقت نفسه الى الولاية فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم فى القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيرا من رجال دولة ابيه وجده فتضعضع البربر وقوى الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر ومازال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧هـ بعد الظاهر وكانت أمه امة سوداء استكثرت فى جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود وكان هو يستكثر من الاتراك فأصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فأتاه امير الجيوش بدر الجمالى من سوريا وهو ارمنى الاصل فقتل اهل الدولة وأقام بمصر جندا من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن فى الدولة بعد ان كانوا وجوهها وأكابر أهلها (١)

وكان السلاجقة فى اثناء ذلك قد غلبوا على العراق وفارس وذهبت دولة آل بويه وضعف امر الشيعة هناك وولى السلاجقة مماليكهم وقوادهم (الاتابكة) على الولايات واستقل كل منهم بولايته كما تقدم ومنهم نور الدين زنكى فى الشام . وكان فى جملة قواد نور الدين جماعة من شجعان الاكراد منهم نجم الدين ايوب وأخوه أسد الدين شركويه وقد بلغا عنده منزلة رفيعة وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥ هـ الى العاضد بن يوسف وكان ضعيف الرأى وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملا

(١) المقريزى ١٢ ج ٢

وكان فى جملة المنافسين وزير اسمه شاور قد غلب على امره فذهب الى نور الدين زنكى واستنجده على رجل آخر كان ينافسه فى الوزارة فاغتنم نورالدين تلك الفرصة للقبض على مصر وانجده بأسدالدين شركويه فى جند من المماليك فرد الوزارة الى شاور وصار هذا يدفع ثلث خراج مصر الى نور الدين

وكانت الحروب الصليبية فى تلك الاثناء قد احتدمت فزاد تداخل نورالدين فى شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ، ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين ، وهو صلاح الدين الايوبى الشهير . ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤ هـ فخلفه صلاح الدين فى منصب النيابة

وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى فلما قبض على ازمة النيابة وهى كالوزارة ورأى ضعف الخليفة اراد مصر لنفسه وليس لاميره نورالدين . فلمامات العاضد خطب صلاح الدين بالقاهرة للخليفة العباسى ونقل حكومة مصر من الشيعة الى السنة وقبض على ازمة الاحكام . واستفحل امر الصليبيين فى تلك الايام فأتى أعمالا لا يزال التاريخ يردد صداها الى اليوم أهمها استرجاع بيت المقدس ومد سلطته على الشام وغيرها . وأنشأ الدولة الايوبية وهى كردية الجنس سنية المذهب فعادت مصر الى ظل الدولة العباسية من حيث البيعة فقط

وعمد صلاح الدين ومن خلفه من أهله الى الاستكثار من المماليك الاتراك والجراكسة للجندية على جارى العادة فى تلك الاعصر حتى اذا كثروا استبدوا فى شؤون الحكومة وطمعوا بالسلطة . فلما ضعف أمر الدولة الايوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين عرفتا بدولتى السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية حكمت الاولى من سنة ٦٤٨ - ٧٩٢ هـ والثانية من سنة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ وكانتا تبايعان للخليفة العباسى وهو مقيم فى بغداد . فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسى (المستعصم) فر من بقى من بنى العباس ، والتجأوا الى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس وظلوا فيها والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثمانى وفتحها سنة ٩٢٣ هـ والخليفة العباسى عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم فبايع للسلطان سليم وسلم اليه الآثار النبوية فانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين من ذلك الحين

العصر المغولى او التترى

انحلال المملكة الاسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣ هـ - وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٧هـ

قد رأيت فيما تقدم ان الدولة العباسية لما فسدت احكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ضعفت علاقة اطراف مملكتها بدار الخلافة فتفرعت الى فروع بعضها فارسى وبعضها تركى او كردى والبعض الآخر عربى وكلها تبايع للخليفة العباسى فى بغداد حتى نشأت الدولة الفاطمية فى المغرب وخلافتها علوية ففتحت مصر ونازعت الدولة العباسية على الشام وغيرها ثم أصابها ماأصاب تلك فمالت الى الشيخوخة مثلها ولكنها انقرضت قبلها على يد صلاح الدين الايوبى وعادت مصر الى مبايعة العباسيين

على أن الخلافة العباسية كانت يومئذ قد بلغت منتهى الضعف واستبد السلاجقة بمملكتها فى الشام والعراق وفارس وماوراء النهر حينا ثم اقتسمها مماليكهم الاتابكة كما تقدم

فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الاسلامية قد تولاها الضعف والانقسام ولا سيما فى المشرق بمن تنازع على سلطتها من الاتراك قواد السلاجقة ومماليكهم واهمهم الخوارزمية فى خراسان وتركستان والخلافة العباسية قد تناهت فى الضعف وبلغت الهرم حتى أشرفت على الانحلال وانما استبقاها اصحاب الاطراف ليستعينوا بها على تأييد سلطانهم بالبيعة. وأصبحت مملكتهم الواسعة تتنازعها ثلاث امم كانهم اقتسموها فيما بينهم وهم الاتراك السلاجقة وقوادهم فى المشرق والاكراد الايوبية فى مصر والشام والبربر فى المغرب والاندلس (الموحدون) وقد ذهبت دولة العرب ذهابا تاما الا امارات صغيرة بقيت فى اليمن ونحوها . وهذه الدول على اختلاف اجناسها واطوارها مجمعة على مبايعة الخليفة العباسى فى بغداد على ضعفه وانحلال دولته ولكنها تختصم على الاستئثار بالسلطة فى العالم الاسلامى

فلما رأى أعداء الدولة الاسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا الى

الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها . فهاجمها الكرج والارمن واللان من الشمال هجوم الغزاة للسلب والنهب حتى كثيرا ماكانوا يدخلونها بعشرات الالوف فيكتسحون اذربيجان وماجاورها يقتلون وينهبون ويعودون بالاسرى والسبايا والغنائم وكانت سبايا المسلمين تزيد أحياناعلى عدة آلاف غير القتلى (١) - كما كان العرب يفعلون بهم فى أوائل دولتهم . على انهم لم يستطيعوا فتحا ولا رسخت لهم قدم فى مملكة الاسلام

وهجم عليها من الغرب امم الافرنج الصليبيين هجوم الفتح وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الاسلامية بحجة الدين لان القبر المقدس فيها ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حينا ولو اجتمعت كلمتهم لافتتحوا ماوراء ذلك ولكنهم انقسموا على أنفسهم وجاءهم صلاح الدين الايوبى ببسالته ودهائه وتدبيره فغلبهم على ما فى أيديهم وأخرجهم من بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

اما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقبائلهم وبطونهم وهم فى خشونة البداوة وقوة الابدان وقد توفقوا الى رجل شديد البطش وهو جنكيزخان القائد الشهير فحمل بهم من اواسط آسيا على العالم المتمدن فى اوائل القرن السابع للهجرة وليس للمسلمين يومئذ رجل مثل صلاح الدين فدوخ جنكيزخان مملكة الاسلام من اقصى اطرافها الشرقية الى حدود العراق غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠ر٠٠٠ ميل مربع

المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالى بحيرة بيقال فى جنوبى سيبيريا وتاريخهم القديم سقيم لانهم لم يظهروا بظهور جنكيزخان فى اوائل القرن السابع للهجرة وكانوا قبله مثل سائر القبائل الرحل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص فى تلك البلاد البعيدة عن التمدن وقد كفوا الناس خيرهم وشرهم ولاشأن لهم بين الامم حتى فى أيام جنكيزخان لانهم كانوا لايزيدون على ٤٠ر٠٠٠ خيمة فاذا حسبنا فى الخيمة عشر أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠ر٠٠٠ نفس فحمل جنكيزخان بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة

(١) ابن الاثير ١٢٨ ج ١١

واكتسحوها فى بضعة عشر عاما كما خرج بدو العرب من جزيرة العرب فى اول الاسلام وافتتحوا مملكتى الروم وفارس بنحو تلك المدة . وفى الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة لان المسلمين كانوا فى أيام جنكيزخان قد تحضروا وانغمسوا فى الترف وانقسموا على أنفسهم كما كان الروم والفرس عند ظهور الاسلام — والتاريخ يعيد نفسه

(جنكيزخان) كان والد جنكيزخان اميرا على ١٣ قبيلة من المغول تحت رعاية الخان الاكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما . ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨هـ فسموه تموجين وهو اسمه الذى كان يعرف به فى نشأته الاولى . وبعد اربع عشرة سنة توفى ابوه فاستخف رؤساء القبائل بتموجين وتمردوا عليه وأصبح كل منهم يطالب بالسيادة لنفسه . وكان تموجين شديد البطش من حداثته فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلب عليهم . وهذه أول وقائعه فهابه الناس . على انه لم يستغن عن استنجاد الخان الاعظم فانجده واكرمه وثبته فى امارة ابيه وأزوجه ابنته

وكان تموجين قد شب على ظهور الخيل وتعلم رمى النشاب وضرب السيف واتقن الفروسية بسائر فروعها . وكان قوى البدن شجاعا صبورا على التعب والجوع والعطش والبرد والالم وعود رجاله على ذلك فاجتمعت كلمتهم على نصرته وانقادوا لامره

ولما علت منزلة تموجين عند الخان هاجت عوامل الحسد فى اعضاء اسرته وغيرهم من رجال الدولة وكان تموجين قد اغرى الخان بأولئك الامراء فضيق الخان عليهم فاوغرت صدورهم فثاروا عليه وشقوا عصا الطاعة وحاربوه وغلبوه فاستنجد تموجين فانجده وأعاده الى كرسيه ومثل باعدائه حتى القى سبعين رجلا منهم فى الماء الغالى وهم أحياء

فلما ظفر تموجين وأظهر القسوة والشدة خافه حموه وحسده فادرك تموجين ذلك فسعى فى اصلاح ما بينهما بالحسنى فلم ينجح فعزم على محاربته فتحاربا فانتصر تموجين فخافه الامراء وحسدوه وحاربوه وكان الفوز له . فتولى عرش المغول

وحارب تموجين بعد ذلك حروبا فاز فيها فازداد امراؤه تعلقا به فاحتفلوا بتهنئته احتفالا اعظم من ذاك فى سهل على ضفاف سلنكا فاجتمع الامراء والخانات فوقف فيهم وكان قوى العارضة فابدع . ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له

هناك وأصبحت تلك اللبادة أثرا مقدسا عندهم من ذلك الحين . ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال «مهما بلغ من قوتك فانها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فاذا فرطت فى سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ونبذك رجالك نبذ النواة » وفى هذا القول من حرية البداوة والجرأة مثل مايروونه عن جرأة العرب على خلفائهم وأمرائهم فى صدر الاسلام . ثم تقدم سبعة أمراء انهضوه باحترام وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ونادوا باسمه ملكا على المغول . وكان فى جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة فتقدم وليس عليه كساء وقال « يا اخوتى قد رأيت فى منامى كأن رب السماء على عرشه النارى تحدق به الارواح وقد أخذ بمحاكمة أهل الارض فحكم بأن يكون العالم كله لمولانا تموجين وأن يسمى جنكيزخان أى الملك العام » ثم التفت الى تموجين وقال « لبيك ايها الملك فانك تدعى منذ الآن جنكيزخان بامر الاله » ولم يعد يعرف بعد ذلك الا بهذا الاسم

فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده عمد الى فتح العالم فسار أولا نحو الشرق الى مملكة الصين وكان لامبراطور الصين جزية على المغول يؤدونها كل سنة فلما استفحل امر جنكيزخان أبى الدفع ومعنى ذلك الاباء شهر الحرب . فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم وأمعن فيها قتلا ونهبا والصينيون يومئذ أسبق الامم فى الاختراعات الحربية فاستخدموا النار اليونانية التى استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل ان يعرفه اهل الغرب بأزمان . على ان ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل فما زال جنكيزخان زاحفا حتى احتل باكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية . فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة فتحول بجنده الجرار نحو الغرب أى غربى بلاده وهى مملكة الاسلام

وكانت المملكة الاسلامية بما وصفناه من الضعف والاختلال وقد انقسمت الى عدة ممالك كردية وتركية وفارسية وأقربها من بلاد المغول المملكة الخوارزمية من السلاجقة الاتراك وسلطانها يومئذ علاء الدين خوارزمشاه وكانت سلطة علاء الدين قد امتدت فى أواخر ايامها على معظم العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وفارس وماوراء النهر وقسم من أفغنستان وبعض الهند . وكانت قصبة تلك الدولة مدينة خوارزم ومنها سمى

سلطانها «خوارزم شاه» فحمل جنكيزخان نحو الغرب وجنده يزيد على ٧٠٠ر٠٠٠ مقاتل واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلا ونهبا مما تقشعر له الابدان

ومما حمله على ارتكاب تلك الفظائع انه لما وصل بجنده الى تركستان سير جماعة من التجار الاتراك ومعهم الذهب الى سمرقند وبخارى من بلاد ماوراء النهر (تركستان) ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك اسمها اترار وهى آخر مملكة خوارزمشاه مما يلى بلاد جنكيزخان . وكان لخوارزمشاه هناك نائب فلما جاءته هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر ما معهم من الاموال فبعث خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم وانفاذه اليه . فقتلهم وسير مامعهم وكان شيئا كثيرا ففرقه خوارزمشاه فى تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم . وعذره فى هذه المعاملة أن المغول كانوا قد غزوا كاشغار وبلاساغون وغيرهما من تركستان وصاروا يحاربون عساكره فلذلك منع الميرة عنهم

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكيزخان حمى غضبه وجمع من الرجال فوق ما كان عنده وحمل على مملكة الاسلام وكتب الى علاء الدين خوارزمشاه يقول « تقتلون اصحابى وتأخذون اموالهم تهيأوا للحرب فانى قادم اليكم بجمع لاقبل لكم به » فلما قرأ خوارزمشاه الرسالة قتل الرسول وأمر بحلق لحى الجماعة وأعادهم الى جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له «ان خوارزمشاه يقول لك «أنا سائر اليك ولو أنك فى آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك» فاستخف خوارزمشاه بالمغول كما استخف هرقل بالعرب اذ جاءته كتبهم فى أول الاسلام

وقد فعل جنكيزخان كما قال تماما فزحف بجيشه على المملكة الاسلامية فدوخوها من بلاد تركستان فما وراءها غربا وهم ينتقلون من مدينة الى أخرى يفتكون وينهبون ويحرقون ويهدمون لا يخلفون وراءهم الا الاطلال البالية بما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسان . وهنا يفترق بدو المغول عن بدو العرب فان هؤلاء أبقوا على البلاد التى فتحوها وأمنوا أهلها وجعلوهم فى ذمتهم واقتبسوا تمدنهم وبنوا عليه تمدنا من عند أنفسهم . وأما المغول فلم يكن همهم غير القتل والنهب

كالوحوش الكاسرة وليس هنا محل الافاضة فى سيرة هذا الرجل (١) وانما يقال بالاجمال انه تمكن فى حياته من انشاء مملكة لم يتوفق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده لا الاسكندر المقدونى ولا يوليوس قيصر الرومانى ولا نادرشاه الفارسى ولا نابليون بونابرت الفرنساوى ـ أنشأ مملكته تمتد من البحر المحيط الى البحر الاسود ودخل فى سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والافغان والهنود والفرس والاتراك وغيرهم

أنشأ جنكيزخان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة وكذلك معظم رجاله فاستعان فى وضع الشرائع والنظام بمن دخل فى سلطانه من المسلمين ورعاياهم كما استعان العرب فى انشاء دولتهم اول الاسلام بالفرس والروم وغيرهم. توفى جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ وهو فى السادسة والسبعين من عمره وقد تولى الملك ٢٢ سنة

وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته على عادة المغول فى هذه الحالة باعتبار ان البلاد ملكه فيورثها لاعقابه فيقتسمونها كما يقتسمون سائر أمواله فانقسمت مملكة المغول بعده الى أربعة فروع تفرقت فى أولاده الاربعة ثم تفرع كل منها الى غير فرع مما يطول شرحه فنكتفى بذكر ما يهمنا منها :

ان أولاد جنكيزخان الذين أفضت الحكومة اليهم أربعة: اقطاى وطلوى وجوجى وجقطاى فانقسمت المملكة فيما بينهم على مايأتى ويعرف ملوكها بالخاقانات وهم :

١	دولة اقطاى	فى زنقاريا وغيرها	من سنة ٦٠٣ ـ ١٠٤٣ هـ
٢	» طلوى	فى بلاد المغول	» ٦٥٤ ـ ٧٥٠
٣	» جوجى	فى قبجاق وغيرها	» ٦٢١ ـ ٩٠٧
٤	» جقطاى	فى ما وراء النهر	» ٦٢٤ ـ ٧٦٠

فالدولة الاولى (اقطاى) كانت لها السيادة العظمى وأول ملوكها جنكيزخان نفسه ولا يهمنا تاريخها فى هذا المقام . أما الدولة الثانية فيهمنا من فروعها فرع له شأن فى تاريخ الاسلام نعنى به فرع «هولاكو» وهو ابن طلوى بن جنكيزخان تولى بعض المقاطعات فى مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤ هـ وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان او مغول الفرس وكان فى بلاد فارس بقايا مملكة

(١) راجع الهلال السادس من السنة الثالثة عشرة

خوارزمشاه فضمها اليه وأقدم على ما لم يقدم عليه احد من أسلافه ـ وذلك انه لما استقر له الملك فى فارس حمل على بغداد

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب فى ذلك ان المنافسات بين السنة والشيعة ببغداد تكررت فى أواخر الدولة فلا تمضى سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة فى اصلاحه وبما ان الحكومة سنية فالضغط كان يقع غالبا على الشيعة وكانوا يقيمون معا فى الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهداليهم بتدبير شؤونها . وكان الخليفة فى أيام هولاكو المستعصم بالله تولى الخلافة سنة ٦٤٠ هـ وكان ضعيف الرأى ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمى ذو دهاء ومكر . فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جارى العادة وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى ولم يعد يستطيع صبرا فكتب الى هولاكو سرا وأطمعه فى ملك بغداد وأرسل اليه أخاه ليحرضه على القدوم فزحف هولاكو على بغداد بجيش عظيم . فلما علم الخليفة المستعصم بقدومهم بعث الدوادار فى من بقى ببغداد من الجند وهم لا يزيدون على ٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، فالتقى الجيشان على مرحلتين من بغداد فانهزم عسكر الخليفة وتشتت

أما هولاكو فأقبل حتى نزل الجانب الشرقى من بغداد وأرسل قائدا من قواده نزل الجانب الغربى قبالة دار الخلافة والمستعصم لا يعلم بما دبره ابن العلقمى فأنفذه لمخابرة هولاكو بشأن الصلح فكمل مكيدته وعاد وقال للخليفة «ان هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر» وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه فى جمع من أكابر أصحابه فأنزلهم فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد فلما اجتمعوا أمر هولاكو بقتلهم فقتلوا ثم بذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف الا الاطفال فأخذوهم فى جملة الاسرى والسبى ودام القتل والنهب فى دار السلام أربعين يوما ثم نودى بالامان ودخلت

بغداد فى سلطة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ وذهبت الخلافة العباسية من العراق على يد الشيعة العلوية كما كان يخاف ذهابها المنصور والمهدى والرشيد وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفا من ذلك . على ان الخلافة العباسية لم تنقرض تماما بل انتقل من بقى من العباسيين حيا بعد مذبحة هولاكو الى مصر وأقاموا فى ظل السلاطين المماليك كما تقدم

أما هولاكو فلما ملك عاصمة الاسلام فى ذلك العهد طمع بفتح ما وراءها فحمل على الشام وكانت فى حوزة السلاطين المماليك بعد الدولة الايوبية فردوه عنها فاقتنع بما دخل فى حوزته وقد امتدت مملكته من الهند الى الشام وأورثها لاولاده فانقضت دولته ولم يتم عليها القرن (٦٥٤ - ٧٥٠هـ) وانقسمت الى ولايات صغيرة ما زالت فى اضطراب وتضعضع حتى أخضعها تيمور لنك

تيمور لنك

ينسب هذا القائد العظيم الى دولة جنكيزخان. وليس هو من نسله ولكنه من عائلته وكان جده وزيرا عند جقطاى بن جنكيزخان. ولد تيمور سنة ٧٣٦هـ ولما ترعرع تولى بعض الاعمال فى دولة اقطاى بماوراء النهر ثم ترقى الى رتبة الوزارة فطمع بالملك فغلب على ملكه محمود وحمل على العالم كما حمل جنكيزخان قبله ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سفكت فيها دماء غزيرة ولم تمض سبع سنوات حتى دوخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكردستان ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلارية وكانوا قد تملكوها بعد هولاكو ثم حول أعنة خيوله شرقا نحو الهند فغزا قشمير ودلهى وتحول غربا لفتح آسيا الصغرى وكانت فى حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ بايزيد فبلغ تيمور لنك فى فتوحه الى أنقرة وحارب بايزيد وأسره سنة ٨٠٤هـ واكتسح سائر بلاد المشرق الى آخر حدود الشام وبايعه سلاطين مصر على الطاعة فتحول لمحاربة الصين فمات فى الطريق سنة ٨٠٧هـ قبل ان ينظم حكومته فذهبت فتوحه هدرا فعادت البلاد التى فتحها الى ملوكها الاولين وعادت الاحوال الى ما كانت عليه قبله . على أن الدولة التيمورية طال حكمها فى ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦هـ وبوفاة تيمور لنك ينقضى العصر المغولى وبانقضائه ينقضى الدور الاول من تاريخ الاسلام

الدور الثانى
من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشئوا دولة ثابتة فى بلاد الاسلام ولم يكن لهم شأن فى التمدن الاسلامى وانما علاقتهم بهذا التمدن انهم جاءوه والدولة الاسلامية فى آخر دورها الاول وفى منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الافرنج والكرج والارمن واللان فزادوها ضعفا وذهبوا ببقية الخلافة العباسية فى بغداد وعادوا عنها وهى تكاد تكون فى حال الاحتضار وقد تبدد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها على أن ذلك كان مقدورا للدولة العثمانية فى العصر التركى الثانى ولدولة شاهدت الفرس فى العصر الفارسى الثانى ويتألف منهما الدور الثانى من تاريخ الاسلام

فعاد التتر عن المملكة الاسلامية فى أوائل القرن التاسع للهجرة ومصر فى حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب. والشام بعضها فى أيدى أولئك المماليك وبعضها فى ايدى بعض أعقاب الايوبيين حتى يكاد يكون كل بلد مستقلا بنفسه . والعراق وبلاد الفرس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم . وماوراء النهر وأفغانستان فى سلطة المغول التيمورية . وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة . وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الاتابكة . وشمالى افريقيا كان منقسما بين المرينية والحفصية . والاندلس لم يبق منها فى سلطة المسلمين الا الدولة النصرية فى غرناطة . وجزيرة العرب تحكمها أمارات صغيرة تتحارب وتتغازى . وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة اضعف منها هى بقية الخلافة العباسية فى الديار المصرية

تلك كانت حال العالم الاسلامى من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية فجاءت فى ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقد يئس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مرارا . وحارب العثمانيون اعظم ملوك أوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فرديناند واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا فارتعدت أوربا خوفا منهم وفتحوا المشرق الى العراق ثم ساروا جنوبا غربيا حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية

الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة كما تقدم . فامتدت مملكتهم فى أيام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ – ٩٧٤هـ) من بودابست على ضفاف الطونة الى اصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق فاجتمع العالم الاسلامى الغربى تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال . وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سببا لطول بقائها اكثر مما تقدمها من الدول الاسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لان سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من انشاء دولتهم اسما بلا رسم

ونهض الصفويون من الجهة الاخرى فى بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى جمعت تلك البلاد الشيعية فى حوزتها ثم انتقلت الى الدولة القاجارية الباقية الى الآن كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية

(تم الجزء الرابع)

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

الجزء الخامس

في نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية
والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية
وابهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣١

المقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي وهو آخر اجزاء الكتاب . فنحمد الله لانا توفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق مع ما يعتوره من العقبات ويفتقر اليه من إعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ولا سيما بعد أن عمدنا الى ذكر المآخذ في هوامش الصفحات مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين اجزائه . ولكنه اعاننا من الجهة الاخرى على الايجاز في بعض الاماكن اكتفاء بالاشارة الى خلاصة الموضوع واحالة القارىء في استيفائه الى المصدر الاصلي لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على أن كثرة المواضيع وتعدد فروعها وتداخلها قد حملنا أحياناً على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الادلة وإحكام البرهان بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفادياً من ارجاع القارىء الى بعض الاجزاء السابقة ـ وان كنا لم نرتكب هذا التكرار الا عند الضرورة لان وجهتنا الاولى في كتابتنا انما هي بسط العبارة وايضاح الموضوع حتى ينجلي للقارىء كانه مجسم . على اننا كثيراً ما أحلنا المطالع الى مراجعة ماسبق ذكره في أماكنه

والجزء الذي نحن في صدده اكثر سائر الاجزاء طلاوة واقربها الى افهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم لانه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته من الابحاث الاجتماعية والمواضيع العمرانية والاحوال العائلية مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » وهو بالحقيقة بعض ظواهرها على ما تبين لك في الاجزاء السابقة

فمواضيع هذا الجزء سهلة على المطالع ولكنها شاقة على المؤلف لخلو كتب القوم من أمثالها على الاسلوب الذي تحدثناه في هذا الكتاب . ولو فتشت ما كتبه اسلافنا في التاريخ والادب والعلم وغيرها ما رأيت لاحدهم فصلا ولا جملة ولا فقرة

في نظام الاجتماع مثلا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الابهة الا ما قد يرد عرضاً في أثناء النوادر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة

وابحاث هذا الجزء تنتظم في أربعة أبواب كبرى (١) نظام الاجتماع (٢) الآداب الاجتماعية (٣) حضارة المملكة (٤) ابهة الدولة

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع بالعصر العباسي فقسمنا الناس الى طبقتين كبيرتين الخاصة والعامة وجعلنا الخاصة أربع طبقات الخليفة وأهله وأهل دولته وأرباب البيوتات . واضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح الحاقهم بها سميناهم « اتباع الخاصة » وهم الجند والاعوان والخدم . ويدخل فى طائفة الخدم العبيد والجواري والخصيان . وبينا ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم أو هممهم الى اللحاق بالخاصة . كاصحاب الفنون الجميلة وأهل الادب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصنائع العاليا . وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الاموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الامة وينقسمون الى فئتين الاولى أهل القرى وهم السواد الاعظم والثانية عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم وذكرنا تاريخ كل منها

وأما الاداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والاريحية والعفة وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي .

وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً لانه هو المراد بهذا الباب فقسمنا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية فبينا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي . وكيف تبدلت احوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجواري والسراري حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وافردنا فصلا لاسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولا في الطعام واللباس والمأوى فاجملنا تاريخ كل منها في ايام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن

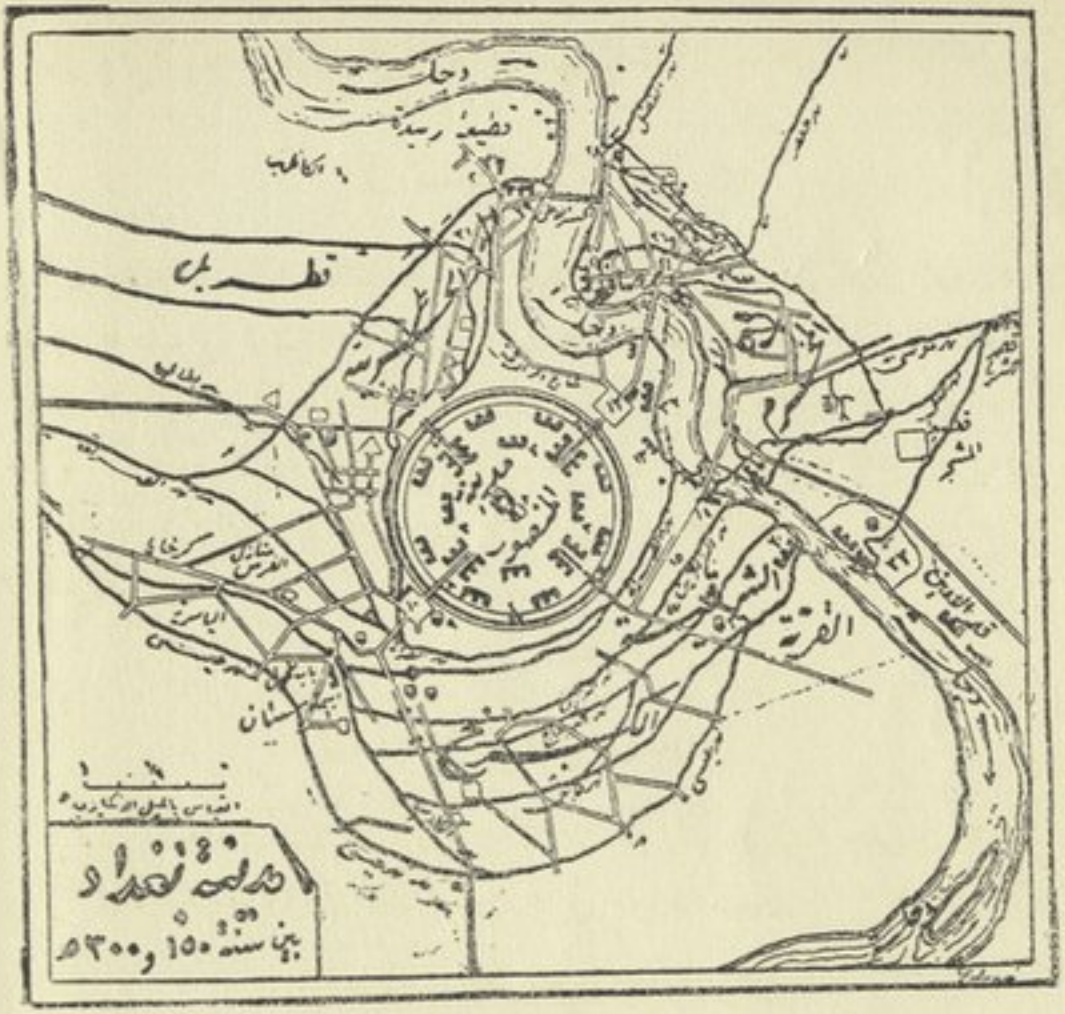
ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة فقسمناه الى قسمين أولها العمارة أو العمران وثانيهما الثروة والرخاء . والعمارة اما في المدن أو في القصور فاتينا بامثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية واشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . أما الثروة فيدور الكلام فيها على ابحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق بالطعام والتنعم باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها . ثم القصف وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين الى العباسيين وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والادبية ، والمسكر وخلاصة اقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة به فضلا عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والاسراف والفحشاء

أما ايهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم من سذاجة الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين وابهتهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلائقهم بالدول المعاصرة وملابسهم والعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك.

وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيلنا هذا الجزء بفهرسين كبيرين الاول جدول اسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه والثاني فهرس أبجدي عام لمواضيع الاجزاء الخمسة فضلا عن فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان - فان أحسنا فذلك قصدنا واقصى مرادنا وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده



١ قصر الذهب أو القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ المطبق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام
١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل
١٣ دار القرار (قصر زبيدة)
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب الشعير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ قصر جعفر البرمكي ثم صار من قصور الخلافة
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر ابن الخصيب
٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم (البطركخانة)
٢٤ قصور البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قصر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيدة
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٣٣ حدائق القصور أو البساتين

نظام الاجتماع

في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في إبان التمدن الاسلامي وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلائقها بعضها ببعض. ولزيادة الايضاح نمهد الكلام بنظام الاجتماع على عهد الروم والفرس فى البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام وكيف تدرج في الارتقاء من أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين ثم نبسط القول في نظام الاجتماع بالعصر العباسي

نظام الاجتماع قبل الاسلام

يقسم الكلام فى ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) فى افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

١ — طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين مابين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي وسكان هذه البقعة أكثر أمم الارض اختلاطا فى اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من أقدم ازمنة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لاحل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم ان أقدم من عرف من أهل تلك البلاد بطون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند مابين النهرين شمالا شرقيا الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غربا وشواطىء اليمن وحضرموت جنوبا فخليج فارس وبحر عمان شرقا وهي عبارة عن بلاد مابين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا الا قسما من شواطئها (٢) العبرانيون وهم

القبائل السامية الوسطى وموطنهم في فلسطين وشواطىء سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعا من اللغة السامية يعرف باللغة الارامية وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق والكلدان في أعالى سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني . والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية . وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها أو اخواتها الحميرية والحبشية . واقرب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لهم شأن في أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاما لامم لا يعرف أصلها وكان الساميون أقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها وأخذ أولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب ـ السريان فالكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط . وخالطتهم امم شتى غير سامية اقامت بين اظهرهم فى بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم

على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد وأوغل فيها ثم صيرها خلفاؤه يونانية وتوافد اليها اليونان وأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني مازال متغلباً عليها وأكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه فى الداخلية تدريجاً

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا

سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان الا ما أصاب لغتهم من التغيير في أثناء السبي ببابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم وأكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالانباط أو النبط كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على انقاض الادوميين في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia petra ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق م بقيادة انتيغونوس وكان الانباط عشرة آلاف مقاتل. وذكر ديودورس انهم كانوا يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل . وانما شرابهم الماء يحلونه بالمن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطىء البحر الاحمر وبلاد العرب وبالحمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر يستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الا على يدهم والا فانهم يهاجمون القوافل ويغزون النجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران ونبغ منهم في القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفاً وأربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان في القرن الاول للميلاد وامتدت شوكتهم في أثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق ومصر حتى اكتشفوا الطريق من القصير الى قفط على النيل فأخذت بطرا بالتقهقر وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب فاركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في الترف فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥ م فحاربهم وأخضعهم وأذلهم

فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم فأخلدوا الى الدعة واختلطوا بأهل البلاد الاصليين من السريان أو الآراميين وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية لغة أهل العراق وما بين النهرين فحسبوا الانباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعاً اسم « الانباط » والذي عليه المحققون ان انباط بطرا وما يليها عرب وانما تكلموا الارامية على أثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة ان النبطيين ينسبون الى نباطوط من اباء التوراة

ولما ضعف الانباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم أهل البادية أو ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة وأقام حلفاء الفرس على شاطىء الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن أصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احداهما على الاخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وربيعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الاصليين وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب وبقايا الانباط في الغرب يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وربيعة بين النهرين ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام(١) والجرامقة في الموصل(٢) واخلاط من مولدي اليونان والرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى

(١) البلاذري (٢) مختصر الدول ١٣١

تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع في الشام والعراق

أما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المألوف بيننا لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن أهلها لغة أو ديناً أو جنساً . فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها وهم العامة ملكاً لهم يتصرفون بهم كيف شاءوا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار فينتقل العقار من مالك الى آخر وفلاحوه معه يسمونهم سرف (Serfs) أي الاقنان (جمع قن) الا الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الادب أو التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين طبقة الخاصة وهم الملك واهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم . والعامة أهل البلاد الاصليون وأكثرهم الفلاحون أو الاكرة

فخاصة أهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع أهلها الا أهل السطوة والهيبة فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليما على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل (١) وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناهما منها في كلامنا عن الاهالي لانهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت

٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر أقل اختلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد توالت الهجرة اليها من أقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام لهم الامر فيها هاجر اليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح . فيأتون على أن تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال

(١) راجع تفصيل ذلك في صفحة ١٠٦ من الجزء الاول

ولكن أكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من أيديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن كان يأتي مصر للاتجار أو الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية أو غيرها من العواصم وأكثرهم من الجند أو التجار أو رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يمتاز عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين (١) الرومان أو الروم وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الاقباط الاصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أوالخدمة أو غيرها من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون والاقباط على مذهب يعقوب البراذعي وهم يعاقبة

٣ — طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمالي افريقيا حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون بنوا فيها مدينة قرطاجة أو قرطجنة وانشأوا دولة هي شرقية باعتبار أصلها وان كانت غربية في موقعها لان أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا رومية وكادوا يذهبون بدولتها ولو فعلوا ذلك

لتغير وجه الارض عما نعرفه ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنوهم وأخربوا مدينتهم وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والفندال والفرس وغيرهم

أما أهل البلاد الاصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين أقواماً من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو. ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين احداهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة، والاخرى تسكن الجبال والبادية فسموا الاولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون الى جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح افريقية بعد الرومان . وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية وأهلها طبقتان الاولى أهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الامم الفاتحة الروم والفندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا . والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم الى أواخر القرن الاول للهجرة وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ماهو مدون في كتبهم ولهم شأن كبير في تاريخ الاسلام

٤ — طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وارمينيا وغيرها وهي تحوي شعوباً شتى من أمم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها . ولكنها تمتاز في كل حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين . أما الجنس فسكان بلاد فارس اكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم . أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات اوربا وهي غير اللغات السامية . وأما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام الزردشتية أو المجوسية ومذهب أهل العراق والشام النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم فاقتسمها أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف حتى قام اردشير بن ساسان سنة

٢٢٤م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام وهي الدولة الساسانية

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الاصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام «الطاجية» ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً[١] ولكنهم يريدون بها طبقة العامة والطاجية ضخام الاجسام أقوياء الابدان

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والاشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهارجة « شهربجان » أو السهارجة[٢] وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين واحدهم دهقان وينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة وهم أصحاب الارضين وفي ايديهم اكثر البقاع يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كامراء بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة

وكانت مملكة فارس عند ظهور الاسلام في حوزة الدولة الساسانية تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم ولا سيما في الامارات البعيدة وكان بعضها مستقلا استقلالا تاماً ويتخذ كل أمير لقباً خاصاً به مثل « رتبيل » لقب أمير سجستان و « زنجان » لامير سمندجان و « جيغويه » لصاحب طخارستان و « اصبهبذ » لصاحب بلخ و « باذان » لمرو الروذ و «شهرك» للطالقان و « أخشيد » لصاحب فرغانة وقس عليه . على أن بعض الولايات كمرو وسرخس وطوس كان يتولاها المرازبة

واكبر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ويسميهم المسيحيون المجوس واسمهم عند الفرس الموبذان وأحدهم «موبذ» وهم كالاساقفة عند النصارى رئيسهم يسمونه « موبذ موبذان » مثل رئيس الاساقفة وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك[٣] ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون في بلد أو يتنقلون في

(١) الهلال صفحة ٩٩ سنة ١٣ (٢) المسعودي ١٢٣ ج ١
(٣) Le Christianisme dans l'Empire Perse 6

البلاد كالاساورة والسيابجة والزط والاحامرة ونحوهم [١]

٥ — طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الاراميين والعبرانيين ولكنهم لم يصبهم ماأصاب إخوانهم في العراق والشام من الاختلاط لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بها الاشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الاحباش وحلوا محلهم واختلطوا باهل اليمن وعرفوا بالابناء الاحرار

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام أو مصر أو العراق فراراً من ظلم أو ضغط أو امتناعا على الحكومة لسبب من الاسباب واكثر الامم نزوحاً اليها اليهود لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى أن اضطهدهم الروم على عهد طيطس وغيره ـ وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بانسابهم وعاداتهم وآدابهم . ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن الى قحطانية أو يمنية وعدنانية أو حجازية. وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب

نظام الاجتماع فى عصر الراشدين

بينا في الجزء الرابع المذكور ما أحدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبيات الجديدة ومنهم طبقات الاشراف من العلويين أو العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات [٢] وما يلحق بذلك من

(١) البلاذري ٣٨١ (٢) الجزء الاول ١٢٥

طبقات التابعين وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح الاسلامية . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام

أما البلاد المفتوحة فلما جاء المسلمون لفتحها فأول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم وأهل عصبيتهم ولما أوغلوا في الشام والعراق استأنس أهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي أو السرياني مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم ـ فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح . أما طبقات الناس الاصلية فقلما أصابها تغيير في عصر الراشدين لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الادارية أو الدينية أو السياسية وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم أو معاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري ـ الا من دخل في حوزتهم من الارقاء بالاسر أو السبي ومن أعتقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب وهم المسلمون من غير العرب ولهم شروط واحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع

نظام الاجتماع في عصر الامويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي فنقلها الامويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ماوراء النهر في اقصى الشرق وركبوا بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى نهر تورس . ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج حتى هددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال الموقت الى السيادة الدائمة . وجعلوا الاسلام دولة بعد أن كان ديناً وأيدوه بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين. وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلا من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية الى العربية ـ فآل ذلك كله الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية

على أن شدة تعصبهم للعرب دعا الى انقسام المسلمين الى طبقتين العرب والموالي فضلا عما فرقوا فيه بين العرب انفسهم باعتبار النسب القحطاني والعدناني . وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وتنشيط آدابها

فطبقات الناس في العصر الاموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين فكان الناس طبقتين كبيرتين المسلمين وغير المسلمين والمسلمون طبقتان العرب وغير العرب وهم الموالي . وغير المسلمين هم أهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم كما كانوا قبل الاسلام ـ الا من دخل في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين وهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . غير ما حدث في أثناء الفتوح الاموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر كانتقال السيابجة والزط الى سواحل الشام في أيام معاوية . ونقل الحجاج جماعة من زط السند الى العراق واسكنهم باسافل كسكر . وسبى عبيد الله بن زياد خلقاً من أهل بخارا فاسكنهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فاقاموا فيها وتناسلوا[1] فضلا عمن كانوا يصطحبونهم أحياناً في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجرامقة والجراجمة[2] فهؤلاء اذا فتحوا بلداً أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في أيام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر الاسلامي. ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي الا في العصر العباسي لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة. ومع ايغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر وافريقيا والاندلس قلما اختلطوا بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم حتى الخليفة المقيم في دمشق ـ الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانه . أما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي وأهل الذمة على الامويين جعلوا مقامهم بين اشياعهم الفرس فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان أو بين الآريين والساميين أو بين المجوس والنصارى وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

(١) البلاذري ٣٨٤ (٢) البيان ١١٤ ج١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي اذ نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن وكان على أتم اشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر

كان الناس في العصر العباسي طبقتين الخاصة والعامة تحت كل منهما طبقات واتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية [١] فاحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة ويتزلفوا بالمدح والاطراء . وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب في مخاطبتهم وغير ذلك في باب ابهة الدولة من هذا الجزء

وأهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الاشراف وابناء الملوك [٢] فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط الا هو فانه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال فضلا عن النعم والهدايا على مايتراءى للخليفة في أمرهم فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أغل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء ـ تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عوناً كبيراً في تأييدها يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة. فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع أهلهم فاخذوا يبذلون لهم الاموال فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به ـ باشر ذلك ابو جعفر المنصور وتمشى الخلفاء على خطته فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة يسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض

فكان الهاشميون في الغالب من أهل السعة والرخاء يتمتعون بشرف الملك ولا

(١) راجع الجزء الرابع صفحة ١٧٩ (٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره

يحملون أوزاره وأعباء تبعته فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا بالشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنيين والقيان وقربوا الشعراء والادباء. واكثر مقامهم في البصرة بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملا أو جنداً. واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد ابن سليمان فقد بلغت امواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور وكانت غلته ١٠٠٠٠٠٠ درهم في اليوم [1] وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمى ما لا يسعه الديوان [2] ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم فى إبان الدولة العباسية من الموالي وخصوصا الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم. وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن . ولكن الوزارة كانت على الاجمال من أوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب

أما أهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي أو بقريش وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على أن هذه الانساب كانت اكثر نفعا لاصحابها في عهد بني أمية منها في أيام بني العباس ولا سيما بعد سقوط العنصر العربي بقتل الامين . فلما افضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الاشراف في جملة ماقطعه من اعطيات سائر العرب ولعلها أعيدت بعد ذلك على غير قياس

أتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم اربع طبقات (١) الجند (٢) الاعوان (٣) الموالي (٤) الخدم

فالجند فرق كثيرة تختلف أصلا ونظاماً على مافصلناه في الجزء الاول من هذا الكتاب وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المألوف عندنا أن الجند رجال الخليفة

(١) المسعودي ١٨٨ ج ٢ (٢) الانليدى ١٥١

يأتمرون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن لان بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالا ينفقون عليهم من أموالهم وقد يبتاعونهم غلمانا ويربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم . وقد يذهب الوزير أو العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفا باسمه . فاجتمع في بغداد من الاجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها كالساجية والنازوكية والبيلغية والهارونية وفيهم الاتراك والفرس والبربرة والاحباش والاكراد . ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والاخشيدية والكافورية في مصر مما لايحصى ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة أو نحوها كالشاكرية ، أو لمجرد حماية القصور أو غير ذلك

أما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ولايراد بهم ما يراد بالرفاق أو الاصدقاء اليوم فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الامير وهم غير الندماء أو الشعراء وانما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الامير أو الشريف بمجالسته فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه ويكون لهم الدالة عليه وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرابته

وأما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب وبينا احوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الارقاء السود والبيض من الذكور والاناث وقد اصطلحوا ان يسموا الارقاء البيض مماليك والسود عبيداً ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة اقسام الارقاء والخصيان والجواري :

١ — الارقاء

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الاسلام ومصادره وأحكامه (صفحة ٤٤ وما بعدها) وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء (صفحة ١٦١) فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من أهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد وبعضهم ارقاء فعلا ولا سيما الاقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحولوا من الرق الى الحرية أو الى العهد فمن أسلم صار حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن ظل على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس غير العامة أهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في اسر المسلمين صار ملكا لهم ـ فكان الاسلام حرر العبيد واستعبد الاحرار ـ الا ما زعمه بعض أمراء بني أمية من استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي

كثرة الاسرى أو الارقاء

وتكاثر الاسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات ـ اعتبر ماكان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في افريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس ولم يسمع بسبي أعظم من هذا [١] وذكروا ان موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم [٢] وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس [٣] وفي وقعة بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبا المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأس غير الدواب [٤] . وفي جملة غنائم الحرب فضلا عن الاسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة . وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ـ ذكروا ان غنائم المسلمين في واقعة الارك بالاندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم [٥] والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ (٤) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩ (٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان (١) وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمها على القواد بعد ارسال الخمس الى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطىء القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (فى جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للاسرى الذكور فينظرون فيهم فاذا استرابوا في أحد قتلوه ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل . ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك « الترابي » وقد يرتقي أولئك الصبيان الى رتب الامراء (٢)

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين بل هي عادة كانت مرعية فى تلك الاعصر فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون وكان للخلفاء عناية في فكاك الاسرى يبذلون فى سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة . وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم لان الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى الفداء . وكان الامويون يفتدون أسراهم أحياناً وعلى قلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود ـ وأول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكاك اسراهم حتى اصبح أهل الورع من الاغنياء يقفون المال على فكاكهم (٣)

أما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ولعل السبب في ذلك أن أولئك الاسرى يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم أو أجناداً من الغرباء المأجورين وليس

(١) المقريزي ٣١٣ ج ١ (٢) المقريزي ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١
(٣) المقريزي ٧٩ و ١٩١ ج ٢

من الروم أنفسهم، أما المسلمون فهم غالباً المهاجمون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف واذا غلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم. على أن المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الاسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيراً من الافرنج بمال ولا بأسير مثله فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو الف. حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه[1] وكان للفارس في عصر الايوبيين عشرة اتباع يخدمونه أو بضع عشرات الى مائة[2] فكيف بالامراء والقواد حتى في صدر الاسلام فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله[3] فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف فقد كان الامير في الدولة الاموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو الف عبد[4] وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله

أصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الارقاء عند احدهم واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ. على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند أمير ان يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال. فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان. واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم وأصلهم من السبي والاسرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار

أما الباقون من الارقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم[5] ومنهم الوصيف والمملوك وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى

(١) المسعودي ٢٢ ج ٢ (٢) المقريزي ٩٥ ج ١ (٣) الدميري ٤٩ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغاني ٣٧ ج ١ (٥) طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثيل . وأول من أقدم على ذلك الامين ابن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم مثل زينة الجواري . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة وهم غنم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها(٢)

٢ — الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة أشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد — وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً

وللخصاء أغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون

وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوربا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة

(١) تاريخ الوزراء ١٢

ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبياً نحو أواسط أوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (أو السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود - ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء أمامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب «صقلبي» وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان - وفعل الافرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها (Esclave) في الفرنساوية و(Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق واكثرهم من اليهود الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم باثمان غالية فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وانشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة أشهرها « معمل » الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا . كانوا يخصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . وأصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الأثاث أو الآنية فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس أو غيرها اهدوه التحف ومن جملتها الخصيان كما فعل ملكا برشلونه وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما

اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و٢٠ قنطاراً من صوف السمور . الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصون بالقرب منها. غير مايحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع . لان بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

٣ — الجواري

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر. فمن أحب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها — فاذا علم مثلا انه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة أو علم منه ميلا الى الغناء اهدى اليه قينة رخيمة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صنائع وربما صارت احداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الامر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس — ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت اروى الناس للغناء القديم وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فالفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في ارجاعه فرأت أن تشغله عنها بالجواري

(١) ابن حوقل ٧٥ (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

فاهدت اليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح (١)

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بامثال هذه الهدايا فاهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف(٢) فلا غرو اذا تكاثرن في قصور الخلفاء والامراء وأهل الوجاهة . وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام وانما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية(٣) وكان لجماعة من بني العباس الف جارية وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر

اصناف الجواري

قلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربية ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيذة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية ، ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان . والمولدة أثمن من الجلبية وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة . وفي الجلبيات النصرانية واليهودية والمجوسية لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجبة ونحوها ـ ذكر أحمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون (٤)

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن وخلاصة ذلك قولهم : من أراد النجابة فبنات فارس ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ومن اراد غير ذلك فبنات بربر والمولدات والزنجيات للزمر والحبشيات للحفظ وخزن المال والنوبة للطبخ

(١) الاغاني ١٣٧ ج ١٦
(٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢
(٣) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١
(٤) الاغاني ١٣٨ ج ١٩

والارمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم الوجوه في الترك والاجسام في الروم والشعور في الحطا وفارس والعيون في الحجاز والخصور في اليمن (١) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة انهن ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحلة (٢) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على أروجها في بغداد فكانوا يحملون اليها اجملهن خلقا واذكاهن عقلا لما يتوقعونه من بيعهن بالاثمان الباهظة

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب احدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الاشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الادب أو النحو أو العروض أو فنا من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق فربما ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو الف دينار (٣) واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الادب فتبتاع بالوف الدنانير (٤) . فكيف اذا اتقنت غير فن منها . وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الادب والاخبار فيقصدها أهل الادب وذوو المروأة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة (٥)

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف الى التفنن في تزيينهن . واشهر من فعل ذلك ام جعفر المذكورة فانها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهن المقدودات عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية والبستهن الاقبية والقراطق والمناطق كانهن من الغلمان واقتدى بها وجهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطعومات وألبسوهن الاقبية والمناطق الذهب (٦)

(١) ترتيب الدول ١١٢ (٢) المسعودي ١٥٤ ج ٢ (٣) الاغاني ١٥٤ ج ٨
(٤) الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٣٦ (٥) ابن خلكان ١٩٠ ج ١
(٦) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن ان يكن نافذات الكلمة لان الجمال قوة والحب سلاح ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والامراء يتباعدون عن الجواري اذا أهدي الى احدهم جارية لم يلتفت اليها ولا سيما مؤسسي الدول كمعاوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل. فاشتهر المنصور بكرهه للهو وكان عبد الرحمن اذا أهداه أحد جارية ردها (١) وعكس ذلك خلفاء اواسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء فانهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم كما فعلت حبابة بيزيد بن عبد الملك الاموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد فانها ملكت قياده حتى حلف يوماً انها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم الا قضاه لها فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له ان لم تتم في حياته (٢) وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء (٣) ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من امهات الخلفاء ـ راجع الجزء الثاني والرابع من هذا الكتاب وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر لانهم لفيف من امم شتى ولا سيما في بغداد في ابان عمارتها وقد تقاطر اليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الاسلامية بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والارمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والاندلسي وغيرهم . وفيهم أهل الحرف الراقية والسافلة وتجار السلع والاقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب فضلا عن الادباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على اننا تسهيلا للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين

(١) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢ (٢) الاغاني ٨٠ ج ١٥ (٣) العقد الفريد ١٤٨ ج ١

كبيرتين الاولى طبقة المقربين من الخاصة والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعاع وغيرهم

الطبقة الاولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم او رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم عليهم وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والادباء والتجار والصناع

١ — اهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ويسميها العرب «الآداب الرفيعة» ثلاثة التصوير والشعر والموسيقى. فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه وانما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الاموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان. على ان التصوير ازهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت بالارتقاء من ذلك الحين لان المغول المشار اليهم اتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها (١) وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ملونة تلوينا بديعاً اكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الادب أو العلم . وبعضها تمثل رسوما خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب الخديوية بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتاب الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . أما في إبان التمدن الاسلامي فلم

(١) Revue Arch. Les Ecoles de Peinture en Perse 1905 II

يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة الا من اشتغل منهم بهندسة الابنية ولاسيما في الاندلس

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الاموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام من عصر الراشدين فالامويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام وعن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام وأشعارهم والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والامراء وغير ذلك ـ وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الاموال ـ بقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون

٢ ـ المغنون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعي في الامم لانه لغة النفوس وترجمان العواطف وكل امة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها فالعرب الجاهلية كانوا أهل ماشية وانعام وخيام فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء وتلك أول خطوة خطوها نحو الموسيقى لانها بنت الشعر أو أخته

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم ثم عمدوا الى «الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين «الغناء» وهو ترنيم الشعر و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه أو ثلاثة ألحان أو أصوات وهي النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان وهو الذي يقال في المراني ويسمى « الغناء الجنابي » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه وهو يخرج من الطويل في العروض. و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق منها الثقيل الاول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه . واما « الهزج » فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وشاع الغناء قبل

الاسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهى المدينة والطائف وخيبر (١)

أما آلات الموسيقى عندهم فاشهرها الدف وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير . والمزمار على أبسط أنواعه . ولايظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنها من آلات النفخ والقرع . واما آلات الاوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام

الغناء في الاسلام

فلماجاء الاسلام واستولى العرب على مماليك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم كانوا فى عصر الراشدين لايزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته مما يدعو الى ترك أحوال الفراغ ومالیس نافعاً في دين ولامعاش حتى تركوا ماكان عندهم من انغام الجاهلية ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر فلما جاءهم الترف في أيام بنى أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ. وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى أوالسبايا فأصبحوا من موالى العرب وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير فغنوا بها فاعجبوا بالحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالى في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية أو الرومية فنبغ في المدينة فى ايام بني أمية طائفة من المغنين. والمشهور ان أول من أدخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح وهو مكي أسود كان في مكة لما حاصرها الامويون وفيها ابن الزبير فى أواخر القرن الاول للهجرة فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية فاعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فاتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها. وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة بالغناء فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين أتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وانما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وماكان من منزلته ومنزلتهم

(١) العقد الفريد ١٨٦ ج ٣

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً واختلف الائمة فى تحريمه وتحليله كله أو بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز أجازوه وأهل العراق كرهوه وحجة من أحله ان اصله الشعر الذي أمر النبي به وحض عليه وندب أصحابه اليه وتجند به على المشركين فقال لحسان شاعره « شن الغارة على بني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » واكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه انه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب وهو باطل من أصله[1] وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضه ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن أبي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ولا سيما أهل الوجاهة والشرف وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على ما عابه عليه من استماع الغناء[2] وان سره اشتغال هذا وسواه من أهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته فى طلب الخلافة ـ بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار وأول من اباحه ونشط اهله يزيد بن معاوية ففي أيام يزيد هذا (سنة ٦٠ ـ ٦٤ هـ) ظهر الغناء فى مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهو وطرب[3] وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة. وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد ابن عبد الملك (سنة ١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق[4] فأخذ الغناء بالانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على ان أهل التعقل من الخلفاء والامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر[5] وكثيراً ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس

(١) العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ (٢) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣
(٣) المسعودى ٦٨ ج ٢
(٤) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودي ١٣٣ ج ٢ (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣

بغنائهم(١) وصرفهم عن امور دينهم ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم « المغنون رسل الغرام »

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك وكان يكره الغناء سمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان « والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول وما أحسب انثى تسمع هذا الا صبت اليه » ثم أمر به فخصي (٢)

وسليمان هو الذي أمر بخصي المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب - قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائه في الامس . فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال «هدر الجمل فضيعت الناقة ونب التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة » ثم أمر به فخصي وسأل عن الغناء اين أصله فقيل « في المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمته والحذاق فيه» فكتب الى عامله هناك « اخص من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم (٣)

على ان المتهتكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا مايجر اليه الغناء من أسباب اللهو قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من استقدم المغنين اليه « اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروأة ويثور على الخمر ويفعل مايفعل المسكر فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا واني لاقول ذلك فيه على انه أحب الي من كل لذة واشهى الي من الماء البارد الى ذي الغلة ولكن الحق أحق ان يقال »(٤)

فكيف بالعقلاء وأهل الحزم ومؤسسي الدول أو معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبي مسلم أو أهل التقوى مثل عمر بن عبدالعزيز الاموي والمهتدي العباسي . فقد تقدم ما عابه معاوية على ابي جعفر . أما هشام فسمع عن أشعب المضحك في المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدامه فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلا ثم قال « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك ؟ » وتمثل

اذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

(١) الاغاني ١٣٠ ج ٢ (٢) الكامل للمبرد ٣٧٧
(٣) الاغاني ٦١ ج ٤ (٤) الاغاني ١٣٤ ج ٦

وأوقف الكتاب (١) . وأما المنصور فقد كان يمير آل الزبير بجهم الغناء (٢) وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبد العزيز فبلغه ان قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فامر بعزله (٣) . والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فامر بمنع الغناء (٤) وربما امتنعوا عنه الى أجل ريثما يصفو لهم الزمان كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد همه تأييد خلافته فبقي عشرين شهراً لا يسمع غناء (٥) وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري فانه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق (٦)

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي على ماقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الغناء والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء لان الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق فاذا أحب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته. فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . وأول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في أيام امارته على الحجاز ثم الوليد بن يزيد وله أصوات اشتهرت عندهم واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الالحان والتلحين اشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد . أما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الامين وأبوعيسى بن المتوكل وعبد الله ابن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ماكان في زمن بني أمية ولا سيما في عصر الانحطاط حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير (٧)

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها فاشتغلوا

(١) المسعودى ١٣١ ج٢
(٢) الاغاني ١١٥ ج ١٣
(٣) المسعودي ١٢٢ ج ٢
(٤) فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢
(٥) الاغاني ١٠٦ ج ٥
(٦) الاغاني ١٢٣ ج ٢ و٦٣ ج ١٩
(٧) ابن الاثير ١٩٠ ج ٥

بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية (١) وحملهم الترف على سماعة والولوع به فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء ـ وسنعود الى ذكرهم

٣ — العلماء والفقهاء والادباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر أو النظر في علوم تلك الايام الدينية أو اللسانية أو الادبية أو التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والادباء من أصحاب الاخبار كالاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع ابحاثهم فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب على ما سنبينه في باب أبهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وأمراؤهم كالبرامكة وآل الفرات فانهم أغدقوا الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهله ربما صار العلم صناعة يرتزق بها أصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي فانهم فئة من أهل الذمة قربهم الخلفاء واكرموهم من أجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ — التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة كالجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه واعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم الراقية . كانوا يحملون الى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة

(١) الجزء الثالث ١٩٨

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند واللؤلؤ من البحرين والعقيق والعاج من الحبشة . والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ونسيج الكتان من شينيز . وطراز الوشي والثياب المنسوجة من الشعر التي يصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ـ هذه كلها من فسا . والبسط والنخاخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعنابي والوشي وسائر ثياب الحرير من اصفهان . والثياب المنيرة من الري . والابريسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور. والسمور الاسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس . والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والاوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ولكن أصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطي والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس ـ ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والامشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف من البصرة . والحصر من عبادان. والديباج والانماط من تستر والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

أما الرقيق فابيضه كان يحمل من وراء النهر وأصله من الصقالبة أو من الخزر الاتراك من بادية تركستان واحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الابيض أيضاً من الاندلس وفيه الجواري والغلمان وأصلهم من سبي الافرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار . أما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . وأكثر الناس اشتغالا بنقلها

في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ويسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر (١) كما كان الفينيقيون في ابان دولتهم

أما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيرافيون فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطىء افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد (٢)

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة. ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة وأكثرهم من اليهود وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش. اشتهر منهم في بغداد مصارف كبرى كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها وأتقنوها علماً وعملا حتى ألفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي. وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد اليها وابحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والاعراض وتحقيق اثمان الاشياء مالا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر ـ يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ناهيك باهل الرحلة منهم الى اطراف المعمور في ذلك العصر فقد طافوا العالم براً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ودونوا رحلاتهم تسهيلا لاسباب التجارة واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي أواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها أحد

أما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه والبحر الاحمر الى آخره والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين وجنوباً الى مداغسكر وسائر شواطىء افريقيا الشرقية واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما براً

(١) ابن خرداذبة ١٥٣ (٢) الاصطخري والمسعودي

فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين. وأوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء فقربوا الابعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجيبون الاقطار براً وبحراً ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطىء فارس وسواحل أفريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحارى خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وأفريقية والاندلس في نقل أصناف التجارة كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد براً . واشهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه (١)

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة ـ وجملة القول ان التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة فى ذلك العصر لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا فى العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الاميركانى فى هذا القرن وأول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري أني كنت في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت الي قهرمانة لهم فى بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه كل حبة منه تساوي مائة الف دينار وقالت يحتاج ان تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فكدت أطير وأخذتها وقلت السمع والطاعة وخرجت فى الحال مسروراً وجمعت التجار ولم أزل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته

(١) المسعودى ٤٥ ج ١

وارادته وجئت عشياً وقلت ان خرط هـذا يحتاج الى انتظار وزمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليهـا المجتمع وقلت الباقي يخرط في أيام فقنعت بذلك وأعجبها الحب فخرجت وما زلت اياما في طلب الباقي حتى اجتمع فحملته اليها وقامت علي المائة حبـة بدون المائة الف درهم وأخذت منهم جوهراً بمائتي الف الف دينار ثم لزمت دهليزهم وأخذت لى غرفة كانت فيه فجعلتها مسكنى وكان يلحقني من هذا أكثر ممـا يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١)

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتـدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة كان ابن الجصاص فى جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك ان عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وبقي له شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان احمق ابله - فاعتبر مقدار ماكان يصل الى التجار أهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجـار الفرش والاثاث ولاسيما فى البصرة فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجار البحر فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم - ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم فى السـنة (٢) . وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٣) . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمـار كان طحاناً بالبصرة فاصعد الى بغداد في أيام المعتصم فاتسعت حاله حتى صـار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار. فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم واستوزره المعتصم لامانته ولـكنه كان جاهلا (٤)

٥ — الصناع

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير لانهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا ايضاً باصطناعها وارتقت الصـناعة عندهم بتوالى الاجيال حتى فاقوا في بعضها البلاد

(١) فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٣) ابن حوقل ١٩٨ (٤) الفخري ٢١٣

الاخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل (١) وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعنهم أخذها أهل اوربا بطريق الاندلس (٢) وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صنائع المشرق فكانوا يصنعون في مرسية وشياً مذهباً في غاية الاتقان وفيها أيضاً معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للاسرة المرصعة . وكان في بالقة معامل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا ان أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس ابن فرناس حكيم الاندلس (٣) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب

ولهم في الميكانيكيات صنائع حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته بالقرن السادس للهجرة - وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهده بعينه :

«وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا

(١) Encycl. Brit. article Sugar (٢) الجزء الاول ٢٠٠

(٣) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢

انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اه (١)

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والاكر والانابيب والاحمال وغيرها للرفع والجر والنقل ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها واكثرها مأخوذ في أصله عن اليونانية ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البزانطي وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي. وغيرهما مما نقله الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الاخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد اصله اليوناني قبله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات وقوتها (٢)

واشتغل المسلمون في هذه الفنون والفوا فيها الكتب من عند أنفسهم وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية اطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير وهو تأليف « رئيس الاعمال بديع الزمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري » في أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية ـ الفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارتق في أواخر القرن السادس للهجرة فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق ـ فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفه الى كتاب برأسه

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الاعظم وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين أهل القرى وهم المزارعون وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع

(١) رحلة ابن جبير ٢٧١ (٢) المشرق عدد ٦ سنة ٧

١ — المزارعون اهل القرى

فالمزارعون أو الاكرة منهم يتألف معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها واكثرهم من أهل الذمة يقيمون في القرى الا من أسلم منهم فينزل في المدن. وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام والقبطية بمصر والفارسية في بلاد فارس والتركية في تركستان بما وراء النهر . وأخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم واللغة العربية تتغلب على السنتهم والاسلام يتغلب على أديانهم حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان وصارت تعد بلاداً عربية وأكثر أهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . أما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم ولكن ألسنة أهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ — العامة سكان المدن

هم نفي من يؤم المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب بالتجارة أو الجندية أو الادب أو الشعر وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق باهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يعيشون به مما لا تعوزه همة أو رأي . ولو أردنا الرجوع الى أصول عامة بغداد مثلا لرأيناهم اخلاطا من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكراد والكرج والبربر وغيرهم ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السنتهم

وعامة المدن طبقتان الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرها من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية المرتزقون بالدعارة والنهب واللصوصية وهم أصناف كثيرة نشأت

في بلاد الاسلام على أثر الفتن والانشقاق بين أهل الدولة لا يستطيع أهل هذا الجيل تصور امثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم ـ الا الذين ادركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران وهم طائفة من أهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بابناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم كثيراً ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الاول بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لانفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه فى الاجزاء الماضية ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجر اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار غير ما كان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الاقوات فتقل أرزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويتألفون عصابات لمناوأة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم في المدن ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية في ذلك العهد . فكان الدعار يتكاثرون ويزدادون تعدياً والحكام في شاغل عنهم والخسارة معظمها على الاهالي . وتوالى ذلك أعواما حتى خربت مدينة الاسلام وأم حضارة الاسلام . ولا يمكن الالمام بكل طوائف الرعاع فنذكر اشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب وعلى كل عشرة نقباء قائد وعلى كل عشرة قواد أمير ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومعهم أناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود ولجماً من مكانس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ خمسين الف عيار(١) وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والحصى وكانوا أهل

(١) المسعودى ٢١٨ ج ٢

مهارة بذلك فابلوا بلاء حسناً لكنهم لم يثبتوا امام المجانيق والجنود المنظمة فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا لا لفحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدو ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الابطال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على ألفي ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطع نة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الامين فيها فاستعان بالعيارين وفرض لهم الاموال وجعل عليهم عريفاً اسمه يبنونه وعمل لهم تراساً من البواري المقيرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنة اهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت وأخذوا الاموال. وكثيراً ما كانت تحدث أمثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (١)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنازع على السلطة أو الاموال واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة أو الحنفية والشافعية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد وجبوا الاسواق وأخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق (٢) بطل القصة المشهورة

وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم (٣)

الشطار

هم طائفة أخرى من أهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار (٤) وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتكيتات

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ — ١٥٠ ج ٩ (٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩
(٣) ابن الاثير ٤١ ج ١١ (٤) الاغاني ٩١ ج ٦

وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى [١] على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد فهم يعرفون في العراق بالشطار وفي خراسان يسمونهم سرابداران وفي المغرب الصقورة وسماهم ابن بطوطة «الفتاك» وذكر تفشيهم في ايامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطاناً عليهم وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالا وفرساً اذا ظهرت منه شجاعة أمره الى آخر ما ذكر [٢]

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة وانما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار ان ما يستولون عليه من أموال التجار الاغنياء زكاة تلك الاموال التي أوصي باعطائها للفقراء [٣] وكان اولئك اللصوص اذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم «التوابون» على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم [٤]

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معناهم تكاثروا في عصر الانحطاط بالمملكة العباسية كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون الفاً من الصعاليك [٥]

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب الاموال العبيد وكانوا كثيرين لايخلو منهم منزل كما رأيت. فلما اختلت الاحوال وضعف أسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين. وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها كما فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ فدعاهم الى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض (المماليك الاتراك) يتمردون على الخلفاء فاقتدو

(١) نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢
(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١
(٣) الجزء الرابع ١٧١
(٤) المسعودي ٣٣٥ ج ٢
(٥) ابن الاثير ٦٩ ج ٧

بهم. فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط(١) واجتمع منهم مئات الالوف وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في اثنائها ٢٥٠٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال مما تقشعر له الابدان. وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق اصحابه. واراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا. وقد يعد من هذا القبيل أيضاً الحشاشون وهم طائفة من الفوضويين ظهروا في القرن الخامس للهجرة وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدراً وكان لهم شأن كبير فى تاريخ الاسلام (٢)

ومن طبقات العامة « المخنثون » وكانوا في الحجاز قبل الاسلام وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الاموال وكثيراً ماكانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال. وكان أحسن المغنين منهم وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم. وربما اشبهوا ماكان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد. ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والاندلس وسائر المغرب والاندلسيون اذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عد من أهل الاحتيال للمعايش باساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ولكل صنف من هذه الاصناف اسم خاص. وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطيل والمزيدي (٣) وغيرهم

أهواء العامة

فالعامة في المدن اخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير مميزين بين الفاضل والمفضول. وسئل الامام علي عن العامة فقال « همج رعاع اتباع كل ناعق ». وقال الفضل بن يحيى « الناس أربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعلية أنهضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء لكع لكاع وربيطة اتضاع هم

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبري (٢) الهلال صفحة ٨٣ سنة ١٠
(٣) كتاب البخلاء ٣٧

أحدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للاحنف صف لي الناس فقال « رءوس رفعهم الحظ وأكتاف عظمهم التدبير واعجاز أشهرهم المال وادباء ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم اشباه البهائم إن جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » ـ هذه هي آراء خاصة تلك الايام في عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ولا غرو فانه اكبراسباب سعادتهم ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا أظهر التقوى لما في منصبه من الصبغة الدينية وهو رئيسهم وامامهم فكانوا له عضداً قويا ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه لانهم كانوا كثيرا ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعه . وأكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب فضلا عن بساطتهم وسذاجة أفكارهم وجهلهم سائر الامور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال هذه ناقتي اخذت مني في صفين فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير اليه فقال الكوفي « أصلحك الله انه جمل وليس بناقة » فقال معاوية « هذا حكم قد أمضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحسن اليه وقال له « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من أمرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجه لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي أن رجلا منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم أنه يتزندق . فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال « انه مرجيء قدري اباضي رافضي يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل

على بن العاص » فقال له الوالي « ما أدري على أي شيء احسدك على علمك بالمقالات او على بصرك بالانساب »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلى ومعاوية وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له « كم تطنبون في على ومعاوية وفلان وفلان »

فقال له الرجل « فما تقول أنت في على »

قال « اليس هو أبا فاطمة »

قال « ومن هي فاطمة »

قال « امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية »

قال « فما كانت قصة علي »

قال «قتل في غزاة حنين مع النبي وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن علي الشام ووجه الى ابي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة فحلفوا لابي العباس السفاح انهم ماعلموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة »[1]

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم لانهم معظم الرعية وبهم تجبى الاموال ومنهم تتألف الجنود فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى امور الناس أكثرهم دهاء واقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى

---

(١) المسعودي ٥٢ ج ٢

الآداب الاجتماعية

في المملكة الاسلامية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في هيأتهم الاجتماعية وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الاداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معايشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم فللبدو مناقب غير مناقب الحضر ولاهل القرى آداب تختلف عما لاهل المدن وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهل الاقاليم الباردة جرياً على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء

فاهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا أكثر مما يحتاج اليها المتمدنون لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الضواحي وبعده عن الحامية وانتباذه عن الاسوار ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح ويتفرد في القفر واثقاً بنفسه فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف أهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن اعراضهم وأموالهم وانفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع أهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه :

١ ـ العصبية

هي اظهر طبائع البدو وأعمها وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع

٢ ـ الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو وهم دائماً في قتال أو يتأهبون لقتال فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبة فيهم يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة فى الجاهلية والاسلام كعمرو بن معد يكرب وربيعة ابن المكدم ودريد بن الصمة وعروة بن الورد وعنترة العبسي وملاعب الاسنة وعامر بن الطفيل وعلى بن ابي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم. واشتهرت نساؤهم بالشجاعة ايضا كما سيجيء فى كلامنا عن المرأة

٣ ـ الكرم

وهو من مناقب أهل البادية اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدو في اسفاره منفرداً وقد يبتعد عن مضربه اياما في بادية لا طعام فيها ولا ماء فاذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغالاة فيها حتى أوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلا يسمونها نار القرى وبالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فاصبح الاسخياء يبالغون في ذلك ويكثرون من النيران فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن ايقادها فرقوا الكلاب حوالى الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح فيهتدي الاضياف على نباحها . ولذلك كان اسماء الكلب عندهم « داعي الضمير ومتمم النعم ومشيد الذكر » وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ومن اكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان كان الرجل يستطيل في ظلها(١)

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه فيقال للمبالغة في مدح كريم « انه اكرم من حاتم طي » ومنهم كعب بن مامة الايادي وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الانسان كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم وربما جادوا بالابل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى

(١) الف باء ٨٣ ج ٢

٤ ــ الوفاء

لما كان الغدر سهلا على البدوي لامكانه الفرار من القصاص والايغال في البادية حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الاحوال جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله فرغب الناس فيه وأصبح بتوالي الاجيال خلقاً لهم وصاروا يأنفون من اخلاف الوعد ويشهرون مرتكبه ويبالغون في الثناء على أهله

٥ ــ الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ولا سيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء حتى المكان فهم لا يتوطنون صقابل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيما ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في أقوالهم وافكارهم ونشأوا على الانفة وعزة النفس واباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لانه كان طبعاً مألوفا فيهم

٦ ــ النجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة وبينهما تناسب من حيث اغاثة الضعيف فاذا استنجدت البدوي على أمر انجدك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص فى الجوار وحمى الذمار وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع صفحة ٢٨

٧ ــ الاريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة مختصراً في الجزء المذكور صفحة ٢٩ وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chavalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الاحدوثة ، ولما كان العرب أهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للاريحية عندهم شأن كبير فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحاً أو طعناً فيبذلون ما فى وسعهم التماساً لثنائهن وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل وربما تعرض بعضهم للقتل خوفا من استخفافهن وفي أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ ـ الثأر

وكما ينجدك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا أسأت اليه واذا قتل رجل من قبيلة رجلا من قبيلة أخرى نشأت العداوة بين القبيلتين فتقوم الموتورة منهما للاخذ بثارها ولا تنفك حتى تقتل كفأ لقتيلها أو يتصالحوا على الدية. ومن أشهر حوادث الآثار في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلهل بن ربيعة للاخذ بثأر أخيه كليب فاصبح المهلهل مثلا في ذلك فيقولون « فلان آخذ للثار من المهلهل » لانه حلف منذ طلب الثار انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء الا بعد نيل مرامه

٩ ـ الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلوا أكبرهم سناً كما فعلت قريش فى حرب الفجار الثانية (١) ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوا أكبرهم سناً عملا بالحديث النبوي بشأن الامامة وهذا نصه « يؤم القوم اقرأهم لكتاب الله تعالى فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً » (٢)

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية بالعصر الجاهلي ولا مشاحة انها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس وعفتها من ثمار حب الاستقلال والانفة لان المرأة التي تشب على استقلال الفكر واباءة الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض فانه من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته يعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول أو فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعانته في أسفاره وأعماله

(١) الجزء الاول (٢) مشكاة المصابيح ١٠٠

الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية أن يقتلوا بناتهم أو يئدوهن لئلا يرتكبن مايجر عليهم العار ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب ولا كان قديماً عندهم وانما حدث قبيل الاسلام وكان منحصراً في بعض بني تميم بن مر ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم - ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتائبه وساق انعامهم وسبى ذراريهم فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى فقالوا «اعطنا النساء» فقال «انا نخيرهن في الذهاب أو البقاء» وأعلن «ان كل امرأة اختارت اباها ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه» فكلهن اختارت اباها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (١) وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له أربع بنات منهن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد (٢) ولم يبطل زمن الوأد عند العرب لانه مخالف لاحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات (٣) حتى بطل الوأد

شهيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وارادة وكانت صاحبة انفة ورأي وحزم فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل الاسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال وأكثرها في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس منهن سلمى بنت عمر احدى نساء بني عدي بن النجار فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال الا وأمرها بيدها اذا رأت من الرجل شيئاً تركته . على ان الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد أن يشاورها (٤) واشتهرت التميميات من نساء قريش في حظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم (٥)

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨ (٢) الكامل ٣١٦
(٣) الف باء ٢٠ ج ٢ (٤) الاغاني ١٤٩ ج ٩ و٢٠٨ ج ١٨
(٥) الاغاني ٢٠٣ ج ١٨

ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات. ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها (١) . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة مالم تفعله الرجال فجمعت اليها نسوة أخذن في ايديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهن على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تمثار جثث القتلى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع ان تسيغها فلفظتها ثم علت صخرة وانشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين (٢)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الانصارية وأم حكيم بنت الحارث والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (٣)

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة اشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليه أن يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه أفضل ماكانت تعطي غيره من الرجال فلما افلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي أول من أسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه وما زالت على ذلك حتى ماتت

الآداب الاجتماعية

في العصر الاسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية فقد كانت لاتزال عربية بدوية ـ أو هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة حاول العرب فيه

(١) الاغاني ١٧ ج ١٤ (٢) الاغاني ٢٠ ج ١٤ (٣) الف باء ٢١٠ ج ٢

البقاء، على ما الفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب حتى غلبت على معظمها في أواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى ايام الراشدين وأيام الامويين فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة

١ ـ الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولاسيما عمر بن الخطاب فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق واذا علم أنه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه وكذلك كان على بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من أهل العطاء فلم يكن لاصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق وهو مخالف للسخاء والبذل حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

أما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه وبعضها زاد تمكناً في نفوسهم كالوفاء والنجدة والعفة والانفة لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى فكان الخليفة أو أميره اذا وعد وفى واذا عاهد أنجز لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف . اعتبر ما كان من وفائهم لاهل الذمة اذا عاهدوهم على أن يحموهم ما أدوا الجزية. فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى أصحابها واعتذروا (١) ولو لم يردوها ما طالبهم بها أحد وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم. والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام لما نوخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الامير بجسارة وانفه كما يخاطبون بعض اقرانهم واذا رأو فيه اعوجاجا هددوه أو عنفوه وأصلحوه فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان وكثيرا ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم اذا أنكروا شيئاً من أقواله أو أعماله

(١) الجزء الاول ٥٧

المرأة في عصر الراشدين

أما المرأة فانجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأى ومزاولة الادب والشعر مع بقاء العفة والانفة فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال : منهن عائشة أم المؤمنين فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة حتى رأست حزباً كبيراً من الصحابة وأثارت حربا عوانا وروت أحاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب وأحوالها . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها. وكانت اذا حجت يحيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهن الجوائز الكبيرة وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب واحد لماشطتها وآخر لخازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج (١)

وسكينة بنت الحسين بن علي وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش (٢) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش وتجتمع اليها الشعراء وتأذن للناس اذناً عاماً حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالاطعمة ثم تطرح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب وتنتقد اقوالهم وتجيزهم وخبرها في ذلك مشهور (٣)

وأسماء بنت أبي بكر المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها (٤)

ونبغ في ذلك العصر عدة نساء بالشعر كليلى الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعته واحتجبت عنه . كما اتفق لابي دهبل الجمحي مع عمرة الجمحية وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر وكان أبو دهبل من اشراف بني جمح وكان لا يفارق مجلسها وكانت

(١) الاغاني ٦٠ ج ١٠ (٢) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢
(٣) الاغاني ١٧٣ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ١٩١ ج ٤

تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن أبي دهبل وانه يقول انها عاشقة له فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم (١)

ولما نضج التمدن الاسلامى اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

٢ — الآداب الاجتماعية فى عصر الامويين

أصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين . فالامويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية اغفلوا كل ما كانوا يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لغرضهم — فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه فزادوا الاعطية وفرضوا الجوائز وأقاموا بيوت الضيافة وأكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا أصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الاكبر فى مناواة أعدائهم من شيعة علي وغيرهم فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الامويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

— أما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم فى الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك. وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سراً ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً ،واول من فعل ذلك عبد الملك (٢) وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وغيرهم

تقييد الافكار في أيام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الامويون في مقاومتهما وقيدوا الالسنة بارادتهم تقييداً شديداً فكان ذلك عظيما على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية فعاقبهم الامويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد. ومن لم يستطعوا مقاومته جهاراً قتلوه سراً — بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة

(١) الاغاني ١٦٥ ج ٦ (٢) الجزء الرابع ٨٣

في الشام وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء اهله ونصرتهم ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبي ذر الغفاري ونفيه لانه جاهر باستبداد أهل الدولة باموال المسلمين (١)

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم ير بداً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق واصحابهما لانهم قالوا بحرية ضمير إن عليا لايجوز لعنه على المنابر (٢) فاصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فاطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها » ولكن الحرية كانت لاتزال حية في نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى أهل الدولة وربما كانت الدولة أحوج الى نصرتهم كالاحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وادرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت » (٣)

واقتدى بمعاوية من عاصره من الامراء أو جاء بعده من الخلفاء فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالى الاعوام

النجدة والاريحية فى أيام بني أمية

أما النجدة والاريحية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في العرب وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . أما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بني أمية استبداداً وظلما وفي اخبارهم كثير من أمثلة ذلك منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين باسير من أهل العراق فقال معاوية « الحمد لله الذي أمكنني منك »

فقال الرجل « لا تقل ذلك يامعاوية »

قال : « وأي نعمة أعظم من أن يمكنني الله من رجل قتل جماعة من اصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنقه يا غلام »

فقال الاسير « اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وانك لاترضى بقتلي وانما

(١) الجزء الثاني ١٦ (٢) ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ (٣) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا فان فعل فافعل به ماهو أهله وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله »

فقال له « ويحك لقد سببت فابلغت ودعوت فاحسنت ... خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد امر بقتل جماعة من الاسرى فقام أصغر القوم فقال له «يامعن اتقتل الاسرى عطاشاً » فامر لهم بالماء فلما سقوا قال «يامعن اتقتل ضيفانك» فأمر معن باطلاقهم

وأتي الحجاج باسرى من الخوارج فامر بضرب اعناقهم فقام فيهم شاب فقال « والله يا حجاج لئن كنا اسأنا في الذنب فما احسنت بالعفو » فقال الحجاج « أف لهذه الجيف ما كان فيهم من يقول مثل هـذا » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك (١)

وكثيراً ماكانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الاحدوثة ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب أنه مقتول فاوعز الى ابنه عيسى أن يطلب النجاة فقال « والله لاتتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت فى نفسي عنك » فقال « فاذهب أنت ومن معك الي عمك في مكة فاخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » قال « لا أخبر عنك قريشاً أبداً ولكن يا أبتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أوالحق بأمير المؤمنين » فقال مصعب «لاتتحدث قريش اني فررت »وحاربوا حتى قتلوا(٢)

وظلت الاريحية مرعية في أوائل الدولة العباسية فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنهض بها أريحيته في العفو عنهم (٣) ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي وكان مصمما على قتله فشاور فيه احمد بن ابي خالد الوزير فقال « يا أمير المؤمنين ان قتلته فلك نظراء وان عفوت عنه فما لك نظير » (٤) فعفا عنه

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الاجناد الاتراك وتحولت الاغراض فى أهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ذهبت الاريحية والنجدة على أن ذهابها بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني . . . فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل الا ما يوصله الى غرضه ؟

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين ومابعده ولاتزال حتى الآن

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢ (٢) الاغاني ١٦٣ ج ١٢
وابن الاثير ١٥٩ ج ٤ (٣) الاغاني ٢٣ ج ١٢ (٤) ابن خلكان ٩ ج ١

المرأة في عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الامويين لان العفة والغيرة اصابهما فى ذلك العصر صدمةقوية بتكاثر الجواري والغلمان وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل فاخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس . فقد رأيت ان المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكراً (١) ولا تخامرهم فيه ريبة واذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو اخته بريبة طلبه للتبارز أو التجالد أو المصارعة (٢) (الدويلو) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني (٣) ـ حتى الشعراء فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل الا قليلا . ويقال ان امرأ القيس أول من شبب بالنساء (٤) ومهما يكن من ضعف هـذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم على انهم قلما شببوا بعد ذلك الا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغـازلة النساء نادرة فيهم فاذا اتفق لاحدهم شيء من ذلك اشتهـر أمره وذاع خبره كما اشتهر العشاق والمجـانين في صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم رغبـة في شحذ قرائحهم الشعرية . على ان تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبـة أو فاحشة (٥)

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس وقديجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان . واشهر الناس في ذلك بنو عذرة وأكثر عشاق العرب منهم

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم فاذا شبب أحدهم بفتاة قبل أن يخطبها منعوه منها (٦)وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة الا جلده (٧) ونظراً لقلة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر

(١) الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ (٢) الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦
(٣) الاغاني ٧٤ ج ١٩ (٤) الاغاني ٦٧ ج ٢ (٥) المسعودي ١٢٢ ج ٢
(٦) الاغاني ١٨١ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٩٨ ج ٤

اذا شبب بامرأة اشتهرت فتزوج ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبب ببناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معايشهم أهل عفة والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والاندية على غير ريبة . حتى في الكعبة فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لان العفة كانت غالبة على طباعهم فلما جاءهم الترف وأخذوا باطراف الحضارة وعمدوا الى التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع . فلما كانت امارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الاموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف (١)

وفي أيام بني أمية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال اهلها على القصف واللهو . ومما زاد غضبهم للتشبب ان الشاعر اذا نظم أبياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . وأول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الصديق وكان من أهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبب عن غير ريبة ، واقتدى به ابن أبي ربيعة وهو قرشي أيضاً وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة وهو لم يحل ازاره على حرام (٢) واقتدى به العرجي وهو من قريش أيضاً (٣) ونبغ شعراء آخرون من غير قريش وأخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً

ولم يكن الخلفاء في أول الامر راضين ذلك لتغلب البداوة على أخلاقهم فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على ايديهم فلا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضهم ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون فى دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل ان عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة في ابان مجده. وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال « يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

(١) المسعودي ١١٦ ج ٢ (٢) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١
(٣) الاغاني ١٥٤ ج ١

قال « ولم »
قال « شبب بأختي »
قال « وما قال »
قال « قال : (١)

طال ليلي وبت كالمحزون وملت الثواء في جيرون

قال معاوية «يا بني وما علينا من طول ليله وحزنه أبعده الله » قال «انه يقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجمات الظنون

قال « يابني وما علينا من ظن اهله » قال « إنه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

قال « صدق يابني » قال « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون

قال « صدق يا بني هي هكذا » قال « إنه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخض راء تمشى في مرمر مسنون

قال « ولا كل هذا يابني » وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا « لو جعلته نكالا » فقال « لاولكن اداويه بغير ذلك » واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس . فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه واقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » قال « في أي شيء » قال « في مدحك أختها وتركك اياها » قال « فلها العتبى وكرامة انا ذاكرها وممدها » فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا « قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنه معاوية لشيء فاذا هو على رأي معاوية وأمره » وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى انه انما خدعه ليشبب بها ولا أصل لها فعلم الناس أنه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبل الجمحي ايضا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء (٢)

فقس على ذلك سائر خلفاء بني أمية وامرائهم مما يدل على غلبة طبائع البدو في الامويين مع أخذهم باطراف المدنية واختلاطهم بالامم الاخرى وقربهم من أسباب

(١) الاغاني ١٤٩ ج ١٣ (٢) الاغاني ٣٩ و ١٥٩ ج ٦

القصف . وكان تلك الاسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين واكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم ذكره فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الاشعار لا يباليان ان يكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته

والظاهر انهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لمايرون من ارتياح النساء اليه لان المرأة تفتخر بان يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت ارادت الحج فخاف أن يشبب بها ابن ابي ربيعة فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له « من أنت» فقال« من أهل مكة »قالت« عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله» قال «ولم ذاك» قالت«حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري مالم تر الاعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا» قال « اني لا أراه الا قد فعل » قالت « فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليه فاخبره فقال « لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم علي » وأنشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الاحوص كان يشبب بنساء ذوات اخطار من أهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فامر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن كان يشبب بام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال « ان قتلته فضحتني وحققت قوله وتوهم الناس أن بينه وبين أمي ريبة » فامسك عنه على غيظ وحنق حتى بلغه أنه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدها اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها وتباشرت وكذاك كانوا في المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا وأخواتنا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فاحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها حياً (٣)

فكانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة فلما انقضى عصر الامويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب واستسلم

(١) الاغاني ١٢٨ ج ٢ (٢) الاغاني ٤٨ ج ٤ (٣) الاغاني ٤٠ ج ٦

الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وابيح التشبب وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الاولون من بني العباس لايزالون على مقربة من البداوة فانكروا ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشاراً انشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة فصار اذا مدحه بدأ بالمدح (١) فظل التشبيب مستقبحاً حتى اباحه الرشيد وألح في نظمه (٢) فآل ذلك طبعاً الى ضعف الغيرة

الآداب الاجتماعية

في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغيير بعد الاسلام بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط باهل المدن فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة الحيوانية وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعدا عن البداوة وخشونتها وسذاجتها وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب فذهبت العصبية العربية . واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والانفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد أن كان الرجل لايعرف غير امرأته والمرأة لاتفكر في غير زوجها وهي واثقة بامانته فاذا هو قد تشتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولما رأته مشغولا عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها لا يهمها ذلك ولا تغار منه (٣) وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها (٤)

(١) الاغاني ٤١ و ٥٨ ج ٣ (٢) الاغاني ١٦٠ ج ٣
(٣) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ (٤) تزيين الاسواق ١٢٢

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصي بعدم الاركان اليها فيعاشرها على غل وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ ويسد في وجهها الطرق والمسالك ويمنعها من الخروج أو الكلام وهو صاحب الذنب في انحطاطها .فاصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس حتى الفوا فيه الروايات والاقاصيص ونظموا فيها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة فى تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . وهذه هى قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف . وأما الاشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني وأضعت نصحي فانت وان رزقت حجى بليد
الا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد (١)

وأصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها . لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات. ودفن البنات من المكرمات ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة. واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ أمنيته من الصهر قال الشاعر

ولم أر نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر

وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر

سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت »(٢)

(١) الف باء ٧٧ ج ٢ (٢) رسائل الخوارزمي ٢٠

هذا مثال من آراء ادباء المسلمين وشعرائهم فى المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي الا السخاء لانه كان لازما لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى وتنائجها فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها . وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعداها الا في أحوال خصوصية ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد . وفي كل حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

أما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك فى طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات . وأما في الخاصة واتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارزاق بيت المال وهو في قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الامراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب (صفحة ٦٤و٧٠) ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الاول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليوناً فالباقى نحو ٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة وأكثرها من جباية الخراج وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلا لانهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث وذلك في نظر أهل هذا الزمان ظلم ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً لان العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة فبعد ان كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الارض زرعت أم لم تزرع حصروا الخراج في الارض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها [1]

(١) الجزء الثاني ٨٦

سنة العرب في الارتزاق

والاموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ويفرق سائرها فيمن بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب فتتسع احوالهم بالجاه أكثر منها بالمال فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم وأتباعهم ومن هؤلاء الى الباعة وأهل الاسواق فيعود الى العامة كأنه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارتزاق تظهر لاول وهلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فاهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملا ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق وانما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة أو هبات في أوقات غير معينة على مقتضيات الاحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها (١) ولكن ذلك كان محصوراً في أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى . أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة لتمكن السخاء في نفس العربي ولان هذه السنة كانت شائعة عند العرب من ايام الجاهلية . فامير القبيلة كان يغزو بقبيلته فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله وهؤلاء يفرقونه في أهلهم واتباعهم ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم « نهابون وهابون» (٢) وكان العرب يكرهون اختزان الاموال ويعدونه قبيحاً (٣)

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو أمية بالخلافة واستخدموا الاموال في ابتياع الاحزاب واسترضاء كبار الرجال فعودوا الناس العطاء فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه بل تجاوزوه من بعض الوجوه فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والا فسد عليها حماتها وتمرد اهلها

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال جرياً على سنة العرب أو عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي : « نعم المال الاربعون والاكثر الستون وويل لاصحاب المئين» (٤) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً . على ان المسلمين في ايامهم كانوا مشتغلين بما بين أيديهم من الغنائم

(١) Library of Univ. Hist, II 750

(٢) ابن خلكان ١١٧ ج ٢ (٣) الاغاني ١٥٦ ج ١٢

(٤) الاغاني ١٥٢ ج ١٢

وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في ايامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير فلما طمع الامويون بالملك اتخذوا كل وسيلة في جمع المال والاستكثار منه وزادوا أعطيات الجند ووهبوا واجازوا وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من الفرشيين أصحاب النفوذ فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والاتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبيد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (١) فيفد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاءه وربما أهداه هدية سنية فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه (٢) وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لاهل المدينة(٣) وليس ذلك خاصاً بفئة منهم بل كان شاملا الاكثرين حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة الف درهم مثلا فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيهم الالف بعد الالف حتى تستنفد ما جاءت به (٤) ـ حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء (٥)

ولما أفضى الامر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الاعطيات والجوائز وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابهم يفرقونها في الناس . فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي مثقلا بالاموال فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلها(٦) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما انفقوا بعضه في حاشية الخليفة أو غلمانه (٧) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم . أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة فكانوا

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١
(٢) المسعودي ١١١ ج ٢
(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١
(٤) الاغاني ٦١ ج ١٠
(٥) الاغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧
(٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢
(٧) الاغاني ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام فيجتمع على مائدة الامير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساء ـ ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس(١) واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاجواد ممن كانوا يقبضون الاعطية الكبيرة من خلفاء بني أمية فينفقونها في البذل والسخاء وقد تقدم ذكرهم

وجرى الدهاة من عمال الامويين على هذه السنة فنصبوا الموائد على الطرق فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر وكان يدور هو بنفسه على المائد يتفقدها يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها فاذا أبطأ حتى أكلت الارزة بلا سكر امر به فضرب ٢٠٠ سوط . وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء (٢) وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان(٣) وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس(٤) وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كان طولون بمصر فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام(٥) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر فانه كان يفرق ١٢٠٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم واذا دخل رمضان اضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه(٦)

غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الاموال على سبيل الصدقة فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم على ما قدمناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر أو عملا بمقتضى الاريحية

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين وانما هو أيضاً من سنن الاعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أولبن وسمكة

(١) العقد الفريد ٨٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١
(٣) العقد الفريد ٦ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢ (٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١
(٦) المقريزي ٨٥ ج ١

مصنوعة (١) والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم الهبات أو يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم (٢) كما تقدم ولذلك كان أهل الانفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال واكثر ما يقع ذلك لاهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ولا سيما بعد نكبة البرامكة فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر - ذكروا بدوياً عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى أن قالت « هذا فلان قد أخذ الاموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعا وانت ههنا كما ترى » وكانت امرأته باهلية فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهليـة ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا مقلدة اعناقها بالقلائد
أسرك اني نلت ما نال جعفر من العيش أو مانال يحي بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني بغصهما بالمشرفات النوارد
رأيت رفيعات الامور مشوبة بمستودعات في بطون الاساود
دعيني نحيني منيتي مطمئنة ولم انجشم هول تلك الموارد (٣)

الهبات والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا في صدر الاسلام وأوائل دولة بني أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها فما لبثوا ان ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها قال ذو الرمة :

وما كان مالى من تراث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة الى كل محجوب السرادق خضرم (٤)

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الاموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة وآخرون يقبضونه راتباً معيناً وهؤلاء على الغالب من أهل البأساء وايتامهم وارامله (٥) أو زعماء القبائل ورؤساء الاحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والامير أو يتوسم فيه الاجر والثواب . فكان بعضهم يفرض

(١) ترتيب الدول ١٢٠ (٢) الاغاني ١٥٤ ج ١٧ (٣) الاغاني ٩ ج ١٢
(٤) العقد الفريد ٨٧ ج ١ (٥) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦

الفروض لاولاد الانصار والمهاجرين وغيره يعطي العلويين أو الطالبيين وغيره يعطي قريشاً أو اليمن وقس عليه . فكان علي بن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وابناء الانصار (١) وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات أكثرهم مائة دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٢) وكان لكافور الاخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الارزاق على من يأتيه ناقماً على الخليفة ببغداد أو غيره (٣)

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال لانهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعا عن أنفسهم بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري (٤)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضا ولكن على سبيل الهدية فيعدون عطية الامير الى الصغير جائزة أوصلة ويسمون مايقدمه الاصاغر الى الامير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي فاذا تولى الامير على بلد فاول ما يدخلها يبعث أهلها اليه بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب (٥) وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه أو الخليفة بالاموال بسبيل الهدية ايضا اذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فاذا أمسكها سنة عدوا امساكه تمرداً (٦)

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن لا يستثنى عنه عصر أو طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صوره وأشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في أول عهد الامويين الابل والخيل والماشية فيأمر الخليفة أو الامير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها أوجارية وفرس غير مافرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً أو ورقاً ـ ثم صارت فى أواسط الدولة تخوت الثياب من الوشى ونحوه والوصائف

(١) تاريخ الوزراء ٣٢٣ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
(٣) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢
(٤) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١
(٥) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٦) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

فضلا عن النقود وصارت في بنى العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس المسلمين وغيرهم من مولدي العرب اليوم . وذهب بعض الباحثين الى انها فطرية في أصل اورمتهم وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لان العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية القول كما رأيت وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ثم أخذت افكارهم بالانحباس وعقولهم بالتقيد من عصر الامويين لما اقتضاه طمع بني أمية في الملك من الشدة والحيلة فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى يداجون الناس ويجاملونهم رغبة في نصرتهم أو قطع السنتهم ويعدون ذلك « حلماً »

وأشهر الحلماء واقدمهم معاوية بن أبي سفيان فقد ذكرنا في الجزء الرابع صفحة ٦٦ انه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي وربما أحسن الى الطاعنين . أو تظاهر بالاستخفاف كما فعل بشعبة بن غريض وكان في الكعبة ومعاوية هناك فبعث اليه يدعوه فاتاه رسوله فقال « أجب أمير المؤمنين »

قال «أو ليس قد مات أمير المؤمنين» (يعني علياً) فقال له « أجب معاوية » فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة فقال له معاوية « ما فعلت ارضك التي بتيماء » قال « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال «اتبيعها» قال «نعم » قال « بكم » قال « بستين الف دينار ولولا خلة أصابت الحي لم ابعها» قال « لقد اغليت » قال « أما لو كانت لبعض أصحابك لاخذتها بستمائة الف دينار ثم لم تبال » قال « أجل واذ بخلت بارضك فانشدني شعر ابيك يرثي نفسه »

فانشده تلك الابيات فاعجب بها معاوية وقال « انا كنت بهذا الشعر اولى من أبيك » قال « كذبت ولؤمت » قال «اما كذبت فنعم واما لؤمت فلم؟ » قال « لانك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود وأما في الاسلام فشمت ولد رسول الله الخلافة وما أنت وهي وأنت طليق ابن طليق » فقال معاوية « قد خرف الشيخ فاقيموه » فاخذ بيده فاقيم

وكان معاوية اذا أعجزه اصطناع الاحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهاراً عمد الى قتلهم غيلة وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانعهم ليغلب بهم فكانوا يصانعونه طمعاً بمال أو منصب فكانت المصانعة والمداجاة أساس سياسة معاوية . وقد قواها واستمرها بدهائه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم والناس على دين ملوكهم . فكثر الميل الى المصانعة في ذلك العصر وهي على الغالب بين الدولة ورجالها ـ على ان الاريحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الامويين ونصرة العباسيين اغضى أبو مسلم عن الوفاء والاريحية وقتل على التهمة فاصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنباً . فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز أبو مسلم بحربه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين كانت فوضى بينهم وبين العلويين فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين فتك بابي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين وغيرهم فتضاغنت القلوب بين العباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم فاستخدموهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء اذاهم الى الجاسوسية فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سراً والارصاد نوعان الاول اصحاب البريد في الاطراف والعمال يعلمون انهم رقباء على أعمالهم . والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره أو عامله فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سراً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الاريحية وزوال الانفة وعز النفس من العرب على أثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الاعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في أواسط الدولة العباسية بابتزاز الاموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن أقام في ممالكهم من أهل اللسان العربي ويسمونهم عرباً وهم اخلاط من مولدي الامم الاخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم ـ الا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالا متوالية

العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في أواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها فلا نطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ ـ الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه وظل معروفاً في أوربا الى الاجيال الوسطى وما بعدها ولا تزال آثاره باقية في أوربا الى الآن

واذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي لانه لم يكن شائعاً قبله . على أنه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين واركانهم الى الترف والرخاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية انها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجواري وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الارصاد والعيون من أوائل الدولة الاموية اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع من العائلات الاسلامية بالشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده باهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الاذهان . ولو راجعت ماجاء في القرآن من هذا القبيل لرأيت تفسيره اقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات الدينية بما يوافق عادتهم أو اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن اهله وعمدوا الى تفسير كتبه ـ فكتب النصارى مثلا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فاكثر ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل .

والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ولم يعدموا تفسيرا يساعدهم على ما ارادوا فحبسوها وضيقوا عليها . واعتقدت هي بتوالي الاجيال انه يحل للرجل ما لا يحل لها فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً وغادرها تجالس الخدم والعبيد وأصبح لا يواكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادراً واعلن ارتيابه من أمانتها واصبح يفتخر بانها لاتخرج من منزلها الا الى القبر

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن لانه يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين وهذا نص الآية «ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولكن الرجل ابى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم اذ اقتصر الفقهاء على النظر في الابحاث الدينية الجديدة وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية في الاجيال المظلمة فأخذوا يفسرون الآيات والاحاديث على ما يوافق أميالهم واهوائهم . وكانت الاحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لان الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه حتى اذا جاء منزله عامل اهله مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه ـ تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن . فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به أرباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم واما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الامة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى اوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت حتى تصدى بعض ارباب الاقلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا اخوانهم على تركه . واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية من الجوائب بالاستانة ثم كتب غيره فصولا لا تشفي غليلا . حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك امين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالا لسائل

٢ ـ تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع والشرع الاسلامي يجيز له ذلك بشرط اذا روعي حق رعايته لم يتخذ الرجل الا زوجة

واحدة . لان الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواها أقرب الى النهي عن تعدد الزوجات منه الى الامر به . ولذلك رأيت الغالب في العقلاء وأهل المروأة ان يكتفوا بزوجة واحدة وكان ذلك سهلا في عصر التسري اذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة للاضرار رغبة فى النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والتعقل الى اليوم ولكن على قلة. واذا أحصي المتزوجون بغير امرأة لانظنهم يزيدون على خمسة في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لاسباب قهرية

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير «العدل» بالعدل في النفقة لا في المحبة على ان كثيرين من أهل الوجاهة والشرف في الاجيال الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الازواج والغالب ان تكون السيادة للمرأة الاولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال ـ ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة كما فعلت ام جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة التقية زوجها في الزواج بامرأة اخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً ـ روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى أزواج أبيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له . ومن جملة برها له انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة (١)

٣ — الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله «وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما » وقوله

(١) الجبرتي ١٨٢ ج ٣

«فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وفي الحديث « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه اكثاراً مدهشاً كما فعل الحسن بن علي بن أبي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه حياء من أهليهن وكان يقول في خطبه «ان حسناً مطلاق فلا تزوجوه » ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد [1] على أن الطلاق ما زال مكروهاً كما رأيت من كلام الامام علي . وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلة كبيرة أو عذر شرعي . ولو احصيت حوادث الطلاق لرايت أكثرها في طبقات العامة

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه. وهذا التضييق ليس من الدين في شيء لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج واحاديث تأمر برؤيتها صريحاً [2] فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمتها الطوائف التي لا طلاق عندها

المعيشة العائلية

١ — الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الالبان وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والجبن ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم وأكثر البانهم ولحومهم من الابل وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة كالثريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ولهم من أمثال هذه الاطعمة نحو أربعين لونا

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد أو الخنافس أو العقارب واذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم فيطحنونه وكان حال

(١) الف باء ٣٤٨ و ٣٤٩ ج ٢ (٢) مشكاة المصابيح ٢٦٩

القرشيين قريباً من ذلك[١] وربما أكلوا القرامة ونحاتة القرون والاظلاف والمناسب من برادتها أو القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الابل[٢]

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على ألوان من الاطعمة لم يعرفوها فاشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فاحضره الى اصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعما ولم يعلموا ما هو فرآه رجل عرف مافيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين[٣] ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها[٤] وشاهدوا الارز فظنوه طعاماً مسموماً[٥] ثم مالبثوا أن أقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا مآكلهم ولاسيما الفرس فاخذوها عنهم كما أخذوا اكثر مبادىء الحضارة وكثيراً من العادات والآداب وليس في الشرع الاسلامي مايمنع تمتعهم بالطيبات من الاطعمة الا ما جاء النص بتحريمه

فاخذوا بأطراف الحضارة من أيام بني أمية وأول من قلد الاعاجم باسباب الترف معاوية فتنعم بمأكله ومشربه[٦] واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ولا سيما بعد أن كثرت الاموال بين ايديهم فأكلوا السكباج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه وكانوا يسمونه سيد المرق . والفالوذج وهو نوع من الحلوى وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها وتفننوا بمعالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل على أساليب شتى

٢ — اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاقبية[٧] وانما هي فارسية وكذلك النعال والخفاف ولكن بعض الخاصة كان يلبسها . وكانوا

(١) ابن خلدون ١٧٠ ج ١ (٢) كتاب البخلاء ١٨٣ (٣) الفخري ٧٤
(٤) ابن خلدون ١٤٤ ج ١ (٥) الهمذاني ١٨٨ (٦) الدميري ٥٥ ج ١
(٧) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢

يعلقون سيوفهم على عواتقهم وثيابهم على الاجمال قصيرة الى أسفل الركب(١)

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي فقد ذكروا أن احب اللباس اليه البرود والبياض والحبرة وهي ضرب من البرود فيه حمرة وكان كمه قصيراً الى الرسغ يلبس أحياناً حلة حمراء وازاراً ورداء والازار قصير الى أسفل الركبة ولبس الخف والنعل(٢) وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الارض من الخيلاء ومن أقواله «فضل الازار في النار»(٣) ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف على أن الذين كانوا يفدون على الشام أو العراق من اغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما في أوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم أن اول من لبس الخز الادكن من العرب عبد الله بن عامر وأول من لبس الدراريع السود المختار بن أبي عبيد وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم(٤) وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الاعاجم بعد الاسلام . والعادة أن يبدأ الامراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . وأول من أقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج(٥) وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الانسجة وأحبوا الوشي واكثروا من لبسه فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم واتخذوا كثيراً من البسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق وكان الاحنف يقول « لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف »(٦)

اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم قلدوهم بالالبسة وجعلوا ذلك بامر رسمي من اوائل دولتهم . فامر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم او يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وان يعلقوا السيوف في اوساطهم وان يكون اللباس الاسود عاماً فيهم وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الامويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب .

(١) سراج الملوك ٧١ (٢) تهذيب الاسماء ٦٠
(٣) الكامل للمبرد ٢٦ (٤) المعارف لابن قتيبة ١٨٧
(٥) الاغاني ١٠٤ ج ١٤ (٦) الكامل للمبرد ١٠٠

والبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهوالسميع العليم » (١) وبعث الى عماله فى سائر الاقطار ان يأمروا رجالهم بمثل ذلك (٢)

فاقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس بالملابس ولاسيما اهل الدولة ورجال الحكومة فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها. فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود (٣)واول من غير لباس العلماء على هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد (٤) وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ويختلف ذلك باختلاف الدول والاعصر مما لامحل لاستيفائه

اما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صنائعهم واحوالهم وطبقاتهم وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والحية والجوارب والنعال على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية الاحمر او الاصفر او الاخضر يصقلونها حتى تلمع وتشرق ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ولهم البسة يتخففون بها فى منازلهم واخرى يلبسونها في الاسفار وغير ذلك

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم ومن امثالهم « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم . رجل رأيته راكباً أو سمعته يعرب كلامه أو شممت منه طيباً »

والخضاب كان مستحسناً عندهم واصله هندي اخذه الفرس عن الهنود (٥) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ويقال ان أول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب (٦)وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض تعلموا فنون الخضاب فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة

(١) الاغاني ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقد الفريد ٧٤ ج ١
(٢) ظفر بردي ٤٣٧ والمقريزي ٣٠٧ ج ١
(٣) الاغاني ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢
(٤) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢ (٥) المسعودي ١١٥ ج ١ (٦) لطائف المعارف ٨

فضلا عن الخضاب الاسود وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت (١) وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر (٢) وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته فيبدو لاول وهلة كانه اسد والغ في الدم (٣) وقس على ذلك تفننهم بالخضاب للرجال والنساء ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن والاكثر يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ولا نعرف أحداً يبيض شعره بالكبريت

٢ ـ المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام أهل خيام وانعام يحملون منازلهم على ظهورهم الا من اقام منهم في مكة أو المدينة او الطائف أوغيرها من مدن الجاهلية ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم .فلما فتحوا الامصار تحاشوا سكنى المدن ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتا من القصب معسكراً لهم لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء كانهم محتلون الى اجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفا عليهم من الترف والرخاء ولهذا السبب ايضاً منعهم من الزرع . ثم اذن لهم بالبناء ولكنه اشترط الاقتصاد به فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم « افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة »(٤)

على أن ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات فما لبثوا ان تحضروا حتى تحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية الدول السالفة

اساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الامم ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الاجيال اما رأساً أواقتباساً . واهمها النمط البيزانطي في الشام ومصر والفارسي في فارس وخراسان والقوطي في الاندلس ومايليها. فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس فكانوا يخططونها على

(١) الف باء ٣٤٤ ج ٢ (٢) المعارف لابن قتيبة ٩٩
(٣) الاغاني ٣ ج ٤ (٤) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

ما عرفوه من الاساليب التي ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الاصقاع واختلاف العصور والدول وترجع تنوعاته الى ثلاثة أعصر كبرى :

أولا ﴿ العصر العربي الرومي ﴾ هو أقدم أعصر البناء في الاسلام وأساسه النمط البيزانطي وتنوع في أثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة أشكال (١) النمط السوري ومثاله الجامع الاقصى في القدس والجامع الاموي في الشام (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلي في سيسيليا بايطاليا ومن امثلته قلاع زيزا وكوبا وغيرهما (٥) النمط الاندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانياً ﴿ العصر العربي البحت ﴾ وهو يشمل الاشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الاصول التي نقلت عنها وهي قسمان (١) النمط المصري ومنه الابنية التي أقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن (٢) النمط الاندلسي وهو مابني في الاندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته أبنية اشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن

ثالثاً ﴿ العصر المختلط ﴾ ويدخل فيه (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها (٢) النمط الاسرائيلي العربي ومن أمثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض الكنائس (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولا سيما في اصبهان (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين (٥) النمط المغولي العربي كالابنية التي أقيمت في الهند باثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فمساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلا باختلاف البلاد والعصور وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس من الاكواخ الحقيرة الى

(1) La Civilisation des Arabes 597

القصور الفخيمة وسنأتي بامثلة من القصور وسائر الابنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة

حضارة المملكة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع بأسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية أدركت تلك الدرجات أولا في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة الى أواسط الرابع وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع. وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط القرن الرابع الى أواسط السادس

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة أي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور . والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم أولا عن المدن فالمباني ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة وأسباب الترف والرفاه

عمارة المدن

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامي تعد بالمئات وهي منتشرة في آسيا وافريقيا وأوربا ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ومنها ما بناه المسلمون لانفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٨٤ فصلا في المدن الاسلامية وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على أعظم تلك المدن البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد . واجلنا الكلام فيما بقي الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لانهم رأوا غلاء في الاسعار بغتياً لم يعهدوا مثله وزادت مساحة الارض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً يبع بمائة جنية أو مائة وخمسين جنيهاً أو أكثر . فكيف

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و١٤ من الهلال

لو علموا ان مساحة الارض الزراعيـة في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٢ نقلا عن ثقات مؤرخي العرب فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة او الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعثاً على هذا الاستخفاف والمسلمون أو العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه

على أننا لانلومهم اذا استغربوا تلك الرواية لان الناس يقيسون الاشياء بماعلموه من أشباهها فثروة القطر المصري اذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانها في القرنين الماضيين لاترى مايسهل علينا تصديق قول العرب بمساحتها الزراعية الى ثلاثة أضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولـكن لو قيل لاهل هذا الجيل ان مساحة الارض الزراعيـة بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين. أما لو قيل ذلك لاهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلا. لان مساحة أرض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان وهاك تقدير الدكتور كلوت بك بك لسنة ١٨٤٠[1] باعتبار الفدان

	أرض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
مصر السفلى	٢ ٢٤٩ ٠٠٠	١ ٥٥١ ٠٠٠	٣ ٨٠٠ ٠٠٠
« الوسطى	٨٥٦ ٨٢٦	٧٦٣ ١٧٤	١ ٦٢٠ ٠٠٠
« العليـا	٧٥٠ ٤٠٠	٨٤٣ ٦٠٠	١ ٥٩٤ ٠٠٠
	٣ ٨٥٦ ٢٢٦	٣ ١٥٧ ٧٧٤	٧ ٠١٤ ٠٠٠

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧ ٠١٤ ٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في أطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هـذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة

عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان فلو قيل في أواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدوا قولنا من الخرافات أو كما قال الدكتور كلوت بك « من عادات الشرقيين في المبالغة » لان عددهم في أيامه

(١) Aperçu Sur l'Egypte I. 265

لم يكن يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠ نفس فكيف يصدق زيادته الى أربعة اضعافه ـ لا نقول ذلك تحكما أو افتراضاً ولكننا نقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن ـ فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة بكتاباتهم . . . لاننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ومعها قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ولو سلمنا بامكان استثمار البقاع الرملية ـ فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » (أي نحو ٦٣٣٣٠٠٠ نفس) ـ هذا هو رأيه وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ولا يمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً أو ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه

وقياساً على ماتقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في ابان التمدن الاسلامي ـ وانما أنكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب مع أنها مبنية على احصاآت رسمية واقعية في أزمنة معينة لاجل تعديل الجزية أو الخراج وليست من قبيل الحدس أو الرجم بالغيب ـ الاحصاء الاول وقع في زمن الفتح على أيام عمر. ذكر المقريزي انهم احصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨٠٠٠٠٠٠ نفس فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤٠٠٠٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠ هـ ذكروا أنه خرج ليحصي أهلها وينظر في تعديل الخراج فأقام في ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير . وثلاثة أشهر في الوجه البحري فاحصوا من القرى عشرة آلاف قرية في أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية فتكون جملة ذلك على الاقل ٥٠٠٠٠٠٠ رجل وعلى متوسط مايلحق ذلك من النساء والاطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس

مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الارض الزراعية فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاآت الرسمية لاجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الارض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان أي نحو أربعة أضعاف مابلغت اليه مساحتها اليوم مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى أذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لاول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة أما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في امكنة أخرى أن الارض الزراعية نقصت في أيام ابن المدبر أي بعد قرن ونصف قرن الى ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع واشترطوا عدداً معلوماً منهم فاذا نقص نقصت غلة الارض [١]

ولا يتجلى لناوجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر. فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن أي يحدها من الشرق والغرب الجيلان والصحراء الشرقية والبحيرة لحكمنا باستحالة زعمهم . لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠ ٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء قاحلة . أما الارض الزراعية فمساحتها ١٧ ٨٢٦ ميلا مربعاً يخرج منها ٤ ٨٥٠ ميلا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها فالباقي ١٢ ٩٧٦ ميلا مربعاً أي نحو ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر في ابان تمدنهم ومما جاء من أخبارها القديمة أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيراً ـ ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة [٢] وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار

(١) المقريزي ١٠٠ ج ١ (٢) المقريزي ١٨٢ ج ١

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهة الشرقية الى البحر الاحمر واراضي البجة [٣] وكانت اطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكروه من هذا القبيل وان النيل كان أكثر فروعا واغزر ماء وأوسع فيضانا مما هو عليه اليوم هان علينا قبول أقوالهم وان كنا لانزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحارى المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً بنزع ما يغطيها من الرمال وارواثها بالترع المتصلة اليها من النيل أو الآبار الارتوازية نرى أقوالهم معقولة . ولانظن ذلك بعيداً ورجال الاعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني . واما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلا لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقريزي انه كان فى هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠٠٠٠ بيت في بعضها مائة انسان ومئتان اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست او سبع [٢] ومع ذلك فهى في تقديره لاتزيد على ثلث بغداد فكم تكون عمارة هذه . ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط وكانت الفسطاط تسمى « مصر » فلما صارتا مدينة واحدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر القاهرة » ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور

الاندلس

لما فتح المسلمون الاندلس كانت عامرة آهلة فاقاموا فى مدنها وزادوها عمراناً واشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة اشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هي من اعمال اندلوسيا واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن انها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢

(١) المقريزى ١٨٩ ج ١ (٢) المقريزي ٣٤١ ج ١

قبل الميلاد وتوالت عليها احوال شتى حتى فتح المسلمون الاندلس فنزلوا طليطلة ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة وزاد الامويون عمارتها بما انشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها فاتسعت مساحتها وكان محيط المدينة الاصلية ٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم باهله . فصار طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلا مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في ابان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الابنية فيها كما يأتي :

عدد	
١١٣٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	« القصر الكبير
٦٣٠٠	« أهل الدولة
٣٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٥٠٣	

وذكروا ان عدد الابنية بلغ في ايام ابن أبي عامر ٢٠٠٠٠٠ دار للرعية و٦٠٣٠٠ دار لاهل الدولة و٨٠٤٥٥ حانوتا غير الحمامات والخانات (١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة والاول أقرب الى الصواب. واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد أبنية القاهرة اليوم

على انك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن . وان دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة ـ على حين ان دور الاشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرانها على ٢٠٠٠ دار(٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد واما سكانها فكانوا يناهزون المليونين وسيأتي الكلام على قصورها

﴿غرناطة﴾ وأما غرطانة فكانوا يسمونها دمشق الاندلس لكثرة أثمارها واعنابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الاندلس بنهر يتوزع على دورها واسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها كما يتوزع نهر بردي في دمشق. وبلغت

(١) نفح الطيب ٢٥٦ ج ١ (٢) Gibbon I. 829

غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية واشهر ملوكها ابن الاحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبدالرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة ونتقدم الى ذكر القصور والمباني

القصور والمباني

قال ابن خلدون « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها وبالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ونظرنا الى ما بقي من أبنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والاندلس رأيناها أكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسون . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والامراء على اختلاف الدول والممالك عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها فضلا عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الاموال الطائلة فيجلبون اليه الاغراس من أطراف المعمور ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والازهار وغيرها مما ستراه

١ — مباني الامويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الامويين في الشام مايستحق الذكر الا «الجامع الاموي» الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة المسيحيون يصلون في نصفها الغربي والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع فاستقدم نحو ١٢٠٠٠ صانع من بلاد الروم تأنقوا في بنائه فانزلوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء خطت بأنواع الاصبغة الغريبة فمثلت أشجاراً وفرعت اغصانا منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الانيقة . فانفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٠ ذراع قائم على ٦٨ عموداً . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع . وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ووصفه

وصفاً مطولا وذكر تاريخه الى أيامه مما يضيق عنه المقام (١) ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن ويعد من أفخر ابنية المسلمين

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط وكانت من أفخم الابنية وفيها يقول الشاعر

بنى قبة الاسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول(٢)

٢ ـ مباني العباسيين

أول من شاد الابنية منهم المنصور فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة اليها وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراؤهم وامراؤهم فاقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً باسماء بانيها كقصور البرامكة في الشماسية وقصر ابن الخصيب وقصر ام حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة وقصر عيسى بن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور وقصر وضاح بناه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي وقصر الرشيد وقصر الامين وقصر ابن الفرات وقصر ابن مقلة غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا بالترف والرخاء . على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرا لا تراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة فبذل فيها الاموال الطائلة فأحدث أساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والسكين ذات الاروقة . وبنى ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٣) انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٤) أو نحو ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلا عن المتنزهات فبنى اسماعيل بن على متنزهاً انفق فيه ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٥)

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة ايضاً فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في أيامه فاتمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣ (٢) الكامل للمبرد ٢٨٧ (٣) المسعودى ٢٧٩ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٣٣ ج ٧ (٥) ابن الاثير ٢٨ ج ٦

أضاف اليه ما جاوره فوسعه وكبره وادار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة عملها ميداناً . وأخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه الى الى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠٠٠٠٠ دينار [1] وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشى فيه جواريه وحرمه وسراريه وما زال باقيا الى الغرق الاول الذي صار ببغداد . وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر فلازلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلازال معموراً وبورك من قصر
جنان وأشجار تلاقت غصونها وأورقن بالاثمار والورق الخضر
ترى الطير في اغصانهن هواتفاً تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته كمثل نساء قد تربعن في ازر
وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالماً بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فاتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة اذرع [2]

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع درآ فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام ايوانها وبين شجر بساتينها لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجوهر على شكل الثمار . وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً . ومثلها عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المديج مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه [3]

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية انفق في بنائه

(١) المسعودي ٣٢٨ ج ٢ (٢) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١
(٣) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

١ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب ـ ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨ ٠٠٠ دينار (١) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن

٣ — مباني الامويين بالاندلس

أما الاندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم وأكثرها في قرطبة وغرناطة ـ فمنها في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله. وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة ان القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والبديع . وقد غالوا في زخرفها واتقانها وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة (٢)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ذكروا انه لم يكن في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي في دمشق ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بانقاض الكنائس على توالي الاجيال . وأعجب ما فيه صومعته أو المأذنة قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى أعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً وعرضها في كل ترييع ١٨ ذراعاً

وتدرج الجامع بالاتساع بتوالي التجديد فيه حتى بلغت مساحته في أيام الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٩ (٢) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

صار طوله ٣٣٠ ذراعاً وزاد ابن أبي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ وأرضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من اللتين تليانها غرباً واللتين تليانها شرقاً ١٤ ذرعاً وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعاً وزاد ابن أبي عامر ثماني بلاطات عرض كل واحدة عشرة أذرع . وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ سارية من الرخام وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا . منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح

وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الاصفر الا باب المقصورة فانه من الذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيح دور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة . وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بابدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على راس الزج . وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت فوقه أغشية الديباج . وهو موضوع على كرسي من العود الرطب بمسامير الذهب . وقد أفاض صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك[1] وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ولا يزال على بنائه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة «الزهراء» بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة . وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته أو سواريه ٤٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع. وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بالوانها وأنواعها وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي

(١) نفح الطيب ٢٦٠ ج ١

المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها (١)

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار ولكن يظهر أن الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار فى السنة فاذا حسبنا ما انفقه ابنه الحكم فيما بقي من الاربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفقه هو غير المقدار السنوي المذكور - كان مجموع ما دخل فى بناء هذا القصر الفخيم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الاقل . ولا غرابة في ذلك لاننا اذا اعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه مايفوق الحصر من المرصعات والمذهبات وقد أدخلوا فيه شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه . وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و١٥٠٠ دابة . وأغرب من كل ذلك أن الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢)

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصراً لاقامته سماه « الزاهرة » ليكون معقلا له يحميه من أعدائه فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها اهراء ودواوين وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق فقامت الاسواق وتنافس الناس بالنزول في اكنافها تقرباً

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

من صاحب الدولة حتى اتصلت ارباضها بأرباض قرطبة واتصلت بهما الزهراء من الجهة الاخرى فاصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعددحناياها ١٨ حنية وابراجها ١٩ برجاً(١)

قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لايزال شكله محفوظاً الى الآن يقصده السياح من كل مكان بناه ابن الاحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فداناً على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها وفي هذا القصر كانت بركة السباع وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل

وبنى المنصور بن الاعلى قصراً فخيما في بجاية انشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجري الماء من افواهها وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى اغصانها اطيار من اشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين . وقد نظم ابن حمديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... واذاب في افواهها البلورا
أسد كان سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... اقمت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً والسنها اللواحس نورا
فكأنما سات سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعا فقدر سردها تقديرا(٢)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الاندلسي فانه انفق في بنائه بيوت

(١) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١

الاموال وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كانها بحيرة وبنى في وسطها قبة وساق الماء تحت الارض حتى علا فوق راس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها (١)

٤ — مباني مصر

مباني ال طولون

أنشأ بنو طولون في مصر ابنية فخيمة اشهرها الجامع الذي بناه احمد بن طولون لانزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له ميدانا كبيراً ولما توفي احمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين واصناف الشجر ونقل اليه الوادي اللطيف الذي ينال ثمره القائم ومنه مايتناوله الجالس من اصناف خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس واجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ويفيض منها الماء الى مجار تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الاحمر والازرق والاصفر والجنوي العجيب . وأهدي اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وزوقه باصناف الاصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه انهاراً لطافاً جداولها يجري فيها الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الاشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من أصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الانهار الجارية في البرج وجعل فيه أوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً

(١) سراج الملوك ٥٠

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه بأحسن تصوير وابهج تزويق وجعل على رءوسهن الاكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة باصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها أشباه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان هذ البيت من أعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً . وذلك أنه شكا طبيبه كثرة السهر فاشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك وقال « لا أقدر على وضع يد أحد على » فقال له « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعاً طولا في خمسين ذراعاً عرضاً وملأها من الزئبق فانفق في ذلك أموالا عظيمة . وجعل في اركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة وعمل فرشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرنح ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق [1]

مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر وهو عامر الى اليوم وقصوراً أشهرها القصران الشرقي والغربي وانفقوا على الاخير منهما ٢٠٠٠٠٠٠ دينار [2] فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ودار الديباج وغيرها . ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطىء النيل كمنظرة الجامع الازهر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ومنظرة الغزالة بجانبها ومنظرة السكرة ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة التاج ومنظرة باب الفتوح ومنظرة البعل ومنظرة دار الملك غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الآمر باحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيما يدل على مبلغ

(١) المقريزي ٣١٦ ج ١ (٢) المقريزي ٤٥٧ ج ١

حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيات نظمها فى ذكر المنظرة وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (١)

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ولا تزال قائمة الى اليوم

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من أعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت الى الخلفاء بالاسم . غير ما اندثر من قصورهم وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون عالياً يشرف على الجيزة كلها وصور فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الامير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لانه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم واليك أمثلة من ذلك

ثروة الخلفاء واهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بايديهم كانوا أكثر الناس ثروة فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (٢) والاصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها وللخليفة بيت مال خاص به ولكن الخلفاء تصرفوا باموال الدولة أولا لاعتبارهم انفاقها مساعداً على تأييدها ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر

(١) المقريزي ٤٨٦ : ج ١ (٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٦٣

أسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار اليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا ما بلغت اليه ثروة أمهات الخلفاء ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلا حاجة الى التكرار . وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال ـ ذكروا ان المكتفي خلف ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار هذا تفصيلها (١)

دينار	
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	من العين والورق والاوانى المعمولة
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الفرش
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الكراع والسلاح والغلمان
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الضياع والعقار والاملاك
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	« الجوهر والطيب وما يجري معهما

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً صفحة ١٦٧ سبب ثروة الوزراء ومقادير الاموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمارداني وابن كلس والافضل وابن شهيد واليك أمثلة أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد فكثرت ضياعهم « الابعديات والجفالك » حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠ ٦٧٦ ٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش (٢) ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المارداني في أواسط القرن الثالث للهجرة فملك أحدهم محمد بن على المارداني ما قيمته ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والامتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة (٣) وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً

أما العمال والامراء فقد كانوا يحشدون الاموال الكثيرة ولا سيما المفوضين منهم

(١) لطائف المعارف ٧٢ (٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٣) المقريزي ١٥٥ ج ٢

ويسهل ذلك عليهم لاطلاق ايديهم فى مصادر الجباية فيجمعون ماشاءوا وكيف شاءوا. وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء فخلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً من الدنانير والبهار اردبان بالمصري ذهباً [١] وبلغت غلة خالد القسري ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٢] وصاروا في عهد بني العباس اوفر ثروة ولاسيما بعد أن طمعوا بالاستقلال فخلف يعقوب بن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم و ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار [٣] وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم. وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالارطال والقناطير والصناديق ـ مثال ذلك ما خلفه الامير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلا من الزمرد والياقوت وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال و٢٤٠ ٠٠٠ مثقال ذهب و ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والاساور وستة قناطير فضيات و ١ ٢٠٠ ٠٠٠ دينار. فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الحواشي والاتباع ممن أثرى بالصناعة والادب أو التجارة فقد ذكرنا ثروة بعض النجار فيما تقدم فاعتبر ذلك في سواهم من الاطباء والمغنين والشعراء فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [٤] وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني صفحة ١٥١ ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه

نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الاموال في أيدي الناس أن يتوسعوا بالانفاق ويتنعموا بمعيشتهم فيتأنقوا بالطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية ويتنعموا بالالبسة الثمينة والرياش الفاخر. ثم يطلبون الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء الجوهرات والعقارات ويلتمسون سمة الشهرة فيقربون من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من أرباب الصحافة ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

١ — التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن اطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة ثم تعددت بعد

(١) المقريزي ٣٠١ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥
(٣) المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ (٤) سير الملوك ١١٣

الاختلاط بالاعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في أكثر اسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة . فكانوا اذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه ـ هموا بذلك من عهد الامويين وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم. فأبو موسى الاشعري كان يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويعتقدون اضرارها نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلا بما قاله عمر بن الخطاب « مدمن اللحم كمدمن الخمر ». فلما حكم الامويون ومالوا الى التنعم كان الفرس أحسن مثال لهم . وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم في ذلك ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون . ذكروا أن الحجاج ابن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال « اخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال « شهدت أيها الامير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً احضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد ونحمله اربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فاذا أطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس »(١)

على أنهم ما لبثوا أن رضخوا لتيار الترف حتى تكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً وبعد ان اكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها(٢) فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل(٣) واقتدى بهم سائر الامراء وأهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم حتى في أثناء الطعام وهم على المائدة وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً ارزاقهم جارية

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان اللحوم والطيور والفاكهة

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١

ولو بعد مكانه فيحملونه على البريد ينفقون فى ذلك الاموال الكثيرة(١) وكانوا يربون الطيور الداجنة على اطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد في لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب (٢) وتفنن الطهاة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحي وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة بالاحتفاء كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه فسأله الرشيد عن ذلك فقال « يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك » وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بالف درهم (٣) وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد ألوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر (٤) فاعتبر كم يحتاج اليه أحدهم اذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل (٥) وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملا تحمل الماء من دجلة لشرب عياله (٦) وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون اليه مخافة أن يطرقهم اضياف فكانت الاطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها (٧)

فنتج من الانغماس في الاكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية توالت على أهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما . وتسلطت السوداء على امزجتهم وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السوداء كما يتضح من مراجعة أخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم. واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة منهم في أيام بني أمية معاوية بن

(١) لطائف المعارف ٩٠ وابن بطوطة ٣ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١
(٣) المسعودى ١٩٩ ج ٢ (٤) تاريخ الوزراء ٣٥١ (٥) الفخري ٢٣٢
(٦) الفخري ٢٧٦ (٧) المقريزي ٣١٨ ج ١

أبي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الامين (١)

٢ — البذخ في الالبسة

كان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه أو ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها (٢) . وكان عمالهم في مثل حالهم اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٣) وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب فى أثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك أنكرها عليه وقال له « أكسروية يا معاوية ؟ » (٤)

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين أيديهم وخالطوا أهل الترف من الاعاجم فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعم باللباس . وأحب الامويون الوشي كما تقدم وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشي و ١٠٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل (٥) وفي أيامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي . وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من أصناف التجارة الى بغداد

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الارانب (٦) والابريسم حرير خالص والديباج نسيج حريري موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والاوداري والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره — يصنعون منها الاقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والابراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والنكك وغيرها

(١) المسعودى ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢
(٢) الفخري ٣٥ و٦٦ (٣) العقد الفريد ٦ ج ١ (٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ (٦) الف باء ١٨٧ ج ٢

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ويغالون في ترفيعها لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين ايدي الناس ولا سيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الالبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء ـ مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الالبسة وهو :

عدد	
٤٠٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٠٠٠	« الاثواب الخراسانية المروية
٨٠٠٠	« الملاءات
١٣٠٠٠	« العمائم المروية
١٨٠٠	« الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨٠٠٠	« البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب
١٨٠٠٠	« الابسطة الارمنية

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠ سراويل لم يستعملها ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل ديبقي ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سراويل ديبقي بالف تكة حرير

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة وكان الفاطميون يلبسون الفيلة أجلة في الخسرواني الاحمر المذهب . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز ويكسون بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقريزي ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال [1] ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير [2] وقس عليه سائر الملابس

(١) المقريزي ٤٠٩ ج ١ (٢) المقريزي ٣١٩ ج ١

٣ – الاثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ فيجلس عليه وهو على ما تقدم وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة اطراحا لابهة الملك . فما لبث المسلمون أن تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . وأول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدين فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء [١]

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر مالقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته. ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيما فلم يدر قيمته فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انه كان يساوي أضعاف ذلك المبلغ فلامه اصحابه على تفريطه به فقال « لوعرفت عدداً اكثر من الالف لطلبته » [٢]

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجوهر . وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمره الجوهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم [٣]

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكى لما كان يخافه من

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١ (٢) الفخري ٧٤ (٣) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢

مصير المسلمين الى الترف الآيل للسقوط . وكذلك أبو بكر وله السبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب (١) فلم ينفعهم ذلك كله فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا بأسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك فاكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من العقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه (٢) على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى (٣) فابدلها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران فاقتنوا الاسرة الذهب المرصعة بالجوهر أو الابنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي ونصبوا مناثر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر وعلقوا الستور المطرزة والموشاة وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت (٤) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته واثمنها . فحملوا الستور المعلمة من فسا والبسط والمصليات من تستر وبخارا والحصر من عبادان والمقاعد من دشت ـ على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية . والطاقم الارمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار (٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل

(١) الف باء ١٨٧ ج ٢ (٢) الاغاني ١٢٩ ج ٦ (٣) الدميري ٥٨ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٥) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

بالرقة والصفاء فيقال ارق من زجاج الشام واصفى من زجاج الشام[١] ـ اتخذوا ماتقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة[٢] ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها اشكالا وصوراً مما فى البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب ابياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة[٣] وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الاشعار على آنية البلور واطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها ـ يتفاوت ذلك شكلا ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر ـ كالبساط الذي كان لام المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها ياقيت وجواهر انفقت في صنعه ... ... ١٣٠ درهم[٤]

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد اشكالا من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها أحد منها ماينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق[٥]

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم[٦] وتفننوا في تزيينها وكتابة الاشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض. كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد وكان يخاف ان يرده فاهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فاذا لها من راحتيه شميم
اعلقت نفسي من رجائك ماله عنق يحث اليك بي ورسيم
ولربما استأسيت ثم أقول لا ان الذي ضمن النجاح كريم[٧]

على أن كتابة الاشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بني أمية[٨]

(١) لطائف المعارف ٩٥ (٢) الاتليدي ٩٨ (٣) الاغاني ٤١ ج ١٥
(٤) المستطرف ١٣٠ ج ١ (٥) المسعودى ٣٦٦ ج ١ (٦) الاغاني ٨١ ج ١٢
(٧) المسعودي ١٩٦ ج ٢ (٨) العقد الفريد ١٨٤ ج ٣

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الاحمر القاني ويسمى البهرماني . ويتلوه الاحمر المشرقي الرماني ثم الازرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني . وبعده الاصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الاشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة ـ هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته

واكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولهم مأخوذ من غنائم الفرس لانهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الاجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الاكراد فانهم غنموا سفطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون الفاً[١]

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالاثمان الغالية فاشترى الرشيد فص ياقوت احمر باربعين الف دينار وكان قديماً ويعرف بالحيل والملوك تصونه فنقش عليه الرشيد اسمه[٢] واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين الف درهم (٣) وعرض احد تجار المصوغات ببغداد على يحيي بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم (٤)

وكثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلا من المبالغ الكبيرة فاذا عزم احدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلا فبدلا من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وانفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنك نوط

وكان الامويون يرغبون في المجوهرات ايضاً وقد رصعوابها الحلي وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم . أما العباسيون فبالغوا في ذلك

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٣ (٢) المسعودي ٣٠٠ ج ٢
(٣) الاتليدي ١٤١ (٤) الطبري ١٨٩ ج ٢

حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت اخت الرشيد [١] ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته [٢]

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره الا الله يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما أخرجوه من خزائنهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٠٠٠ قطعة ديباج و١١٠٠٠ كرا غند و ٣٠٠٠٠ سيف وهو بعض ما كان في دار الخليفة ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد انكر ابن خلدون ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة [٣] واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لان المسعودي هو الذي اخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى . والطبري أورد أخباراً كثيرة تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والادب المتقدمين كاصحاب الاغاني والعقد الفريد والكامل والمعارف وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه ـ حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه « أن المأمون اعطى بوران في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وقد أوقد الشموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت [٤] ويلوح لنا ان ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية انما هو الركوب بحلية الذهب وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله [٥] فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من اعرق الخلفاء فيه

بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والاندلس . فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية أخذت بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر وكللوا المزيرة

(١) الاغاني ٨٣ ج ٩ (٢) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (٣) ابن خلدون ١٥ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٥) المسعودي ٣٠٥ ج ٢

بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رءوسهم الخوذ وبايديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمروان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش . وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة (١)

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسروج أو الدرق أو الكسوات أو الادم أو الشراب او التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريزي في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه (٢) ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلي والجواهر عند الفاطميين

فما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وبية جوهر قال الصياغ أن لا قيمة له وأصل ثمنه ٧٠٠ ٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود وصحونا من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨ ٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير

(١) المقريزي ٤٧٢ ج ١ (٢) المقريزي ٤٠٩ — ٤٢٥ ج ١

المجراة المنقوشة بأنواع النقوش و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مائة كأس بادزهر وأشباهها على أكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة. وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الوانا و ١٠٠ قاطر ميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعممات بجواهر من أيام المعز . وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس وعدداً كبيراً من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد . والكلوتة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر لا قيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف. من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة

٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠ قطعة خسرواني احمر مطرز بابيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر أنواع الحرير وعليها أشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقى المدنية والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن على ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار . وفي خزانة الخيم أنواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من أشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله اهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهباً منها

مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن أن ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في الاعصر الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق [1] ولذلك قالوا من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وأمثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي أقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره ـ قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو ١٧ مثقالا أنا لا اشك لاني رأيته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير » [2]

بذخ الاندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله فالمنصور بن ابي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم . فاراد المنصور أن يبغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ثم أمر باربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة وملأ بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فاجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقالبة عليهم الاقبية والمناطق من الذهب والفضة وبيد ٥٠٠ منهم اطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ أطباق من فضة فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لاخذ الذهب والفضة

(١) ابن خلدون ٣٠٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ١١

منـه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ما فيها وجاؤا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوما فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هـذا قصراً من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على رءوس الرجال استجلاباً لحبها (١)

وأغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لأم أولاده الرميكية الملقبة اعتماد وقد رأت ذات يوم نساء البادية باشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت « ياسيدي اشتهي أن افعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر وجعل لها قرباً وحبالا من الابريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين (٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام فى عصر الترف فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلا من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك. وكانوا يقيسون الاسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الاضواء فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة الف من شمع في الشهر (٣) واشتهر محمد الامين بكبر شمعه . ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفـاء والملوك والامراء ولـكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق ـ راجع الجزء الثانى من هـذا الـكتاب ١٨٣

٤ — التسرى

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن . وقد علمت ما كان من تكاثرهن والانجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر . ونتكلم هنـا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري التزوج فاذا ولدت الجارية لاحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري فمع كثرتهن في صدر الاسـلام لم يتزوج الراشدون جارية (٤) ولـكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفى الامام علي عن ٤ نسوة و١٧ سرية (٥) وكانت تلد الجارية لاحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري فنهى عمر عن بيع أمهات الاولاد (٦) وكانت العرب في كل حال تحتقر ابناء الجواري حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد (٧) فرغب الناس في التسري

(١) نفح الطيب ٧٣١و٧٣٢ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٢٠٨ ج ١
(٣) ابن خلـكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٢٦و٩٢ ج ٣
(٥) ألف باء ٣٤٧ ج ٢ (٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٧) ابن خلـكان ٣٢٠ ج ١

وليس المسلمون أول من اقتنى السراري فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين والسرية عندهم أحط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا في أول أمرهم كالعرب يكرهون التسري حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه (١)

وزادت رغبة المسلمين فى التسري في ابان الحضارة حتى أصبح اكثر ابناء الخلفاء من أولاد الجواري(٢) واكثر نساء أهل الدولة منهن واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء . فعمدوا الى اقتناء السراري ومن ولدت له تزوجها أو أعتقها. فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ذكروا أنه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعاً(٣) وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن فاهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة . (٤) وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة(٥) غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية(٦) منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب (٧)

وأصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند أم جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها(٨) وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيهات من أهل اليسار فاتخذن الجواري المطعومات أو الغلاميات ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء فى ذلك حتى الف القاهر بالله العباسي جوقاً من الجواري بقد واحد البسهن الفراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان(٩)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم (١٠) وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الابكار (١١) ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم مخل الا الخليفة وأهله واولاده غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين (١٢) ويقال نحو ذلك في

(1) Gibbon II. 205 (٢) الجزء الرابع ١٥٣ (٣) المسعودي ٢٧٩ ج ٢
(٤) الاغاني ١٣٣ ج ١٩ (٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١ (٦) الاغاني ٨٨ ج ٩
(٧) الاتليدي ٦٧ (٨) المسعودى ٢٠٨ ج ٢ (٩) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
(١٠) المقريزي ٣٦ ج ١ (١١) المقريزى ٤٨٥ ج ٢ (١٢) المقريزي ٤٩٧ ج ١

السلاطين المماليك بمصر وبني امية في الاندلس مما يطول شرحه ولا يزال مثاله عند بعض أمراء الشرق وملوكه الى اليوم

أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون في رفع اثمانهن وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف أو مائة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك فابتاع الذلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم (١) (نحو ٧٠ ٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمائة الف دينار (٢) وجارية اخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦ ٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل . وطلب محمد الامين الى جعفر بن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها بذل فابى فامر فاوقروا قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (٣) أي أكثر من مليون دينار ـ وهذا اذا صح كان أعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الاموي سلامة المغنية بعشرين الف دينار وبيعت الجارية ضياء بخمسين الف دينار واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين الف دينار وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها الصالحية بعشرة آلاف دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهن

٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن يحومون حول الخليفة وأهل الدولة فلما توفرت الاموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الاحدوثة وهم أهل اريحية يستفزهم الاطراء والاستنجاد فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك الملاذ فبذلوا

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٢
(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغاني ١٤٥ ج ١٥

الاموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الاجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المثقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الارزاق فكان الامويون يعطون بالالف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل واذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الالوف أو مائة الف أو مئات الالوف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام. وهو أول من فعل ذلك من المسلمين غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠ ٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الامويين وامرائهم واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الاموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) ومن اسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية نخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى احد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها (٤)

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم اوفر فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة أو يهدون الغلمان يحملون بدر المال أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب أو يولون الولايات والاعمال وتزداد جوائزهم اذ استخفهم الطرب أو استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (٦) والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور اذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في أعمامه ووجوه قواده ليقطع

(١) الاغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢
(٣) الاغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢
(٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١

السنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب اسماء أولاد المهاجرين والانصار وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (١) واعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء (٢) وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار (٣) وطرب يوما فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم (٤) واعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة ابيه مالا ارسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٥) واعطى الامين الى سليمان بن ابي جعفر مليون درهم (٦) واختص الامين من اساليب السخاء بانه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهباً أو فضة وكان قصره على شاطىء دجلة فاذا جاءه شاعر أو طالب في زورق وأخذته الاريحية واستخفه الطرب قال « أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة » وقلما كانوا يفعلون ذلك والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بابي محمد التيمي فانه مدح الامين بقصيدة أطربته فامر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا فقال « نعم ياسيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل « أنت مجنون من اين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والف كر حفظة (٨) وفرق المأمون فى ساعة ٢٦٠٠٠٠٠٠ درهم ومدحه اعرابي فاجازه بثلاثين الف دينار (٩) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١٠) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء وانما ذكرنا اعظمها لبيان مبلغ ذلك فى ابان التمدن

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه ابيات يقولون ان أبا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الالقاب ابوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ... ماكان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم فى كفي خليفتنا ... هذا فانفق في الاقوام القابا

(١) سير الملوك ٦٥و٦٦ (٢) الاغاني ٩٨ ج ١٨
(٣) المستطرف ١٣٥ ج ١ (٤) الاغاني ٨٨ج٩و١٢٤ج ١٧
(٥) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٦) المستطرف ١٣٣ ج ١
(٧) الاغاني ١١٨ ج ١٨ (٨) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١
(٩) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٠) الاغاني ٣ ج ١١

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسي الاول انما زها بالبرامكة وهم الذين رغبوا الخلفاء بالسخاء، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور والثروة لم تنضج في أيامه ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال فقال خالد « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم عن أن يسمي به أمثال هؤلاء المؤملين لان فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل ادباً ولكننا نسميهم الزوار» وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك ... فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله ... بلفظ على الاعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن ... وان كان فيهم نابه وجليل
فسماهم الزوار ستراً عليهم ... فاستاره في المهتدين سدول

فاعطاه خالد عن كل بيت الف درهم (١)

وكان ابنه يحيي بن خالد اذا ركب أعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم (٢) ويروون من أخبار سخائه ماهو أشبه بالخرافات منه بالحقائق نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب وهي تمثل سخاء يحيي أحسن تمثيل . وذلك أن البرامكة لما نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم فمن ذكرهم انما يذكرهم سراً . وظلوا على ذلك فى أيام الامين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلا ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع فقال الرجل وهو غير هائب «للبرامكة عندي اياد خضرة فان امر أمير المؤمنين حدثته ببعضها» فقال «هات» فقال « أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع داري وأملقت الى غاية فاشير علىّ بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبياً فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي فجلست معهم اردد فى صدري ما اخاطبهم به فتحيد نفسي عن ذل المسألة واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمت معهم ودخلوا داراً كبيرة فدخلت فاذا يحيي بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم فى يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر

(١) الاغاني ٣٦ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢ .

فتبخروا وأقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك فوضع بين يدي كل واحد واحدة فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كمه والصينية تحت ابطه ويخرج فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك فغمزني بعض الخدم وقال خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت أمشي وألتفت خوفاً من أن تؤخذ مني ويحيى يلاحظني من حيث لا افطن . فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية فجئته فأمرني بالجلوس فجلست فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكى ثم قال : علي بموسى . فجاءه فقال يابني هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الايام بصرفها فخذه اليك فاخلطه بنفسك فأخذني وخلع علي وامرني بحفظ الصينية لي فكنت في ألذ عيش يومي وليلتي . ثم استدعى أخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الي هذا واريد الركوب الى دار أمير المؤمنين فليكن عندك اليوم فكان يومي مثل أمس فأقبلوا يتداولونني وأنا قلق بأمر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم . فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي وليلتي فلما اصبحت جاءني خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ذهبت الصينية وما فيها فليت هذا كان من أول يوم . وقمت والخادم يمشي بين يدي فأخرجني من الدار فازداد مابي ثم ادخلني الى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون فى الديباج والستور وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار وسلم الي الخادم صكا باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك فاقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الآن . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين وألزمني من خراجهما مالا يفي به دخلهما فكلما لحقني نائبة قصدت دورهم فبكيت »

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ويقرر خراجه على ما كان في أيام البرامكة . فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال له المأمون « ألم استأنف بك جميلا » فقال « بلى ولكن هذا من بركة البرامكة » فقال « امض مصاحباً فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١)

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة وتوسعوا في السخاء حتى

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدى ١٣٢

عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة فلما قتل جعفر وقبضت أموالهم وجدوا ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك (٢) . ومن فنون سخائهم أن الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يجريه الله على يده ويركب في الليل أو في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال « اردت أن يصل بري الى من لا يصل الي ولا أعرفه ولا يعرفني » فاذا وجد أحد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفي أمين جالس لئلا يصالحه على بعضها . ولا يعطي لاحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها (٣)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرمكة آل الفرات في أيام المقتدر فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء وأهل الفاقة وقد نكبوا كما نكب البرامكة ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم فاصبحوا مضرب الامثال في الكرم. ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ولكنها صحيحة على اجمالها ـ قال السلطان العادل الايوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور « يا خوند ولأي شيء ما يكذبون عليك ؟ » (٤)

السخاء على الشعراء والمنبين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الاسلام لاسباب تقدم ذكرها ويشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدأ أو رأي . وتعودوا أن يسموا ما يعطى للشاعر جائزة أو صلة كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة أو راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانهة وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة أو الامير في يوم من السنة.

(٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ٢٢ (٤) نفح الطيب ٤٧٢ ج ١

وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله فيما تقدم ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة

أول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية واسخاهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد ابيات الشعر وأعطى على كل بيت الف درهم (١) واقتدى من جاء بعده منهم . أما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠ ٠٠٠ درهم وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحي خيالها » (٢) ومدحه سالم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج »

فاراد ان ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ الا ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ويقال انه اعطاه اياها (٣) والغالب انه اعطاه ١٠٠ ٠٠٠ فقط وانما أضيفت الالف الاخرى خطأ من النساخ

وكان المنصور قبله بخيلا على الشعراء اذا أحب أن يعطي شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين دينارين ليعطيها له (٤)

أما الرشيد فاعطى مروان كما كان يعطيه المهدي أي مائة الف درهم (٥) واعطاه مرة ٥ ٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنويا مقداره ٥٠ ٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (٦) وفاقهم المتوكل في ذلك لانه أعطى حسين ابن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو اول من اعطى ذلك (٧) وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك (٨)

وتشبه الوزراء والامراء بالخلفاء فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز (٩)

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعاً في اجازة الشعراء وخصوصاً الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

---

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغاني ١٤٨ ج ١٧ و٣٩ ج ٩
(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢
(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١
(٤) الاغاني ١٢٨ و ١٣١ ج ٩
(٥) الاغاني ١٩ ج ١٢
(٦) الاغاني ١٥٧ ج ٣
(٧) الاغاني ١٨٤ ج ٦
(٨) الاغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١
(٩) الاغاني ١٦٤ ج ١١

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء (١)

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال اعطاه دابته (٢) وقد فاق البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء فقال شاعرهم ابان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما ناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره (٣) وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والامراء فان يزيد بن مزيد اعطى نصف ماله لشاعر (٤)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين فقد اعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠٠ دينار لانه اطربه . واعطى الامين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠٠٠ درهم لانه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مائة فراش (٥) وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مصر لانه اطربه بغنائه (٦) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية وان لم يبلغوا شأوهم

٦ — المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال ان الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم اسيا . على أن عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب فان جماعة منهم حرموه على انفسهم واهلهم واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه واقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء وعاقبوا بائعيه وكسروا أوانيه ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أمية حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر وقال له « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها باجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب

(١) ابن خلكان ٤١١ ج ١ (٢) الاغاني ٨ ج ٥ (٣) الاغاني ٧٣ ج ٢٠
(٤) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٥) الاغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥
(٦) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤

قاتل حمزة (١) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد ابن عقبة ويزيد بن معاوية وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم والعباس بن عبد الله بن عباس وقدامة بن مظعون وعبد العزيز بن مروان وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي وابى محجن الثقفي وغيرهم (٢)

ومما ساعد على نشر الخمر بين المسلمين أن بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد (٣) والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم . وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة فخوفه اصحابه من الناس فامسك . وقد افسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الاعلى (٤) على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه (٥) واشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الاموي والمهتدي العباسي وهي لا تزداد الا انتشاراً باتساع اسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري . حتى صاروا يشربونها جهاراً . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء واهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوغات لشربها فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فاجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ وفي أي أنواعه حلال وأيها حرام ويقال بالاجمال ان أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه (٦)

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق استحضاره وهو عصير بعض هذه الاثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف) وقد يضيفون اليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من احدهما مع الحب على النار (٧) وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة وربما صنعوا الخمر منه واذ صفي في القناني صعب

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢ (٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣
(٣) الاغاني ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣
(٤) ابن الاثير ١٢٤ و١٣٦ ج ٥ (٥) المقريزى ٢٩٧ ج ٢
(٦) ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ (٧) كتاب البخلاء ٥١

تميزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاب العسل (١) فمن أحب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها وآخرون يحللون شرب الخمر الا اذا ادت الى السكر (٢) ولكن الاكثرين حكموا بتحريمها ولهم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا انهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونه بالارطال واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما أتوا فى سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين. وافظع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول «اشتهي أن أرى غلامي فلاناً طائراً في الهواء» فيرمي ذلك المسكين بالمنجنيق ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول « اشتهي أن اشم رائحة فلان وهو يشوى » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى (٣). وكتب التاريخ والادب مشحونة باخبار مجالس الشراب وهي في الغالب مجالس الغناء ويندر أن يترفع خليفة أو وزير عنها ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل واكثرهم نفوراً منها المنصور والمهتدي. واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر (٤) واشتهر بمقاومتها الحاكم بامر الله وكثيراً ما أمر باراقة الخمور واراقة العسل حتى لا تصنع منه

أما العامة فانغمسوا في المسكر وشربوه على انواعه شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكامهم فكيف اذا كانوا يشربون والغالب في شاربي النبيذ ان ينبذوه في بيوتهم وبعضهم يشربه عند اخوانه وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة وأكثر اصحابها من اليهود وقد يشربون الخمر في الاديار وخمرها مشهورة بجودتها

٧ — التهتك

وطبيعي فيما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتورها شيء من التهتك والفحشاء وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في

(١) الاغاني ٤ ج ٥ و١٩٢ ج ٤ و٣٥ ج ٢
(٢) العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١ .
(٣) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١ (٤) المقريزي ١٥٤ ج ٢

المتحضرين لسكون خواطرهم وتوفر اسباب الرغد والتنعم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا (١) ولكن ذلك شأن الحضر منهم لان البدو أقرب الى صحة الآداب فاعتبر كم تكون أسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجواري ويتفشى الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن .فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاؤون عند الحاجة (٢) وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (٣) وأصبح أهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم (٤) ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (٥)

وأقبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم وظهر ذلك على الخصوص في أيام الامين وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الارقاء بالاسر أو بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجواري وغالوا في تزيينهم وتطييبهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (٦) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٧)

وكثرة الجواري في بعض القصور جرهن الى التفنن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر (٨) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء أو لاسباب

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢
(٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢
(٤) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١
(٥) المقريزى ٨٩ ج ١ (٦) تزيين الاسواق ١٦٣ (٧) المقريزى ١٠٤ ج ٢
(٨) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧

أخر كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج (١) ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ـ والعفاف سياج العمران

ابهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ونريد بها مظاهر الدولة في ابهج احوالها وافخم اطوارها والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية اسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها بها رأينا أن نحصر كلامنا عن الابهة في العصر العباسي مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

١ — مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلا وابهة باختلاف الدول وفي الدولة الواحدة باختلاف اطوارها وفي كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم باسمائهم لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول . وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل وكان عمالهم في الامصار على نحو ذلك ـ على أن العمال نظراً لاقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رأوه من أحوال تينك الدولتين كانوا أقرب الى مظاهر الابهة ، والخلفاء اذا علموا بذلك أنبوهم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن ابي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصراً وجعل عليه باباً فأرسل اليه رجلا من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة فتدرج الخلفاء والامراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب ـ بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان وأعانه عليه امراؤه في العراق ومصر وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك

(١) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

تلك البلاد قبلهم واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الابهة بمن قربوهم من الفرس فادخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الاكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة أو المناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً

على أن مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة فمعاوية بن ابي سفيان (١) وأبو جعفر المنصور (٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس . والمراد هنا بالاكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا إن الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد لان الاسلام كان لا يزال ديناً فلما جعله الامويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصوراً لانفسهم نصبوا بها الاسرة والكراسي وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالاسرة أول من اتخذها معاوية قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس وأما الكراسي فيظهر أنه قلد بها مرازبة الفرس لان أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن ابيه عامله على فارس (٣) فلعله نقلها الى الشام وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً ـ وقس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجلس وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بدائرة . وأصبح لبعض كبار الرجال دوائر خاصة باعماله تشبه ما للخلفاء من دوائر الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم (٤) وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران دار خاصة ودار عامة يجلس الخليفة في الاولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الامراء أو الملوك . وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس في إبان الحضارة كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ويكسو أرضه

(١) المسعودي ٥١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١١ ج ٦
(٣) العقد الفريد ٤ ج ٣ (٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه وفي اطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع(١) ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو باشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو انهر أو جبال . وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة (٢) يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل ينزل بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الاسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص(٣) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الاندلسي كانوا يضعون أمامه في المجالس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر (٤) . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء (٥) أو يسترون عنهم وراء شباك مخرم . على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف فيضاف اليه في الشتاء مناقد النار يستجر فيها النـد والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على اشكالها (٦)

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً فان لم يؤذن له لم يعدها (٧) وربما اقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الادباء أو الشعراء أو غيرهم(٨) أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن ابيه في العراق أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب(٩) وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الامير يؤذن أولا لاشرفهم

(١) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣ (٢) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١
(٣) المقريزي ٣٨٥ ج ١ (٤) نفح الطيب ١١٢٨ ج ٢ (٥) الاغاني ٩٩ ج ٣
(٦) ترتيب الدول ١٢٣ (٧) العقد الفريد ٢١ ج ١
(٨) الاغاني ٦٠ ج ٥ (٩) العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١

نسباً واذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سناً فاذا تساووا في السن قدموا أكثرهم أدبا وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية

وكانوا فى ايام بني أمية وفي أوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة أو الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن فاما أن يأذن لهم أو يصرفهم فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثانى والثالث الخ [1] ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . وأول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد فاتخذ في قصره بيوتاً للاذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية [2] فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذناً لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والقى التحية . وكانوا في أول الاسلام يحيون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة أو الامير أو الوالى «السلام عليك» ويكرهون قولهم « عليك السلام» لانها تحية الموتى [3] وقد يضاف الى التحية كنية الامير أو الخليفة ولا يزيدون على ذلك فلما خالطوا الاعاجم ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس هموا بتقليدهم. وأول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال« ينبغي أن يكون بين الامير ورعيته فرق » وألزم أهل عمله أن يؤمروه أي يحيوه تحية الامراء وهي « السلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته » [4] أو « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة « السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » أو «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » [5] ومازالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له . والخدمة تختلف بين أن تكون باحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية وكانوا في أوائل الاسلام يقبلونها عند البيعة أو

(١) الاغانى ٧٠ ج ٦ (٢) لطائف المعارف ١٤
(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ (٤) الاغاني ٣٥ ج ١٢
(٥) المقريزي ٢٨٨ ج ٢

تجديد العطاء وعند العفو أو الوداع. وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء. ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكفهم فصار التقبيل للاكمام والعتبات على حسب الاقتدار. واذا أراد الخليفة تشريف أحد قواده منعه من تقبيل يده أو كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة فجذب يده منه وقال « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » (١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال. فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه (٢). وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لانه سبه قبل خلافته فرأى منه رعاية وحلماً فلم ينالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته (٣) وكذلك فعل ابراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته (٤) وكان اهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم ويتولى اجلاسهم الحاجب أو الآذن وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي. وأما في الدولة العباسية فصارت الافضلية لبني هاشم وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسي ويقعد بنو أمية اذا حضروا على الوسائد تثنى لهم (٥) لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس بعد ان نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٢٥٠ هـ (٦) ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من أهل الدولة وغيرهم وتتفاوت مراتب هؤلاء وتتباين على مقتضى الاحوال مما لا حد له

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس لما علمته من سذاجة الراشدين وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه او كنيته فيقولون يا عمر أو يا معاوية أو يا علي لا يرون بذلك بأساً وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب لاسباب تقدم بيانها. فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة عمل الامويون على التشبه

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٩
(٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١
(٣) ابن الاثير ٤٢ ج ٦
(٤) الاغاني ٩١ ج ٩
(٥) الاغاني ٩٢ ج ٤
(٦) ابن الاثير ٥١ ج ٧

بالدول المستبدة وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن ابيه فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » (١) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق واول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون اسلافهم واول من تجبر الوليد بن عبدالملك فكلف الناس ان لا يكلموه كما كانوا يكلمون اسلافه وقال بعد كلام « واني اعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك الا اتلفت نفسه فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » وقال له رجل من بني مرة يوماً « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فامر به فوطىء حتى مات فاتعظ الناس وهابوه (٢) وهو أول من منع الناس ان يكاتبوه بما كانوا يكاتبون اسلافه أو يكاتبون بعضهم بعضاً

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء ان لا يدعى لاحد في حضرتهم (٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة ـ ثم صارت رسوم ارباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لاحد من خلق الله ممن يدخل عليهم (٤) فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه أي لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة ان يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم « ما أنعمنا بك يا أبا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب (٥) فيذكر الرجل ما جاء من أجله واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتاً

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء حتى اباح المأمون الكلام لاهل مجلسه للمناظرة بين يديه (٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . أما مبادأة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها احمد بن ابي دؤاد وزير المعتصم (٧) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم حتى ابيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم وأول من أباحها المتوكل على الله في اواسط القرن الثالث للهجرة (٨)

(١) العقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج ٢
(٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤
(٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١
(٥) ترتيب الدول ٩٢ (٦) الاغاني ٣٦ ج ١٤ والمسعودي ٢٥٧ ج ٢
(٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١ (٨) المسعودي ٢٦١ ج ٢

ومن آدابهم في ذلك المجلس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة (١) واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغى الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً وابن سحرة مصغ فصك جبينه حجر غائر فأدماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع حتى نبهه معاوية الى ذلك فاجابه « ان حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاءه (٢)

والخلفاء لا يعزون وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف اصبح ولا كيف أمسى ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم (٣) ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها (٤) . وقد قالوا في الاحتراس من مخاطبة الملوك « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالاخرس » (٥) ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكهة في اطباق الخيزران وكتب اليه « اسعد الله امير المؤمنين واسعدني به انى دخلت الى بستان لي افادنيه كرمك وعمرته لي نعمك قد أينعت اشجاره وآتت ثماره فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في اطباق القضبان ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لانه اسم امه (٦)

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في أول الاسلام باللغة العربية الفصحى فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحاناً . فكان الامويون يرسلون أولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم وقد احسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحاناً وكان ابوه يكره اللحن ومن اقواله « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه » ومنها « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك وسأله سائل « لقد عجل اليك الشيب يا امير

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٣ (٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢ (٣) ترتيب الدول ٦١
(٤) ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ (٥) ترتيب الدول ٩٨
(٦) فوات الوفيات ١٣ ج ٢

المؤمنين قال « شيبني ارتفاء المنابر وتوقع اللحن » وكذلك كان سائر بني امية - وللوليد أخبار في اللحن مضحكة (١) . وكان عمال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن احياناً (٢) فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس في الاعراب وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم كابي حنيفة النعمان وابي عبيدة وغيرهما

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجاباً ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم . وأول من احتجب معاوية بعد اقدام البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ على قتله غيلة وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه فلما شفي ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة واقتدى به الخلفاء بعده في اوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس (٣)

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد ازدشير فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة اذرع وبينها وبين الجلساء عشرة اذرع فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال فاتخذوا عدة استار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة أو اربعة وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضاً (٤) وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر (٥)

كذلك كان شأن العباسيين من ابي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده الا الهادي فانه لم يحتجب عن أحد (٦) على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة وليس عن الخاصة الا احياناً . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه أو ندمائه واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس

علامة الصرف

واذا أراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة

(١) العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١
(٣) المسعودي ١٠٦ ج ١
(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدي ١٣٣
(٥) الاتليدي ١١٥ (٦) الاغاني ١٦ ج ٥

فارسية وضعها كسرى انوشروان فكان اذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون . وتابعه ملوكهم على ذلك فكان فيروز يدلك عينيه وبهرام يرفع رأسه الى السماء(١) وقلدهم فيها المسلمون من أيام بني أمية فكان معاوية اذا أراد صرف الناس قال « اذا شئتم » أو « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله « على بركة الله » وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلاسه أنه يريد انصرافهم(٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بني أمية وامرائهم فكان يزيد بن هبيرة اذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون

أما بنو العباس فقد كانت أمارة السفاح منهم أن يتثاءب ويلقي المروحة من يده(٣) وكانت علامة المأمون أن يعقد اصبعه الوسطى بابهامه ويقول « برق يمان برق يمان » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

٢ — مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من أهل الاخبار والنوادر والادب والشعر يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة(٤) يقيمون أناساً يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي يلتمسون بذلك التوسع بأسباب الدهاء وافانين السياسة كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على أنهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من اصحاب الاخبار والشعر يجالسونه في أوقات معينة أو إذا دعاهم في ساعة قلقه أو ارقه . وقد يكون ذلك في أواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له(٥)

(١) حلبة الكميت ٢٦ (٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١
(٣) الاغاني ٢٠٦ ج ١٨ (٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ (٥) المسعودي ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلون أهل الادب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء ادلة عديدة على ذلك فكان كثير الملاطفة للاصمعي والاجلال له فاذا خلا به سأله واستفاد منه علماً وأدباً فيقول الرشيد عند ذلك « هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . وأكل ابو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم فقال له « اتدري من يصب الماء على يديك ؟ » قال « لا » قال « أنا » قال « أنت يا أمير المؤمنين ؟ » قال « نعم اجلالا للعلم » (١)

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي وكيف انتصر الامين للكسائي والمأمون لسيبويه وما جرى من الجدال في ذلك بحضرة الرشيد فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث صفحة ٧٩

ومن أدلة اجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرضون ابناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاخبار ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه اخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار(٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال انه اوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين ينبغي أن يتحداها سائر الآباء وهي :

« يا احمر ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . اقرئه القرآن وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباها فعليك بالشدة والغلظة »(٣)

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو واتفق ان الفراء اراد أن ينهض

(١) سير الملوك ٧٩ (٢) المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الادباء ٤٢
(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢

ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له فتنازعا ايهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه فلما دخل عليه قال المأمون « من اعز الناس ؟ » قال « لا أعرف احد أعز من أمير المؤمنين » فقال « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فرداً » فقال « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت ان ادفعهما عن مكرمة سبقا اليها أو كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها »(١). وعهد المتوكل بتعليم ابنائه الى ابن السكيت (٢) وتعلم عبد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرد وثعلب واحمد بن سعيد الدمشقي (٣)

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء فقد اجزلوا لهم الاعطية وعينوا لهم أوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء واغراضهم واحوال السياسية . فمنهم من كان يبعد الشعراء من البخل كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد (٤). ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعاً لاعتقاده انه لا تصح اجازتهم من بيت المال وكان ذلك اعتقاد غير واحد من ابناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلا على الشعراء اشتغالا عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون فى أيامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون ايامهم في الشام (٥) على عهد بني أمية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم ابيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الامراء بالمديح وقد يرتكبون اقبح الاكاذيب في هذا السبيل الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة (٦) وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء . وقيل للحطيئة « اياك وهجاء الناس » فقال « اذاً يموت عيالي جوعا هذا مكسبي ومنه معاشي »(٧) وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب

(١) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢
(٢) طبقات الادباء ٢٣٨
(٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١
(٤) الاغاني ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠
(٥) الاغاني ٩١ و ١٠٢ ج ١٢
(٦) الاغاني ٧٩ ج ٢٠
(٧) الاغاني ٥٥ ج ٢

كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً (١)

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عال وهو قائم . واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة واذا استبطأوا الشاعر أو الراوية بعثوا في استقدامه من العراق أو الحجاز وقد لايكون الغرض من ذلك الا سماع بيت أو قصيدة كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته (٢) أو لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول فى ذلك شعراً (٣) وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم كما أجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانه اتاه بابن جامع (٤)

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء فيرسلون في طلبهم الى الأنحاء وارغب الخلفاء فى ذلك الرشيد (٥) فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز فعهد يحي بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي (٦) واصبح الخليفة اذا أحب مجالسة الشعراء بعث رجلا يثق به ليختار له أحسنهم (٧) أو اذا عن له بيت أو قصيدة خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء « من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا »(٨) وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجاباً وطرباً (٩)

٣ - مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في أيام بنى أمية وأوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء. وقدسبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة فكان ليحي بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل يتباحثون

(١) الاغاني ١٣٩ ج ٤ (٢) الاغاني ٦٥ ج ٢ (٣) الاغانى ١٧٨ ج ٦
(٤) الاغاني ٨٣ ج ٦ (٥) الاغاني ٧٤ ج ١٧
(٦) الاغاني ٧٣ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٢ ج ١٢
(٨) الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ (٩) سير الملوك ٩٣

في الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام (١)

ثم اهتم الخلفاء أنفسهم في ذلك ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم « انزعوا اخفافكم » ثم أحضرت الموائد وقيل لهم « أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة والطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون (٢) وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي أو مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل فعل يحيى وزير العباسيين فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لان عليه قامت دولتهم . فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي أنشأها في القاهرة (٣) وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع أو غيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها وأكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة ـ كذلك فعل صلاح الدين وسيف الدولة ونظام الملك والحكم الاندلسي . واقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والاطباء وأطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن أشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم (٤) ومجلس أبي حامد الاسفرايني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي (٥)

(١) المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١
(٢) المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج المنطي ٢٣٦ (٣) الجزء الثالث ٢٠٩
(٤) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج المنطي ٢٢٧
(٥) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢

٤ — مجالس الغناء والانس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء واصله وانتشاره وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم (١) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء وعهدوا بهم الى بعض أهل البلاط أو الحاشية ينظرون في أمورهم (٢) . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه ويجيزونهم (٣) الجوائز الكبرى وهم أقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء لانهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حساب كما تقدم

ومن أكثر الخلفاء الامويين رغبة في الغناء وبذلا للمغنين يزيد بن عبد الملك الذي استخفه الطرب من غناء جاريته حبابة حتى قال « أريد ان أطير » فقالت له حبابة « على من تدع الامة وتدعنا » (٤) وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم كما فعل المأمون لما رجع من خراسان (٥) . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى للامين بشعر أبي نواس :

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه فنهض ابراهيم وأخذ يقبل أخمص قدمي الامين وما وطئنا من البساط فأمر له بثلاثة آلاف درهم فقال ابراهيم « يا سيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الامين « وهل ذلك الا خراج بعض الكور؟ » (٦) فاعتبر ما دخل على الموصلي

(١) الاغاني ٩ ج ١٣ (٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨ (٣) الاغاني ١١١ ج ٥
(٤) المسعودي ١٢٦ ج ٢ (٥) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١
(٦) العقد الفريد ١٩٥ ج ٣

من الرشيد وغيره . فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في بلاد المغرب زرياب المغني وهو الذي نقل هـذه الصناعة الى الاندلس فقـد أثرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠٠ دينار غـير الخيل والضياع والرقيق (١)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون أشهرهم أشعب في دولة بني أمية وأبو الحسن الخليع الدمشقي في ايام الرشيد وأبو العبر في ايام المتوكل وغيرهم كثيرون. فكانوا اذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد يعلقون في اعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك الثكلى وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم فالمتوكل كان اذا طرب أمر بابي العبر المجان أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء صاح «الطريق الطريق» ثم يقع في الماء فتخرجه السباح . وكان يجلس أحيانا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك (٢) وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه « من يكون منكم حماري » فكل واحد يقول «أنا» فيركب الواحد ويصله (٣) وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما تتحاشى ذكره . وقـد افرط الخلفاء بالتبسط في العيش والتمتع بالملذات ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات أكثرهم قبل سن الكهولة

٥ — مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الامير في عيد أو غير عيد وهو من مقتضيات الابهة والمدنية. وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية فكان لمعديكرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحراب (٤) فلما جاء الاسلام تزهد اصحابه من التقوى فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس وكان أبو بكر في أول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع وله قطعـة غنم

(١) الاغاني ١٣٢ ج ١٠ (٢) الاغاني ٩٢ ج ٢٠
(٣) الاغاني ٢٠٣ ج ٦ (٤) المسعودي ١٩٧ ج ١

تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وأمراؤه ركوب الفرس والرم. وفد الشام أربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس وفي الثانية على بعير وفي الثالثة على بغل وفي الرابعة على حمار وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها [١] فقس على ذلك سائر الراشدين

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان فى المواكب انما بدأ به العمال في الامصار لقربهم من حضارة الفرس والروم فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرهـا من شارات الدولة . وأسبقهم الى ذلك معاوية فاقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلي فيهـا خوفاً من الاغتيال [٢] واقتدى به عمـاله وبعضهم سبقه الى مثله فاتخذ زياد بن ابيـه رجالا يمشون بين يديه بالاعمدة [٣] أو بالحربة . وأصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد أو بكبار العمال يحملها رجل راكب على جواد يتقـدم الخليفة أو الامير فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون [٤]

وفى أيام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي تسمى العنزة واصلهـا للنجاشي فاهداها للزبير بن العوام فاهداها الزبير للنبي وكانت تركز بين يديه في العيدين ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه [٥] اذا خرج في موكبه

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في أسباب المدنية واتساع السلطة حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين أيديهم . وأقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن فكان يركب والناس يمشون بين يديه [٦] ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح وأول من فعل ذلك الهادي العباسي فكان اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف

(١) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢
(٢) الفخرى ٩٧ (٣) لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣
(٤) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقريزى ٣٠٧ ج ١
(٥) ابن الاثير ٣٢ ج ٧ (٦) لطائف المعارف ١٢

المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة (١) فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس (٢) ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن على وزير المسترشد (٣) وهم الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ثم ركبوا في حلية الذهب وأول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك

أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر اسباب المدنية وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس (٤) فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رءوسهم وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قريب الملك بحيث يظلله من الشمس ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب (٥)

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول اهمها موكب الخروج الى الحج أو الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . وأول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموي فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح (٦)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب وحولهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات المحلاة بالذهب ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ويختلف طول هذا الموقف باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله اربعة أميال ترجل فيها الناس بين يديه (٧) واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق (٨) يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها

(١) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٢) الاغاني ٩٤ ج ٢٠ (٣) الفخري ٢٧٢
(٤) الاغاني ٥٩ ج ٦ (٥) ترتيب الدول ١٠٣ (٦) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥
(٧) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغاني ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢
(٨) فوات الوفيات ٤ ج ١

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥٠٠٠ ماش وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلي ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . واذا خرجوا للمبايعة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر[١] وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلي والعسكر على ازيائه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقه وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة ويمشي أمامه اصحاب الابواق الذهب فابواق الفضة فالنحاس وأصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة والالوية تخفق فوق ذلك الموكب

٦ - احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني كالموالد والاعياد والكسوة وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على أن الاحتفالات الدينية انما اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين . ولايزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغير اقتضاء الفرق بين التمدنين . واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون . منها : يوم عاشوراء والمولد النبوي وموالد علي وفاطمة والحسن والحسين والخليفة الحاضر وليلة أول رجب وعيد النحر وعيد الفطر وفتح الخليج ويوم النيروز وغيرها مما فصله المقريزي في خططه [٢] ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب أربل وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية بالابهة والمشهور انه أول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم [٣] وكذلك السلطان ابو حمو موسى صاحب تلمسان [٤] ـ

(١) المقريزي ٢٨٠ و٢٨٥ ج ٢ (٢) المقريزي ٤٩٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ (٤) نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤

غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها . والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع فنذكر أمثلة منها فيما يلي

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على أحوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتي بمثال من أبلغ مايعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون احتفلوا به في فم الصلح احتفالا لم يسبق له مثيل نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرساً او جارية أو مملوكاً . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما انفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يوماً فاوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست إحداهن من الدر شيئاً . فقال المأمون شرفن أبا محمد وأكرمنه فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانىء كانه قد رأى هذا حيث يقول :

كان صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة . وجاء المأمون الى عروسه في الليلة

التالية فنثرت عليه جدتها الف درة كانت في صينية ذهب(١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثاني احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور وجعلت بساطاً ممدوداً وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب فوضعت بين ايديهم صواني الذهب مرصعة باصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا ان «أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ما شاء » فمد الناس ايديهم الى المال فاخذوه وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة واعتق الف نسمة(٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠هـ لما زفت اليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة(٣) وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٩١ و١١٧

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه وكان في جملة ماخلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاه خاتم الملك ليختم به على مايريد(٤) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعاً تختلف شكلا وقدراً باختلاف الاحوال ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال لها الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تيمي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤
(٣) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠ (٤) المقريزي ٩٩ ج ٢

مطرز ذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب بجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفى قوائمها اربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض(١)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر يومئذ خلعة البسه اياها باحتفال هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب (٢) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخما يظهرون به عز الاسلام ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم أو الهند أو الافرنج. والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم فى دار الشجرة التي تقدم ذكرها وعبي لهم الجيوش وصفت الدار بالاسلحة وأنواع الزينة وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٫٠٠٠ رجل بين راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (٣)

٧ — الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول فبغتوهم وفتحوا بلادهم في

(١) السيوطي ٢٥ ج ٢ (٢) السيوطي ٥٨ ج ٢
(٣) ابو الفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥

بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل . فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه وما لبثوا ان شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة فهابوهم وأخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى أعالي آسيا وأواسط أوربا شمالا الى أقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة بؤرة التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور

الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه ولم يدون أخباره غير أهله حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام أو المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه فقيام أبي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان اباً جعفر أرسل سنة ٧٥٦ م وفداً الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من «هوي هو» من مغول الشمال فاختصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور فانصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب ـ ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ ـ قالوا ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي أيامه (سنة ٧٨٥ م ـ ٨٠٤) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبت) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور الخ »(١)

ووقفوا في تاريخ الصين أيضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على

(١) E. Bretschneider, The knowledge Possessed by The Ancient Chinese of the Arabs & Arabian colonies. 7

نصوص أخر تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الاهمية لانها منقولة عن مصدر صيني مستقل

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من اخبار نزولهم شواطىء الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن اكثرنا كانوا لا يكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم انها محشوة بالمبالغات والخرافات كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما . على أن هذه الاقاصيص منقولة بالاصل عن غير العربية واكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم ـ وأما ما يكتبونه من عند انفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ولا سيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على اننا لا نلوم المنكرين لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم فاكبروا أن يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه

وأقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطىء تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي اجرتها العرب والعجم من شواطىء خليج فارس الى بلاد الهند والصين تأليف سليمان التاجر وابي زيد حسن من ابناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنساوية للمستشرق الشهير رينو . ثم مروج الذهب للمسعودي وهو مشهور ومتداول غير امهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقية اشهرها ما كتبه البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم وليس هنا مكان الافاضة في ذلك

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا أو كتب المخابرة (١) ولا بد ايضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦

الاسلام وملوك اوربا

على ان علائق ملوك المسلمين مع ملوك اوربا وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان كانت اوثق من سواها . أما الروم وهم ملوك القسطنطينية فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بني أمية اما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة (١) . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من اوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس (٢) فان الرشيد أخذ الجزية من ايريني صاحبة القسطنطينية

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا اشهر من ان تذكر . على أن هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة وأكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني)الى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور (٣)

وأهدت ثريا بنت الاوباري (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و ٥٠ رمحاً و٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلبياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها (٤)

وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة أو مخابرة وممن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فأظهر في بلاط القيصر انفة زادت مقام المسلمين عندهم (٥)

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلائق كانت أكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه

(١) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ (٢) ابن الاثير ٧٤ ج ٦
(٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (٤) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٦ ج ٩

به المأمون والمعتصم وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة تحقيراً لهما بالانتساب الى أمهات من الجواري . فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيي الغزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما (١) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والاعتمال بما يعن في مرضاته ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المناخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه (٢)

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح (٣) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) أوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما اوتو الاعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كلدة » (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالا شائقاً . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخماً عزيزاً لم يبق ملك من ملوك اوربا الا خطب مودته وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم (٤) تعظيما لدولة المسلمين . ولما أراد بناء « الزهراء » أهداه أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه وأشكاله شيئاً كثيراً (٥) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علائق ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ولا سيما في زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الاحمر كل قنطار في عشرة آلاف دينار الجملة ٣٠٠٠٠٠ دينار (٦) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة

(١) نفح الطيب ١٦٣ ج ١ (٢) نفح الطيب ١٦٧ ج ١
(٣) نفح الطيب ١٨١ ج ١ (٤) نفح الطيب ١٧٢ ج ١
(٥) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ (٦) المستطرف ٤٦ ج ٢

في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ولايزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (١)

٨ — العاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بالعاب يروضون بها عقولهم وابدانهم . ولكل أمة العاب تلائم عاداتها وتشاكل أخلاق أهلها ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها . والعاب الخلفاء كثيرة بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق وبعضها اقتبسوه من الاعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعاب العباسيون في ايام الرشيد فانه أول من لعب بالصولجان والكرة وأول من رمى بالنشاب في البرجاس وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللعاب وأجرى عليهم الارزاق (٢) واليك وصف أهم العابهم في ابان تمدنهم

١ — الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة. وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والاجلة المنسوجة بالذهب ويهب لكل كلب عبداً يخدمه (٣) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك

حتى اذا أفضى الامر الى بني العباس ورسخت اقدامهم في الدولة واهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا في اقتنائها وبذلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها وأقاموا عليها اناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون واصحاب الصقور والكلاب واطلقوا لهم الارزاق الجليلة واقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح

(١) المقريزي ١٠٧ ج ٢ (٢) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٣) الفخري ٤٩

وحركاتها وسرعتها وخصالها(١) وكتبوا في فنون الصيد وأساليبه كتباً عديدة ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد (٢)

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلا عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (٣) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون باصحاب اللبابيد (٤) وكان المعتصم ألهجهم به فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطا طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تشب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي (٥)

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بنى العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والاتابكة والايوبية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة (٦) وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان ابو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة بسيط من الارض وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش فاذا ركب للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج (٧) وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه (٨)

٢ـ الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الامم القديمة أو الحديثة الا لهجت بالسباق ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى

(١) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان ابي نواس والاغاني ١١٦ ج ٩
(٢) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١ (٣) الاغاني ٩٧ ج ٩
(٤) المسعودى ٢١٣ ج ٢ (٥) الفخري ٤٧ (٦) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢
(٧) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦ (٨) كتاب الاعتبار ١٥٠

الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض (١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفننوا في تضميرها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في أيام معينة للسباق فمن حاز قصب السبق أجازوه ـ وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكروه أن يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس يحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقا وتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش (٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الاموال فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرم بخيل السباق فجمع منها الف فرس أسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في أيام هشام وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه أو جاء مصلياً . وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة (٣) ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتها هي احسن ما نظم في هذا الموضوع (٤)

أما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة نظم فيها الشعراء القصائد في مدح السوابق (٥) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر (٦) وميادين الحكم في الاندلس

٣ ـ الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو أمية يعرفونها وأول من لعبها بنو العباس وأسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في

(١) المسعودي ٣٨٠ ج ٢ (٢) المسعودي ٦٨ ج ٢
(٣) المسعودي ١٢٩ و١٣٥ ج ٢ (٤) المسعودي ٣٨١ ج ٢
(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ (٦) المقريزي ١١١ ج ٢

أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان أو الجوكان ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم أصحابه يوماً للعب بها فجعل الافشين في جهة وهو في جهة فقال الافشين « يعفيني أمير المؤمنين من هذا » فقال « ولم ؟ » قال « لاني ما أرى ان أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه (١)

٤ ـ البندق

البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وهي فارسية بلفظها واستعمالها ويسمونها أيضاً الجلاهقات جمع جلاهق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان وعدوا ظهورها في المدينة منكراً (٢) ثم الفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه (٣) ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشتغلوا بتطيير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة . حتى إذا أفضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأناً لانه كان ولعاً به وباللعب بالحمام المناسيب وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه الا الذين يشربون كاس الفتوة ويلبسون سراويلها على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كاس الفتوة ويلبسوا سراويلها وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه فأجابوه الى ذلك فمن أراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه . . فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه ومنع الرمي بالبندق الا من ينتسب اليه . فأجابه الناس في العراق وغيره الا انساناً اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام

(١) ترتيب الدول ١٣٠ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣
(٣) الاغاني ٩٣ ج ٢٠

فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب فى الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال« يكفيني فخراً انه ليس في الدنيا أحد لايرمي للخليفة الا أنا»(١)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقواس البندق(٢) ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الانابيب بضغط الهواء من مؤخر الانبوب بما يشبه أنابيب البنادق . . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الانابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس وهو غرض في الهواء أو على راس رمح أو نحوه يطلبون اصابته بالنشاب وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل في الالعاب والملاهي لعبة الشطرنج وهي هندية الاصل أخذها العرب عن طريق الفرس وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً وهو أول من لعب النرد كما تقدم ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

٩ — ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الاسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية وأول من اهتم بذلك بنو العباس فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها وكان للرشيد أقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها(٣) وغالى الذين جاءوا بعده باقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها ـ ذكروا انه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف وإذا ركب ركبوا في خدمته وإذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى ام جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمروه ان يقبل يده فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال« ياأمير المؤمنين ابعد ان اخدم الخلفاء اخدم القرود لا والله أبداً »فعفا عنه(٤)

وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز بالتقوى والزهد فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ولكن ذلك المنع لم يدم طويلا . فلما مات المهتدي عادوا الى المغالاة في اقتناء السباع

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفداء ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣
(٢) المقريزي ٣١ ج ٢ (٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١
(٤) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانكليزية صفحة ٤٥

حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت الاسود والفيلة والنمور في السلاسل وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعاً لهم(١)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرها فقد كان لخمارويه ابن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع عمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبؤته وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته أو وضع وظيفة اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص ما فيه من العدد ويقطعه له ويغسل الحوض ويملأه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه وقد عرف السبع ذلك فحال ما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هيء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضاً فتقيم يوماً كاملا الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبوءة لم تستأنس كما انس هو فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه. فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفطن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد ألفه ودرب

(١) الفخري ٢٠

عليه وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه(١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات فالوزير جعفر بن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الافاعي والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها وكان كل حاو بمصر يصيد ما يقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من اجناسها وفي الكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه(٢)

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضاً كالغزلان والقماري واشباههما يجعلونها في حظائر واقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها(٣)

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء ؟ قالوا « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة »(٤)

واتخذ الخليفة الناصر الاموي في مدينة الزهراء محلات للوحوش والسباع واسعة الارجاء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالاقفاص الكبيرة(٥)

وهناك ألعاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للامين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در. وكلعب الحمام وتطييره واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة وغير ذلك مما لا محل لذكره

(تم الجزء الخامس وهو آخر اجزاء الكتاب والحمد لله)

(١) المقريزي ٣١٧ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١
(٣) المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨ (٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١
(٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

فهرس الجزء الخامس

صفحة

المقدمة ٣
خريطة بغداد ٨

نظام الاجتماع

طبقات الناس قبل الاسلام

طبقات الناس في الشام والعراق ٩
« « « مصر ١٣
« « « افريقية ١٤
« « « فارس ١٥
« « « العرب الجاهلية ١٧
« « « عصر الراشدين ١٧
« « « « الامويين ١٨

نظام الاجتماع في العصر العباسي

طبقات الخاصة واتباعهم ٢٠
الارقاء ٢٢
الخصيان ٢٦
الجواري ٢٨

الطبقة الاولى من العامة

أهل الفنون الجميلة ٣٢
المغنون ٣٣
العلماء والادباء والفقهاء ٣٨
التجار ٣٨

صفحة

الصناع ٤٢

الطبقة الثانية من العامة

المزارعون أهل القرى ٤٤
العامة سكان المدن ٤٥
أخلاق العامة ٤٩

الآداب الاجتماعية

مناقب العرب الجاهلية ٥٢
المرأة في الجاهلية ٥٥
العصر الاسلامي العربي ٥٧
عصر الراشدين ٥٨
عصر الامويين ٦٠
المرأة في العصر الاموي ٦٢

عصر العباسيين

المرأة في العصر العباسي ٦٧
الارتزاق بالسخاء ٦٩
المجاملة فى المعاملة ٧٥
العائلة في التمدن الاسلامي ٧٧
الحجاب ٧٧
تعدد الزوجات ٧٨
الطلاق ٧٩

المعيشة العائلية

الطعام ٨٠

	صفحة
اللباس	٨١
المأوى	٨٤

حضارة المملكة

عمارة المدن والقصور

القطر المصري	٨٦
الاندلس	٩٠
مباني الامويين في الشام	٩٢
« العباسيين بالعراق	٩٣
« الامويين في الاندلس	٩٥
« مصر	٩٩

الثروة والرخاء ونتائجهما

التأنق في الطعام	١٠٣
البذخ في الالبسة	١٠٦
الاثاث والرياش والمجوهرات	١٠٨
التسري	١١٧
السخاء	١١٩
المسكر	١٢٦
التهتك	١٢٨

ابهة الدولة

مجالس الخلفاء	١٣٠
« الادب والشعر	١٣٨
« المناظرة والعلم	١٤١
« الغناء والانس	١٤٣
مواكب الخلفاء	١٤٤
احتفالاتهم	١٤٧
الخلفاء والدول المعاصرة	١٥٠
العاب الخلفاء وملاهيهم	١٥٥
ارتباط السباع	١٥٩
جدول اسماء الكتب	١٦٤

اصلاح خطأ

جاء في الجزء الثالث صفحة ١٩٨ سطر ٨ «ابراهيم بن اسحق الموصلي» صوابها « اسحق بن ابراهيم الموصلي »

وجاء في الجزء الرابع صفحة ٥٤ سطر ٢ « عبد الملك بن مروان » صوابها « عبد الملك بن صالح » وينبغي حذف العبارة من قوله « وكان أشدهم بطشاً » الى « في أجمة »

جدول اسماء الكتب

وهي المؤلفات التي وردت اسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء مع اسماء مؤلفيها وسني طبعها وأماكنه — وهي غير مارجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية ونحوها

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨م
الآداب السلطانية (الفخري)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧هـ
ابجد العلوم ٣ اجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦هـ
ابن الاثير	(انظر الكامل)	
« الجوزي	(كتاب الاذكياء)	
« حوقل	(المسالك والممالك)	
« خردادبة	(« «)	
« خلدون	(العبر والمبتدا والخبر)	
« خلكان	(وفيات الاعيان)	
« الساعي	(مختصر اخبار الخلفاء)	
« عساكر	(تاريخ دمشق)	
« الفقيه	(كتاب البلدان)	
« هشام	(السيرة النبوية)	
ابو الفرج الملطي	(مختصر الدول)	
« المحاسن	(النجوم الزاهرة)	
الاتليدي	(اعلام الناس)	
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦م
الاحكام السلطانية	للماوردي	مصر ١٢٩٨هـ
اخبار الدول وآثار الاول	للقرماني	بغداد ١٢٨٢هـ
ادب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول
الاستقصا في المغرب الاقصى ٤ اجزاء	للسلاوي	مصر ١٣١٢هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ اجزاء	لابن الاثير	مصر ١٢٨٦هـ
الاصطخري	(المسالك والممالك)	
اعلام الناس	الاتليدي	مصر ١٣٠٨هـ
الاغاني ٢٠ جزءاً	لابي الفرج الاصفهاني	بولاق ١٢٨٥هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادي	مصر ١٢٨٦هـ
الف باء جزآن	يوسف البلوي	مصر ١٢٨٧هـ
البخاري	(صحيح البخاري)	
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لاحمد بك كمال	بولاق ١٣٠٩هـ
البلاذري	(فتوح البلدان)	
بلوغ الارب في احوال العرب ٣ أجزاء	للالوسي	بغداد ١٨٩٨م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر ١٣١٣هـ
البيروني	(الآثار الباقية)	
تاريخ ابي الفداء ٤ اجزاء	للملك المؤيد	الاستانة ١٢٨٦هـ
« الامم والملوك ١١ جزءاً	للطبري	ليدن ١٨٨٥م
« دمشق	لابن عساكر	(خط)
« المشارقة	لصليبا بن يوحنا	(خط)
« الوزراء	للهلال الصابي	بيروت ١٩٠٤م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر ١٩٠٤م
تراجم الحكماء	لابن القفطي	(خط)
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق ١٢٩٥هـ
تزيين الاسواق	لداود الانطاكي	مصر ١٣٠٨هـ
تهذيب الاسماء	للنووي	جوتنجن ١٨٣٢م
الجبرتي	(عجائب الآثار)	
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	للسيوطي	مصر ١٢٩٩هـ
حلبة الكميت	لشمس الدين النواجي	مصر ١٢٩٩هـ

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
حياة الحيوان الكبرى جزءان	للدميري	مصر ١٣٠٩ هـ
الخراج ـ كتاب	لابي يوسف	بولاق ١٣٠٢ هـ
« «	لقدامة بن جعفر	ليدن ١٣٠٦ هـ
الخطط التوفيقية ٢٠ جزءاً	لعلي باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ
خطط مصر جزءان	للمقريزي	بولاق ١٢٧٠ هـ
الخميس جزءان	للديار بكري	مصر ١٣٠٢ هـ
الدميري	(حياة الحيوان)	
ديوان ابي نواس	للحسن بن هاني	مصر ١٨٩٨ م
رحلة ابن بطوطة جزءان	لابن بطوطة	مصر ١٢٨٧ هـ
رحلة ابن جبير	لابن جبير	ليدن ١٨٥٢ م
رسائل الخوارزمي	لابي بكر الخوارزمي	الاستانة ١٢٩٧ هـ
سراج الملوك	للطرطوشي	على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر ١٣١١ هـ
سلسلة التواريخ	لسليمان وأبي زيد	باريس ١٨١١ هـ
السيرة الحلبية ٣ أجزاء	لابن برهان الدين	مصر ١٣٠٢ هـ
سير الملوك	لعبد الرحمن الاربلي	بيروت ١٨٨٥ م
السيرة النبوية ٣ اجزاء	لابن هشام	بولاق ١٢٩٥ هـ
السيوطي	(حسن المحاضرة)	
شعراء السريان	للقرداحي	رومية ١٨٧٥ م
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	ليدن ١٩٠٢ م
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لطاشكبرى زاده	على هامش ابن خلكان
الشهرستاني	(الملل والنحل)	
صحيح البخاري ٤ أجزاء	للامام البخاري	مصر ١٣٠٤ هـ
طبقات الاطباء جزءان	لابن ابي أصيبعة	مصر ١٨٨٢ م
« الادباء	لعبد الرحمن الانباري	مصر ١٢٩٤ هـ
« ابن سعد	لابن سعد	(خط)

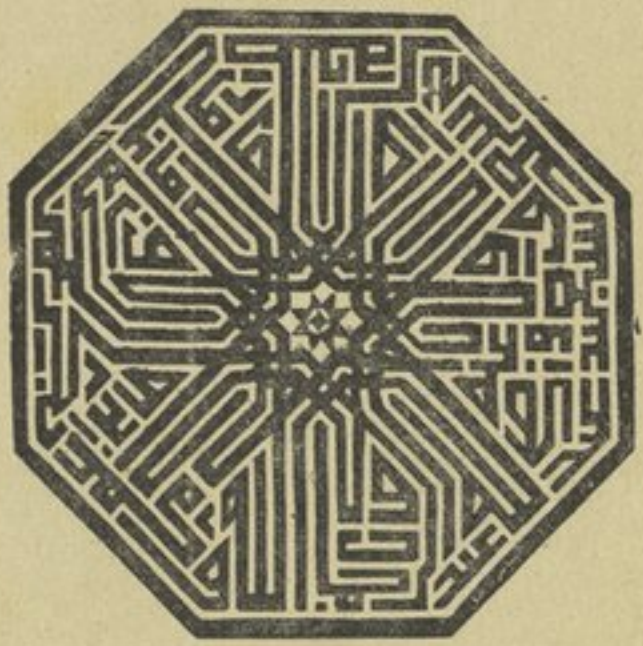
اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
طغربردي	(النجوم الزاهرة)	
العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات	لابن خلدون	بولاق ١٢٨٤ هـ
عجائب الآثار ٣ اجزاء	للجبرتي	على هامش ابن الاثير
« المخلوقات	للقزويني	على هامش الدميري
العقد الفريد ٣ اجزاء	لابن عبد ربه	مصر ١٣٠٥ هـ
« «	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	ليدن ١٨٦٦ م
الفخري	(الآداب السلطانية)	
الفرج بعد الشدة جزءان	للتنوخي	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليبسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزءان	لابن شاكر الكتبي	مصر ١٢٨٢ هـ
قاموس الادارة والقضاء ٧ اجزاء	ليفيلب جلاد	مصر ١٧٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣ م
القبة الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت ١٨٩٣ م
قدامة	(الخراج)	
القرماني	(أخبار الدول)	
القزويني	(عجائب المخلوقات)	
القوانين العقارية	للحكومة المصرية	مصر ١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الاثير	مصر ١٣٠٢ هـ
الكامل	للمبرد	مصر ١٢٨٦ هـ
كتاب الاذكياء	لابن الجوزي	مصر ١٣٠٦ هـ
كتاب الاعتبار	لابن منقذ	ليدن ١٨٨٤ م
كتاب البخلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كتاب البلدان	لابن الفقيه الهمذاني	ليدن ١٨٨٥ م
« «	لليعقوبي	« « «

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزءان	لكاتب جلبي	الاستانة ١٣١١ هـ
الكشكول	للعاملي	مصر ١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للثعالبي	ليدن ١٨٦٧ م
اللمعة الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
الماوردي	(الاحكام السلطانية)	
مجمع الامثال جزءان	للميداني	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	لابن الساعي	بولاق ١٣٠٩ هـ
« الدول	لابي الفرج الملطي	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزءان	للمسعودي	مصر ١٣٠٤ هـ
المزهر جزءان	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣ م
« «	لابن خرداذبه	« ١٣٠٦ هـ
« «	للاصطخري	« ١٨٧٠ م
المستطرف جزءان	للابشيهي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي	(مروج الذهب)	
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك ١٨٧٠ م
مفتاح السعادة ..	لطاشكبرى زاده	(خط)
المقدسي	(أحسن التقاسيم)	
المقري	(نفح الطيب)	
المقريزي	(خطط مصر)	
الملل والنحل جزءان	للشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م
الموطأ	للامام مالك	(خط)

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الميداني	(مجمع الامثال)	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢	للحكومة المصرية	بولاق ١٩٠٣ م
النجوم الزاهرة جزءان	لابي المحاسن	ليدن ١٨٥١ م
نفح الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ ﻫ
نهاية الارب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ ﻫ
الهمذاني	(كتاب البلدان)	
وفيات الاعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ ﻫ
اليعقوبي	(كتاب البلدان)	

Gibbon's Roman Empire	London	...
Bretschneider's Knowledge Possessed by ancient chinese of the Arabs.	"	
Porter's Constitutional History of Turkey.	Ms.	
Lane Poole's Mohammadan Dynasties.	London	1894
Statesman's Year book.	"	1904
Williams' Sanskrit Crammar.	Oxford	1876
Browne's Literary History of Persia.	London	1902
Frazer's " " India.	"	1898
Rawlinson's Ancient Monarchies, 4 Vol.	"	1862
Whitaker's Almanack.	"	1901
Browne's Translation of Ibn Isfandiyar's History of Tabaristan.	Leyden	1905
Library of Universal History, 8 Vol.	New-York	1897
Clot Bey, Aperçu sur l'Égypte, 2 Vol.	Paris	1840
Labourt, Christianisme dans l'Empire Perse.	"	1904
Revue Archéologique.	"	1905
Van Vloten, La Domination Arabe etc. sous le khalifat des Omayades.	Amsterdam	1894
Von Kremer, Einnahmebudjet des Abbass.	Wien	1887
Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, 2 Vol.	Wien	1875

رسائل شبلي النعماني في اللغة الهندستانية طبعت في علي كره بالهند سنة ١٨٩٨



اسماء الجلالة والنبي والصحابة

R:956.01:Z39tbA:v.3-5:c.1
زيدان ،جرجي
تاريخ التمدن الاسلامي...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01070471
A.U.B. LIBRARY